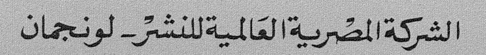




الدكتور بدوي أحمد طبانة





الشعر والشعراء

كوكبة

من شعراء العصر





الدكتور بدوي أحمد طبانة


الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٢٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت ، ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع ١٩٩٥/٣٣٣١

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠١٦٥-٢

غلاف : أحمد سامي

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لعل فناً من الفنون التي عرفتها الإنسانية وصحبتها في مسيرتها عبر القرون لم يكتب له من الذيوع والانتشار والبقاء ماكتب لفن الشعر الذي هامت به البشرية في كل جنس من أجناسهـا ، وفي كل لسان من الألسنة التي عبّرت بها عن نفسها ، وفي كل موطن من المواطن التي كان للبشر على أرضها مقام منذ استقر الإنسان على وجه هذه الأرض .

أسباب كثيرة أدت إلى حياة الشعر، ونفاق سوقه ، وانتقاله من جيل إلى جيل ، فقد رأى الإنسان القديم أفكاراً ومثلاً أخلاقية ، تكونت منها عقيدته الدينية ، وفيها الأساطير والأعمال البطولية التي استمتع بإنشادها ، وطرب لترديدها ، فقد ملأت ما كان يحس به من فراغ ، وشغل بها عواطفه ومشاعره ، ورآها جديرة بالعبادة والتقديس إذ رآها تمثل قدرات وخوارق لا قبل له بها . ولذلك نسبها إلى الآلهة الذين صور الشعر أساطيرهم وأخبارهم الخرافية التي ألّفها الخيال المجنح عند بعض الشعراء من أمثال هوميروس في ملحمتيه الباقيتين « الإلياذة » و « الأوديسة » و هزيود الذي صاغ ملحمته التي سماها « أنساب الآلهة » و غير ذلك من الأعمال التي اعتمدت عليها عقائد قدامى اليونان ، وتأثرت بها حياتهم .

وقد بقيت لفن الشعر تلك المنزلة عند الرومان الذين ورثوا حضارة الإغريق ، وكانت له هذه المنزلة أيضاً في العالم القديم في كثير من الأمم التي حفظ التاريخ أخبارها ، و وعى شيئاً من آدابها كالفرس والهنود وسكان ما بين النهرين وقدامى المصريين وغيرهم .

وقد أخذ هذا التيار يفقد حدته بتقدم الحضارات ، ونشاط الفكر الإنساني في كثير من مجالات الحياة ، وبسيطرة الإيمان بالأديان السماوية على عقائد البشر ، ولكننا لا نلبث حتى نرى الأنظار تتجه مرة أخرى إلى الشعر ، فنرى بعض المفكرين في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، ومنهم « ماثيو أرنولد » الذي يصرح بأن الجنس البشري سوف يجد في الشعر سنداً يزداد رسوخاً وتوكيداً على مر الأيام ، وليس ثمة عقيدة إلا اهتز كيانها ، ولا مذهب مسلم به إلا تسرب إليه الشك ، ولا تقليد مأثور إلا تهدّده التحلل والفناء .. ومن الواجب علينا أن ننظر إلى الشعر نظرة جديرة به ، نظرة أسمى مما جرت العادة أن تنظر بها إليه .

ينبغي أن نتصور أنه قادر على جلب منافع أجلّ من تلك التي أخذ الناس ينسبونها إليه حتى وقتنا الحاضر ، وأن ندرك أنه قد قُيضت له مصائر أرفع من تلك التي يقدرها له الناس حتى الآن .

ويستطرد الناقد فيقول : « ولسوف يرى الجنس البشري على المدى الطويل أنه يتعين علينا أن نلجأ إلى الشعر لكي يفسر لنا الحياة ، ويهدئ من روعنا ، ويشد من أزرنا . ولسوف تبدو علومنا ناقصة بدون الشعر . ولسوف يحل الشعر محل معظم ما نجتره الآن في باب الدين والفلسفة .»[1]

ولا شك أن قارئ هذا الكلام لابد أن تهوله تلك الحماسة الظاهرة لفن الشعر ، وهي حماسة تصل إلى درجة التعصب الذي تنفر منه روح العلم ، بالإضافة إلى أن أرنولد لم يذكر مع الشعر فنا آخر غيره من الفنون الإنسانية التي عرفها الناس منذ زمن بعيد ، وكل فن من تلك الفنون يؤدي دوراً قد يكبر وقد يضؤل في مشاعر البشر ، كالرسم والموسيقى والغناء والنحت والتمثيل ، حتى العلوم والمعارف الإنسانية لا قيمة لها في نظره بجانب الشعر ، وذلك غلوّ نقرؤه بتحفظ شديد .

وقد تنبأ أرنولد كما رأيت بأن الشعر سوف يحلّ في زمن قريب محل الدين والفلسفة أي أن الشعر هو الحياة ، وهو المستقبل ، وقد مضى على هذا الكلام أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان ، ولا يزال الفكر الإنساني يواصل نشاطه ، ويجدُّ في الكشف عن المجهول ، ويسعى سعياً حثيثاً في محاولة التعرف على أسرار الحياة والأحياء ، ويتعمق في دراسة النفس البشرية ونزعاتها ؛ ليعرف في كل يوم سرًّا أو يكشف عن مجهول .

وفي الوقت نفسه ماتزال النفوس تتشبث بالعقائد ، وتتمسك بقيمها الروحية ، حتى لقد بلغ الصراع الديني أشده في هذا الزمان ، حتى انتهى في أيامنا إلى حروب مدمرة سالت فيها الدماء ، وأزهقت فيها أرواح بريئة ، واتصل العدوان على المستضعفين ، وماتبع ذلك من تخريب للعمران ومحاولة القضاء على الحضارات التي بناها الإنسان في عشرات القرون .

حقا لقد نشبت في بقاع من الأرض في أوليات هذا القرن العشرين ثورة هوجاء ، أو ثورة حمراء تمردت على الأديان السماوية ، وتنكرت للقيم الروحية ، واتجهت إلى عبادة المادة ، ولم تعد ترجو حساباً ولا نشوراً ، وقال مثيروها ماقال أسلافهم من الزنادقة والملحدين « إن هي إلا حياتنا الدنيا !»

---

(١) أرنولد ، ماثيو : مقالات في النقد . القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ . ص ٢١ .

ولم تلبث تلك الموجة العاتية أن انحسرت حتى قضي عليها القضاء الأخير ، وعادت النفوس إلى طبيعتها تطلب الدفء والأمان في ظلال الدين قبل أن ينصرم القرن الذي ولدت فيه .

ولعل أرنولد كان فيما ذهب إليه من رأي يتنبأ بالثورة الحمراء أو بالثورة الشيوعية ، التي أنكرت كل فلسفة إلا فلسفتها المادية الواقعية ، وتنكرت للأديان السماوية حتى قال دعاتها : « نريد بيتاً في الأرض لا فردوساً في السماء !»

والذين ذهبوا إلى أن المستقبل للشعر أو غيره من الفنون مخطئون ، ومثلهم في هذا الخطأ أولئك الذين يذهبون إلى أن المستقبل للعلم والفلسفة وما يقوى فيه سلطان الفكر ، وإلى أن الشعر والأدب وسائر الفنون التي عرفها الإنسان مصيرها إلى الزوال أمام سلطان العقل الذي تتسع دائرته ، وتنبسط مجالاته وتتعمق مناهجه وأساليبه يوماً بعد يوم ، ولأن الإنسانية تريد بلاغة المنطق والحساب والأرقام ، ولا حاجة بها إلى بلاغة الكلام !

وقد كان سلامة موسى في طليعة الدعاة إلى هذه المقالة في عالمنا العربي المعاصر ، وهو الذي يقول في عبارة صريحة « إن مخاطبة العقل ينبغي أن تكون غاية المنشئ بدلاً من مخاطبة العواطف ، والبلاغة كما هي الآن في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل . وهذا ضرر عظيم .. وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة فإننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات « إقليدس » مما يدرس للتفكير الحسن ، وهو الغاية الأولى للبلاغة .»[1]

ولا شك أن في هذه المقالة غلوًّا وإسرافاً في الانتصار لجانب المعرفة والفكر، وتهويناً من أمر الأدب والشعر والبلاغة ، حتى ليبدو أن الكاتب يريد أن يلغيها جميعاً من الحياة !

وذلك ضرب من ضروب التعسف أو التطرف يقابل التطرف الذي قرأناه في مقالة الناقد الإنجليزي « ماثيو أرنولد » في التعصب لفن الشعر ، والتنبؤ بأن المستقبل له وحده دون الفلسفة والدين .

وأيا ما كان الرأي فإن الإنسان جسد وروح ، وعقل وعاطفة ، ويتفاوت البشر بتفاوت حظوظهم من هذا أو ذاك ، وفيهم من تتعادل فيه الكفتان ، فتتوازن فيه القوتان العقلية والعاطفية ، وفيهم من ترجح عنده إحدى الكفتين على الكفة الأخرى رجحاناً يختلف به إنسان عن إنسان ، فيغلب على هذا جانب الفكر ، وعلى الآخر يتغلب جانب العاطفة .

---

(١) سلامة موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية . ص ٥٦ .

ولا تستغني الحياة الإنسانية عن العقل المدبر ، والفكر الخلاق الذي ينظمها وييسرها ، ولا تستغني كذلك عن العواطف التي تصل الإنسان بالإنسان ، وبالجماعة التي يعيش فيها ، والمجتمع الذي يضج من حوله بالحياة ، ويتفاعل معه متأثراً به ، ومؤثراً فيه . وليس في استطاعة الإنسان أن يعيش بمعزل عن الناس ، إلا أن يكون وحشاً في البرية ، حتى الوحوش لكل جنس منها مجتمعه الخاص الذي يؤلف بين أفراده .

وما أجود رأي العقاد في تقريره حاجة الإنسان إلى إرضاء مشاعره وتغذية عواطفه ، وفي دفاعه عن فن الشعر ، وذهابه إلى أن الحياة لا يمكن أن تستغني عنه ؛ لأنها تجد فيه البديل الذي يسعدها أو يخفف عن الإنسانية آلامها ، ولا تجد في غيره بديلاً عنه !

وذلك في قوله : « إن الإنسان خلق عضواً في جسم تدب حياته في عروقه ، فلا سبيل له إلى الانفصال عنه ، والتخلي عن عاطفته النوعية ما دام داخلاً في اسم الجنس الذي يشمل الإنسان بأجمعه .

« فإذا كان هذا شأن التعاطف فاعلم أن الشعر شيء لا غنى عنه ، وأنه باق ما بقيت الحياة ، وإن تغيرت أساليبه وتناسخت أوزانه وأعاريضه ؛ لأنه موجود حيث وجدت العاطفة الإنسانية ، ووجدت الحاجة إلى التعبير عنها في نسق جميل ، وأسلوب بليغ .

« وإذا كان الناس في عهد من عهودهم الماضية في حاجة إلى الشعر فهم الآن أحوج ما يكونون إليه ، بعد أن باتت النفوس خواء من جلال العقائد وجمالها ، وخلا الجانب الذي كانت تغمره من القلوب ، فلا بد أن يخلفها عليه خلف من خيالات الشعر وأحلام العواطف، وإلا كسر اليأس القلوب ، وحطمتها رجة الشك واضطراب الحيرة . »[١]

فلندع الفلاسفة والعلماء والمفكرين يستغرقون في تأملاتهم ، ولندع الباحثين في مختبراتهم عاكفين على تجاربهم ، ليكشفوا للبشرية عن عالم المجهول ، وليستحدثوا في كل يوم جديداً يخفف عن الإنسانية أعباء الحياة ومتاعبها .

ولندع الأدباء والشعراء وأهل الفنون يغذون عواطفنا ، ويروحون عن مشاعرنا ، ويخففون من حدة انفعالنا بالتجارب القاسية التي نعاني منها في واقع حياتنا حين يحلقون بأرواحنا في عالم الخيال ، ويخرجون بنا من ظلمات الواقع المكرور ، ويوجهوننا نحو عالم النور ، ونحو ينابيع الحب والحق والخير والجمال ، ويفتحون أبواب الرجاء في دنيا السعادة والرخاء .

(١) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، ص ٢٩٣ .

نحن في حاجة إلى هؤلاء وإلى هؤلاء ، كما كان الذين سبقونا إلى الوجود وكما يكون الذين يلحقون بنا في حاجة إليهم جميعاً .

* * *

ولا تزال حفاوة الجنس العربي بالشعر ، واعتداده بالتراث الحافل الذي خلفه شعراء العربية على امتداد ستة عشر قرناً من الزمان ، ولقد عاش معهم هذا الفن في بيئاتهم ومواطنهم الأولى في الجزيرة العربية ، فأنشدوه واصفا لحياتهم وأحلامهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومعبراً عن عواطفهم ومشاعرهم ، وعن المثل التي كانوا يتطلعون إليها في شتى جوانب الحياة ، وعن سائر ما يعانون من قسوة الطبيعة وخشونة الحياة في عصور البداوة ، وسجلاً حافلاً بأمجادهم وأيامهم وفضائلهم .

وربما كان في ذلك الشعر شيء من الخرافات والأساطير ، التي قرأنا كثيراً عنها في الآداب القديمة ، والتي تدور حول الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، قبل أن تبزغ في سمائهم شمس الإسلام ، وقبل أن يهديهم الله إلى عقيدة التوحيد . ولكن التاريخ لم يحفظ شيئاً من تلك الأشعار الوثنية التي حُرِّم على المسلمين روايتها أو إنشادها .

وقد انتقل هذا الشعر وهو الفن الأثير عند العرب معهم إلى المواطن القريبة والمواطن البعيدة التي ارتحلوا إليها أو انتجعوها في ديار الأكاسرة والقياصرة ، في آسيا وأفريقيا وفي بلاد الأندلس ، ثم إلى مهاجراتهم في الدنيا الجديدة . وأصبحت البصرة وبغداد وحلب ودمشق والقاهرة وغرناطة وأشبيلية وغيرها من الحواضر الإسلامية – حواضر للشعر العربي .

وهكذا انطلق الشعر العربي من موطنه الأول بانطلاق الأمة العربية من جزيرتها نحو الشمال ونحو الشرق والغرب ، وبقي هذا الشعر محتفظاً ببلاغته وبخصائصه الأسلوبية والموسيقية ، ولكنه تأثر في مضموناته وفي أخيلته ومعانيه بالعوامل الفعالة في حياة البشر ، والموجهة لتفكيرهم ، والمؤثرة في عواطفهم ، وبالحضارات المختلفة في كل إقليم من تلك الأقاليم الجديدة التي كان للعرب فيها مقام ، فوصف جبالها و وهادها ، وسهولها و وديانها ، وبحارها وأنهارها ، وسماءها ونجومها ، ومشاهد الطبيعة الآسرة فيها ، وسائر معالم الحياة فيها ، و وصل الشعراء كل ذلك وأثره في نفوسهم ومشاعرهم التي تفاعلت هي وتلك الرؤى والمشاهد .

وبذلك اتسعت آفاق الشعر العربي ، وتعددت ألوانه بتعدد روافده ، واختلاف طبيعة الحياة وطبائع البشر وثقافة الناس وحضارتهم ، وتباين الميول والعواطف والأذواق في كل إقليم عنه في

سائر المواطن والأقاليم .

فقد اصطبغ فن الشعر بصبغة البيئة والمكان ، كما اصطبغ بصبغة العصر والزمان .

وإذا كان للشعر في كل عصر طابعه وخصائصه التي تميزه عن غيره من عصور الأدب ، وإذا كان هناك شعر جاهلي ، وشعر إسلامي ، وشعر عباسي ، وشعر للمحدثين – فإن لكل بيئة من بيئات هذا الشعر أثرها الذي لا يجحد في تلوين هذا الشعر بألوان تميزه من هذا الشعر في سائر البيئات .

ومن ثم كان هناك شعر حجازي ، وشعر عراقي ، وشعر شامي ، وشعر مصري ، وشعر للمشارقة ، وشعر للمغاربة ، وشعر لشعراء الأندلس ، وشعر للمهاجرين .

وكله شعر عربي في لغته ومبناه وموسيقاه ، وإن اختلف في المضمونات والتصوير والتخييل والمعاني كما أسلفنا .

و قد فطن الأقدمون من علمائنا ونقادنا إلى عمق تأثير البيئات في حياة الأدب بعامة و في الشعر بخاصة ، واختلاف هذا التأثير في بيئة عنه في بيئات أخرى .

ولأمر ما رأينا ناقداً وعالماً بالشعر مثل محمد بن سلام الجمحي (ت ٣٣٢ هـ) لا يفوته وهو يقسم الشعراء إلى عشر طبقات للجاهليين وعشر طبقات للإسلاميين أن يفرد حديثاً لشعراء القرى العربية ، وهي خمس : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين .

وكذلك نقرأ في وساطة القاضي الجرجاني بين المتنبي وخصومه فصلاً رائعاً بحث فيه عن طبيعة الفن الشعري وتأثره العميق بكل مقومات البيئة ، وبحياة التبدّي والتحضّر في صياغته ومبانيه ، وفي أخيلته ومعانيه .

وقد قدمت هذه الإشارات لأخلص منها إلى القول باتصال حياة الشعر العربي منذ عبّر به الجاهليون عن أنفسهم وعن حياتهم بهذا النسق البديع من أنساق التعبير الفني ، حتى ليبدو أن هذا الفن الجميل أصبح لازمة من لوازم الجنس العربي وخاصة من خصائصه ، يقيم معه حيث أقام ، ويرتحل معه حيثما ارتحل ، ويعايشه في داره ، وفي كل موطن من المواطن في هجرته أو في غربته .

وأصبح الشعر بحق ديوان العرب ، وسجل مآثرهم ، وكتاب تاريخهم الذي ضمّنوه آلامهم وأمانيّهم وخطرات نفوسهم ، حتى أصبح مصدراً من أهم مصادر التاريخ الحافل الذي عاشته هذه الأمة في شتى مواطنها ، وفي كل عصر من عصورها التاريخية .

ويمثل الشعراء الذين ينتظمهم هذا الكتاب حلقة في تلك السلسلة الطويلة الموصولة الحلقات في تاريخ الشعر العربي . ومن المعلوم أن تلك الحلقات لم تكن على درجة واحدة من الإبداع أو الإتقان في الفن الشعري ، ولكنها عبّرت عن تجارب متفاوتة لا تحصى ، وعاش أصحابها في بيئات متباينة ، في ظروف ومؤثرات مختلفة ، وشهدت عصوراً من القوة والازدهار، وعصوراً أخرى من الضعف والذبول ، فكان هذا الشعر صناعة أمة تنقلت في شعاب من الأرض ، وتقلبت بها الحياة ، فانعكست على تراثها الشعري صور لحياة الخصب والنماء ، وصور أخرى لحياة الجدب والتخلف . ومع ذلك لم ينقطع هذا التيار الشعري طَوال حياة هذه الأمة الشاعرة .

ولا يمثل الشعراء الذين عُنيت بهم في هذه الدراسة اتجاهاً واحداً ، ولكنهم يمثلون أهم الاتجاهات التي سادت في هذا القرن ، ويعبرون أصدق تعبير عن روح العصر بما فيه من مقومات أصيلة ، ومن تيارات وفدت على المجتمع العربي من الغرب ومن الشرق ، تحمل في طياتها سمات غريبة لحضارات ومذاهب واتجاهات فكرية جديدة في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وفي الفنون التي عرفتها أمم وشعوب أجنبية ، ولم يكن لهذا الجنس العربي عهد بها .

ولكن بعض المنتمين إليه تعلقوا بتلك التيارات الوافدة ، و جدُّوا في محاكاتها كما تتعلق النفوس بالغريب والجديد ، لما فيه من الطرافة من ناحية ، ولشعورهم بالنقص أو التخلف من ناحية أخرى .

و قد درست في هذا الكتاب جماعة من أعلام الشعراء في هذا العصر دراسات تقصر وتطول ، بحسب ما اتسع لي الوقت وأنا في هذه السنّ المتقدمة ، وما أزال أنهض بأعبائي العلمية في الجامعة ، وفي مقتضيات عضويتي في مجمع اللغة العربية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم بحسب ما أُتيح لي من أشعارهم ، وقد يكون في القليل ما يدل على الكثير ، وأرجو أن يكون في هذا و ذاك ما يكفي لتبيُّن معالم الشخصية الفنية لكل شاعر منهم ، كما بدت لي في أعمالهم الشعرية التي وقعت بين يديّ . وضمّنته دراسات تصوّر إلى حد كبير حياة الشعر العربي الحديث ، في هذا القرن الميلادي العشرين ، في بيئات مختلفة من مواطن الجنس العربي .

ففي الشعراء الذين عرضت لهم شعراء من مصر ، ومن سوريا ، ومن المملكة العربية السعودية ، ومن دولة الإمارات العربية المتحدة ، و من الذين رحلوا من أوطانهم في الشرق

العربي إلى الدنيا الجديدة ، يطلبون العيش بعد أن ضاقت بهم ديارهم ، وقد وصفوا كفاحهم المستميت في طلب الحياة الآمنة ، وصوروا معاناتهم في ديار الغربة ، وماكانوا يحسون به من وحشة في الغربة ، وشوق وحنين إلى معاهد الصبا وإلى ظلال الأهل والعشيرة ، بعد أن هيئوا لأنفسهم ما استطاعوا من أسباب الحياة في دنياهم الجديدة ، كما هيئوا لأنفسهم حياة أدبية ازدهرت في بعض حواضر الأمريكتين ، فكانت لهم صحف وندوات ومحافل أدبية عامرة ، حاكوا فيها وجوه النشاط الأدبي الذي خلفوه وراء ظهورهم قبل الرحيل ، وقبسوا من معالم التجديد التي وقفوا عليها في أدب الغرب ما أثرى به الشعر العربي ، وكان رافداً من روافد التجديد في الأدب والشعر في مواطنهم الأولى .

وإذا كان الشعراء الذين شملتهم هذه الدراسة لا ينتمون إلى بيئة واحدة عاشوا فيها ، وتأثر شعرهم بمؤثراتها الطبيعية والعقلية والفكرية والثقافية ، إذا كانوا كذلك إلا قليلاً منهم ، فإنهم لا ينتظمون أيضاً في طبقة واحدة من طبقات الفن الشعري ، أي أنهم لا يمثلون اتجاهاً واحداً، ولا يخضعون لتعاليم مدرسة واحدة من مدارس الشعر العربي طبعت شعرهم بطابعها ، باستثناء من عرضت لهم من شعراء « أبوللو » الذين قد تتقارب أمزجتهم بتقارب ظروفهم ، واتصال بعضهم ببعض إبان استواء ملكاتهم الشعرية ، ونضج إحساسهم بالحياة .

أقول هذا وأنا لا أدين بالتبعية في عالم الفنون ، التي تعتمد اعتماداً كبيراً على الذاتية ، وعلى الخصائص المميزة لشخصية كل فنان .

وقد مارس فنون الرسم والنحت والموسيقى والغناء والشعر وغيرها من الفنون والصناعات — أعداد هائلة من البشر لا يحصيها إلا الله في مختلف العصور والأجناس واللغات ، ولكن الذين عاشت أسماؤهم وخلدت آثارهم عدد أقل من القليل ، وهم الذين استطاعوا أن ينقشوا أسماءهم على صخر الزمان ، من العباقرة الموهوبين ، ذوي الألحان المتميزة والسمات المنفردة بمعالم الشخصية ذات الأصالة ، التي رفعتهم أعلاماً يتطلع إليها المقلدون الذين سرعان ما تخبو نارهم ، و تنطفىء شعلهم ، ويذهبون مع الريح .

* * *

وإذا كنت قد عنيت بالكشف عن الشخصية الفنية لكل شاعر من هؤلاء الشعراء وأسباب نمائها ، ومظاهر قوتها ، فلم تفتني الإشارة إلى بعض مظاهر التهافت والقصور في غير مجاملة أو تحامل ، لانتفاء أسبابهما من جهة ، والالتزام بالموضوعية والحيدة التامة في النقد والتقويم من ناحية أخرى .

ولست أزعم أنني أول كاتب عن هذه الكوكبة من شعراء العصر ، ولا أول معرِّف بهم ، ولا أول مقوِّم لفنهم الشعري ، وإن كان ذلك يصدق على عدد منهم لم يظفروا بعناية الكتاب والنقاد الذين عُنوا بغيرهم ممن هم دونهم أو يفوقونهم في الإجادة والإبداع .

ولا بأس عندي بتعدد الكتابات واختلاف الآراء في تقويم الشعر وتقدير الشعراء ؛ لأن هذا الاختلاف ظاهرة طبيعية مردها إلى اختلاف الزوايا التي ينظر منها الكتّاب ، والنوافذ التي يطل منها النقاد ، بحسب الذوق الفني والثقافة الأدبية التي يتمتع بها الكاتب أو الناقد ، ومدى حبّه للعدل وإيثاره الإنصاف ، وقدرته على كبح جماح هواه .

ويحدثنا التاريخ الأدبي عن انقسام أهل البصرة إلى جريريين وفرزدقيين ، كما يحدثنا عن الاختلاف الشديد بين نقدة الشعر في تقديم أحد الطائيين أبي تمام والبحتري على صنوه ، والتعصب الشديد لهذا الشاعر أو لذاك .

ونقرأ في « وساطة » القاضي أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز الجرجاني دراسة واعية نقدية للخصومة بين أنصار أبي الطيب المتنبي الذين غالوا في الإشادة بشاعريته وأعدائه الذين بالغوا في انتقاصه ، وموقف القاضي المنصف بين هؤلاء وهؤلاء .

وليس ببعيد منا تلك الحملة الرهيبة التي قادها بعض النقاد على أمير شعراء العصر أحمد شوقي ، الذين نالوا من شعره ومن شخصه نيلاً عظيماً ، وتصدى لهم نفر من المعجبين بشعره والمكبرين لأدبه .

ولا تزال أصداء تلك المعارك تتجاوب في آفاق الحياة الأدبية ، ويتحدث عنها الكاتبون ومؤرخو النقد في مصر والعالم العربي إلى يومنا هذا .

ولا شك أن هذه المعارك النقدية القديمة والحديثة على السواء كان لها الأثر البعيد في بعث الحياة الأدبية وإثراء التراث الأدبي والنقدي لهذه الأمة العربية .

والله الموفق للصواب ، وهو وليّنا في الدنيا والآخرة .

كتب بمدينة النصر بالقاهرة

يوم الأحد ٢٠ من ذي القعدة ١٤١٤هـ

أول مايو ١٩٩٤م

بدوي أحمد طبانة

شَاعِرُ الكوخ
محمود حسن إسماعيل

أَلقيتني بين شِبـاكِ العـذابْ وقلْت لي : غَنِّ !
وكلّ ما يُشْجِي حنينَ الرَّبابْ ضيَّعْتــهِ منّــي !

هذا مقطع من مقاطع أغنية من « أغاني الكوخ » التي أنشدها الشاعر محمود حسن إسماعيل في صدر حياته الشعرية .

و « الكوخ » عند العرب مسنّم من القصب لا كوة فيه ، فلا بناء فيه من آجرّ أو لبن أو طين ، وإنما هو أعواد من قصب أو حطب ، وصل بعضها ببعض ، يستكن فيه الفقراء أو الرعاة الذين لا يجدون لأنفسهم مأوى في دار مبنية أو قصر مشيد . وإنما هو مسكن في العراء يقي أولئك المحرومين من لفحات الحر ، ومن غائلة الزمهرير .

ومحمود حسن إسماعيل « شاعر الكوخ » رائد من رواد الشعر العربي في هذا القرن العشرين ، صاحب لحن متميز ، ذي نكهة خاصة ، يحس بلذتها كل متذوق لفن الشعر ، قادر على تمييز اللحون والطعوم ، إذا كان للأدب والشعر طعم ومذاق .

ومحمود حسن إسماعيل واحد من الأفذاذ الذين لم يعزفوا إلا ألحانهم ، ولم يوقّعوها إلا على قيثارتهم ، حتى لقد يبدو أن من العسير أن نرجعه إلى شاعر قديم ، أو أن ننسبه إلى اتجاه أو مدرسة من المدارس الحديثة المعروفة في فن الشعر ، عرف خصائصها ، واطمأن إلى مبادئها ، ليحذو حذوها ، وينسج على منوالها .

ومحمود حسن إسماعيل « شاعر الكوخ » لأن أول إبداعاته الشعرية التي احتل بها منزلته في عالم الشعر – جمعها في ديوانه الأول « أغاني الكوخ » الذي تغنى فيه بمشاهد الطبيعة الفاتنة في الريف المصري ، صوّر فيه معاناة الفلاحين في فلاحة الأرض وحرثها وزرعها وحصاد ثمراتها التي لا يصيب منها إلا أقل القليل .

وقد صدر هذا الديوان « أغاني الكوخ » في مطلع عام ١٩٣٥م ، وأهدى الشاعر إليّ نسخة

منه فور صدوره ، لأن التاريخ الذي ذيل به عبارة الإهداء هو اليوم الثالث من الشهر الثاني « فبراير » عام ١٩٣٥م ، و وصفني في تلك العبارة بالأخ الشاعر ، وكنت إذ ذاك طالباً بالفرقة الأولى في كلية دار العلوم ، وكان محمود طالباً بالفرقة الثالثة .

وتعود بي الذاكرة إلى ذلك العهد البعيد يوم عرفنا رغبة الشاعر في إصدار ديوانه الأول ، وأحسسنا بحاجته إلى العون على نشره ؛ إذ لم يكن في طاقته القدرة على تحمل نفقات الطباعة ، وكانت دور النشر إذ ذاك قليلة ، ولا تحفل إلا بشعر العمالقة المعروفين من أمثال أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران . وكان أحمد زكي أبو شادي يطبع دواوينه في مطبعته « التعاون » التي أنشأها في حيّ السيدة زينب بالقاهرة ، ويطبع فيها مجلة « أبوللو » وغيرها من المجلات والكتب التي كان يعنيه صدورها .

وصدق عزمنا نحن أصدقاء الشاعر على أن نسهم في تحقيق رغبة الشاعر الصديق الذي كنا نحتشد في أحد مدرّجات الكلية ؛ لنستمتع بشعره العذب الجميل ، وكان يقدمه أستاذنا المرحوم الدكتور مهدي علام مشيداً بشاعريته ، ومتنبئاً له بمستقبل كريم في دنيا الشعر والأدب . وطبع الشاعر « قسائم اشتراك » قيمة كل قسيمة منها عشرة قروش ، واقتسمنا هذه القسائم ، وقام كل واحد منا بتوزيع نصيبه منها على زملائه في الكلية وأصدقائه خارجها .

واستطعنا بهذه الطريقة أن نجمع نفقات الطباعة ، ونقدمها هدية للشاعر الصديق ، وبالطريقة نفسها استطعنا أن نسهم في طباعة دواوين لبعض إخواننا الشعراء الذين أذكر منهم الشاعر العوضي الوكيل ، والشاعر أحمد مخيمر .

وقد دفعني إلى تسجيل هذه الواقعة التاريخية ، لأدلّ على شيء من أخلاق ذلك الزمان ، وعلى ما كان يسود بين المنتمين إلى صناعة الأدب من الود والتواصل الذي يصل إلى درجة التكافل !

* * *

وليست هذه هي المرة الأولى التي أحاول فيها الحديث أو الكتابة عن صديقي محمود حسن إسماعيل الذي اخترمه الأجل في الخامس والعشرين من شهر إبريل (نيسان) سنة ١٩٧٧م . فقد حاولت ذلك مرات في حياة محمود حسن إسماعيل وأنا أراه رأي العين ، في قوامه الفارع ، وجسده الناحل ، و وجهه الأسمر الذي ارتسمت عليه آثار حراب الزمان ، وآثار مشاعر مكبوتة بين جوانحه الملتاعة ، وعينيه الواسعتين اللتين كان يطل منهما على مسرح

الحياة ، ولا تكادان تعبران إلا عن أسى عميق مما يتفاعل في أعماق نفسه ، وكأنه يرى ويتأمل ويتخيل ، ثم يختزن تلك الرؤى والصور في عقله الباطن ، بعد أن تمتزج بخلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، حتى تجود شاعريته بمكنونها ، وتفصح عن مشاعره وأحاسيسه ، فيرسمها بعد ذلك في لوحة فنية في صورة قصيدة شعرية ، يلحنها لنفسه ، ثم ينشدها في حفل جامع ، أو ينشرها في صحيفة أو مجلة من المجلات التي كانت ترحب بنشر ما يبعث بها إليها من نتاجه الغزير .

وحاولت أن أفي له بالكتابة عنه بعد وفاته ، فصرفتني عن ذلك شواغل الحياة ، وهموم الأديب الذي يفقد في كل يوم أديباً ، والصديق الذي يودع في كل يوم صاحباً وحبيباً .

* * *

ولم يكن محمود حسن إسماعيل طوال حياته إلا شاعراً بكل ما تحمله كلمة « الشاعر » من المعاني .

كان ينظر نظرة عميقة إلى عالم الحياة ، ويصغي في صمت ذاهل إلى ألحان الطبيعة ، وهي ترددها باسمة في عالم الضياء ، وترجعها عابسة في أودية الظلام . . ثم تستوعب ذلك كله مشاعره القلقة بين الرضا والسخط ، واللذة والألم ، وتستلهمه شاعريته المطبوعة ، فترسم ظلالها وانعكاساتها في مجتلى من البيان الفني الذي حذقه و برع فيه .

وقد أودع محمود إسماعيل خلاصة تلك التجارب في عدد من الدواوين الممتازة ، التي أثرت بها مكتبة الشعر العربي الحديث ، وفي مقدمتها :

١ ــ ديوان « أغاني الكوخ » وهو أقدم دواوينه ، نشره الشاعر سنة ١٩٣٥م ، وهو طالب في كلية دار العلوم .

٢ ــ ديوان « هكذا أغني » نشره سنة ١٩٣٧م .

٣ ــ ديوان « أين المفر » نشره سنة ١٩٤٧م .

٤ ــ ديوان « نار و أصفاد » نشره سنة ١٩٤٩م .

٥ ــ ديوان « قاب قوسين » نشره سنة ١٩٦٤م .

٦ ــ ديوان « لا بدّ » ! نشره سنة ١٩٦٦م .

٧ ــــ ديوان « التائهون » نشره سنة ١٩٦٨م .

٨ ــــ ديوان « هدير البرزخ » نشره سنة ١٩٦٩م .

٩ ــــ ديوان « صلاة و رفض » نشره سنة ١٩٧٠م .

١٠ ــــ ديوان « نهر الحقيقة » نشره سنة ١٩٧٢م .

فهذه عشرة دواوين أصدرها الشاعر في سبع وثلاثين سنة ، وجمع فيها حصاد شاعريته في تلك السنوات وما قبلها ، وهي أخصب مراحل حياته المادية والفنية ، عدا أربعة دواوين نظمها، ولكنها لم تر النور في حياته ، وقد سماها « صوت الله » و « رياح المغيب » و « ديوان الحب » و « موسيقى الجنائز » .

وقد طبع محمود حسن إسماعيل ديوانه الأول « أغاني الكوخ » ونشره كما تقدم في مطلع عام ١٩٣٥ م ، وكانت سنه إذ ذاك خمساً وعشرين سنة ، إذ كان مولده في قريته « النخيلة » بمحافظة أسيوط في صعيد مصر سنة ١٩١٠م.

ولكن الشعر الذي يحتويه هذا الديوان سيروع قارئه ، وينتزع إعجابه وتقديره، بما يقرأ فيه من دلائل النبوغ المبكر ، إذ يجده مفعماً بآثار ملكة مستوية ، ومعالم شاعرية ناضجة مواتية ، تدل على شاعر خبير بهذا الفن ، متمرس به ، متمكن من جواهره وأعراضه ، بما يرى فيه من موسيقية آسرة ، ومضمونات رائعة ، وأخيلة نادرة ، وديباجة صافية ، لا يراها إلا في أشعار الطبقة الأولى من الفحول المطبوعين الذين تمرّسوا بهذا الفن ، وأحكمتهم تجاربه .

و يمكن القول بأن هذه الملكة ولدت مع الشاعر ، و ولد معها حبه للطبيعة وهيامه بها ، و قدرته على التأمل فيما أبدع الله فيها من آيات صنعته ، وما أودع فيها من أسرار حكمته ، ودلائل قدرته التي فتقت أكمام الشاعرية المركوزة فيه ، فانطلقت تشدو بهذه الألحان المطربة ، والأشعار المعجبة .

ويفسر لنا الشاعر ما نرى من الإبداع في « أغاني الكوخ » بأنه ثمرة وعي أصيل ، وتأمل طويل في مجالي الطبيعة الفاتنة في الريف المصري ، الذي عاش فيه حياته ، في قوله في الكلمة التي ختم بها أغاني الكوخ (ص ١٣١) :

« لم تكن الروح التي أوحت « أغاني الكوخ » فيما طالعت من شعر الطبيعة بهذا الديوان وليدة عام أو عامين أو أكثر ، ولكنها في الحقيقة وليـدة شباب كامل ، حضنته الطبيعة في

ريف مصر منذ الطفولة اللاهية إلى عهد قريب ، تغلغلت به روحي الشابة في جميع مظاهر الطبيعة وأسرارها ، حتى امتزجت بها الامتزاج الذي أورثها الحنين الدائب إلى تلك الحياة الهادئة بين الحقول المصرية الممرعة ، والقرى النائمة على ضفتي النيل الزاخر ، وخلفت في دمي الشوق الملح إلى الحياة بين رباها وأزهارها ، ونحلها وأطيارها ، ونخيلها الساهم في سكون الفضاء ، كأنه معاصم نساك تطير الدعوات للسماء ، وأكواخها البريئة التي تشركهم فيها الدواب ودواجن الطير ، وتقاسمهم شظف العيش وبؤسه في حياتهم الطبيعية التي لم تخرجها عن القنوع والغبطة – تلك النزعاتُ التي تلتهم بها المدينة عيشها التهاماً ، في تناحر ماتت به كل معاني الرحمة والتعاطف بين الأسرة البشرية المتحضرة !»

ولا شك أن كلام الشاعر الذي فصله في هذه السطور يغني عن كل كلام يحاوله القارئ أو الناقد الذي يبحث عن طبيعة الشعر ، أو عن بواعثه ودواعيه ، أو عن العوامل الفعالة فيه ، والموجهة له .

وأكثر الشعر في أغاني الكوخ ينبع من الإحساس العميق بحب القرية ، والحنين المستعر إلى العودة إليها ، واستئناف الحياة فيها ، بعد تجربة الحياة الصاخبة ، وفقد معاني المحبة والمروءة في المدينة . و وصف طبيعتها الحية والجامدة في القرية ، ومظاهر الحياة في ربوعها .

و في المشاهد التي تقع عليها العين ما تنشرح له الصدور ، وتبتهج له النفوس ، .و فيها ما يبعث على الأسى ، ويثير الشجون ، ويستنزف العبرات ، وقد وصف هذه وتلك . كما وصف حياة سكانها الكادحين الذين يزرعون ويغرسون ، ثم يحرمون ثمرة الكفاح وعرق الجبين ، وهم مع ذلك ينعمون بالرضا وحلاوة الإيمان ، مستمسكين بحبال الصبر .

و أول شعر في الديوان قصيدته « الكوخ » ، ويقول في أولها عن الكوخ :

بَعْثِرْ عليه الدمعَ ما صفَّقتْ ... في قلبك الألحانُ يا شاعرُ
و احرَقْ له الأجفانَ ما مسّها ... بَرْحُ الضَّنَى والحزن يا ساهرُ
عـرِّجْ عليه ساعةً ، واتّخذْ ... في ظلّه مأواكَ يا عابرُ
وطُفْ حَوالَيْ رُكنه ، والتمسْ ... نورَ الهدى والرشد يا حائرُ
هنا خبايا النفس مطمورةً ... غشّى عليها الزمنُ الجائرُ
لوْ « لابن سينا » خَطرة بينها ... ما قال : نفسٌ لُغزها قاهرُ

يقول إن كل من يمر بهذا الكوخ يجد عنده ما يرضيه ، وما يهدئ من روعه ، فالشاعر يفضي بما هو مخزون في أعماقه ، والساهر الحزين يستطيع أن يخفف جواه بما يسكب عنده من الدموع التي ضنت بها عيناه ، والعابر يجد عنده الظل والمأوى ، والحائر القلق يجد الاطمئنان والأمن إذا طاف به ، فقد اختبأت فيه أسرار النفوس ، يجدها فيه من يطلب معرفة أسرار النفس الإنسانية التي عجز « ابن سينا » عن إدراكها ، وعدها لغزاً من الألغاز

أما الذي يعمر هذا الكوخ فإنه ناسك من النساك ، جاثم في محرابه المتواضع الذي أبلاه الدهر ، لايسمع في ليله إلا صفير البوم ، وفي ضحاه إلا هديل الحمام ، وأنيسه في الليل أنعامه ، وكلبه الحارس الأمين ، أما هو فإنه يبيت يسامر نجم السماء :

ضُمَّتْ حواشيه على عابدٍ محرابهُ من فاقةٍ داثرُ
يَنْعَى عليه تحت جُنح الدجَى شيخُ الليالي بُومُه الصافرُ
ويشتكي بلواهُ رأدَ الضحا حمامُه المسترحمُ الذاكرُ
سُمَّارُه في الليل أنعامُه والنجمُ ، والنابحُ ، والخائرُ
تُمْليه من وحْي الوفا حكمةً ألْوَى عليها دهرُهُ الغادِرُ
هذِي تُناغيهِ ، وذي تجتلي من صوته ما يجتلي السَّامرُ
إن هبَّ يشدو سحراً بينها حطِّمْ مزاميرَكَ يا زامرُ
أو راح يُزجي أغنياتِ المسا ضُيِّعْتَ يا شعرُ ويا شاعرُ
رهبانٌ .. عبّادون حازوا الهُدَى ليلاً فما في دَيْرهم كافرُ
مَن لمْ يُقمْ منهم صلاةَ الدجى في النوم أدَّاها له السّاهرُ

وعلى هذا يمضي الشاعر في تأملاته في الكوخ وعُمَّاره ، و وصف ما يحيط به من نبات ونخيل ، ومن يمر بالكوخ من الفلاحين ، ومن حاملات الجرار اللاتي عصمتهن العفة ، وشبههن بالملائكة الأطهار ، ثم يعود إلى الكوخ :

شهدتُه يَذْرو دخانَ الأسى والوجدُ في كانونه ساعرُ
تبكي سواقي الحقل أشجانَه وما بكاه مرّةً شاعرُ
والبائسُ الفلاحُ في ركنه عريانُ يشكو ضنكَه خائرُ

شالتْ بِزَرعِ النيل أكتافُهُ وما رعاهُ البلدُ الغادرُ
لَهَا بزَيف الغرْب في مدْنهِ والريفُ من أوجاعه حائرُ

وقد أبدع الشاعر في وصف القرية ، وما فيها من مشاهد الطبيعة الجميلة في القرية المصرية عموماً ، كما وصف حياة ساكنيها ، وما يعانون من شظف العيش وخشونة الحياة ، وصبرهم على هذه المعاناة ، كما وصف أخلاقهم وتقاليدهم الأصيلة البعيدة عن الزيف والخداع .

واستوحى الشاعر صوره وأخيلته من واقع الحياة الريفية التي كان يحياها في صدر حياته في قريته المتواضعة ، وهي صور معروفة ومألوفة عند جميع الذين عاشوا هذه الحياة من أبناء القرى في شتى أرجاء الوطن .

وانفرد الشاعر دونهم بالتأمل العميق في لباب هذه الحياة وقشورها ، وفي مباهجها ومشجياتها ، وفي سرائها وضرائها ، ثم أحس بأصداء هذه التأمل في أعماق نفسه ، وتفاعل تلك الرؤى والمشاهد مع مشاعره ، وهو الشاعر المرهف الحس ، فانطلقت شاعريته الفياضة بتلك الروائع من الأوصاف والمشاعر مسبوكة في تلك القوالب الشعرية المحكمة ، في أجود مضمون ، وأنصع بيان .

وقد يبهرك طول نفس الشاعر في هذه القصيدة التي بلغت عدة أبياتها اثنين وخمسين بيتاً. وهي ظاهرة تتكرر في كثير من قصائد الشاعر .

* * *

واقرأ من هذه « الكوخيات » أو من هذه « الريفيات » كثيراً من قصائده الوصفية الرائعة . ومنها قصيدته « زهرة القطن » أو « كنز الذهب الأبيض » ، وفي مطلع هذا الوصف يقول الشاعر :

حينَ ذاب الطلُّ في كاساتها لؤلؤاً يجري على كفِّ الشعاعْ
لثمتْ خدَّ الضّحا ، وابتسمتْ كابتسام الطفل في عهد الرِّضاعْ
وبدَتْ صفراءَ تحكي غــادةً ذبلتْ نضرتُها يـومَ الوداعْ
تخفقُ النسمةُ في أهدابهـــا خَفْقةَ العاشقِ في ليل الزِّماعْ
فتــراها في الرُّبـــا راقصــــةً زانها الضوءُ بزهْوٍ والتماعْ
ذاتُ كأسٍ أترعَتْ شمسُ الضُّحا ريقها من خمرة النُّور المشاعْ

فقصيدته ريف النيل التي سمّاها « الفردوس المهجور » التي يقول فيها :

وتَرفلُ في سُندسٍ ضاحكٍ ترنّح مـن سكـرةٍ بالنشيـدْ
إذا شامَت الخُلدَ في مجدهِ تجرُّ على الخُلـد ضافـي البـرودْ
فما هزّه للمُقام الهنيءِ سوى جنّةٍ فوق هذا الصعيدْ
ترنّم من سحْرها « بنتئورُ » وأوحت « لشوقي[1] » أغاني الخلودْ
وخرّ الفراعينُ في عزّهمْ إذا شمسُهـا شارفتهـمْ سُجـودْ
وحجَّ الفرنجُ إلى سَاحِها كأنّ الصليبَ على كلِّ عودْ
يعبّون منها الرحيقَ الشّهيَّ وأبناؤهـا يشربـونَ الصديـدْ

ثم قصيدته « حاملة الجرّة » التي سمّاها « عروس النيل » ، وقد خصصناها بشيء من التفصيل يأتي بعد قليل .

وتأتي بعد ذلك قصيدته « القرية الهاجعة في ظل القمر » وأوّلها :

لَفّها الليلُ ، فاستراحتْ من الأيـ ـنِ على حضْنهِ الرفيق الهَنيِّ
وسّدتْها الأضواءُ من لمحها الضا في وِسادَ الطبيعة العبْقَريِّ
وحبتْهـا المهـادَ موجـةَ نورٍ أشرقتْ في ترابها القُرمُزيِّ
لمعَاتٍ مـن وجنـة القمـر الـزا هي ، وفيْضٌ من ثغره المسجَديِّ

ثم تجيء رائعته التي يصف فيها « الساقية » وهي الدولاب الذي يمتاح الماء من البئر ، ثم يتدفق من عيونها ، لينساب إلى الحقول ليروي نباتها ، ولتحيا به الأرض بعد موتها .

وقد سماها الشاعر « القيثارة الحزينة » وافتن أيما افتنان في وصفها ، وفي تشبيه صوتها بعويل الثكالى ، وبطنين النحل ، وبشكوى العشاق من برح الأشواق ، ولوعة الفراق ، وبدموع المحزونين ... وهي طويلة ، أجتزئ منها بهذا القليل مما شبه به صوتها الحزين :

خرساءُ لكنْ صوتها صارخٌ يُذيبُ قلبَ الصخر من وَجدهِ
لها طنينُ النحل فـي قفْرهِ بَهْماءُ لم تُبْق على شهدهِ
و هِـزّة العاشـقِ مستصرخـاً أذواهُ حرُّ الشوق في بُعدهِ

(١) بنتئور هو الشاعر الفرعوني القديم ، وشوقي هو أحمد شوقي : أمير شعراء العصر .

و لَوعةُ النائي بَراه الهــوَى و نالَ كيدُ الهجر من وُدّهِ
لها عيونٌ دائماتُ البُكـــا بمدمع كالسّيل في رِفْدِهِ
تفنَى دموعُ الناس من فيضها ودمعُها باقٍ على عَهْدِهِ

ثم تقرأ للشاعر بعد ذلك من وحي الريف قصيدته « سنـبلة تغـنّي » فتقرأ فيها هذا الوصف البديع ، والعجب والتيه على سائر ما تخرج الأرض من زرع ونبات .

وهاك أبياتاً من مطلع هذه القصيدة الرقيقة الرائعة :

مَنْ له في الأرض مُلكٌ مثلُ مُلكِي في الكثيبِ ؟
مَوْردي النيـــل وزادِي من ثرَى النيل الخصيبِ
كلَّل الفجـرُ جبينـــي بالنّدى الغضّ الرطيبِ
والأصيل البَـــرُّ ألقَـــى تِبرَه بيـــن جيوبِـــي
وشعاع الشمس حيّـــا فــي شـــروقٍ وغـــروبِ
لو رأى الرّهبانُ طُهرِي و صَلاتي فــي المغيـــبِ
هجروا الدّير ، وخـــرُّوا سُجَّداً فـــوق كثيبِـــي

* * *

ولعل فيما كتبناه في هذه السطور ، وفيما أوردناه من بعض ما اشتملت عليه أغاني الكوخ ، التي تمثل أول نتاج طلع به على الناس . لعل في ذلك ما يكفي لتحقيق الغرض الذي قصدنا إليه من الدلالة على نضج شاعريته ، واستواء ملكته في تلك السن المبكرة التي نشر فيها باكورة أعماله الشعرية .

وقد أوفى الشاعر على ما أراد من وصف الطبيعة في ريف مصر في نضرتها وبهائها هذا الوصف الجامع المستقصي لمظاهر الحياة فيه ، فوصف السفوح والأودية والكثبان ، و وصف الجداول والأنهار والسماء ، وما يسبح في أجوائها من الأطيار ، وماتنبت الأرض من الزروع والثمار، و وصف الفلاحين والكادحين ، وما يعانون من قسوة الحياة ، وما طبعوا عليه من الرضا والقنوع .

وقد أجاد في هذا الوصف التصويري الذي رأيت صوراً منه ، وكلها صور واقعية ، استعان

الشاعر على إبرازها بمزجها بمشاعره إزاءها ، وكان وصفه ثمرة التفاعل بين ما هو كائن يراه رأي العين ، وما تحس به النفس الشاعرة والحس المرهف ، وما يضيفه الخيال الذي يستمده من عالمه القريب في قدرة فائقة على الرسم والتلوين ، وإضفاء الحياة على الجماد ، وتجسيد المعاني حتى تبدو أمام العين شاخصة ناطقة متحركة .

وأستطيع أن أقول – في غير تحرج – إن محمود حسن إسماعيل يعد أبرز شعراء الوصف في هذا العصر ، ويلحق بكبار الشعراء الذين اختصوا بهذا الفن ، وعرفوا بالشعراء الوصّافين في التاريخ الأدبي .

* * *

ويضاف إلى ما ذكرنا من دواوين الشاعر ديوان اشتهر اسمه في بيئات الأدب في مصر ، وطبعت الدولة منه عشرات الألوف من النسخ ، ثم تقلبت الأحوال ، وحالت الظروف دون نشره في الناس !

ولست أدري ما إذا كان ذلك الديوان لا يزال مخبوءاً في ظلمات المخازن أم أخذ طريقه إلى ألسنة النار ؟

ولقد برئ محمود حسن إسماعيل من هذا الديوان ، ولم يعد يذكره بين دواوينه . واتخذ خصوم الشاعر من هذا الديوان المحجوب سبباً للهجوم على الشاعر ، وأداة للنيل منه .

ولكن سرعان ما استرد محمود حسن إسماعيل مكانته ، وتابع الخُطا في مسيرته الشعرية ، وساير ركب الزمان كما سايره أبناء الزمان ، وكان لسان حاله يقول : من كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحجر !

وإذا صح أن هذا الديوان المحجوب كان عثرة من عثرات محمود حسن إسماعيل فما أكثر العثرات في عالم الشعر ، وفي دنيا الشعراء .

وإذا كان هنالك عثرة في جانب من الجوانب ، أو في اتجاه من الاتجاهات فإن العثرة في الاتجاه المقابل لا تقل عنها خطراً ، بل ربما كانت أوغل في المصانعة والتضليل ، وأدلّ على المهارة في معرفة السّبل التي تؤكل منها الأكتاف !

وما أقدر الشعراء على الاهتداء إلى تلك السبل في تاريخ الأدب القديم ، وفي تاريخه الحديث على السواء ، إلا قليلاً ممن عصم الله من فتن الدنيا ، ولم تخدعهم بروق الأطماع !

وإذا كان الحديث ذا شجون ، وكان الشيء بالشيء يذكر فإنني أستغفر الله العظيم إذا بدا من هذا الكلام أنني أخص طبقة الشعراء بهذه القدرة الفائقة على الفتل بين الذروة والغارب ، فقد رأيت في أهل العلم ما رأيت في أهل الشعر ، رأيت أستاذاً في الجامعة يؤلف كتاباً عن « عبد الله بن المعتز » ثم يكتب في أوله صفحة كاملة في إهداء كتابه إلى « البطل جمال عبد الناصر » ! وحتى هذه الساعة لم يستطع ذكائي أن يهديني إلى إدراك العلاقة بين عبد الله ابن المعتز والبطل جمال عبد الناصر !

وسمعت أن قارئ القرآن في أحد المساجد اختار لقراءته يوم الجمعة آيات من أوائل سورة النحل ، حتى انتهى إلى الآية الكريمة « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » فلم يتمّها ولكنه وقف عند قوله تعالى « ولكم فيها جمال » فما زال يرددها بصوته الجهوري مثنى وثلاث ورباع وخماس حتى ضج من في المسجد ، وغادروه من غير صلاة ، ليخلوا بين الشيخ الصالح والتغني بجمال !

وما أكثر النظائر والأمثال في عالم الفساد والضلال .

* * *

ونعود إلى محمود حسن إسماعيل الذي قلنا إنه لم يكن طوال حياته أكثر من شاعر بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ، وبعبارة أخرى نقول إن عمره الفني يكاد يقارب عمره الزمني . وربما كان هذا الكلام يحتاج إلى شيء من الإيضاح .

ذلك أن عالمنا الأدبي يحفل بمن لا يحصون من الشعراء في مختلف مواطن العروبة . ولكن طبيعة الحياة في هذا العصر بالذات الذي يمتاز بالحركة والتفاعل والجري وراء متطلبات العيش قد أبت على أكثر أولئك الشعراء أن يفرغوا لفنهم ، أو أن يخلوا بين أنفسهم وبين شواغل الحياة ، أو يخلدوا إلى الدعة ، ويخلصوا من تلك الشواغل ، ليتأملوا ويتخيلوا أو يبدعوا ، ثم ليصبوا بعد ذلك خلاصة تجاربهم الشعورية في القوالب الفنية التي تسحر النفوس ، وتأخذ بالألباب .

إن متطلبات هذه الحياة لم تدع لأولئك الشعراء في زماننا الفرصة الكافية للتوفر على فنهم ، ولكنها دفعتهم دفعاً إلى السعي والكفاح ، وطلب العمل في شتى المجالات ، بعد أن نفرت روح العصر من الارتزاق والتكسب بصناعة الشعر عن طريق الزلفى إلى الحكام وإلى

ذوي اليسار بالمديح المصطنع ، والإطراء الكاذب الذي كان في طليعة مصادر الارتزاق في الأزمنة الغابرة ، بل و في مطلع هذا العصر ، و ربما بقيت من هذا بقية إلى زماننا .

ولذلك أصبح الشعراء في هذا العصر موظفين وصحفيين وتجاراً . ولعلهم اضطروا إلى ذلك لأنهم لم يجدوا لسلعتهم مكاناً في السوق ، لأسباب كثيرة لا يتسع المجال لإيرادها ، أو للإفاضة فيها .

ومعني ذلك كله أن ظروف الحياة الراهنة لم تعد تسمح بوجود « الشاعر المتفرغ » الذي يجد من وسائل العيش وأسباب الحياة ما يغنيه عن السعي والكفاح ، وربما كان ذلك من جملة الأسباب في ركود حركة الشعر ، وضعفه الملحوظ في أيامنا ، لأن الشعراء لم يجدوا الوقت الكافي للإجادة والإبداع ، ومعاودة النظر فيما ينشدون ، أو فيما ينشرون .

* * *

ولم يكن محمود حسن إسماعيل في غنى عن هذا الكفاح ، فقد نشأ نشأة متواضعة في قرية « النخيلة » بمحافظة أسيوط في صعيد مصر ، ولذلك طلب الحياة في دنيا الوظائف قبل أن يشخص إلى القاهرة ، وقبل أن يلتحق طالباً بكلية دار العلوم ، وبعد أن تخرج فيها سنة ١٩٣٦م . وظل في قيد الوظيفة بقية حياته ، حتى توفاه الله سنة ١٩٧٧م.

وقد كان أمل محمود حسن إسماعيل أن يعمل بعد تخرجه في دار العلوم وحصوله على إجازة التدريس مدرساً بمدارس الحكومة ، ولكنه وجد بابها موصداً دونه ، إذ كانت وزارة المعارف لا تعين في مدارسها إذ ذاك إلا عدداً قليلاً من أوائل المتخرجين ، ولم يكن منهم شاعرنا الكبير .

وقد كان في ذلك الخير كل الخير للشاعر الموهوب ، ولفنه الذي كانت أكمامه قد تفتحت وازدهرت قبل تخرجه بسنوات . . فقد هيأ الله له من أخذ بيده ، فعين كاتباً أو محرراً في مجمع اللغة العربية ، ثم موظفاً في الإذاعة يتدرج في وظائفها حتى يكون واحداً من مستشاريها . ويظل في تلك الوظيفة حتى بعد أن تجاوز سن التقاعد ، إلى أن شخص إلى الكويت ، ليعمل خبيراً فنيا بوحدة اللغة العربية في مركز بحوث المناهج في وزارة التربية حتى توفاه الله في الخامس والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٧٧م .

إذا كان محمود حسن إسماعيل قد قضى بعد تخرجه إحدى وأربعين سنة من حياته

موظفاً ، كاتباً أو محرراً في مجمع اللغة العربية ، فموظفاً في الإذاعة، أو مراقباً من مراقبيها ، أو مستشاراً من مستشاريها ، ثم خبيراً فنيا في لجنة مناهج اللغة العربية في دولة الكويت – فإن حياته في تلك الوظائف كانت حياة شكلية ، وإن شئت فقل ـ بلغة العصر ـ إنها كانت « وظائف شرفية » إذا قيست الأمور بمقياسها الصحيح ، أو بمقياسها المعروف في حياة العمل والعاملين .

لم يكن يعمل مع العاملين ، أو يحمل من أعباء العمل ما يحمل زملاؤه من الأعباء ، فقد كان رؤساؤه يعفونه من مسئوليات العمل وتجشم واجباته ، فلا يكاد يبقى له من هذه الأعباء إلا أن يمهر بعض الأوراق بتوقيعه ! ويبقى الشاعر قابعاً وراء مكتبه ، يدخن لفافته ، ويحتسي قهوته .

ولست أحسب شخوص الشاعر إلى الكويت ، أو تعيينه خبيراً فنيا في لجنة مناهج اللغة العربية إلا ضرباً من ضروب الحفاوة أو التكريم للنابهين من العلماء أو الأدباء على عادة كرام العرب .

ولذلك كانت إقامته بالكويت أشبه باستضافة طويلة منها بطلب الخبرة ؛ لأن الخبرة بالمناهج – مثل الخبرة بغيرها – ثمرة تجارب كثيرة ، وحصيلة ممارسات ناجحة معروفة في مجالات الخبرة . ولم يكن عند الشاعر من هذه الخبرة كثير أو قليل ؛ لأنه لم يمارس صناعة التعليم أو التوجيه أو التأليف فأنّى له تلك الخبرة التي يستطيع أن يقدم ثمرتها إلى طالبي الخبرة ؟

ويشهد التاريخ القريب والمعاصر أمثلة لمثل هذه العلاقة بين العلماء والأدباء وأصحاب الفنون والوظائف التي شغلوها ، والمناصب التي يقال إنهم تقلدوها ، فقد ذكر المرحوم محمد سعيد العريان فيما كتبه عن حياة المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وهو صاحبه وأثيره وأعرف الناس به – أن الرافعي كان يقيم في مدينة طنطا ، وكان عمله الرسمي رياسة الكتّاب في محكمة طلخا ، وأنه كان لا يسافر إلى طلخا مقر وظيفته إلا في اليوم الأول من كل شهر ، ليتقاضى وظيفته أو مرتّبه ، ثم يعود إلى طنطا ليقضي الشهر كله في بيته .

ويعرف المجمعيون زميلاً لهم في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو الأديب الكبير المرحوم توفيق الحكيم الذي لم يحضر جلسة واحدة من جلسات العمل في المجمع طوال عضويته فيه التي طالت وامتدت حتى توفاه الله ، اللهم إلا جلسة واحدة ، وهي الجلسة التي احتُفل فيها

باستقباله عضواً في مجمع الخالدين .. وكان مع ذلك أحرص الأعضاء على وصول مكافأته الشهرية لتضم إلى أرصدته في « البنك » ، فإذا تأخر وصولها يوماً أو يومين هاج وماج ، ولجأ إلى الهاتف يلوم هذا ، ويعنف ذاك من العاملين في حسابات المجمع .

وأمثال هذا كثيرة في عالمنا العربي !

وربما يكون في تخلية أمثال هذه الشخصيات الفكرية أو الفنية من مسئوليات العمل ، ومن تبعات الوظائف – الخير الكثير للعلم أو للأدب أو للفن . وهو في الوقت نفسه صورة طيبة لتقدير المسئولين للعلماء والشعراء وحملة الأقلام ، وقد يحقق ذلك من الفائدة لنتاجهم العلمي أو الفني ما لا يحققونه لوظائفهم إذا نهضوا بواجباتهم ، أو التزموا بمسئولياتها .

وإذا كنت أرى أن من واجب الحكومة أن تمد هؤلاء الموهوبين بما يحفظ كرامتهم ، وييسر لهم أسباب الحياة الكريمة لتعينهم على استمرار العطاء الجيد المفيد فإن من رأيي ألا يكون هذا العون عن طريق تعيينهم في وظائف لا يعملون بها ، ومنحهم مرتبات أو مكافآت لا يستحقونها .

* * *

إذا قيل إن محمود حسن إسماعيل كان في طليعة الشعراء الرومانسيين في الشعر العربي الحديث فإن هذا القول أصح الأقوال وأقربها إلى الصواب ، يؤكده شعره المنشور الذي يحفل بخصائص الاتجاه الرومانسي أو الاتجاه الإبداعي منذ أخرج ديوانه الأول الذي سماه « أغاني الكوخ » سنة ١٩٣٥م حتى آخر ما نشره من شعره في ديوانه الذي سماه « نهر الحقيقة » سنة ١٩٧٣م .

و أول ما يطالعك من معالم هذا الاتجاه الرومانسي في شعر محمود حسن إسماعيل تلك اللوحات الفنية التي صورتها بالكلمات ريشة فنان صناع ، وصف فيها مشاهد الطبيعة وصف المستهام بها الذي تفاعلت أحاسيسه ومشاعره مع آيات الإبداع التي يرصدها فيها .

ومنها تلك الصور الناطقة ذات الأفكار المتجسدة ، والمعاني المتحركة ، والأخيلة البديعة المجنحة ، التي برع الشاعر في تأليفها وتركيبها .

ومنها التعبير عن خلجات النفس ، وعن العواطف الحادة المشبوبة بين جوانحه ، وعن حرارة الانفعال بالتجارب الشعورية التي يعانيها .

كل ذلك تراه رأي العين في قصائده ومقطعاته ، بل إنك تراه واضحاً في كل غرض من الأغراض التي عرض لها . حتى في ذلك الشعر الذي دعت إليه سوانح أو مناسبات خارجة عن ذات الشاعر أو عن تجاربه الخاصة .

نقرأ هذا الوصف المثير الرائع لمشهد من المشاهد التي حركت وجدان الشاعر المرهف الحس ، فتفجرت شاعريته الدافقة بهذه القصيدة التي سماها « عروس النيل » التي يبدؤها بهذه الأبيات :

سارتْ إلى جدْولها الدافقِ سيرَ الكرَى في مُقلة العاشِقِ
وانيةَ الخطْو ، كأن الثَّرى يحمل منها خطْرةَ السّارِقِ
شاهدتُها والشمسُ في أفْقِها تحكِي فؤادَ الثائر الحانِقِ
والشاطِئُ المسحورُ من روْعةٍ يسبَحُ في موكبِهِ الغارِقِ
كأنّه دنيا المنى أقبلتْ تلمحُ في ليل الشجي الغاسِقِ

إنه يصف مشهداً من المشاهد المألوفة في ريف مصر ، إنه يصف واحدة من حاملات الجرار على رؤوسهن ، وهن يَردن موارد الماء ، يملأن جرارهن من ماء النيل أو من جدول من جداوله ، ويعدن بها مملوءة إلى دورهن أو إلى أكواخهن . لقد سارت حاملة « الجرّة » إلى ذلك المورد وهي تمشي الهوينى في وقت الأصيل حين رآها الشاعر ، ورأى الشاطئ مسحوراً وكأنه يسبح في خضم الأمواج ، وقد أشرق بابتسامة المستبشر بإقبال الأماني قبل أن تغيب الشمس ، ويسود الظلام .

ويصور الشاعر لهفة الجدول أو البحر كما يسميه ، فقد جُنّ جنونه عندما انعكست على صفحته الصافية صورة أحلام هذه الريفية حاملة الجرّة ، وهي تهبط على ساحله لتملأ جرّتها ، وأخذت أمواجه تداعبها ، فتصفّق على ساقيها مفتونة بجمالها الساحر الذي فتنت به الكائنات ، فارتاع طيف الشمس حين بدا جبينها يشع بالأنوار ، وأخفى سناها سائر الأضواء ، وكأنها خجلت من نورها الوضاء ، فيقول :

جُنّ جنونُ البحـر لما رأى أحلامَها من فيضهِ الرائقِ
فصفّقَ الموجُ على ساقها من فتْنةٍ كالوالِهِ الخافقِ
وريعَ طيفُ الشمس لـمّا زها جبينُها عن لمحهِ البارقِ

فمالت الأضواءُ عنها لـمّا أخجلها من نُورها الشارِقِ
تمتحُ بالجـرّةِ من منْهلٍ صافٍ كريق الكوثر الدافقِ
ينسابُ فوقَ التِّبر في سُنْدُسٍ نضْرٍ ، ونخلٍ مثمرٍ باسِقِ
يهْزجُ في الوادي بأنشودةٍ ألحانها من وترِ الخالِقِ

ذلك ما وصف به الشاعر مشهداً من مشاهد الطبيعة التي شغف بها الرومانسيون من شعراء أوربا ، و وصفوها في أشعارهم . والوصف هنا حافل بالصور التي تأنق خيال الشاعر في حشدها .

وليس ذلك عن تقليد أو احتذاء لمذهب أو اتجاه غربي أو شرقي في فن الشعر ، ولكنه يعكس الرؤى الخاصة بالشاعر ، ويعكس مشاعره ونبضات قلبه تجاهها في ذلك النسق الشعري البديع .

وفي رأيي أن التشابه في الاتجاه – مهما تكن درجة التشابه – لا يستلزم بالضرورة الأخذ أو الاحتذاء أو المتابعة أو إفادة اللاحق من السابق ، والرومانسية التي تبدو في هذا الشعر نابعة من ذات الشاعر . وقد نجد خصائص الرومانسية كثيرة في أشعار بعض القدماء قبل أن تتميز الرومانسية ، وقبل أن تصبح مذهباً من المذاهب الأدبية ، بل قبل أن يولد زعماؤها المعروفون بزمان طويل .

ومشهد « حاملة الجرّة » الذي صوّره الشاعر في هذه القصيدة مشهد مألوف في القرى المصرية ، يراه الشاعر وغيره من الناس في كل يوم . وقد قضى محمود حسن إسماعيل فترة صباه ومطلع شبابه في قريته « النخيلة » بصعيد مصـر ، ولم يبرحها إلا إلى القاهرة ، ليلتحق بكلية دار العلوم ، ولم يكن يعرف غير العربية لساناً . وهو في ذلك كثير الشبه بالشاعر المعاصر أبي القاسم الشابي الذي يعد في طليعة شعراء العرب الرومانسيين . وقد قالوا إن الشابي لم يكن يعرف إلا اللغة العربية ، أما الفرنسية والإنجليزية فلم يكن يعرف فيهما كثيراً أو قليلاً .

وإذا أنعمت النظر في هذه القصيدة رأيتها تفيض بصور الخيال التي منحت الحياة للجماد ، وخلعت عليه أوصاف الأحياء من البشر ، فجعلته يحس ويتأثر وينفعل ويتحرك ، فالشاطئ يسبح في موكبه ، والبحر يجنّ جنونه ، وطيف الشمس يرتاع ، والأضواء تخجل ، والجدول يهزج بأنشودته ... إلخ .

كما تفيض القصيدة بالبديع من التشبيهات ، والجميل من الاستعارات التي تنبع من خيال خصب ، وشاعرية مطبوعة مواتية .

وسيرى القارئ نماذج أخرى من شعره تظهر فيها تلك الخصائص التي تمتاز بها أعمال الشاعر المبدع .

وترى فيها معالم الرومانسية دلائل الهروب من الحياة ، والفرار من الواقع ، والعزوف عن المجتمعات الصاخبة التي كان يضطر أحياناً إلى شهودها ، أو إلى المشاركة فيها مشاركة يمكن أن توصف بأنها مشاركة رمزية ، حسبه منها أن ينشد فيها سانحة من سوانحه ، التي كانت تصطبغ غالباً بصبغة الأسى والإحساس بالمرارة ، برغم ماكان يتغنى به من آيات الجمال ، وصور الإبداع الفاتنة في مغاني الطبيعة .

وتطالعك في ثنايا قصائده دلائل ناطقة بتلك المشاعر التي تدل على الانقباض ، وما يؤدي إليه من إحساس بالأسى والألم . وقد تقرأ له قصائد مستقلة في وصف ما يعاني من هذا الإحساس . كما تقرأ هذه المشاعر الآسية في مقطوعة عنوانها « القلب الحزين » التي يقول فيها :

و لِي على الدهر قلبٌ بائس أبداً ... لهفانُ يصرخ مضا من عوادِيهِ
معذَّبٌ ، كلّما رنَّتْ مواجعُـــهُ ... بكيتُ أنْ عزَّ في دهري مواسيهِ
كأنه ناسكٌ طافـــتْ بعُزلتـــهِ ... سُودُ الذنوبِ فهاجتْ حزنَ ماضيهِ
تسْبيحهُ من نثار الدمع منتظـــمٌ ... والرُّوحُ ثورةُ هَمٍّ في أغانيهِ
على الصِّبا كدْتَ يا قلبي تموت أسًى ... فكيف لو شِبْتَ تحيا في لياليهِ

ولم يخلُ شعره ، ولا سيما الشعر الذي أنشده في شبابه من التعبير عن عاطفة الحب والحنين إلى المرأة ، والهيام بجمالها .

وعاطفة الحب عاطفة إنسانية عبّر عنها أكثر الشعراء من القدامى والمحدثيـن ، واختص بالبوح بمكنون هذه العاطفة نفر من العشاق ، ولم يجيدوا في غرض من أغراض الشعر سوى فن النسيب . وعرف الرومانسيون بالإغراق في وصف ما يعانون من حرارة الوجد ، وألم الفراق، ولوعة الحنين إلى محبوباتهم .

ومن ذلك ما صرح به الشاعر في أخريات قصيدته « حاملة الجرة » التي سبق الحديث عنها

في قوله :

نصيفُهـــا [1] تخفـــقُ أهدابُهُ   خفق الأسى في الشجن الطارقِ
غريرة اللحظ ، لهـــا نظـــرةٌ   زوراءُ عن ختل الهوى الفاسقِ
كم ألهمتْ من وحيها شاعراً   قدّسها في عصـــرهِ السابـــقِ
وشاعرُ العصر سبـــاهُ الهوَى   فناح نوحَ الأسْـــود الناعِـــقِ

وقوله يعبّر عن فتنته بالفستان الأحمر (ص ٣٣) أو بمن تلبس « الفستان » الأحمر :

إنْ تكنْ ناراً فما أشْـــــ   ـــهَى خلودي في سعيركْ
أو تكنْ ورداً فيا لهـــ   ـــفةَ روحـــي لعبيـــركْ
طرْفك الهفهافُ يُبْدِي   لوعةً خلـفَ ستـــوركْ
وَلهتْ روحِي فطـــارتْ   ترتوي من فيـض نـــوركْ
تتمنّـــى لو تهـــادتْ   موجـــةً فـــوق غديـــركْ
أو خيالاً مـــن هـــواهـــا   سابحاً طـــيَّ ضميـــركْ

وفي قصيدة طويلة عنوانها « خمر الأنوثة » (ص ٧٤) يقول :

بروحي إذا لاح فجرٌ الهوى   عبيراً بثغرِكِ يُذْكِي العجبْ
إذا رقّ ينفحُ طيبَ الورودِ   وإن هاج يُضْرِم حرّ اللهبْ
تنفّسْته في سكون الحبيبِ   فنمَّ على والهٍ محتجِبْ
كتمتِ لواعجَه في حَشاكِ   فكشّفها صدرُكِ المضطربْ

والذي أريد أن أقرره هو أن محمود حسن إسماعيل لم يخضع شاعريته لاتجاه معين ، أو لمذهب من المذاهب الأدبية المعروفة ، وإن بدت في شعره سمات مذهب أو اتجاه معيّن ، بل إني لا أتصور أديباً من الأدباء الموهوبين ، أو شاعراً من الشعراء المطبوعين حاول أن يحبس نفسه ، أو يقيد فنه في إطار من الأطر الفنية ، حتى لو كان هذا الإطار من ذهب ، يخلب الألباب ، ويشوق الأبصار . ولكنها مجموعة من المعالم ، ووجوه من التشابه ، يستنبطها النقاد من أعمال الأدباء ، ثم يصنفونهم على أساسها إلى صنوف ، أو يقسمونهم إلى مجموعات .

---

(١) النصيف : كل ما غطى الرأس .

ونحن إذا تأملنا الأعمال الشعرية التي ألّفها محمود حسن إسماعيل فلن نجد فيها ما يشير إلى واحد من أعلام الشعر العربي في القديم أو الحديث ، وإنما نجد فيها محمود حسن إسماعيل ، ولا أحد إلا محمود حسن إسماعيل الذي كان شعره تعبيراً صادقاً عن دخيلة نفسه ، وحقيقة تجاربه الشعورية العميقة .

ولذلك كان شعره لحناً جديداً ، ونغماً متميزاً ، عزفته قيثارته التي صاغها بفنيته ، وأراق فيها ذوب قلبه ، وعصارة مشاعره ، ولم يكن صورة أو صدى لشاعر من المجودين ، أو لمجموعة من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه .

وقد أخذ بعض الكاتبين على محمود حسن إسماعيل تراكم الصور الفنية في بعض قصائده ، وقالوا إن هذا التراكم كثيراً ما يؤدي إلى الإغلاق أو التعقيد ، و إلى إبعاد معاني شعره عن تناول الإدراك .

وعلّق الشاعر على هذا النقد بقوله : « إن هذا تعبير مستورد ، فالتراكم في ذهن الناقد السطحي إنما هو العمق والشعور في أعماق النفس والتوغل في أسرارها ، وليس هو السطحية ومداجاة الجماهير ، والتغني الكاذب بما يرضي السامع ، لا بما تجيش به النفس ، والنفس والفن هما الحياة ذاتها .

« فإذا لم يكن تعبير الشاعر إفضاءً تاماً بكل صورها ، وكشفاً عن كل أسرارها من ظلمة ومن إشراق كان الشاعر سطحيا ضحلاً .

« والنفس الشاعرية كالطبيعة ، فيها الغدير الرقراق ، وفيها المحيط المتلاطم المتراكم ، وفيها زهرة البنفسج ، وفيها الصبار ، ... وقد جاء شعري صورة صادقة لكل اهتزازات نفسي في شتائها وربيعها ، وفي ظلامها وإشراقها ...»

ولقد صدق الشاعر كل الصدق فيما تحدث به عن نفسه ، وفيما وصف به شعره الذي حاكى أسرار مشاعره ، وتابع نبضات قلبه .

وتلك هي العبقرية التي يمتاز بها أفذاذ من البشر في كل درب من دروب الفكر أو الفن ، يمضون في طريقهم ، ولا يستجيبون إلا لنداء قلوبهم ، لا ينظرون إلى يمين ، ولا إلى شمال، ولا يديرون أبصارهم إلى ما وراءهم ، ولكنهم يمضون إلى الأمام ، ليرتادوا لأنفسهم ثم لغيرهم معالم الطريق ، ثم ليكونوا هم أنفسهم معالم أو منارات على هذا الطريق .

وعن « نازك الملائكة » كبرى شواعر العراق يقول الشاعر المهاجري المعروف « إيليا أبو ماضي » إنه يبدو له من بعض تعابير نازك ومن الروح السارية في شعرها أنها متأثرة بشعراء الكآبة مثل الشاعر الإنجليزي « كيتس » .

والذي أعرفه عن نازك أنها في مطلع حياتها الشعرية لم تتأثر بأي شاعر من شعراء الغرب ، فقد كان جلّ قراءاتها إذ ذاك عربية .

ولكن تأثرها الحقيقي كان بالشاعر المصري محمود حسن إسماعيل الذي اصطبغ شعره بهذه الصبغة القاتمة الحزينة ، وكانت مأخوذة بشعره الباكي ، كما كانت مأخوذة أيضاً بشاعر مصري آخر من المعاصرين هو علي محمود طه الذي دفعها إعجابها بشاعريته إلى أن تؤلف عنه كتاباً من خير ماكتب عنه .

إن تأثر نازك بمحمود حسن إسماعيل واضح جدًّا وبخاصة في نتاجها المبكر في « عاشقة الليل » وفي ديوانها الثاني « شظايا ورماد » . وذلك ما قالته لي نازك ، وما سجلته في كتابي « أدب المرأة العراقية » الذي نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٧م .

ولم أرد بكلامي شيئاً من هذا ، وإنما الذي أردت فقط أنّ محمود حسن إسماعيل استطاع بشعره أن يؤثر في بعض ذوي المواهب الذين حلّقوا في سماء الشعر الحديث ، وأنه لم يتأثر بقديم ولاحديث .

* * *

وإذا كانت خصائص الاتجاه الرومانسي أو سماته قد برزت واضحة في شعر محمود حسن إسماعيل كما قلنا – فليس معنى ذلك أنه قد قد فتن بهذا المذهب أو ذلك الاتجاه ، أو أنه تعمد أن يكون شعره احتذاءً أو تطبيقاً لخصائصه المعروفة كما يعرفها نقاد الأدب . وأعتقد أن هذه قاعدة عامة تصدق على هذا الشاعر كما تنطبق على كل شاعر سواه .

ولست من الذين يدينون بالمذهبية في الأدب أو في أي فن آخر من الفنون الإنسانية ، إذا كان المقصود من المذهبية أن يتحرى الأديب أو الفنان مذهباً من المذاهب ، أو يتعمد اتجاهاً بذاته ، لينسج نتاجه على منواله ، فإن هذه المحاكاة شأن المقلدين أو المتكلفين ، وليست شأن الفنانين المطبوعين .

وفي رأيي أن بعض النقاد يقعون في خطأ كبير حين يزعمون أن شاعراً هام بهذا المذهب

الأدبي أو ذاك ، وتشبث بأذياله ، واحتذى تعاليمه فألّف أعماله الأدبية وفقاً لتعاليم هذا المذهب أو ذاك .

ذلك أن الشاعر المطبوع يستغرق في تجربته، ثم يعبر عن معاناته بالأسلوب الفني الذي يجيده ، وهذ الأسلوب في حقيقته هو الصورة الفنية التعبيرية للتجربة والمعاناة ، ثم يأتي النقاد فيرون معالم متشابهة في نتاج مجموعة من الأدباء ، يستخلصون منها معالم الاتجاه ، ثم يجعلون من هذه الخصائص المتشابهة مذهباً يطبقون خصائصه على مايقع بين أيديهم من الأعمال .

وهذه المعالم أو السمات التي استخلصها النقاد ليس سبيلها في رأيي خضوع الأديب أو الشاعر لتعاليم أو نماذج يحتذيها ، إلا أن يفقد الأديب ذاتيته وقدرته على الإبداع .

وإذا كان محمود حسن إسماعيل ، ومثله أبو القاسم الشابي من شعراء الرومانسية فلم يكن أحدهما عارفاً بخصائص هذا المذهب ، ولا بالاسم الذي عرف به عند الأوروبيين ، ولم يكن واحد منهما صورة أو ظلا لشاعر من شعراء أوربا الرومانسيين ، لسبب بسيط وهو أن كلا الشاعرين لم تتح له فرصة الاطلاع على أدب من الآداب الأوربية ، لأنه لم يعرف من لغات البشر غير اللغة العربية .

* * *

سئل محمود حسن إسماعيل يوماً : أ تعد نفسك من المدرسة الحديثة في الشعر أم إنك امتداد لشعرائنا الذاهبين ؟

وكان مما أجاب به على هذا السؤال :

« أنا امتداد لنفسي . ولا يوجد شاعر قديم ولا شاعر حديث إلا في تقويم الزمن! أما في جوهر الشعر فيوجد شاعر تنبع أنغامه من نفسه ، وتقف الموهبة الأصيلة كلها طوع فنه في التعبير عن أعماقه ، فهذا هو الشاعر الحي!

« ويوجد شاعر يغرف تجارب الآخرين ويتقمصها ، ويخرج بها على الناس في زي مستعار ، ولايحمل وراءه نفساً ، ولا إشعاع روح ، وهذا هو الشاعر الميت !»

ثم قال :

« إنني لا أومن بالتناسخ في الفن ، ولا بالصور المعكوسة من مرايا الآخرين! والشاعر العربي

في عصره كان اهتزازاً لوجوده ، وتعبيراً عن قومه وأحداث زمنه .

« وكنت امتداداً لنفسي منذ صدر لي ديواني الأول « أغاني الكوخ » وقد كان جديداً بموضوعه وتجربته الشعرية !»

وقد صدق الشاعر فيما تحدث به عن نفسه وعن شعره ، الذي أفصح تمام الإفصاح عن أصالته ، وحمل الأدباء والنقاد على الاعتراف له بالشاعرية المتمكنة ، والإبداع الممتاز .

وقد عزف محمود حسن إسماعيل على قيثارة شعره سائر اللحون ، فلم يقف شاعريته على نسق من الأنساق التي عرفها تاريخ الشعر العربي القديم أو المستحدث . وإنما كانت تجاربه ومضموناته هي التي تقوده إلى القوالب التي تختارها ؛ لتصب فيها تياراتها التي تمتاح من معين لا ينضب بين جوانحه ، وفي أعماق نفسه .

ولذلك تجد في شعره النسق العمودي بموسيقاه الملتزمة ، وقافيته الموحدة ، وقد تطول هذه القصائد العمودية طولاً ظاهراً . ولكنك تجدها مع هذا الطول الذي تجده في شعر الفحول عامرة بمضمونها . غنية بتجاربها ، محتفظة بقوتها ، زاهية بصورها الفنية التي برع الشاعر في تأليفها على نحو لا يدانيه فيه شاعر من أولئك الشعراء الذين نسميهم « شعراء الصورة » .

وما كنت أحبّ أن أسوق هذه الأحكام مجردة من شواهدها ، فتكون أشبه بالدعوى من غير بينة ، لولا ضيق المجال .

ولكني برغم ذلك أجتزئ بصورتين من الصور التي تحتشد في شعره بعامة ، والتي ركبتها عبقرية الشاعر الصناع ، وجسدها خياله الخصيب .

والأولى منهما من ديوانه الأول « أغاني الكوخ » ومنها :

وتخالُ الضّحا عليه بروداً ... فصلتْ من سَنى شعاعٍ وعسجدْ

و قُدودُ النخيل قاماتُ غِيدٍ ... ساكراتَ من خَمرةِ الطَّلِّ مُيَّدْ

خنقتْ حولَها الدّوالي فَرِيعتْ ... وتأسّتْ على الأسيرِ المقيّدْ

لطمتْ سُوقها على الثّور حُزْنَا ... حرَّة فُجعتْ على مستعبَدْ

والأسير المقيد هنا هو الثور الذي يجر الساقية .

والأخرى من ديوانه « أين المفر ؟» ، وقد قدم لها بهذه الصورة العجيبة :

« وفتحت حانة القمر أبوابها للسنابل والأكواخ والنخيل ، فراح يشرب سرّها من أنين المناجل في يد الفلاح الحزين » وأنشد :

سِيَّانِ في جفنه الإغفاءُ والسَّهرُ	نامت سنابلهُ واستيقظ القمرُ
نعسَان يحلُم والأضواءُ ساهدةٌ	قلبُ النسيم لها وَلْهانُ ينفطِرُ
مال السَّنَى جاثياً يلقي بمسمعهِ	هَمساً من الوحي لايُدْرَى له خبرُ
وأطرقتْ نخلةٌ قامتْ بتلْعتهِ	كأنها زاهدٌ في اللهِ يفتكِرُ
إن هفَّ نسْمٌ بها خِيلتْ ذوائبها	أناملاً مرعشاتٍ هزّها الكِبَرُ
كأنما ظلُّها في الحقل مضطهَدٌ	صمْتُ السكون إليه جاء يعتذِرُ

وعلى هذا النحو من عمل الخيال ، وترادف الصور وتلاحقها ، يمضي الشاعر في قصيدة تناهز أبياتها خمسين بيتاً من الشعر الموزون المقفى ، لا يخلو بيت منها من صورة مركبة أو متممات صورة في بيت سابق .

وتلك إحدى الخصائص الفنية التي يمتاز بها شعر محمود حسن إسماعيل .

* * *

ومع هذه الإجادة والإبداع في قوالب الشعر التقليدية لم يقف الشاعر عند حدوده المرسومة، بل إننا نراه نزّاعاً إلى التحرر من كل قيد سوى ماكانت تمليه طبيعته الفنية التي كانت تقوده إلى اختبار القوالب الموسيقية التي يراها قادرة على استيعاب تجربته ، وأدائها على الوجه الذي يرضاه .

ولذلك نجد في شعره أنساقاً شتى من هذه القوالب الموسيقية في الأوزان والقوافي ، فنرى فيها المزدوج ، والمربع ، والمخمس ...

ونجد فيها المرسل ، وما يختلف فيه عدد التفعيلات بين صدره وعجزه .

بل إنك لتجده في بعض الأحيان يصوغ القصائد الطوال التي تتعدد فيها الأوزان ، وتختلف فيها عدد التفعيلات مما يقربها كثيراً مما اصطلح على تسميته في زماننا « الشعر الحر » .

ومن رأيه أنه ليس هناك شعر حر وشعر مقيد ؛ لأن الشعر هو تعبير موسيقي عن ذات الإنسان وانفعالاته . فإن خلا الشعر من هذا لا يصح أن يسمي شعراً على الإطلاق ، سواء كان

بقافية موحدة و وزن واحد أو كان بقواف و أوزان متعددة .

وهذا الكلام كما ترى لا يعكس موقفاً صريحاً واضحاً في الشعر الحر ، لأنه أكد فيه ضرورة توافر العنصر الموسيقي ، وضرورة الانفعال بالتجارب الشعورية .

أما الوزن والقافية فإن ظاهر الكلام يدل على أنه يشترطهما ، وإن كان لا يعنيه وحدة الوزن أو وحدة القافية ، أو التعدد فيهما .

وتنبغي الإشارة إلى اللغة التي كان يستخدمها محمود حسن إسماعيل في المحاكاة الشعرية .

وأستطيع أن أقرر في إيجاز وفي غير تحفظ أن محمود حسن إسماعيل كان أحد الأفذاذ من الشعراء المعاصرين الذين توافرت لديهم القوى البيانية ، وأن اللغة التي استخدمها في التعبير عن عواطفه وتجاربه كانت من النمط العالي في اللفظ المتخير ، والمعرض الأنيق الذي انقادت فيه الألفاظ لمعانيه وصوره في غير تكلف ولا استكراه ، وفي التركيب المتقن البليغ الذي لا ترى في إشراقه ابتذالاً ، وترى صوره الفنية وقد ازدادات به تألقاً وجمالاً .

ولا شك أن الثقافة اللغوية الواسعة التي كان يتمتع بها الشاعر ، وذوقه الفني المرهف ، كان لهما دخل كبير في صفاء ديباجة شعره ، وفي قدرته على إجادة التعبير ، وإتقان التصوير.

ولابد للتجارب الحادة القوية من اهتمام وعناية لا يقلان عنها حدة وقوة . ويقول « لاسل أبركرمبي » من كبار النقاد الإنجليز : « من الجائز أن نصف التجربة التي لها السيطرة على نفس الفنان بأنها الإلهام الذي يسبب إخراج العمل الأدبي . وفي هذه الحالة نرى أن القاعدة هي أنه كلما عظم الإلهام تطلب قوة فنية أعظم لكي تعبر عنه ، لأن التجربة إذا كبرت وسمت لا بد لها من مقدرة على التعبير ، أسمى وأكبر ، لكي تحيلها إلى عمل أدبي يمثلها تمثيلاً صادقاً .»

وذلك ما يصدق تمام الصدق على تجارب محمود حسن إسماعيل وأدائه الشعري .

صَقر بن سُلطان القاسِمي

أراني مضطرًّا قبل أن أخوض في الحديث عن شعر هذا الشاعر الكبير إلى كلمة سريعة أذكر فيها شيئا قليلا أرى أنه يعين القارئ على فهم هذا الشعر ، وإدراك بواعثه بالوقوف على طرف من أخبار صاحبه ، والحياة العامة في زمانه ، وطبيعة المجتمع الذي عاش فيه ، والتجارب التي مرَّ بها ، وهي تجارب قاسية أثّرت في حياته ، وعملت على تكوين شخصيته العامة ، وشخصيته الفنية .

وأودّ أن أقرر قبل كل شيء أنني لا أعدّ هذه التقدمة سيرة ذاتية للشاعر ، أو تاريخاً لحياته ، فإنني لم أقصد إلى ذلك ، ولم أعدّ له ، وليس بين يديّ ما يعينني على كتابة تاريخ مفصّل لهذا الشاعر الذي تأخّرت معرفتي به كثيراً .

* * *

تطوّرات هائلة وتغييرات كثيرة طرأت على الحياة العربية في هذا القرن العشرين ، وبرزت مظاهرها بروزاً واضحاً في النصف الثاني منه .

وكانت تلك التطوّرات والتغييرات نتاج كفاح ومعاناة في أطراف متفرقة من عالمنا العربي ، في فترات متقطعة من القرن الماضي ، وفي النصف الأول من هذا القرن ، كما كانت تلك التطوّرات ذات أثر كبير في حياة الشيخ صقر القاسمي أولاً ، وفي توجيه ملكته الشعرية ثانياً .

وقد شهد كل عقد من العقود المتتابعة في هذا القرن موجات جديدة من التطور والتغيير . ومنها موجات تتصل بجوهر الحياة التي يحياها الشعب العربي، وموجات لا تتجاوز الأعراض والظواهر ، ولا تصل إلى اللباب ، ولا تنفذ إلى الأعماق .

وقد أثرت هذه التغييرات في مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية والفكرية والفنّية ، وفي نظم الاجتماع وقواعد السلوك ، وفي كل نمط من أنماط الحياة في المجتمع العربي .

والوطن العربي عالم كبير مترامي الأطراف يحتل مساحة كبيرة في قارتين من قارات الدنيا

الخمس ، ويجمع بين الذين يعمرون هذه المساحات الشاسعة أواصر قومية من وحدة الجنس ، و وحدة اللسان ، ويدين السواد الأعظم منهم بالإسلام .. وقد تباعدت ديارهم ، واختلفت بيئاتهم بين صحاري مجدبة ورياض معشبة ، وأرض خصبة تجود بصنوف من الزروع والثمار ، وفيها الأنهار الجارية التي ترويها بانتظام ، ومنها ما تسقيه مياه الأمطار ، وما تستقي من العيون أو الآبار .

كذلك يختلف سكان تلك البقاع من حيث العمل في رعي الأغنام وفلاحة الأرض وزراعتها ، وتربية الماشية والأنعام ، وفي مزاولة بعض الصناعات .

ويضيق بعض هذه المواطن بساكنيه ، فيضطرون إلى الرحيل عن ديارهم طلبا للرزق في أرض الله الواسعة . وقد تفجرت ينابيع الرزق في مواضع كثيرة من الصحراء ، فنعم أهلها برغد ورخاء لم يشهدوه هم ولا آباؤهم من قبل ، ورحل إليهم كثير من إخوانهم في العروبة أو في العقيدة يعملون معهم ، أو يعملون لهم ، ويقاسمونهم شيئا مما منّ به الله عليهم من سعة العيش وخصب الحياة .

وفي بعض تلك الأوطان آثار حضارات عريقة موغلة في القدم ، وفي بعضها حياة بدائية صحبتهم منذ القدم ، وعاشت معهم إلى وقت غير بعيد .

ولكن رباطاً واحداً — عدا رباط الإسلام — ظل يصل بين القلوب ، ويوحد بين المشاعر والعواطف ، وإن تباعدت المواطن ، وتباينت البيئات ، واختلفت المهن والصناعات ، وأعني به رباط الجنس ، أو رباط الانتساب إلى أمة العرب ذات التاريخ المجيد .

* * *

ويتميز العصر الذي نعيش فيه بأنه عصر الصحوة والانبعاث لأمتنا العربية ، الذي أحسّت فيه إحساساً قويا بوجودها ، وعرفت أن لها دوراً يجب أن تنهض به في قيادة حركة الحياة بعد فترات من الضعف والتخاذل الذي أدّي بها إلى الضياع ، فقدت فيها هُويّتها بعد أن استبيح حماها ، وأصبح نهباً لقوي عاتية غريبة عنها ، دمرت قوتها ، ومزّقت وحدتها ، وأوقفت نبض الحياة في عروقها .

ونشطت الفكرة العربية ، وانطلقت من عقالها ، وارتفعت أصوات عربية تنادي بالحرية ، وتهتف بالقومية العربية ، وتدعو إلى وحدة الأمة العربية ، وحشد طاقاتها لاستخلاص حقوقها المغصوبة ، ومقدراتها المسلوبة ، واستعادة أمجادها الغابرة التي تهاوت في فترات طويلة من

الغفلة التي أدّت إلى التمزق والشتات ، وجعلتها لقمة سائغة ، ومطمعاً للغزاة والمتربصين الذين ابتزوا ثرواتها ، وتحكموا في مصائرها .

وتولد عند الأحرار من بني يعرب الشعور بالانتماء إلى هذا الجنس العربي الذي حفظ التاريخ أمجاده في أنصع صفحاته . ويتوقف ذلك الشعور بالانتماء عند الأحرار على مدى ما يتمتع به العربي من الوعي ، والشعور بالأصالة التي تدفعه إلى الإحساس بوجوده ، وبأن لأمته كياناً متميزاً جديراً بالحياة الكريمة التي تحياها أمم وشعوب سبقتها إلى النهوض من هوة الفقر وحياة الفوضى والظلام ، ولا يسمح له هذا الإحساس بالتهاون في تقدير نفسه ، أو الشك في شرف جنسه ، أو الانصهار في غير بوتقته ، أو الذوبان في جماعات غريبة ، لأنه لا يعترف بفضل جماعة منها على قومه أو على جماعته ، بل إنه يعتدّ دائما بانتسابه إلى سلالة متميزة لها خصائصها ومقوماتها التي جعلت لها دوراً معروفاً في حركة التاريخ ، ورأت فيها إحدى الدعائم القوية التي قام عليها وجودها ، ومنحتها القدرة على مواجهة الحياة ، وعلى بناء المستقبل لها ، وللبشرية كلّها.

وقد حرم الشعور بتلك الأصالة ، أو الشعور بذلك الانتماء نفر من أبناء هذه الأمة ، وإن اتخذوا من العروبة نسباً ، ومن أوطانها سكناً ، ومن لغتها لساناً . ولعلهم اضطروا إلى ذلك الانسلاخ اضطراراً ، وحملوا عليه حملاً ، ولعلهم اختاروه اختياراً ، ليجاروا الغالبين ، ويصانعوا الأقوياء ، إحساساً منهم بالنقص أو بالضعف والقصور . وأنت ترى أثر ذلك فيما تسمع في كلامهم ، وفيما تقرأ من كتاباتهم ، وما ينقلون من آراء يُدِلُّون بها على شركائهم في الجنس أو في المعتقد أو في اللسان ، وقد يكونون أعلم منهم بما يقولون ، وأفقه منهم ، وأكثر وعياً بما يدّعون من آراء تخطفوها من هنا وهناك ، وحاولوا بها أن يوهموا قومهم بأنهم أصحاب الرأي السديد ، و العلم الجديد ، و المنهج المتميز في التفكير ، متجاهلين ما خلّف أسلافهم من تراث غني حافل بأفانين العلم وصنوف المعرفة ، ثم لا تلبث الحقائق أن تتكشف ، ويتعرف الباحثون عليها ، ويستطيع الباحثون التمييز بين الأصوات والأصداء ، ومعرفة الأصيل من الدخيل .

وربما دفعهم حبّ التفرّد والاستعلاء إلى التنكّر للمأثور الجيد من تراث الأسلاف ، والتهوين من أمره ، والغضّ من شأنه ، فصدفوا عن ارتياد مناهله ، وصدّوا غيرهم عن البحث عن كنوزه ، جهلاً وغروراً .

ومردّ ذلك إلى ما يسمى مركب النقص ، وهو مرض نفسي يتولد في نفس الصغير يريد أن

يبدو كبيراً ، وفي نفس الجاهل يشتهي أن يُذكر في العلماء ، وفي نفس الخامل يريد أن يكون له مكان في طليعة النابهين ، وفي نفس الوضيع الذي يحلم بأن يكون واحداً من السراة ، ثم في نفس المتخلف المغلوب الذي يشرئب إلى منزلة عند الغالبين أو المتحضرين .

ولا شك أنه كان للحكام الغرباء والمستعمرين الدخلاء دور كبير في وجود هذه الطبقة من المستضعفين بين أبناء الأمة ، فإن أولئك الدخلاء يعرفون طبائع الضعفاء في الأمم المغلوبة ، وسرعان ما يستكشفونهم ، وسرعان ما يهرع إليهم أولئك المتطلعون ليلتقطوا ما يتساقط من فتات موائد أولئك السادة التي يتهافتون عليها تهافت الجياع على الطعام ، أو تهافت الذباب على الشراب ، فيجدون فيهم ما ينشدون من الدعاة لهم ، والأعوان على ترسيخ سلطانهم ، وسرعان ما ينسلخون من جلودهم ، ويفتّون في أعضاد أممهم .

وبمثل ذلك تحطمت الشخصية العربيّة ، وأصبح ذلك الهيكل المتين أشبه بالريشة تتقاذفها الرياح من كل جانب ، وكأنها لا أصل لها تعتمد عليه ، وهي في الوقت نفسه عاجزة عن أن تنتسب إلى أصل جديد ؛ لأن هذا الأصل الجديد لا يعترف بها ، ولا يطمئن إليها ، والويل دائماً للمغلوب .

وبقيت بقية من أبناء هذه الأمة وفيّةً لعروبتها ولغتها ومعتقدها وسلوكها في الحياة ، ولو أدّى بها ذلك الحفاظ إلى الغضّ من شأنها ، والتهوين من أمرها ، وإلى وصفها بالرجعيّة ، و وصمها بالجمود أو التخلف ، وكأنهما سمتان ملازمتان لكل حفيظ على تراث قومه ، ومعتدّ بمقوّمات أمته .

* * *

والشيخ صقر بن سلطان القاسمي واحد من تلك البقية الباقية من أهل الحفاظ على القيم العربية الأصيلة ومآثرها ، والاستمساك بتقاليدها قولاً وعملاً وسلوكاً ، وبذلا وتضحية في سبيل المثل التي تؤمن بها هذه الأمة ، وتكبر المستمسكين بها والعاملين عليها .

لقد قرأ الشيخ صقر تاريخ أمته ، و وعى ببصيرته النافذة ما سطر التاريخ من أمجادها ، وما فاضت به صحائفه من آيات عزّتها وإبائها وبطولتها التي عاشت بها مرفوعة الرأس مرهوبة الجانب بين أمم الأرض التي جاورتها والتي عاصرتها ، وخرجت ظافرة في كل معركة من المعارك التي خاضتها دفاعاً عن نفسها أو عن عقيدتها ، ولم تستطع الجيوش الجرارة التي جهزها أعداؤها بالسلاح والعتاد أن تعتدي على أرضها ، أو يكون لها سلطان على شعبها الأبيّ

الباسل الذي عاش في جزيرته حرًّا كريماً .

اقرأ شيئا مما عبّر به الشيخ صقر عن تلك الأمجاد في قوله [١] :

هل خلّف الدهرُ من سَلْوى تؤاسينا   إذا رجعنا إلى تاريخ ماضينا
كنّا برغم الأعادي أمّةً عرباً   نقضي بآرائنا فيهم كما شينا
سُدْناهمُ فجعلْنا العدلَ مبْدأنا   والعفْوَ عن كلّ مُخطٍ من أعادينا
وكمْ مددْنا إلى نيل الفخار يداً   فكان ماحوتِ الدنيا بأيدينا
لا تطلع الشمسُ إلا مِنْ مرابعنا   والفخرُ والمجدُ إلا من صَياصِينا

ويشير إلى شيء من صنيع الأسلاف في بناء تلك الأمجاد ، فيقول :

شادتْ أميّةُ ما عن نيْله قَصرتْ   غُرُّ الملوك وما آدَ الفراعينا
إذا وقفْتَ على التاريـخ تسألُهُ   أجاب بالحق إنا خيرُ بانينا
جُبْنا البحارَ ولم تصرفْ عزائمنَا   أمواجُها ، وقطعْنا الصينَ غازينا
وكمْ لنا ببلاد الفُرس واقعةٌ   نُملي انتصاراً لنا بالسعد مقرونا

وتلك المفاخر في نظر الشاعر مفاخر باقية جديرة بالحفاظ عليها ، والتنبُّه لما يحاول أعداء العروبة من انتقاصها ، أو تشويهها ، وطمس معالمها حتى لا يبقى للعروبة شيء منها ، فلا تكون لها سابقة تعتمد عليها ، أو تراث تباهي به في حاضرها ، وما علموا أن في بنيها الأحرار من يغارون عليها ، ولا يفرطون في شيءٍ منها ، وأنهم مستعدون دائما لتلبية داعي الجهاد لاستعادة تاريخهم المجيد ، واسترداد حقوقهم التي ضيعها التواني والتواكل ، وتفرق الكلمة واختلاف الرأي :

مهما سعى الخَصمُ في تحطيم سالفها   فدونَ ما رامَ سيفُ الله مسْنونا
أحفادُ يعرُبَ سورعن إهانتها   وهمْ لها إنْ دعا الداعي مُلبُّونا
هيّا إلى المجد صفا لا عدمتكمُ   إن الحياةَ نصيبُ المستميتينا
أما كفتْ ذلةٌ سِيمَتْ ربوعكم   بها ؟ أ لا صيحةٌ تسْري بوادينا
تعيدّ من سالف التاريخ عزّته   وتبعث الفخرَ حيا في مغانينا ؟

(١) ديوان « لهب الحنين » . بيروت ، دار العودة ، ١٩٩٠م . قصيدة عنوانها التراث ص ٥٦٨ .

وفي سبيل ما كان يؤمن به الشيخ صقر من عظمة هذه الأمة ، وما يعرف من قدرتها على النهوض والتخلص من براثن الاستعمار ، واستعادة ما درس من أمجادها ، في سبيل ذلك ضحى بالمنصب الرفيع الذي كان يتسنّمه في حكم إمارة الشارقة ، إحدى الإمارات العربية في منطقة الخليج العربي التي وقعت في قبضة الإنجليز بعد انهيار دولة الخلافة العثمانية ، وتقلُّص سيادتها على البلاد الشاسعة المترامية الأطراف بعد أن قد اتسع سلطانها ليشمل أكثر البقاع التي كان يعمرها العرب والمسلمون في أوربا وآسيا وإفريقيا .

وقد ورث الشيخ صقر الحكم في الشارقة عن أسلافه من القواسم ، وضاق الأمير العربي الأصيل ذرعا بتسلط الأجانب على حكم تلك الإمارات ، وامتلاكهم زمام الأمور فيها ، فقد كانوا يديرونها على حسب مقتضيات مصالحهم السياسية والحربية والاقتصادية ، وأبناء البلاد وشيوخها في شغل عن حقوقهم ، وأمانيّ شعوبهم ، وعن الثروات التي يستنزفونها من أرضهم.

وقد أحسّ الشيخ صقر بهذه المهانة إحساساً عميقاً منذ صباه ، وكانت حدة انفعاله بها هي التي أثارت شاعريته ، فكان أول شعر جادت به قريحته وهو في الرابعة عشرة من عمره قصيدة ثائرة يقول في أولها :

يا بنة الفكر هاتي ما في الضمائرْ   فلقد آنَ أنْ تبـوحَ السّرائـــرْ

أنا ساهٍ بمَهمـهِ مـــن خيـــال   لا أرى لي في قطْعهِ أيّ ناصرْ

ولم يعد يذكر ما بعد ذلك إلا قوله :

و يدُ الأجنبيِّ تلعب دَوْراً   في حماهُ والكلّ راضٍ وصاغرْ

يا عُمانُ وأنتِ أعظم شيء   يا عمان عندي ومجْلى البصائرْ

نام عنكِ البنونَ يا فَخْرَ قحطانَ   فألقيتِ للرّدى والمجازرْ

أسلموا عرْشكِ العظيم فأمسَى   لقمةً يا عُمانُ في كفِّ كاسِرْ

* * *

تلك هي الباكورة التي ابتدأ بها الشيخ صقر حياته الشعرية ، وقدمها متواضعاً في مقدمة ديوانه على أنها أول شعر أنشده في تلك السنّ المبكرة ، ويبدو أنه أعجب بما وفق إليه من نظمها ، ويقول إنه فخر بها ، وأخذ يعرضها على من يعرف ، وعلى من لا يكاد يعرف ، لأنها كانت « الشرارة الأولى التي انبعثت في قلبه الحالك !»

ولم نعرض لهذه الأبيات إشادة بها ، أو إعجابا بفخامتها ، أو بمتانة نسجها ، أو لأن فيها من معالِم الفحولة ما نراه في سائر شعره الذي سنعرض له في هذه السطور . ولكنا عرضناها لنبيّن أن صاحبها أحسّ وهو حدث صغير بهذه المشاعر الوطنية بعد أن رأى سطوة المستعمر الدخيل على وطنه وشعبه ، وتقاعس أبنائه عن أداء واجب الجهاد في سبيل تحرير أنفسهم من قيد الاستعمار ، وإزاحة ذلك الكابوس الثقيل الجاثم على صُدورهم .

وبعد ذلك استيقظ الشعب العربي من غفلته ، وبرزت دواعي الوحدة بين الأقطار العربية ، وكثر الدعاة إليها ، تبعاً لنموّ الوعي القومي ، وانتشاره في بعض تلك الأقطار ؛ إذ هبّ الأحرار فيها يطالبون بضم الصفوف ، وحشد القوى العربية لإنقاذ الوطن العربي من الاستعمار ، ومما يعاني أبناؤه من التمزق والضياع ، ليقفوا صفا واحداً في وجه الأعداء الذين طغوا في البلاد ، واستبدوا بها ، وتحكموا في مقدّراتها وثرواتها . وانبعث من مصر صوت جمال عبد الناصر يدوّي في أرجاء العروبة ، ويدعو العرب إلى ضمّ الصفوف ، وإلى توحيد الهدف ، وإلى تسخير الطاقات ، ثم التصدّي لأعدائهم ، وتحرير أوطانهم من ربقة الاحتلال والاستعمار .

وكان صقر القاسمي في طليعة الذين استجابوا لفكرة العروبة ، والدعاة إلى وحدة العرب ، وتحرير أوطانهم من حكم الدخلاء المستبدين ، حتى من قبل أن تنطلق صرخة جمال عبد الناصر ، وتدوّي في الآفاق ، فقد أشربت نفسه حبّ وطنه والغيرة على أهله وقومه منذ نعومة أظفاره ، وظلت هذه المشاعر تنمو معه ، وتتفرع يوما بعد يوم ، وتترسخ جذورها في أعماقه . وظلت شاعريته التي نضجت واستوت على سوقها تؤتي أُكلها ، وتفصح عن مشاعره ، وتعبر عن عواطفه الصادقة طوال حياته .

وإنك لتقرأ بعد ذلك من شعره ما ترى فيه آيات النضج واستواء الملكة فيما ضمنه من آثار الحسّ المرهف العميق ، وبما اجتمع له من سلامة البناء وقوة الأداء باللفظ المختار ، والعبارة المحكمة الأنيقة .

وفي واحدة من تلك القصائد العاطفية تقرأ ما طبع عليه الشاعر من الحميّة العربية ، وإيثار البذل والتضحية على الدعة والنعيم في سبيل ما يحسّ به من الأسى لما حلّ بالوطن من ضيم وبإخوانه في العروبة والدين من وهن وتقاعس . وأعني بذلك قصيدته التي يدل عنوانها « إنني ملك بلادي » على موضوعها . وفي آخرها يقول مناجياً من كانت تهتف باسمه بلحنها الطروب السّاحر :

ابعثي ماضيّ يُنبئْك بأسْراري وحُزْني
وسَلي الأنجُمَ في أبراجِها تخبرْك عنّي
بَرِّدي قلبي الذي ألهبَهُ الهمُّ بلحْنِ
ضلَّ ما أمضيْتُ من عُمْري بصحراء التمنّي
صاحَ بِي صوتُكِ في المهد فلبّيتِ نِداهْ
صاحَ بِي أنْ أكْرَهَ الضيم فيمّمتُ هداهْ
صاحَ بِي ألا أراعي البُطْلَ أو أقفو خطاهْ
صاحَ بِي ألا أدَاري البغْيَ إنْ هزَّ عصاهْ
أن أكونَ الحرَّ في أرضي وإيمانِ اعتقادِي
وألبّي وطني الغالي إذا نادى المنادي
قلْ لمن يرْجو خضوعي وسكوتي واضطِهادي
أنا لا أملكُ إلا أنني ملكُ بلادي

هذه القصيدة المفعمة بالمشاعر الوطنية أنشدها الشاعر وهو بالشارقة سنة ١٩٤٦ م ، أي قبل أن يسمع أحد صوتاً لجمال عبد الناصر بسبع سنوات .

وإنما ذكرت ذلك لأقرر الحقيقة الواقعة ، ولأفنّد الفكرة السائدة التي يزعم أصحابها أن انطلاقة الشيخ صقر القاسمي في الشارقة كانت صدى لصيحة جمال عبد الناصر في القاهرة، وقد رأينا الانفعال بحرارة المشاعر الوطنية المتأججة في صدر الشاعر يبدو أثره الواضح في هذه القصيدة وقبلها في أول شعر افتتح به حياته الأدبية وهو في الرابعة عشرة من عمره كما مرّ بنا.

وكذلك كان صقر القاسمي في طليعة المؤمنين بفكرة العروبة والدعاة إلى وحدة العرب ، وتحرير أوطانهم من حكم الطغاة المستبدين والدخلاء المستعمرين.

ولنا أن نضيف إلى ذلك الإيمان الذي وقر في نفسه وملأ قلبه بحب وطنه ، ومعرفة حق هذا الوطن في حرية شعبه ، وسيادة أبنائه على بمقدراته ما امتلأ به قلبه الكبير من رباطة الجأش، ومن الشجاعة التي لا حدود لها ، والتي لا تحسب حسابا للواقع الأليم الذي كان يقض عليه مضجعه ، وهو وقوع بلده وما جاوره من الإمارات العربية في قبضة الدخلاء الذين احتلوه بقوة

السلاح ، واستنزفوا ثروته ، وأصبح العربي الأصيل غريبا في بلده ، أو أجيراً يخدم سادته من المستعمرين الذين يصولون ويجولون في حماه ، ويملئون خزائنهم من وفره ، ولا يصيب منه إلا ما يتساقط من فتات موائد سادته .

* * *

ولم يتوقف لحظة عن إيقاظ النيام ، وتنبيه الغافلين ، ولم يزل يشكو بَثَّه وحزنه من صمت الذين حوله من الأمراء الذين رضوا بالهوان ، وعاشوا في ظلال الاستعمار ، وقنعوا بما في أيديهم من الحطام ، وتسلّوا بألقاب الحكم والإمارة التي خلعوها على أنفسهم ، وتركوه وحده يكافح الطغيان ، ويصارع المستعمرين ، وكأنه ليس في الميدان فارس سواه ، فيحسّ بالوحدة ، وتظلم في وجهه الحياة ، حتى يجفوه المنام ، وتكاد تتحطم في صدره الأحلام . استمع إليه في هذه الأبيات الحزينة :

كلّ قلب خلا فؤادىَ سالٍ ... مَنْ مُعيري قلباً خَليّ الوطابِ ؟
إنْ يكنْ طابَ للخليّ منام ... فمنامـي زواهُ عنـي عذابـي
أو زهتْ هذه الحياةُ لقلبٍ ... فضياها أمـام طرْفـي كـابِ
أقطعُ العمرَ شاردَ الذهن ساهٍ ... مُوجَعَ النفس من أليم اضطرابي!
يتنزّى ما بيـن جنبـيّ واهٍ ... حطمتْـهُ الأيـامُ بالأوْصـابِ

حتى لقد يضيق الشاعر بالحياة في بلده بين قومه وعشيرته ، ويبلغ به الضيق غايته ، حتى يتمنى أن لو استبدل بالبلد الذي هو أميره ، وبالعرب الذين ينتمي إليهم بلداً غيره ، و قوما آخرين يعرفون أوطانهم في البذل والجهاد في سبيل عزتهم وكرامتهم ، ويرفضون العيش الذليل في حماية المغتصبين .

ويصل به السخط إلى حدّ إيثار بيع هويته ، وإعلان البراءة من قومه الذين غشّى الجهل على قلوبهم ، فأصبحوا لا يعنيهم إلا أن يملئوا بطونهم ، ولو أوردوا شعوبهم موارد الخزي والعار .

تقرأ ذلك في أبياته الغاضبة التي يقول فيها :[1]

---

(١) ديوان « لهب الحنين » ، قصيدة « بعث الهوية » ، ص ٦٨ .

لا تشتُمنّي فإني لستُ بالذّنَبِ ذاك الجبانَ الذي يُنمي إلى العربِ
بِعْتُ الهويّة في سُوق المزاد فَلَمْ أندمْ ومزّقتُ ما سطّرتُ من أدبي
لسَوْفَ أبحثُ عن قوم ٍمواطنهُم هُم فِداها فما ذلّتْ لمغتصِبِ
عساهم يقبلوني في ديارهمُ جاراً إذا أنا قد أخفيتهم حَسَبي!
إنّي لأخجلُ أن أعزَى إلى بشر للمال داسُوا على الأعراض والنسَبِ
ذَلّوا فما همّهمْ إلا بطونهمُ وطاعةُ الخصْم ِما ملّوا من التعبِ
وساسهُم جاهلٌ أو فاسقٌ نزقٌ وقادهمْ شرُّ مأفونٍ إلى العطبِ
فاستسلموا فهمُ القطعانُ سائمةً أنّى تُوجّهُ تمشي مشي محتسبِ

هؤلاء هم ساسة العرب وقادتهم كما يصوّرهم الشاعر في هذه الأبيات ، لا همّ لهم إلا إشباع نهمهم ، وإرضاء نزواتهم ، وكأنهم قطعان من الماشية يصرفها الراعي حيث يشاء من غير أن يسمع من أحدهم نكيراً ، أو يرى فيهم متمرداً على استبداده وطغيانه .

ولقد بلغ الغضب بالشاعر هذا المبلغ الذي نقرأ فيه آثار ثورة عنيفة جامحة في أعماق الشاعر مع ما نعرف من سماحته وهدوء طبعه وعفّة لسانه ، ولا شك أن ذلك ينبئ عن حالة نفسية أخرجته عن طبعه ، وأفقدته سماحته وهدوءه إلى هذا الانفعال الحادّ ، وإلى هذا الضيق بما يحسّ به من الوحدة أو الغربة عن قوم لا يحسّون إحساسه ، ولا يعرفون حق أمتهم في الحياة الجديرة بها جهلاً عليها ، وجبناً عن عدوّهم الذي يصرّفهم كما يشاء له صلفه وغروره ، وقد نسوا آباءهم الذين خلفوا لهم أمجادا لا تبلى ، وكأنهم طبعوا على الذل فاحتملوه صاغرين، ورضوا بالضيم فتجرعوه راضين ، وتركوه وحده في الميدان يصارع الطغيان بعزيمة الرجال ، ولا يجد من قومه وليا ولا نصيراً .

حتى ليبدو من مواقف هؤلاء السادة أن الشيخ صقر إنما يعمل لحسابه ، وأن القضية التي يناضل من أجلها هي قضيته الخاصة ، وهي في الحقيقة قضية الوطن كله ، أو قضية العروبة التي تحاول استعادة أمجادها ، وأن تجد لها مكانا في هذا العالم الصاعد المتحرك ، لا في عالم الخنوع والهوان ، أما قومه فقد وجدهم كما يصفهم :

لم تنْدَ من خجل المأساة أوجهُهمْ وكيف يَنْتَدَى جبينٌ مات بالرهَبِ؟
ما فيهمُ من دم الماضين ثائرةٌ تأبَى الهوانُ فهم أنضاء مُخْتَلَبِ
جَروا على العار ما يرفضٌ من خجل منه ، فلم يرضَ منهم وجهَ مُنتسِبِ

ومن عجب أن نفوسهم لا تصفو ، ولا يرضون إلا عمّن يسيء إليهم ، ولا يبغضون إلا من يكرمهم ويحسن إليهم ، وليس ذلك من أخلاق الرجال الذين يطلبون المعالي ويحرصون عليها، ولكنها أخلاق اللئام الذين يسرعون إلى ما فيه هوانهم :

إذا أهينوا صفتْ بشراً سرائرهـمْ وإنْ همْ أكرموا ثاروا من الغضَبِ

بهمْ شُموسٌ عن العَلياءِ تمنعهمْ فكلّ سعيهمُ حَبْوٌ على الرُّكبِ

وليس مبعث هذا الشعر العنيف الغاضب بغض الشاعر لقومه ، أو تنكره لهم ، أو محاولته انتقاصهم بتجريدهم من الفضائل الإنسانية كما قد يبدو لأول وهلة ، فإن أكثر ما نقرأ من شعر الشيخ صقـر في هذا الديوان هو الشعر الذي يشيد فيه بعظمة الأمة العربية ، ويتغنى فيه بأمجادها ، ويتحدث فيه عن بطولاتها ، ويعتدّ فيه بالانتماء إليها ، وهو شعر حافل بمعاني الوطنية والفداء والتضحية .

ولكنها نفثة مصدور استولى عليه الكمد واليأس من نصرة من كان يؤمّل في نصره ، ومن كان يتوقع أن يقف إلى جانبه ، ويؤيده ويشدّ أزره في مواجهة الأعداء الذين كان يعمل جاهداً على الخلاص من سلطانهم ، وتطهير أرض العروبة من رجسهم .

ولكنه وجدهم يظاهرون هؤلاء الأعداء ليبقوا على آمالهم أو أوهامهم في السيادة والسلطان على شعبهم الأعزل المسكين .

ومن هنا كانت تلك الثورة العارمة على مواقفهم ، وكان إيثاره حياة الوحدة مع ما يعاني معها من العلل والآلام التي كان في غنى عنها لو أنه رضي بما رضوا ، واستسلم كما استسلموا ، و وسعه ما وسعهم :

وحْدي أعيشُ الهمّ وحدي من يحمل الآلامَ بعدِي[1]

تتلاطم الأمواجُ مـــن شتّى الجهـات لهيـب وَجْدِ

والناسُ إمّا نائـم ، أو خانـــع ، أو عبـــدُ عبـدِ

ويلايَ ما لي أحملُ الآلامَ ؟ هل ضيَّعتُ رُشدِي؟

ربّاهُ إنْ قدّرتَ موتي فاجعلنْ بعُمـــان لحـــدي

---

(١) ديوانه « لهب الحنين » ، قصيدته (وحدي) ص ١٤٨ .

وطنٌ بذلتُ له الحياة رخيصةً وتركتُ ولدِي
كيما يعيش على السِّماك ، وإن يكنْ لم يوفِ عهدي
وطنٌ تفديهِ النفوس بكل ذي تاجٍ وبندِ
وطني الذي ولد الرجالَ فضيمَ بالخصم الألدِّ !

لقد أصيب البطل باليأس والإحباط فصاغ هذه الأبيات الملتهبة بعد أن وجد نفسه يصارع وحده جحافل الأعداء ، وليس لديه من القوة ما يلقى به هذه الجحافل الباغية ، وفقد الأمل في أنداده من ساسة البلاد وقادتها الذين وصفهم بالضعة والهوان والرضا بحياة الذل والاستسلام ، وقد كان يؤمن بشعبه الذي تجري في عروقه دماء العروبة بأصالتها وحميتها ؛ ويؤمن أن هذا الشعب لا بد أن يثور وينتزع حقه في الحياة الكريمة على أرضه .

استمع إليه متحدثا متفائلا بصحوة هذا الشعب ، فيقول على لسانه قبل هذه المرحلة التي وصل إليها من اليأس والإحباط :

إنّي أنا الطوفان كمْ في لُجّتي أغرقتُ من رام امتهاني واعتَدَى
صهرتني الصحراءُ فوق رمالَها حتى أحالتني لهيباً موقَدا
وحَبَتْني الخضراءُ فوحَ حنانها فوقفْت دون جلالها متعبِّدا
ما هانَ عزمي للخطوب ولا التّوى دربي وإن أرغى العدوُّ و أزبدا
سيكونُ حقّي ما ادّعاه غاصبٌ حقا له ، وأسُدُّ عنه المَوردا
سأفجّرُ الطاقاتِ فيمن ظنّهُ عبداً وأحْطمُ من توهّمَ سيدا
إنّي أنا الشعبُ الذي سيحرّر الأرضَ الكريمة بيعةً أو مَسْجدا
لا لست من يبكي الطلولَ ولا الذي إنْ قام عدوانٌ تضعضع للعِدا
إني أبيتُ القيدَ في أشكاله والحرّ يأبى أن يعيش مُقيَّدا
الأرضُ أرْضُكَ والسماءُ طليقةٌ فعلام تُسْلِمُ للعدوّ المقودا ؟

* * *

ولم يستطع الشيخ أن يكبت مشاعره أو أن يغالب هواه ، فيحني هامته ، ويساير الركب ، فيتنكر بذلك لمبادئه ، ويصفق مع المصفقين .

وكان الإنجليز يعرفون مشاعر الأمير الشاب نحو استبدادهم وطغيانهم ، فأخذوا يصانعونه ، ويفتلون له بين الذروة والغارب ، ويمنّونه تارة ، ويتوعدونه أخرى ، وهو لا يغترّ بوعودهم ، ولا يتأثر بوعيدهم .

ولكنه آثر الولاء لعروبته و وطنه على الولاء لمنصبه وجاهه ، و لم يكن الأمير الشاب غافلاً عما يبيّت له من سوء العقاب ، فتمادى في ثورته ، حتى كان أول ضحايا الفكرة العربية في ذلك الركن من أركان الوطن العربي الكبير .

فقد أطاح الإنجليز بإمارته ، ولم يكفهم ذلك ، ولكنهم نفوه من وطنه ، وأبعدوه عن بلده وأهله وعشيرته ، مخافة أن تنتشر دعوته بين حكام الإمارات ، فتزلزل سلطانهم ، وتقضي على مطامعهم في استمرار استنزاف خيرات تلك البلاد بعد أن أخذت ينابيع النفط تتفجر من أرضها.

ولو أنه صبر على كيدهم ، واستجاب لوعودهم ، لكان له شأن آخر ، كما يقول في أبياته الثلاثة « لو كنت » :

لو كنتُ من بعض السّوائم طائعاً	ما يأمرون رتَعتُ أطيبَ مَرْتَـــعِ
ولسيقَتِ الدنيا إليَّ بقضِّها	وقضيضها وانساق أهلوها معي
لكنْ أنفتُ بأن أصانعَ مَنْ بغَى	وطغى على مَجْد البلادِ الأرفعِ

وحاشا للأمير العربي الأصيل الذي شبّ وترعرع في بيت الحكم والسيادة أن يرضى لنفسه بالذلّ والمهانة ، وأن يكون كبعض السوائم يؤمر فيطيع وهو في وطنه وبين قومه الآمر المطاع ، حتى لو سيقت له الدنيا ، وملك الأرض ، وانقاد له أهلوها تحت راية العدوّ الجاثم على صدرها .

وكيف يرضى لنفسه وقومه هذا الهوان ، فيصانع البغي ، ويستسلم للطغيان ، ويضيع المجد الأثيل الذي بناه الأسلاف الذين دانت لسيوفهم الرقاب ؟

* * *

ويظلّ المرجل يغلي ويهدر في صدر الأمير الثائر ، وفي شعره الحارّ الذي لم يتوقف لحظة عن تنبيه الغافلين وإيقاظ النيام ، حتى ضاق به الغاصبون ذرعاً ، وأحسّوا بصوت النذير يؤذن بزلزلة أرض العرب تحت أقدامهم ، فينفذون وعيدهم ، ويحملونه على الرحيل بعد أن يئسوا من مصانعته واسترضائه ، وقبل أن يتسع الخرق على الراقع !

كان ذلك في منتصف العقد السابع من القرن العشرين (١٩٦٥م) حين قدم البطل العربي

إلى القاهرة مرفوع الرأس مهيب الجانب ، وفتحت له أرض الكنانة ذراعيها ، واستقبله أهلها بالترحاب والإكبار ، لأنهم رأوا فيه رمزاً للجهاد المقدس في سبيل المثل العربية التي آمن بها ، وضحّى بإمارته في سبيلها .

واحتفت به مصر وحكومتها وأوساطها السياسية والثقافية ، وتوافد على داره في القاهرة المعزِّية ساسة البلاد وعلماؤها وأدباؤها ، معجبين بوطنيته ، ومقدرين تضحيته بإمارته ومنصبه .

والحقيقة أن الله تعالى قد حبا الشيخ صقر القاسمي كثيراً من الفضائل الإنسانية التي قربته إلى الناس ، وقرّبت الناس إليه ، ففيه دماثة الخلق ، وسماحة النفس ، وهدوء الطبع ، وفيه فضيلة التواضع ، وفيه الوفاء لمن أحبّ ممن رأى أنه أهل لوفائه ومحّبته ، حتى لقد يشعر من يراه لأول مرة أنه صديقه المصطفى ، ورفيقه المجتبَى دون سائر الأصدقاء وعامة الخلصاء ، حتى أصبح في وقت قريب من مقامه بمصر قريباً إلى النفوس ، محبّباً إلى القلوب ، وأصبحت داره في حيّ الدُّقي ثم في مصر الجديدة ملتقى لأهل الفضل ، تعج بزواره من أفاضل المصريين ومقدميهم في مجالات العلم والأدب ، ومن رجال الوطنية وساسة البلاد ، بالإضافة إلى عدد من رجال الوطنية في العالم العربي المقيمين بمصر والوافدين عليها .

وأذكر من تلك الصفوة من أصدقاء الشيخ صقر ورواد ندوته من المصريين المرحوم المهندس أحمد عبده الشرباصي ، ومحمد عبد القادر حاتم ، والمرحوم يوسف السباعي ، ومن رجال العلم والأدب المرحوم الشيخ أحمد الشرباصي ، والدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور عبد القادر القط ، ومن مقدمي الشعراء والأدباء المرحومين محمد عبد الغني حسن ، ومحمود غنيم ، وحسن كامل الصيرفي ، والعوضي الوكيل ، وعامر محمد بحيري .

ومن رجالات السياسة والوطنية والعلم والأدب من أبناء البلاد العربية محمود شيث خطاب عراقي ، وجادو عز الدين ، وجاسم العلوان ، وحمد رائف معري سوريون ، وعلي هاشم رشيد، وكامل السّوافيري ، وعبد البديع عراق فلسطينيون ، وعلي الهاشمي ، وسلطان العويس من الإمارات ، وسالم العبري من عمان .

وكثيراً ما أقيمت في تلك الدار القاسمية الندوات الأدبية والمحافل الشعرية التي يتطارح فيها من ذكرنا من الشعراء الموهوبين أجود ما جاءت به قرائحهم ، وكثيراً ما كان يشاركهم الشيخ صقر في إنشاد روائع من شعره الوجداني الجميل .

بل كثيراً ما شاركت في تلك الندوات شواعر عربيات من أمثال نور نافع ، وعليه الجعار ،

وزينب أبوالنجا ، ولميعة عباس عمارة .

وذلك ما استطاعت الذاكرة أن تعيه من أسماء أولئك الأعلام الذين واصلوا زيارة الشيخ والحفاوة به ، وعمروا مجالسه ، وبادلوه حبا بحب ، ووفاء بوفاء . وما ذكرت منهم إلا القليل، وإلا فهم أكثر من ذلك بكثير .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل في هذا المقام أن هذا النفر من أصدقاء الشيخ صقر قد توثقت بينهم عُرا المحبة والإخلاص والوفاء ، وكأنما انعكست على صفحة نفوسهم صورة الشيخ في محبته وإخلاصه ووفائه ، فأصبحوا بفضل صلتهم به إخوة وأصدقاء على خير ما تكون الأخوة والصداقة .

ومعنى ذلك كله أن حياة الشيخ في القاهرة كانت خصبة مريحة ، وأنه وجد فيها أهلا بأهل وجيرانا بجيران ، ووجد فيها العزاء عن إمارته ، والمتنفس لحريته ، والمنطلق لشاعريته ، وبقي في نفوس قومه هناك أكثر مما كان ، يقدرونه حق قدره ، وينزلونه أكرم منازله ، بعد أن زالت الغمة ، وانجلى شبح الاستعمار البغيض عن جزيرة العرب ، بفضل جهاد الشيخ وتضحيته التي كانت مضرب الأمثال .

* * *

ولم يكن الترحيب الحارّ والتكريم الفائق ، الذي استُقبل به الشيخ في أرض الكنانة باعتباره بطلاً من أبطال العرب في الوطنية والفداء والتضحية بأحرص ما يحرص عليه أمثاله من الحاكمين ، ولم تكن تلك الصفوة من المصريين الذين أحاطوا به ، وأنسوا به وأنس بهم واطمأن إلى وفائهم له وحبّهم إياه ، وظلوا يعمرون ندواته ، ويلبون دعواته في قصره المنيف في مصـرالجديدة ، لم يكن ذلك كلّه لينسيه مدارج طفولته ، ومراتع شبابه ، ومولد شاعريته ومستقر أهله وعشيرته ، أو ينسيه تضحيته وجهاده وآماله الكبار في مستقبل وطنه ، وهي الآمال التي أطاحت بها الأقدار على يد المستعمرين الطغاة ، وصنائعهم من المستضعفين . ولا يزال يذكر تلك الديار التي فارقها ، ويحن إليها حنين الأحرار إلى أوطانها ، وحنين النيب إلى أعطانها .

ولذلك نشعر أننا كنّا على حقّ ، ولم يكن في كلامنا شيء من المبالغة عند إشادتنا بالشيخ صقر القاسمي في مطلع هذا الحديث ، وبإحساسه بأقوى الأواصر التي تصله ببلده وأهله ، وإكبارنا لشعوره بالانتماء إلى أمته العربية ، وفخره بانتسابه إليها وهو القائل :

وَفيْتُ وما زال الوفاء سجيّتي بعمري وإنْ خان الأحبّةُ والصحبُ
أنا الواهبُ الحبَّ الصريح لأمتي إذا مسّها شرقٌ و آلمها غرْبُ
بها أشعل الغالون شيبي والصّبا و لما يزلْ شمعي يضيء ولا يخْبُوَ

ويروعه نسيان من نسيه من القوم الذين أكره على فراقهم . ويسأل نفسه في أسًى وحسرة عما إذا كان قد فرّط في حق بلده ، أو في بناء مجده ، وهو الذي ضحّى بكل غالٍ من ماله وخلصائه ، وبفراق أمه الحزينة ، وزوجته الملتاعة ، وأطفاله الصغار في سبيل الأوطان ، وينكر على أحبّائه وأصفيائه أن يكون جزاؤه منهم النسيان ، أو الكفران :

وطني ، هل نكثتُ ذمّةَ وعْدي لك يوماً ؟ وهل غدرت بعهدي ؟
هلْ تساهلتُ عن حقوقكَ يوماً ؟ أو تنازلتُ عن عُلاكَ و مجدي ؟
لكَ ضحَّيت بالنفيس ، بآلي وبمالي وأصدقائي وجُندي
وصغاري ، وزوجتي ، وبأمّ بِبُكاها تـؤرّقُ الليل بَعدي
يا أحبّايَ مَنْ تناسَوا وماكنـــ ـــت أظنُّ الحبيبَ إلا المفدّي

ولم يكن الشيخ صقر من أولئك الذين يستسلمون للأقدار ، أو يركنون إلى الدعة بعد أن تهيأ له من الأسباب ما أشرنا إليه ، فإنك تراه في كثير من الأحيان يصعّد في شعره زفرات الألم حين تعاوده ذكريات أيامه الخالية في كفاح القوة الغاشمة ، وحين يرى من كان أجدر الناس بتقديره والوفاء له ، وقد نسوه أو تنكروا له وقلبوا له ظهر المِجَنّ :

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على النفسِ من وقع الحُسَام المهنّدِ

حتى لقد تظلم في وجهه الحياة ، ويكاد يفقد الأمل في بلوغ أحلامه . اقرأ شكواه التي أهداها لأخيه الأعزّ الشيخ سلطان العويس ، وهو من عشيرته الأقربين :

ظلامٌ بلا رؤيا ، وفجرٌ بلا رؤى وصحبٌ بلا وُدٍّ ، وأهلٌ بلا حبِّ
أعيش الغريبَ النائيَ الدار والمنى فلا سائلٌ ممّن أجل على غُرْبي
تُرىَ يا أحبّائي إذا ضمَّني الثرى أرى منكم الباكي ينوحُ على تُرْبي ؟
أرى دمعةً من مخلص الحبِّ والوفا وقد عشْتها في البعد منه وفي القرْبِ
تُراه سَيوفيني كما نحن في الدُّنَا ويَسْقي الإخاء العذبَ بالمدمع العذبِ ؟

جعل الشاعر كلمة شكوى عنوانا لهذه المقطعة التي يظهر فيها شعوره بالضيق ، الذي لم يكن متوقعا منه في حياته الجديدة التي لقي فيها ضروباً من الحفاوة والترحيب الجديرين بأمثاله من المجاهدين .

والواقع أنها أزمة نفسية كان الشاعر يمرّ بها ، ويعاني منها إذا ثارت في نفسه فكرة الموازنة بين حياته الجديدة ، وهو بعيد عن وطنه وإمارته وآله وصحبه ، وما كان فيه قبل أن يجيء إلى هذه الديار ، وإحساسه بالفرق الكبير بين الحياتيــن ، وفي الحياة الأولى كان يحيا حياة الأمراء والحكام ، تغص ساحته بالقصّاد الذين يتوافدون عليه في قصر الإمارة من أصحاب الشفاعات ، أو من ذوي الحاجات ، ومن الذين يلتمسون الزلفى والتقرب ممن بيدهم الأمر والنهي ، ومن أنداده شيوخ الإمارات الذين كان الشيخ صقر واسطة عقدهم .

وقد انصرفوا عنه في حياته الجديدة ، حتى ضنّ بالسؤال عنه ، أو الكتابة إليه من كان يراهم أهل الوفاء ، وإخوان الصفاء ، وهو في هذه الغربة يعَاني الفراق ، ولذعة الاغتراب عن الحياة التي كان يحياها ، حتى لقد أصبح من أعظم أمانيه أن يجد من يَبكيه إذا وُسِّد الثرى ، و من.يوفيه بعض حقه بما يسكب على قبره من العبرات .

وربّ كتاب من قريب أو من وليّ حميم يحيي الأمل في هذه الروح الشاعرة ، ويعيد الهدوء إلى تلك النفس الثائرة . اقرأ أبياته التي بعث بها ردًّا على رسالة تلقاها من شقيقته :

بروحي كتاباً منكِ هزّ مشاعري	وحطّم يا أختاه من عزْمه صَبري
لثمتُ به حرفَ العروبة صــافياً	وقبّل فيه الحبُّ دمعي الذي يجري
أخَيَّةُ لا يحـزنْك بُعدي فإنما	هو الدهر من عُسْرٍ يسيرُ إلى يُسْرِ
أخَيَّةُ باهي ، إن صنوكِ لم يخُنْ	حِماهُ ، ولا باع الكرامة بالغدرِ
هو الحــرُّ إمّا أن يعيش بمجدهِ	وإلا ، فإن القبر أحلى من الأسْرِ

ولنا أن نعدّ هذه الأزمات النفسية التي تثيرها الذكريات أزمات عارضة يمكن أن تزول آثارها بزوال أسبابها ، وذلك ما وقع فعلاً في السنوات القريبة الأخيرة .

ولم يكن الشيخ الذي وهب نفسه ومستقبله ومنصبه لحياة وطنه وشعبه ليعبأ بإغفال ذكره أو نسيان شخصيته ، أو تنكر لجهاده بقدر ماكان يؤرقه ويوجعه من تراخي قومه وقعودهم عن واجبهم المقدس في خدمة الوطن ونصرته ، والذود عن حياضه ، والثورة على المستبدين

والعابثين بمقدساته ، بعد أن راد لهم الطريق ، وضرب بنفسه لهم أروع الأمثلة في الاستجابة لداعي الوطنية التي كان هو أول ضحية لها .

وتتردد هذه المعاني في أكثر شعره الذي يغلب عليه طابع الحزن والأسى .

وقد يحتد انفعال الشاعر ، وتزداد نقمته وثورته على أولئك المتقاعسين أو المتواكلين حتى يجردهم من الإحساس بالواجب عليهم نحو أوطانهم وشعوبهم .

ويبلغ ذلك الغضب مداه في قصيدته التي جعل عنوانها « وطن الرجال بلا رجال »[١].

وهو في هذه القصيدة الغاضبة يبلغ أقصى درجات السخط على أولئك المستضعفين الذين خلّوا بينه وبين المحتلين ، وأسلموه إلى أعدائه وأعدائهم ، لأنهم مغتصبو أرضهم وحرّياتهم ، ولم يثوروا أو يثأروا لهذا الحدث الخطير في تاريخ بلادهم ، بل لم يحركوا ساكنا ، بل لم تصدر عن واحد منهم كلمة تدل على استنكارهم لما أصاب زعيماً من زعمائهم ، وسيداً من سادتهم .

وربما كان في عنوان القصيدة وحده « وطن الرجال بلا رجال » ما يكفي للدلالة على موضوعها ومضمونها .

ويشيد الشاعر في هذه القصيدة بالمرأة العربية وعفافها ، وما سجّله التاريخ من مآثرها في الحرب والسلام ، ومشاركتها بالرأي ، وحماية العرين .

ويهيب الشاعر بالحوامل من النساء أن يسقطن ما في أرحامهنّ ، ولا يجشمن أنفسهن معاناة الحمل والوضع ، فإن الوطن لم يعد في حاجة إلى رجال ، بعد أن فقد الرجال رجولتهم ، وجلبوا إلى أمتهم الخزي والعار :

فلقد كفى عار الرجال ... فمــا يُردْن بحملهنّــهْ
وطنُ العروبة لم يعدْ ... ما يستحــقُّ شقاءهنــهْ
كانَ العرينَ وكنَّ فيه ... الوالــدات لصيدهنــهْ
كان الرياض الزاهر ... ات تفيضُ كَلّ فتونهنهْ
كمْ رددتْ صحـراؤهُ ... في البيد عذْبَ حديثهنّهْ
عفُّ الهوَى لم يعْرف ... التاريخُ مثل عفافهنّهْ

(١) ديوان لهب الحنين ، ص ٥٣٣ .

حتّى إذا اشتجرتْ قَنا الفُرسان قُمنْ بدَوْرهنهْ
شاركنَ في الرأي الرجال وذدْنَ دونَ عـَرينهنّهْ

وأخيراً يختم الشاعر قصيدته بهذا البيت الذي يؤكد فيه المعنى الذي جعله عنوانا لها ، ويأمل فيه أن يكون في النساء عوض عما ضيّعه الرجال :

وطنُ الرِّجال بلا رجا ل هَلْ لهنّ بأنْ يصنّهْ ؟

وربما كانت هذه القصيدة أوغل في باب الهجاء من الأمثلة التي استشهدنا بها من قبل في التعبير عن غضبه عليهم ، والسخط على موقفهم منه .

بل إن القارئ ليراها أبلغ قسوة وأشدّ عنفا من أبيات توقفنا عندها مما صاغه الشاعـر في هجائهم والنيل منهم ، وعنوانها « غنيّون بالألقاب » (ص ٢٣٩) ، وفيها يقول :

يموتُ رجال الفكر هدراً بموطني ويحيا على السّاحات مَن لا له فكرٌ
تحكمُ في شعبي عقـولٌ مريضةٌ إذا قيل من همْ فالمرابون والفُجّرُ
إلى الله أشكو أنني بين معشرٍ مواعظهم فُجّرٌ ، وإيمانهم كفرٌ
قليلون إنْ عُدّ الرجال وإنما إذا عُدّ مَنْ باعوا مواطنهمْ كُثُرُ
غنيون بالألقاب أو دم شعبهمْ فقيرون من عزٍّ به يفخر الحُرُّ

فقد نبزهم في هذه الأبيات بكثير من الرذائل ، وفي مقدمتها الجهل ، إذ لا يصلح لولاية أمور الناس جاهل ، ثم أكل الربا ، وهو من الكبائر التي حرمها الله ، ثم الفجور الذي هو خروج على أدب الدنيا والدين . و هم بعد هذا و ذاك حراص على الدنيا يبيعون أوطانهم لمن يغلي الثمن ويمكن لهم .

وتلك الرذائل مع فداحتها تبدو دون ما نبزهم به في الأبيات السابقة من فقدهم الرجولة .

* * *

ولعلّ فيما أوردناه من مشاعر الشيخ نحو ساسة بلاده وقادتها ما يكفي للوقوف على حقيقة عواطفه نحوهم في مرحلة ليست بالقصيرة من مراحل حياته عقب مغادرته ولايته في الشارقة ، ومقامه بمصر ؛ وبخاصة بعد أن عادت العلائق بينه وبينهم إلى وضعها الصحيح ، وهو الوضع

الذي أتاح له أن يعود إلى وطنه مكرماً ، ويقيم فيها كما يشاء محوطا بالعناية والتبجيل من شعب بلاده وحكامها ، و قرت بذلك عيون ذويه ، وصحبه ومحبّيه .

ولست أشك في أن هذه الرحلة من مراحل حياة الشيخ ، وأعني بها الفترة التي قضاها في القاهرة بعد رحيله عن بلده ، وتخليه عن إمارته - كانت أخصب مراحل حياته ، وأحفلها بالذكريات ، وهي ذكريات مثيرة لتجارب كثيرة أثارت كوامن مشاعره ، وفجّرت ينابيع ملكته الشعرية ، فكان ذلك النتاج الغزير الذي حفل به ديوانه الكبير الذي سمّاه « لهب الحنين » ، وهو اسم دال على مسمّاه ، فقد عبّر فيه أقوى تعبير وأصدقه عن المشاعر الملتهبة ، والعواطف المتأججة ، والحنين المستعر إلى ماضيه الحافل بذكريات حياة التطلع إلى المجد الذي كان يحلم به ، ويسعى إليه ، وذكريات الصراع بينه وبين المعوقات التي وقفت في طريق آماله الكبـار ، ولسان حاله ينشد ماكان ينشد شيخ الشعراء امرؤ القيس :

ولو أنني أسعى لأدنى معيشةٍ   كفاني - ولم أطلبْ - قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجد مؤثـلٍ   وقـد يـدرك المجـدَ المؤثـلَ أمثالي

وفي اعتقادي أن الشيخ صقر قد أدرك من المجد ما لم يبلغه الذين تآمروا عليه وأوقعوا به ، وأنه استطاع أن يسجل لنفسه في كتاب التاريخ صفحة ناصعة للإيمان والصبر والتضحية في سبيل المثل التي آمن بها ، كما كتب في ديوان الأدب والشعر صفحة باقية بصدقه في التعبير عن تلك المثل .

* * *

وإذا كان يقال في عالم النقد إن الأسلوب هو الرجل ويتفرع عن هذا المعنى القول بأن الأدب هو الأديب ، وأن الشعر هو الشاعر ، فإن هذه المقولة لا تصدق على كل أدب ، لأن المشاعر الحقيقية كثيراً ما تحتجب وتتوارى خلف المطامع الذاتية في تحقيق أمل من آمال البشر، أو وراء المخاوف التي يتوجس منها الشعراء ، ويحسبون لها حساباً . أو بعبارة أخرى نجد تلك الآمال والمخاوف ، أو أسباب الرغبة والرهبة ، كثيراً ما تحول بين الشعراء والتعبير عن حقيقة مشاعرهم ، أو حقيقة التجارب التي عبّرت عنها أعمالهم الشعرية . وحينئذ تفقد تلك الأعمال ما هو مطلوب فيها من الصدق الشعوري الذي يعدّ في مقدمة مقاييس الجودة في الفن الشعري .

ولكنني أستطيع أن أقول في غير تحفظ أو في غير تحرّج إن كلّ من يتوق إلى معرفة الشيخ

صقر معرفة حقيقية يستطيع بسهولة التعرّف على معالم هذه الشخصية بكلّ مقوماتها وجميع أبعادها عن طريق التأمل في شعره الذي تضمنه ديوانه الجديد « لهب الحنين » ، الذي يرسم صورة ناطقة لصاحبه ، ويرى فيه مرآة صافية انعكست على صفحتها صورة تجاربه الشعورية ، وصورة أمانيه وأحلامه ، وصورة همومه وأحزانه ، وصورة سخطه ورضاه ، وألمه ولذته ، وحنينه وأنينه ، وصداقته ومقته ، ونحو عالمه المحدود في بلده ، وأسرته وولده ، وعالمه العربي الكبير في شعوبه وحكامه ومواطنه ، لقد صوّر ذلك كله تصويراً أميناً صادقًا يعرفه كل من اتصل به عن قرب أو من بعد .

لقد وصف هذه المشاعر كما هي ، وكما كان يحسّها في أعماقه ، ولم يحاول أن يخفي شيئا من حقائق حياته أو حقيقة مشاعره عن قارئ شعره الصادق الأمين .

وتتفجر هذه المشاعر التي لا تنضب ينابيعها في أعماق الشاعر لتجري تياراتها الهادرة في جداول شعره ، ويتصل تيّار منها بتيّار ، حتى يلتئم بعضها ببعض ، ويتكون منها مزاج متكامل من العواطف والانفعالات ، ومن مجموع التجارب الشعورية التي عاش فيها منذ نعومة أظفاره، وعاشت معه شابا يافعاً ، ولزمته حتى تقدمت به السنون ، ولم تفارقه ذكرياتها السعيدة وذكرياتها الحزينة في أي زمان ، أو في أية بقعة حلّ بها .

وما أكثر تجاربه الحلوة السعيدة ؛ وربما كانت أكثر منها تجاربه المرّة الأليمة التي طبعت شعره بطابع لا يخفي ما فيه من حزن أو أسى .

ولم يكن أساه على ما أصابه بمقدار حزنه على ما أصاب وطنه الذي أصابه الهوان باستبداد المستعمرين وعبث العابثين بمقدراته وكرامة شعبه ، ولم يجد من أبنائه من يأسو جراحه ، ومن يقيله من عثرته .

اقرأ أبياته التي جعل عنوانها « مبدئي » (ص ١٦٥) لترى فيها امتزاج تلك المشاعر :

يقولون لي ما بال شعركَ دائماً حزينٌ ، وأنتَ ابن الأمير المُسوَّدِ
أ مِنْ فشلٍ في الحبِّ أم كِرة الأسى . رمتك بسهم كالقضاء المسدَّدِ ؟
فقلتُ : وهلْ حبٌّ سوى حبِّ موطني أدين به إنْ أظلم الخطب في غدي ؟
ولِمْ لمْ يحطمني الأسى وفخاره يُسَامُ الأذى من كل باغٍ ومُعتدِ ؟
إذا باح بالشكوى رمتْه قواصفُ من البغْي والعدوان في كلِّ مشهدِ

فيا وطناً آليْتُ أفنَى بحبِّــــه ولا أبتغي إلا لعَلياه مقصـــدي
وحقِّكَ لو نادى مناديكَ لم يكُنْ جوابي سوَى روح تجود بها يَدي
أدينُ بحبِّي في هواكَ موحّداً وأفنى لأستبقيكَ غيـــر مُبـــدَّدِ

نجد في هذه القصيدة أو المقطعة ذات الأبيات الثمانية حشداً من المعاني المختلفة التي امتزج فيها ما يملأ قلبه من المشاعر والعواطف ، وما يؤرقه من الأماني والآلام .

وقد بدأها بالإشارة إلى ما يعاني من هموم انعكست آثارها على صفحة شعره مع ما يجد من أسباب الدعة والكرامة بانتمائه إلى أب ماجد ، وأصل كريم ، كما يؤكد ما يدين به من الحبّ لوطنه الذي يسومه المعتدون ضروب البلاء ، ولما ثار لكرامته أثخنوه بالجراح . ويعاهد هذا الوطن على أن يكون فداء له ، وألا يعمل إلا لما يرفع قدره ، ولو استشهد في سبيل ذلك ، ويتمنى أن يحيا هذا الوطن حياة المجد والكرامة ، وأن تحيا أمته مجتمعة الشمل ، متحدة الكلمة .

تلك هي مبادئ الشيخ صقر ، أو تلك هي أحلامه وأمانيه التي لا يفتأ يعلنها ويرددها في أكثر القصائد والمقطعات التي يضمها ديوانه الكبير .

* * *

والشيخ صقر في طليعة المؤمنين بوحدة الأمة العربية ، ومن أوائل الدعاة إليها ، ويرى أن تحقق هذه الوحدة التي تلم شعثها ، وتوحد كلمتها – هو السبيل إلى قوتها ، ودرء مطامع الطامعين في استعمارها ، أو اقتطاع أطراف منها .

والواقع أن هذه الدعوة إلى وحدة العرب قد شكلت نشاطاً ملحوظاً بعد نموّ الوعي القومي ، وتنبيه بعض المصلحين من رجال هذه الأمة إلى ما حاق ببلادهم من إغارة المستعمرين واستبدادهم بشعوبها ، وتحكمهم في مقدراتها ، والمباعدة بين أبنائها ، وفصم عُرا الوحدة بينهم .

ويبدو أن الوحدة التي كان يعنيها الشاعر في البيت الأخير من هذه الأبيات هي وحدة الإمارات العربية في الخليج ، وكانت منها إمارة الشارقة التي كان حاكما لها . وذلك لا ينفي أن وحدة العرب الشاملة كانت مراد الشاعر لأنها كانت أملاً من أعز آماله ، وهو القائل : [١]

(١) من قصيدة « لغة المجد » ، ديوان « لهب الحنين » ، ص ٥٣ .

نحن في الشرق وإن فرّقنا مِعْوَلُ الباغين أبناءُ أبِ
ديننا ألا نرى ما بيننـــا في رحابِ الشـرق إلا العربي
فارْو يا تاريخُ عنّا أننــا قد كسـرْنا كلَّ قيد أجنبي
وبنينا بِظُبَانــا مَجْدَنَــا وسَموْنا فوق هامَ الشُهُبِ

من قصيدة يفخر فيها بأمته ، ويشيد بأمجادها العريقة ، وما قدمت للإنسانية من مثل في الخلق والدفاع عن الحق ، ونشر ألوية العلم التي تبددت بها سحائب الجهل .

وهو القائل في وحدة المشاعر التي تصل أبناء العروبة و ديار العرب في كل مكان [1] :

فلئنْ شجتْ نوبٌ رمتْ « سُورية » نفسي ، وأجرتْ مقلتي مدرارَها
فالشرق أجمعُه على أطواره وطني ، له نفسي جلتْ أسرارها
إنْ أنَّ في أرض الشآم معذّبٌ أنّتْ لـه ، فكأنَّ ذاك أثارَهـــا
أو دُوهِمتْ « صنعا » رأيت جوانحي تُذْكي بحامية الأضالع نارَهـــا
ما نجدُ و الأرْدُنُّ إلا مُهجةٌ بصميم مصرَ إذا اشتكتْ عُوّارَها
أترى عُمانَ وقد تآلفَ شملها دُوَلٌ أبانتْ للعِـــدا مقدارَهـــا
نهضَتْ بجامعةٍ تضمُّ شعوبها وتعيدُ للتاريخ بعـدُ فخـــارَها

لقد قرأت في هذه الأبيات شيئا من عواطفه العربية التي تجاوزت بلده وإمارته إلى أوطان عربية تابع أحداثها ، وشارك بقلبه ومشاعره تلك الأوطان فيما ألَمّ بها من العواصف والأحداث ، لأنه يرى أن تلك الأوطان القريبة منها والبعيدة إنما هي وطنه الكبير ، وأن شعوبها شعبه ، وأن أهلها أهله .

فلا غرو أن يحلّق بروحه في سماء تلك الأوطان ، ويشارك بعواطفه فيما تصيب من خير ، ويأسى لما ينالها من سوء .

ولقد كان من أعزّ أمانيه أن يجتمع شمل العرب في وحدة جامعة ، تقوى على التصدي للطغاة والطامعين ، وتطهر أرض العرب من دنس الاستعمار .

بل إنه ليذهب إلى أن التقاعس عن العمل في سبيل تحقيق هذه الوحدة والتفريط فيها –

(١) ديوان « لهب الحنين » ، قصيدة « يا من ينادينا » ، ص ١٩٢ .

إنما هو خيانة للأمانة التي حملها الآباء للأبناء ، ويحذّر من ذلك التفريط في طلب الوحدة ، الذي يؤدّي إلى التمزّق والضياع ، الذي يشفي غليل المتربص بهذه الأمة الدوائر ، ويعمل جاهداً على اهتبال أية فرصة تسنح له للانقضاض على معاقل العروبة والتحكم في شعوبها .

وقد أوجز هذه المشاعر في بيتين قال فيهما :

تا الله إن لم نجتمعْ في وحدةٍ — عربية لا تستلـينُ لقاهـرِ
ضِعْنا وضيّعنا الأمانة واشتفَى — منا العدوّ ونامَ طرْف السّاهرِ

وقد اختتم بهذين البيتين رائعة من روائعه عنوانها عتاب (ص ١٧٩) وقد أنشدها في مناسبة عدوان اليهود على قرية الشموع الأردنية ، بدأها بأبيات وصفية رائعة ، تدل على براعته في فن الوصف ، وترفعه إلى مستوى أعلام الوصّافين المجيدين على قلتهـم في تاريخ الشعر العَربي ، وإن كانت هذه الأبيات الوصفية الرائعة تدور حول فخر الشاعر بشعره .

ولجودة الوصف في هذه الأبيات نورد طرفاً منها :

قالتْ سكتَّ وكان شعرُك دائماً — نَغَمَ الحداءِ لصـادح ولثائـرِ
تسبيحةَ العبّادِ فـي صلواتهـمْ — وعزاءَ مكـلوم وأنّـة حائـرِ
وأزيز دمدمةِ الرصاص وثورةٍ — أقلقْت منها كلَّ فَـدْمٍ غـادرِ
غنّى عُمانُ بها وردّدَ لحنَها — حرّ الخليج إلى لهاة جزائـري
وتمنّت الصحراء في سَمَرِ الهوى — لو أنّها نفحتْكَ ضَوْعَ أزاهـرِ
والساحلُ المرباحُ في شُطآنـه — أنّات ساهـرةٍ وزفـرةُ ساهـرِ
غنيت أمجـاد العروبة فيه لمْ — تخْشَ الأذى ومشيْتَ مِشيةَ جاسرِ
ما لي أراك سكتَّ هل ملّ السُّرَى — مَن قلّد الصحراءَ عقدَ مفاخـرِ ؟

لقد فخر شاعرنا بشعره على هذا النحو الذي رأيت ، فجعله حداء الأطيار الصادحة ، وأنشودة الثوار المتمردين على الذل والهوان ، وتسبيحة المتعبدين ، وسلوى المعذبين ، وأنين الملتاعين ، وصوت الرصاص يدوي في آذان المستعمرين ، ويقض مضاجع المعتدين ، وتغنت به العرب من الخليج إلى المحيط ، وتَرى فيه نفح الزهور ، وحفيف الأوراق التي تشنف الأنوف ، وتطرب الأسماع ، وتقرأ فيه ما أشاد به من أمجاد العروبة ، وما بعث فيها من الحمية والجرأة .

وكلها أوصاف جميلة من غير شك . وفي علماء الأدب ونقاد الشعر من يذهب إلى أن الغلوّ في المعاني أفضل من الاقتصار على الحد الأوسط فيها . وليس في هذه الأوصاف التي مجّد بها الشاعر شعره ما يتوقف القارئ في الغلو فيه أو مجاوزة الحدّ إلا البيت الثاني من هذه الأبيات الذي بالغ فيه ، وجعل شعره تسبيحة العبّاد في صلواتهم .

وقد يمكن التأوّل في هذا التعبير ، وأن يكون المراد به أن العُبّاد أو المصلّين إذا سمعوا هذا الشعر أعجبوا به ، وعبّروا عن إعجابهم بتسبيح الله تعالى ، فقالوا سبحان الله ! وهو أسلوب من أساليب التعجب المعروفة ، كما تتردّد في تمجيد الله تعالى في كل صلاة !

* * *

ولعلّ فيما قدمناه من إيمان الشاعر بعروبته ، واعتداده بالانتساب إلى أمته ، وجهاده في سبيلها ، وحرصه على وحدتها ، لعلّ في ذلك ما يكفي للدلالة على عواطفه الوطنية ، ومشاعره العربية ، وإلى جانب تلك المشاعر ، وجدناه يتابع ما على أرضها من أحداث ، ويشاركها في سرّائها وضرّائها ، في كل قطر من أقطارها .

ولما قامت الثورة المصرية في الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٥٢م كان الشيخ صقر أول من باركها بقلبه ، وأيدها بشعره ، فأنشأ فيها قصيدة حماسية عنوانها من وحي التطهير (ص ١٩٤) قال في أولها مخاطباً كلّ عربي اغتصب بلاده :

دَعْ كلّ صوتٍ فغيرُ السيف تهذارُ ... فإنه لِدَم الباغيــــن هــدّارُ

حتّامَ صبرُك والأيامُ ما برحتْ ... تدعوكَ للثأر فاسمعْ إنه الثارُ

حانتْ إلى الغاية القصْوى وكلّلها ... نصــرٌ من الله ، إن الله قهّارُ

يا بن العروبة أنتَ اليومَ مأملُها ... وركنُها إن دهاها اليومَ إعصارُ

جرِّد حُسامكَ ما غيرُ الحسام لها ... شافٍ ولا غيرُه بالحــقّ أمّارُ

النار فاشعَلْ لظاها لا يصدّك عن ... وَقْدِها من بني الأشرار سمسارُ

وعانق الموت حبا بالحياة فمن ... رامَ الحياة حمتْها عنه أخطارُ

إن الشاعر في هذه الأبيات التي يخاطب بها العرب في كل بلد مني بالطغيان يثير حميتهم ، ويحثهم على الجهاد ، ويبعث في نفوسهم الأمل في الخلاص ، فإنه لم يعد هناك مجال للكلام الذي لايحرّر وطناً ، ولا يحقق أملاً ، وأصبح الاحتكام لغير السيف في معاملة أولئك

الطغاة والمغتصبين ضرباً من العبث الذي يثير السخرية ، والفيصل هو حدّ السيف وحده لكل من يحلم بالخلاص ، والويل كلّ الويل لمن يرضى حياة الهوان ، وهو يعلم سبيل هذا الخلاص :

قبحاً لِمَنْ يرتضي عيشَ العبيد وفي ذُبابةِ السيف ما يهوَى ويختارُ

ويكرر الشاعر دعوة أبناء العروبة إلى الوحدة والوئام ، وإلى الاعتصام بحبل الإسلام ، والتمسّك بآداب القرآن ، والتحلي بالتجلّد والصبر في مجالدة الأعداء ؛ فإن ذلك الصبر هو المقياس الذي يقدرٌ به أهل العزم . وبغير ذلك لن تقوم للعرب قائمة أمام عدوّهم الغادر الطاغي المدجج بالسّلاح ، فيقول للشعب العربي المسلم :

إلى الوئام ، إلى القـــرآن ، مُدّرعَــا بالصبر فهو لأهل العزم معيارُ
يا بنَ الصحارى أعِدْه لا تصّدكَ عن إعادة الحقّ يوم الهول أشرارُ
أقسمت بالوَحدة العظمي وما ولدتْ من الجحافل ، أن السيفَ بتّارُ
ما حرَّر الشعبَ مـــن ذلّ يكابـــدُهُ إلا الوئامُ وإلا السيفُ والنارُ
يا ويحها بلداً لم تغــدُ لعنتهـــا تُرْدي الطغاةَ ، وسيفُ الظلم جزارُ
ويا لها نقمــــةً تنصــبُّ مهلكـــةً لم تنْهَها عن مدى تبغيه أعذارُ

إنه يقول إن بلداً لا يحسّ أهله بما يعانون من جور الطغاة ، ولا يهبون لنجدته وإنقاذه من بطش الطغاة لجدير بالهوان ، وبالنقمة تنصبُّ عليه إذا لم يصبَّ نقمته على عدوّه ، غير متخلف عن النضال ، أو متذرع بمختلف الأعذار ، ليقعد مع الخالفين .

ثم ينذر الطغاة من الحكام أن يصحوا من غفلتهم ، ويخففوا من غلوائهم في البطش والتنكيل بشعوبهم ، وأن يعدلوا بين الناس فيما بقى لهم من الحياة قبل أن يجرفهم تيار الوعي الهادر الذي لا يُبقي ولا يذر ، فيقول :

قُلْ للطغاة أفيقوا من سُباتَكمُ وَلْتَعدوا ما بَقي إن ثَمَّ أعمـــارُ

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تحية الجيش المصري الذي يسميه جيش الخلاص ، وقد دمرت ثورته حصون البغى وقلاع الطغيان ، ويبارك أبناءه الأشاوس ذوي النفوس الأبيّة ، والعزائم القوية ، الذين طهّروا أرض مصر من رجس الطغاة ، وحرروا شعبها من عار الاستعمار .

ويطلب إلى هذا الجيش الباسل أن يقود الشعب العربي إلى الحرية ، وإلى عالم النور بعد أن

طالت حياته في عالم القهر والظلام ؛ فإن هذا الشعب العربي عظيم الأمل في قيادة مصر لنهضته وتخليصه من براثن الظلم والظلمات ، ويدعو قائد هذه الثورة المصرّية جمال عبدالناصر أن يعمل على توحيد الأمة العربية ، وليبدأ بوحدة مصر والسّودان ، وما أكثر أنصار مصر وأعوانها في السّودان الشقيق ، وهم يتطلعون إلى هذه الوحدة التي تضم الشمل ، وتقضي على الفتن والمنازعات التي نشبت بين أبنائه ، وأدت إلى القتال بينهم ، وإلى سفك دماء كثير منهم :

بوركْتَ بوركْتَ يا جيش الخلاص ولا	برحْت تحدوك نحوَ المجد أطارُ
من كلّ أصيّدَ لو حلّتْ عزيمتــــه	بشامخ الطّودِ أضحي وهو منهارُ
طهرتَ يا جيشُ من رجسٍ ومن دنَسٍ	شعباً بَقَاهُ على حال الوَنى عارُ
يا جيشُ قُدْنا إلى نور الهدى فلقَدْ	طال الظلامُ وحارتْ فيه أبصارُ
وانزعْ من الشرق أقصاهُ وأبعــدهُ	ما لوّثته ، فقد حفّته أســـرارُ
جمالُ حقّق أماني العُرب قاطبـــةً	في مَصرها – يشدُّ للسّودان قيثارُ
كفى انفصالاً ، فدعْ للشعب كِلمتهُ	فكمْ لمصرَ به عــونٌ وأنصـــارُ
كفَتْ دماء أريقتْ فـــي مرابعهـــا	وأسمعتْ عن مخازٍ شنّها العارُ

وقد كان أخشى ما يخشاه الشيخ صقر أن تنتكس هذه الانتفاضة ، التي علّق عليها أعظم الآمال في تحرير الأرض العربية ، وتحرير الإنسان العربي من الخوف من الطاغين والمستبدين ، وكان يعرف تماماً أن هنالك كثيراً من أعداء هذه الأمة يتمثلون في المستعمرين الدخلاء وصنائعهم من الذين ينتسبون إلى هذه الأمة ، وهؤلاء وأولئك يتربصون بها الدوائر ويحرصون على أن يبقى أبناؤها مستضعفين متخلّفين ؛ لأن الضعف والتخلّف هو الذي يمكن لهم فـي الأرض ، ويبقي على سيادتهم على أولئك الضعفاء ، واستنزاف قواهم ومقدّراتهم ، حتى تظل هذه البلاد مرتعاً لأطماعهم ، وبقرة حلوباً تشبع نهمهم .

ولذلك لم ينس الشاعر أن ينبّه قيادة الثورة على الأخطار المحدقة بها من أولئك المتربصين، فينصح قائد الثورة جمال عبد الناصر بالإسراع إلى تطهير البلاد منهم ، واستئصال ما بقي من فلولهم ، بعد أن استتبّ الأمن ، وتهيأت الأسباب لتمضي الثورة في طريقها ، وتحقق أمانيها في الإصلاح والنهوض بالبلد إلى المكانة الجديرة به ، وهو في الوقت نفسه يحذر من القسوة والعنف في فترة تحتاج البلاد فيها إلى ضمّ الصفوف و وحدة الكلمة بين أبناء الوطن ، وبينهم وبين إخوانهم من أبناء الأمة العربية الذين تربطهم بهم أقوى الوشائج من وحدة الدم ، ووحدة

المعتقد ، ووحدة الإسلام الذي ألف بين قلوبهم .

وهكذا يصل الشاعر تهنئته لجيش مصر وإشادته بما أبدي من ضروب البسالة بالنصيحة الخالصة النافعة حتى تحقق الثورة غايتها ، ويصل الركب الزاحف إلى شاطئ الأمن والسلامة.

وهذه هي الأبيات التي وجهها الشاعر إلى قائد ثورة مصر ، وإلى بني مصر جميعاً :

عجِّلْ جمالُ بتطهير البلاد فقدْ　　فاضتْ لديكَ لنُضج الزرع آبارُ

ويا بني مصرَ إن شطّتْ وإن بعدتْ　　بنا الديارُ فنحنُ الأهلُ والجارُ

قد مكّنتْ لغةُ القرآن وحدتنا　　والدينُ والأصلُ والأخلاقُ والدارُ

فانشُرْ جَناحَك في لطفٍ ومرحمةٍ　　واضْمُمْ به وطناً أشقاهُ جبّارُ

وأشعر أنني أطلت بعض الشيء في عرض هذه القصيدة الحماسية ، ولكنني عمدت إلى هذا البسط ؛ لأنني رأيتها صادقة التعبير عن العاطفة الوطنية التي امتلأ بها قلب الشاعر ، وعن مشاعره التي تصوِّر مشاعر المؤمنين بعروبتهم نحو مصر التي كانوا يصفونها بالشقيقة الكبرى .

وكان الشعب العربـي على بكرة أبيه مأخوذاً بهذه الثورة الرائدة ، التي رأى فيها أمله المرتقب ، ومثله الأعلى في تحدّي القوى العاتية التي كانت تمسك بالزمام .

ولم يتنكر لهذه الثورة إلا نفر من الحكام الذين ارتموا في أحضان المستعمرين ، وخافوا أن يفلت الزمام من أيديهم ، وأن ينسحب البساط من تحت أرجلهم ، إذا استيقظت شعوبهم ، وانتفض الأحرار في أقطارهم ، وثاروا عليهم كما ثارت مصر على الاستعمار ، وعلى أتباعه الذين يتحركون كما تتحرك الدّمى في أيدي اللاعبين .

ولذلك كان صقر بن سلطان القاسمي – كما عرفناه وكما قرأنا في شعره– أشجع هؤلاء الحكام ، لأنه كان ينظر إلى أمّته وإلى شعبه ، ونسي أنه أمير ، وأنه يحكم بلداً يحميه الإنجليز ، ويتسلط عليه المستعمرون ، فأسرع بالاستجابة لهذه الانتفاضة العربية ، وجهر بتأييدها ومناصرتها شعراً وشعوراً . وأشاد بقائدها جمال عبد الناصر إشادة أوغرت صدور الإنجليز ، وكان حسبهم وحسب صنائعهم من الحكام والمستوزرين أن يقرءوا مثل ذلك الشعر الصادق الصريح، يجهر بإنشاده حاكم وأمير من حكام العرب وأمرائهم المعروفين .

نعم كان حسبهم أن يقرءوا مثل هذه القصيدة ، وأن يقرءوا في غيرها مثل قوله [١] :

(١) ديوان « لهب الحنين » ، قصيدة « المارد » ، ص ١٠١ .

يا جمالُ وحسبُنا أنّ فينا كلّ فردٍ جمال في وَثَباتهْ
أنت ألهَمتنا الشعورَ فسِرْنا في طريق طهّرْتَهُ من عِداتِهْ
أنت علّمْتنا الكرامةَ والعزّ وأيقظتَ شرقنا من سُباتهْ
أنتَ حطمْتَ كلّ وغدٍ خسيس عاش يبني عُلاهُ من سيئاتهْ

ولا يفتأ الشاعر يشدو بألحان العروبة ، ويشيد بأمته العربيّة ، وما سجّل التاريخ من أمجادها ، ويستحث أبناءها على مواصلة السير في الطريق الذي سنّه أسلافهم ، ويشيع في نفوسهم البهجة وروح التفاؤل بالمستقبل المجيد ، والاستبشار بالنصر القريب إذا تشبّثوا بأذيال الكرامة والمجد الجدير بهم ، لتظل أعلامهم الظافرة ترفرف في السماء ، تملأ الدنيا نوراً تهتدي به البشرية.

والحقيقة أننا نرى كثيراً من القصائد في ديوان « لهب الحنين » تغشيها سحائب من الألم والأسى ، وقلّما نقرأ في هذا الديوان الضخم قصيدة تشيع فيها روح الأمل والتفاؤل بمستقبل هذه الأمة ، مثل الذي نقرأ في قصيدته « أمتي » (ص ٦٠٩) التي يقول في أولها :

أمّتي ردّدي النشيد قويّا وانثرى الوردَ في الدروب نديّا
هلّلي وارفعي على هامة الدهـ ـر دِرَفْساً من السَّنى يَعرُبيّا
واستقلّي مواكبَ النور للنصـ ـر تشقّ الدجى وتعلو الثُّريّا
التهاليلُ في الفضاءِ تعالتْ تملأ الأرضَ والسّماءَ دَويّا
وعلى كل ربْوةٍ من رُبا الفخـ ـرِ تعالى صوتُ العُلا عربيّا
خالدُ العُرب في الجنان يباهي ببنيه الأمجاد ميْتاً وحيّا
والبهاليلُ من بني عبد شمس أثّلوا للخلود صرْحا عليّا

إن أرواح أولئك الأبطال الخالدين قد انطلقت لتحيي البطل العربي الجديد جمال عبد الناصر ، وتبارك ثورته الرشيدة ، وجهاده المخلص :

باركوا في الجهاد عزمَ جمال وهو يمضي حرًّا .. عزيزًا .. أبيّا
هبّ كالعاصف العتيّ يلبّي هاتفَ المجد يومَ نادَى إليّا
وتلاقَى من كلّ فجّ عميق عربيٌّ حيّا أخـاً عربيّا
يتحدّى وهمَ الحدُودِ بعزمٍ ثابتٍ ما درَى خنوعاً دنيّا

وكانت فرحته الكبرى يوم استطاع جمال عبد الناصر وشكري القوتلي إقامة وحدة للشعبين العربيين في مصر وسوريا .

وقد قلنا إن الشيخ صقر كان في طليعة المؤمنين بعروبتهم ، والمتفائلين بمستقبلها إذا صدق العزم ، والتأم الشمل ، وتوحد الصف . ويذكر التاريخ أنه كان في طليعة الذين ثاروا على الطغيان ، وشقوا عصا الطاعة للطغاة والمستعمرين ، وأعلنوا لهم العصيان .

وقد كان يرى أنه لا حياة لهذه الأمة ولا مستقبل لها إذا ظلّت على حالها من الفرقة والتفكك الذي أفقدها قوتها ، وأوردها موارد الضعف والتخاذل ، والقوة وحدها هي طريق الخلاص .

وكانت وحدة العرب تبدو أملا بعيد المنال أمام كيد الأعداء ، وعملهم الدائب على تحقيق المبدأ الذي جعلوا أساساً لسيادتهم وتسلطهم على الشعوب التي منيت بهم ، وهو المبدأ الذي يقول « فرِّق تسُدْ » . ولكن الوحدة ظلت حلماً يراود خيال المؤمنين الصادقين ، ومنهم شاعرنا الذي رأى أن تحقق الوحدة بين مصر وسوريا كان ثمرة للنضال ، وتتويجاً لجهاد الأبطال ، وبارقة أمل تبشر بالوحدة الشاملة المنشودة .

وتقرأ في قصيدته « الوحدة » (ص ٣٧٣) أمارات البهجة والسرور ، كما تقرأ إكباراً وإشادة بالزعيم السوري شكري القوتلي ، وبقائد ثورة مصر جمال عبد الناصر اللذين حققا هذا الأمل البعيد :

قفْ واحْنِ رأسَكَ هيبةً وجلالا ... حيِّ الذي بالأمس كان مُحالا
أشرقْتَ يا فجر الجهاد ولـم تعُدْ ... تلقَى لديك الحادثاتُ مجالا
وتحقّقتْ أحلامنا فـإذا بنـا ... عَبْر الزمان نسابقُ الأجيالا

ثم يأخذ في الإشادة بالرئيس شكري القوتْلي ، الذي توّج جهاده الوطني بإنجاز هذه الوحدة ، التي يعدّها وثبة جديرة بمثله من رجالات العرب ، وفي الصدارة من زعمائهم العاملين على بناء الوطن ، وتحطيم القيود التي تحد من حرية أبنائه ، وكان مثلاً في التضحية بالنفس والنفيس في سبيل استقلال بلاده ، حتى إذا تحقق له ما أراد عمل على أن يعيد للوطن شبابه بتحقيق الوحدة بين بلده ومصر ، التي كانت مطمح النفوس العربية في كل مكان ، فيخاطبه بقوله :

أ متوَّجاً هامَ الجهاد بوثْبةٍ سَجد الجهادُ لِعزِّها إجلالا
ما زلتَ شكري في الطليعة دائماً تُعْلي البِنا وتحطمُ الأغلالا
ضحيَت بالنفس النفيسة لم يهنْ قلبٌ لديكَ و لم تُعزَّ المالا
حتى إذا حرَّرْتها من قيدها و وهبتها من عزمكَ الآمالا
وتنفستْ حريـــةً مكبوتـــةً لولاكَ عاشتْ في الخيال خيالا
أرجَعْتَ ماضينا ، أعَدتْ شبابهُ فَـغَدا توثُبه ظُباً ونصالا
وإذا بآمال العروبة تلتقـــي أهدافُها لـمَّا غدوْنَ نضالا
وإذا الشآمُ ومصرُ قلبٌ واحدٌ وَالكلُّ يصبحُ في الجهاد جمالا

وهكذا يصبح جمال عبد الناصر الصورة المثلى ، والنموذج الذي ينبغي أن يحتذيه كل عربي يناضل عن حقه وحرية بلده ، بل عن حق الأمة العربية في سائر أوطانها ؛ فهو الذي أيقظ هذه الأمة من سباتها ، ونبهها إلى حقوقها ، لا يعرف اليأس ولا الجبن طريقهما إلى قلبه ، وهو صادق في قوله ، لا يقول ما لا يفعل كغيره من الذين يدّعون الزعامة بالقول لا بالعمل ولا بالجهاد . وأولئك عند الشاعر هم المنافقون المتبجحون الذين يخدعون شعوبهم بالقول المعسول ، ويمنّونهم بالأماني الكاذبة ، وهم الذين يقولون ما لا يفعلون .

ويصف جمالا بالحكمة وسداد الرأي ، فلا يقع في أحابيل العدو ، ولذلك كان جديراً بقيادة أمته نحو شط الأمان ، تحرسه عناية الله الذي يؤيده ويسدّد خطاه .

وبهذه المعاني يتحدث عن جمال ، ويتحدث إلى جمال ، فيقول :

أ جمالُ يا باني دعائمَ مجدِها من بعدِ ما هجعَتْ سنينَ طوالا
ماكنتَ رعديداً ولا متحيِّزاً كلا ولا متبجِّحًـا قـَـوّالا
تدْري بما تلدُ الأمور فتنتحي عن زيغ ما رصَدَ العدوُّ و قالا
وتردّ عاديةَ الأمور بحكمةٍ حتى منحْتَ العُرب الاستقلالا
فَقُدِ السفينةَ نحـو شطِّ أمانِها يُكتبْ لها التوفيقُ منه تعالى

وتحظى مصر بأرفع المنازل في نفسه ، وتحتل مكانا رحباً من شعره ؛ إذ هي كما يقول حصن العروبة المنيع ، ومأوى الأحرار من العرب الذين ضاقت بهم أقطارهم ، و وجدوا في إخوانهم من المصريين أهلا بأهل ، وجيرانا بجيران ، فقد صفت نفوسهم صفاء أمواه نيلهم ،

كما تجري في عروقهم دماء العروبة الأصيلة من قديم الزمان :

هلْ غيرُ مصرَ لراجي الحقِّ مرتبعُ	هامُ العُلا هي ، والدنيا لها تَبَعُ
حِصْنُ العروبة والأحرار ما برحتْ	يضمُّهم من حماها العزُّ والمَنَعُ
ما حلَّ بالحرِّ ضيمٌ في مواطنه	إلا له بضفاف النيل متَّسعُ
أهلاً وإن شئتَ أعواناً وجدتَهمُ	أدنَى إليك إذا ما سيطرَ الهلعُ
أخلاقُهمْ كسماءِ النيل صافيةٌ	ما شاب لألاءها خُبثٌ ولا جشعُ

ويشيد الشاعر بأصالة مصر وحضارة شعبها العريق ، فيقلب صفحات التاريخ ليقرأ ما سجّل من الأمجاد التي بناها قدماء المصريين صناع الحضارة ، وقد كان لغيرهم من الأمم والشعوب حضارات وحضارات ، ولكنها تلاشت واندثرت ، وذهبت أدراج الرياح ، وبقيت الآثار المصرية شاخصة تملأ ربوع الوادي ، تتحدى عاديات الزمان ، وتشهد بما بلغ قدماء المصريين من العلم ، ومن الحذق والمهارة .

كل ذلك يذكره الشاعر ليؤكد أصالة مصر ، وأصالة شعبها العريق :

تمضي القرونُ وما زالتْ حضارتهمْ	في ذرْوة المجد بالتاريخ ترتفعُ
تُعطي المزيد وتجلو كلَّ آونةٍ	عن آية لسناها الفجرُ يطَّلعُ
داس الزمانُ حضاراتٍ فزلزلها	ومصرُ تاريخُها ما مسَّه الصَّدعُ
كمْ من طُغاةٍ غزوْها ثم ردَّهمُ	عـزْمٌ تكادُ له الأصْلادُ تنصدعُ
كالنيل إما دهاها الخطبُ في دَعَة	ومثلُه إن أهينتْ وهي تبتلعُ
ضِرغامُها رابضٌ يحمي الحمىَ فإذا	دنا العدوُّ فمنه الرِّيُّ والشبعُ

يقول إن مصر طالما منيت بأطماع الطامعين وغزو المعتدين ، وقد يصبر أهلها حينا على ما يحيق بهم من بغي وعدوان ، ولكنهم سرعان ما يهبون من رقدتهم ليصارعوا العدوان ، فيصرعونه ، ويردونه على أدباره ، وما فتّ ذلك في أعضادهم ؛ لأن مصر ظلت دائما مقبرة للغزاة والطامعين .

أغارت عليها جيوش من الفرس ومن الروم ومن التتر ، وأغارت جحافل عُبّاد المسيح يقودها ملوك أوربا وأمراؤها وفرسانها باسم الصليب على ديار الإسلام في مصر والشام ، فروّعوا الآمنين ، وأقاموا لهم إمارات حتى هبّ البطل صلاح الدين وجنوده من المصريين فمزقوهم شر

ممزّق ، و ردوهم على أعقابهم خاسرين مدحورين ، وظلت راية الإسلام عالية خفاقة في سماء مصر كنانة الله في أرضه .

ويقلب الشاعر صفحات التاريخ ليقرأ فيها أن مصر عرفت التوحيد إذ كان العالم يتخبط في ظلمات الجهالة والشرك ، وذلك منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأن أخناتون فرعون مصر كان أول من دعا إلى توحيد الله ، حتى إذا بزغت شمس الإسلام ودخل المصريون في دين الله أفواجاً أصبحت مصر حصنا منيعاً من حصون الإسلام ، ودرة في تاج المسلمين ، وكذلك صانت لغة العرب ، وكستها الحلل الأنيقة التي استوعبت العلوم والمعارف الأصيلة والوافدة ، وعاشت على ألسنة أهلها ، وجرت على أقلامهم كأبهى ما كانت عليه في عصورها الذهبية . يقول الشاعر في خاتمة قصيدته التي مجّد فيها مصرالعربية المسلمة [1] :

لم تَحْنِ إلا لربِّ الكون هامتَها   فأسلمتْ وبُغاةُ الكفـر تصطـرعُ
وآمنتْ حمَتْ للدين عزتَـهُ   وصانت الضّادَ لَمّا عمّتِ البِـدعُ
دمُ العروبة يجري في منابِتهـا   من عهدِ رمسيسَ مهما الأدْعيا ابْتَدعوا
عبادةُ الواحد أخناتون قدّسَهـا   من بعدِ ما عبد الضُّلال ما صنعوا
فإن يكنْ لحمى الإسلام نُصْرتها   فَعِزُّها منـه ، لا ذلٌّ ولا ضَـرَعُ
أو صانتِ الضّاد في أبهْى ملابسها   جديدةً لم تشِـنْ ألوانَهـا الرُّقَـعُ

وفي رأيي أن هذه القصيدة التي جعل الشاعر عنوانها « مصر العروبة » وما تضمنته من المعاني والأفكار كانت جديرة بالتوقف عندها أكثر مما توقفنا لاستجلاء بواعثها ومراميها .

فقد عمد الشاعر فيها إلى الإشادة بمصر وتعداد مفاخرها ومآثر المصريين ، ويذكر شيئاً من أمجادهم التي بوأتهم هذه المنزلة في نفسه الكبيرة ، وهو يرى في الوقت نفسه أن عظمة مصر إنما هي من عظمة العرب ، وأن كل مجد تحصله مصر إنما هو زيادة في الشرف لأمة العرب .

وهو لا يخترع ما ذكر من المآثر ، أو لا يؤلفها بخياله ، ولكنه يذكر مواقف وأحداثاً تاريخية يعرفها العرب ، ولا ينكرها عليهم عدو من أعدائهم ، وذلك يدل على معرفة واسعة بتاريخ العروبة والإسلام .

ويؤكد الشاعر مع ذلك وحدة الدم و وحدة الجنس التي تصل المصريين بأمتهم العربية ،

---

(١) ديوان « لهب الحنين » ، قصيدة « مصر والعروبة » ، ص ٢٩٩ .

بعد أن ارتفعت في هذه البلاد وغيرها من الأقطار العربية أصوات شعوبية ، تنادي بالعزلة والانكماش بدعوى الفرعونية ، وتحاول إبعاد أبناء الكنانة عن أمتهم العربية ، أو فصل الرءوس عن أجسادها .

وذلك ما أشار إليه الشاعر في قوله :

دم العروبة يجري في منابتها   من عهد رمسيس مهما الأدعيا ابتدعوا

وليس الأدعياء الذين يعنيهم الشاعر في هذا البيت سوي تلك الشرذمة من أعداء هذه الأمـة ، وجُلُّهم من صنائع الاستعمار الذين دأبوا على الكيد لها ، والعمل على تمزيقها ، وتفتيت وحدتها ، وغَرْس بذور الشك في مقومات هذه الوحدة .

* * *

ولم يقصر الشاعر عاطفته الوطنية العربية على مصر وحدها ، بل إن ديوانه « لهب الحنين » يفيض بالقصائد التي عبرّ فيها عن مشاعره تجاه أمته العربية في كثير من مواطنها ، يتابع أحداثها ، ويأسى إذا ألَمَّ بها مكروه ، ويستبشر إن أصابت خيراً ، أو أحرزت نصراً .

وقد تردد الشاعر على كثير من حواضر العرب ، وتفقد ما فيها من معالم الحضارة ومشاهد الطبيعة الفاتنة التي يختص بها بعضها ، كما شهد بعض أحداثها ، وعرف كثيراً من رجالاتها من أقطاب السياسة والفنون والأدب فيها ، فوق ما كان يقرأ ويسمع من أخبارها ، وعن مسيرة الحياة فيها ، وهو مقيم في بلده .

وتتردد أصداء ذلك كله في شعره الذي يُعد صورة صادقة لحياته وتجاربه الشعورية ومعارفه الإنسانية ، وخبراته الذاتية ، وسائر ما أثر في حسه ، وتفاعل مع مشاعره .

وتقرأ على سبيل المثال قصيدته « أغنية إلى دمشق » (ص ٥٩٢) لنرى فيها كيف انعكست طبيعتها الساحرة على مرآة شعره :

سَلِ الـورودَ التي تَنْدى بيُمناها   أما دَرَتْ سرَّ ما تحوي ثَناياها ؟

و سائلِ العود لما جنَّ هل سمعتْ   أوتارُه لحنَها المشجي فغنّاها ؟

و سائلِ الجنَّ عن أسرار حَيْرتها   لما تغنّت أسحر اللحنِ أشجاها ؟

دعني أذِبْ لهفةَ نفسي فأرسلها   مع صوتها نغماً يسري بمَسْراها

هذه النشوة التي أحس بها الشاعر ، وأثارت في نفسه هذه التساؤلات عن مصادر تلك اللحون التي تتردد أصداؤها في الأجواء ، فتشنف مسامعه ، وتمسّ شغاف قلبه – إنما هي همسات الورود الندية ، أو أنغام أوتار المزاهر الشجية ، أو عزيف الجن في المهامه والقفار ، وكأن هذه جميعاً تتحدى الأطيار في شدوها الساحر فوق أغصانها الميادة ، والنور السماوي ينعكس على صفحة الوجود ، ويروح النسيم العليل ليعم الكون بما يحمل من شذا تلك الأزهار والورود ، والنجوم تتراقص في أجواز الفضاء ، وضوء القمر يحيي تلك الرؤى الباهرة ، وحفيف الريح يمثل زغردة الطرب والنشوة التي تخالط أمواه نهر بردى فتهتز طرباً .

والناس مأخوذون بروعة ما يرون وما يسمعون من مشاهد الطبيعة الخلابة ، ومنهم من أغراه سحر ما يرى بانتهاب أسباب الهوى والاستمتاع :

أصغيتُ والطيرُ حيرى في ترنُّمها مأخوذَة اللبِّ مـن لحنٍ تحدّاها

ينسابُ نوراً سماويا .. وآونـة أنسامُ طيبٍ تعمُّ الكونَ ريّاها

تراقص النجم من سُكْرٍ ومن طرَبٍ وأشرقَ القمَرُ الزاهي فحيّاها

وأرسلتْ هيمناتُ الريح زغردةً لفَّ الندى وأزاهيُر الرُّبا فاها

حَنَتْ على بردى تُهديه نفحتَها فاهتزَّ يمزج مجـراه بِمَجـراها

والقومُ ما بين مخمورٍ بنشوتهِ وسارحٍ يتنزّى في الهوى آها !

لقد تعددت هذه الرؤى والخواطر ، وتزاحمت على حواس الشاعر ، ورأى في كل رؤية جمالاً ، وفي كل منظر بهاء ، فحرص على أن يجمع شملها في هذه الأبيات مخافة أن يشذ شيء منها عن ذكره .

ومن هنا بدا ذلك الاختلاط الملحوظ بين أجزاء الصورة الشعرية التي أراد أن يرسمها في هذه الأبيات الوصفية ، مع أن الشاعر من أبرع الشعراء المعاصرين في فن الوصف .

ولكنك تقرأ في دمشق قصيدة أخرى قد تراها أصفى مورداً من هذه الأغنية التي أهداها إلى دمشق ، فقد تتابعت في أولها الأوصاف الجميلة لمشاهد الطبيعة الخلابة التي وشّتها يد الطبيعة ، وفيها تتصل الصور البديعة لتلك الرؤى بعضها ببعض في صفاء وعذوبة قد لا تراهما في هذه الأغنية التي بدا فيها ما أشرنا إليه من التزاحم ، الذي أدى إلى اختلاط بعض الصور ببعض .

ولا شك أن الحالة النفسية واختلافها بين عمل شعري وعمل شعري آخر لها أثر كبير فيما

قد يبدو من الاختلاف الفني بين العملين الشعريين ، وإن كان هذان العملان يعالجان غرضا واحداً .

والقصيدة الثانية التي نتحدث عنها الآن هي قصيدته « دمشق » (ص ٣٣٣) .

وقد أنشأها في أثناء زيارة قام بها لتلك المدينة العريقة ، ويبدو أن الشاعر كان يحس براحة نفسية وسعادة غامرة .

وقد تنقل فيها بين أغراض ثلاثة ، هي : وصف تلك المشاهد التي راقته ، ثم وصف مشاعره نحو أبطالها الذين استطاعوا بجهادهم طرد الغاصبين من ديارهم ، ثم الإشادة بالزعيم الكبير شكري القوتلي وأعوانه المجاهدين وماضحّوا به في سبيل استقلال وطنهم الذي يمثل إحدى القلاع الحصينة للعروبة ، وكلها أغراض محببة إلى الشاعر العربي المجاهد .

وتبدأ القصيدة بهذا الوصف الجميل :

حلمٌ يرفُّ على الجفون ويخفقُ ... ومنًى يتيه بها النعيم المورقُ

وهَوى كما ابتسمَ الربيع مفوّفٌ ... من فوحِهِ أرجُ السعادة يعبقُ

أنّى التفتُّ فروضةٌ معطــارةٌ ... هامَتْ ببهجتها النفوسُ تحلّقُ

والطيرُ بيــن مغــرِّد ومــردِّدٍ ... في لحنه مضتِ الحياةُ تصفّقُ

بَرَدى بغوطتها الوريفة ساربٌ ... بجلاله ســرّ العــلا يتدفــقُ

يَسقي المفاخر من رحيق سُلافه ... عَرقتْ فطاف بها الإناء المعرِقُ

وإذا سألتَ عن المكارم والنُّهى ... مَنْ أمُّها ؟ فَخرتْ بذلك جِلّقُ

وفي « لهب الحنين » قصيدة سورية ثالثة [1] أنشأها الشاعر في الانقلاب العسكري الذي قاده حسني الزعيم في ١٨ من شوال سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩م) ، وبدأ به عهداً من الانقلابات العسكرية [2] .

وقد اهتز ضمير الشاعر العربي لهذا الحدث الخطير في وقت كان العرب فيه يحاولون جمع كلمتهم ، وحشد طاقاتهم لمواجهة الاستعمار ، وراعه أن يودي ذلك الانقلاب بزهرة شباب البلاد الذين هم أمل المستقبل لأمتهم ، وأن يطيح الانقلاب بالزعيم الكبير شكري القوتلي

---

(١) ديوان « لهب الحنين » ، قصيدة « انقلاب سوريا » ، ص ٥٨٦ .

(٢) تلا انقلاب حسني الزعيم انقلاب آخر قام به سامي الحناوي ، وما لبث أن قاد أديب الشيشكلي انقلابا ثالثا .

الذي زَجَّ به ذلك المتمرد في غيابة السجن .

وكان الشيخ صقر يكنُّ للقوتلي حبا وتقديراً ، فقد عرف فضل وطنيته وعروبته ، وعرف جهاده في سبيل طرد المستعمر واستقلال بلده . وذلك ما دفعه إلى إنشاء هذه القصيدة .

وتبدأ القصيدة بأبيات يبدو فيها أثر الفكر والتأمل ، وإن كانت أفكاراً سهلة قريبة أفادها الشاعر من تجاربه ، ومن مشاهداته وقراءاته ، ولذلك كان مافيها من حلاوة الشعر وعذوبته ، ورونقه أكثر مما فيها من آثار الفلسفة أو أعمال الفكر ذات الخصوصية في عالم التفكير :

وَيْكَ دنياكَ وإن طال مَداها غفوةٌ يستهلك العمرُ ضياها
سِنَةٌ تجتازُ فيها صوراً من ملذّاتِ الأماني وشَقاها
حيِّرتْ فيها أخا العقل فما يهتدي يوماً إلى نورِ هُداها
أيُّ فرقٍ بيننا والزّهرُ في روضة قد باكر الغيثُ رباها
لَبِستْ ذات أصيل تاجَها فَزَها كِبْرًا بها التاجُ وتاها
ملأتْ أفوافُها الوادي شذًا فَوشَى العطرُ عليها ودَهاها
فَسعتْ أيدي الرّدى تجتثُّها فذوتْ كالأمس حزناً وجنْتاها

وهذه الأبيات بحكمتها وبصورها تصلح أن تكون مقدمة لكل غرض يعرض صاحبه للتعبير عن تغير الأحوال في الحياة والأحياء .

وبعد هذه المقدمة يأخذ الشاعر في غرضه الأصلي ، فيعرض للأهوال التي حلّت بالشعب العربي في سوريا من جراء هذا الانقلاب :

صاحِ سَلْ سورية ما راعَها مَنْ بِذا الهول أراه قَدْ دهاها
ما لها ؟ في كلِّ يوم نكبةٌ صبغَتْ هامَ المعالي بدِماها
جزَرَ السيفُ طلا شُبّانها فبكتْهم في الثّنائي غوطتاها

ويستطرد إلى نصيحة أولئك المنقلبين بعدم التمادي في جريمتهم رحمة بأبناء سوريا ، وبمستقبل الأمة العربية . ثم يتوجه إلى الزعيم شكري القوتلي الذي أطاح به الانقلاب ، وقذف به في غياهب السجن مع ما قدم لشعبه ولأمته من أجل الخدمات ، وما بذله في سبيلها من أعظم التضحيات ، فيقول له :

نمْ لقد أدَّيتَ أسمى واجبٍ لبني العُربِ وحَصَّنتَ ذُراهـــا
لم تَــرَ للحـــق إلا قـــوةً تضمنُ الحريةَ الزّهرا لظاهـــا
لم تَرَ للعـربِ إلا وحـــدةً تضمن الحربَ إذا دارتْ رَحاها

إلى أن يقول :

لا تلمْها ذكرتْ شكريَّها وَبَلاه فنفتْ طيـبَ كراهـــا
أنِفَت نسيان مَنْ أوفى لها ساعة الرّوع ومَنْ شاد بِناهـــا
نَزع استقلالها مـن غاصبٍ من لباس العزّ والفخر سَباها
لم يُضعضع عزمَه السجنُ وكمْ نكبةٍ من نفسه أذكتْ مَضاها
لم تُنَهْنِهْهُ الرّزايا السودُ عن خُطة من خالص النصح سَداها
هكذا يشفى ، لكي تحيا به أمةٌ سيمَتْ أذى الذُّل ، فَتاها

ومن رجالات سوريا الذين أحبهم الشاعر الزعيم فارس الخوري الذي رأس وزراء سوريا حقبة من الزمن ، وكانت له مواقف مشهودة في الدفاع عن أمته العربية في منظمة الأمم المتحدة . وكتب إلى الشاعر كتاباً يقول فيه « أعجبت بسجيتكم الشعرية التي انفردتم بها بين الأمراء المعاصرين من العرب ، فأنت يا سيدي شاعر الأمراء غير منازع ، وأرجو لك أن تصير أمير الشعراء إذا تجردت لهذه الصناعة العاطفية ، واتسع لها وقتكم ...»

* * *

وقد كان كثير من القادرين من رجالات العرب وأدبائهم وشعرائهم يتخذون من لبنان مصطافهم الأثير ، يقصدونه للاستجمام وللأنس والراحة ؛ إذ يجدون فيه مالا يجدون في أوطانهم .

ومنهم الشيخ صقر الذي تعلق قلبه بهوى لبنان ، وكان يقصده في كل عام ؛ ليقضي في ربوعه معظم شهور الصيف ، يتمتع بنسيمه العليل ، وطبيعته الساحرة ، ورياضه المونقة ، وجباله الشاهقة التي وشتها الطبيعة بالأشجار والورود والأزهار ، والشهي من الثمرات ، ويجد في سكانه الطيبين الرفيق والأنيس .

وقد تعرف على عدد كبير من زعمائهم وأدبائهم وشعرائهم الذين أحبهم وقدرهم بمقدار ما أحبوه وقدروه . وفي طليعتهم الشاعر القروي رشيد سليم الخوري والأخطل الصغير بشارة

الخوري ، وأحمد أبو السعد ، وفؤاد الخشن .. وكان هؤلاء وغيرهم أصدقاء مقربين ، وأوفياء صادقين لم ينسهم الشاعر ولم ينسوه .. وكثيراً ما عبر عن مشاعره نحوهم ، وعبروا عن عواطفهم نحوه بأسلوب شعري عذب جميل ، يفيض بمعاني الحبّ والوفاء ، ومعاني التقدير والولاء .

ومنه قصيدة عنوانها « لبنان » وقد أهداها إلى صديقه أحمد أبو السعد (ص ٣٦٥) يقول فيها واصفاً مغاني لبنان :

الله يا لبنانُ مـــا أجمَلَـــكْ سبحان مَنْ بالحُسن قد جمَّلكْ
سرقت من كلِّ الربا زهرة ما ضوَّعتْ بالعطـــرِ إلا ولَـــكْ
وَما استْفاق الصُّبح من نومِهِ إلا لكي يغسلَ عنك الحَلكْ
رُباك يا لبنانُ من حُسنهـــا أحيتْ فـؤاداً ، وفـؤادَ هلَـــكْ
يا جنةَ الله علـى أرضِـــه كمْ فيكَ من حوريَّة أو مَلَكْ
همْ تركوا الخُلـدَ وإغـراءه لبنان ، حتّى أوردوا مَنْهَلَـــكْ

ثم يشير إلى وفائه للبنان ، وإلى ذكرياته التي أعلت منزلته في نفسه ، وإلى أحبائه الذين لا تفتأ تطوف بذهنه صور وفائهم ، ويخص منهم أبا السعد الذي يذكره بكنيته أبو الوليد :

لي فيكَ يا لبنانُ صدْق الوفا وَذكريات رفعـتْ منزلَـــكْ
لي فيكَ أحبابي فأطيافُهم تُكلِّل الروحَ الذي كلَّلك
أبا وليدٍ نـاجِ لبنـانَ عـــن غرِّيده الصادح والشكرُ لكْ

وفي قصيدة أخرى[1] يشيد بصاحبه « أحمد أبو السعد » وإجادته في فنه الشعري ، وما أبدع فيه من وصف مفاتن الطبيعة في لبنان ، وسحر بنات حواء فيه ، ويبدؤها بقوله :

يا صاحبَ النَّغم المرّدد في الفَيافي لحنَهُنَّهْ
ينساب في عُمْق الغيوب صدًى يردِّد وَحْيَهُنَّهْ
سكرتْ بـــه الأزهـــارُ والأطيـار تعبـد فَنَّهُنَّهْ
الدافئاتُ من القصائـد بعـــضٌ بعـضِ فُنونِهنَّـــهْ
عزَّيْنَ نهـداً ثائـرَ الرغبـــات منطـــلقَ الأعِنَّهْ

(١) ديوان « لهب الحنين » ، ص ٥٥٩ ، وعنوانها « إلى أحمد أبو السعد » .

وسَرَيْن في عمق النّسيم الحلوِ نحـو شِفاهِنَّهْ
كالنّحل يرشفْنَ الرحيقَ وَصدقه يروينَ مِنَّهْ
صَوَّرتَه بجلالـه وجَلَيْتَـه مـن سِحْرِهِنَّـهْ
وتَخِذتَ مـن إبداعـه وجمالـه مِحْرابَهُنَّـهْ
إما سُئِلتَ : لمن خلقتَ ؟ أجبت في تيهٍ : لَهُنَّهْ
فَتنقَّلْ كالطيـر ما بيَن الريـاض تَعُبُّ دَنَّـهْ
نَشْوان من راحِ الهوى صحراءُ عُمْرِك ألفُ جَنَّهْ

إنه يغبط صاحبه أبا السّعد على حياته الزاهية المطمئنة بين الأزاهر والرياض ، وبين الألحان وأصداء الأطيار في دنيا البهجة والمرح ، بين الغيد والظباء الذي يفتنُّ لهن في تصوير ما يسبيهن من الرؤى والأحلام ، فيفضنَ عليه من سحرهن ، ولا يزال يمرح في دنيا الخيال والجمال ، وكأنه لم يخلق إلا لهن ، فلا يشغله شيء عنهن .

ثم يوازن بين حياة صاحبه الرغدة الباسمة وحاله وهو يعيش في صحراء عابسة ، لا يرى إلا جبالها ورمالها ، أو ما يشبه الجبال والرمال ممن تقع عليهم عيناه ، ويتحرج في وصف مشاعره، أو التصريح بهواه في البيئة الجامدة أو المتزمتة التي يحيا فيها ، ولا يستطيع إلا أن يحمل صاحبه أصدق مشاعره لينقلها إلى من حرم من رؤيته في بلده ، ويسأل صاحبه ألا ينساه :

أ ذكرتَ في الصحراء مكبوتَ المشاعِرِ في دُجُنَّهْ
يشتاقُ لبنانَ الجميلَ لمن عرفـت ويعبُدُنَّـهْ
ويصوغ فيه الرائعاتِ .. فتبـدع الأشواقُ فَنَّـهْ ؟
فإذا مررتَ بحيٍّ مَنْ روحي فِداه فَقبِّلَنَّـهْ
قِفْ وقفة الوثَنِيِّ في صمتٍ بروح مطمئِنَّـهْ
وَاشْرح بمـا أبْدى الفـؤاد ومـا أكنَّـهْ

ومع الشاعر في عالم العروبة نقرأ في الديوان عدداً من القصائد الجياد عدا ما ذكرناه . ومنها قصيدته « من وحي مكة » (ص ٢٦٨) ، ويذكر فيها عظمة أم القرى ، ويشير إلى طرف من أمجادها التاريخية ، ويشيد بمنزلتها إذ كانت مهبط الوحي وكعبة المسلمين ، وقبلتهم ، ويأسى لما صار إليه المسلمون من التخلف والهوان بعد ما كانت مكة مشرقاً للنور الذي بدد ظلمات الجهل ، وذلك بانقسام المسلمين وتفرق كلمتهم .

وقصيدته التي أنشدها في الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الذي لقبه الشاعر بطل العروبة (ص ١٥١) ، ويحسب القارئ أن مديح الملك عبدالعزيز هو المقصود ، ولكنه سيرى أن هذا المديح هو أقل القليل في هذه القصيدة ، وأن الشاعر عمد فيها إلى عرض ما تعاني الأمة العربية في المشرق من هموم ومشكلات ومطامع لأعدائها في ديارها ، وإلى أن الملك عبد العزيز أصبح الأمل المرجى لكشف الغمة ، والعمل على جمع شمل العرب ، وتوحيد كلمتهم، واستخلاص حقوقهم :

آمالُنا لكَ وجِّهتْ ولأنتَ لِلآمال قَصْدُ
الخصمُ شدَّ وما نهاه عن اقتحام الحُرْم حَدُّ
أنْكى بنا ، وبِكَ الملاذ ، فأنتَ بعد الله رِفْدُ

ثم يذكر طرفاً من هموم الوطن العربي ، ويخص بالذكر بلاداً من المشرق :

هذي فلسطينُ الشهيدةُ لم تفقْ م الوَيل بَعْدُ
والشّامُ ينغرُ جرحُها ، أ و ما لها لِلحَلِّ حَدُّ ؟
وبأرضِ هارونَ الرشيد مهازلٌ للعين تَبدُو
يا ويحَ مصرَ أمالَها وقَناتها لِلحلِّ عَهْدُ

وتوجه إلى الملك عبد العزيز يهيب به أن يهب لإنقاذ هذه الأوطان العربية من معاناتها ، فليس للعرب سوى العرب :

عبدَ العزيز أرى الخصومَ ، وكلُّهم للهول جُنْدُ
مُتألّبيـــن وما سِوانـــا يطلبـــونَ ليستَعِـــدُّوا
نادِ الملوكَ إلى الوئام فقد أضَلَّ الحقَّ حِقْدُ

ويشير في أسف إلى تواكل العرب وتقاعسهم عن الجهاد والجلاد ، وتباهيهم بالتراث وبأمجاد الأسلاف ، التي لا تجدي نفعاً في عالم لا يدين بالحق ، ولا يعترف إلا بالقوة ، ولا يحتكم إلا إلى السيف ، فيقول :

الاتّكـالُ ومـا أرى إلاه مهلكـــةً تُعَـــدُّ
لو لم تجَرِّدْ أنتَ سيفَكَ لم يكن واللهِ نَجْدُ
وَلوِ اتّكلتَ على التراث لما حَدا بِعُلاكَ سعدُ

وكان الشيخ يتابع حركات التحرر والاستقلال التي تشبُّ في مواطن العروبة ويثور أبناؤها

الذين يجودون بالدماء ، ويضحون بالأرواح ، لأنهم يرون الموت في سبيل الأوطان شرفًا ، وهو أهون من حياة الاستعباد التي يقاسونها تحت وطأة الاستعمار ، حتى أصبح شعره سجلا لحركات التحرر والاستقلال في الوطن العربي .

ويظل الشاعر يشحذ العزائم ، ويستنهض الهمم ، ويحيي أبطال النضال بقصائده الحماسية التي يشارك بها في معركة الجهاد المقدس ضد الاحتلال والاستعمار .

وله في حرب الجزائر قصيدة عامرة [1] يشيد فيها ببسالة الجزائريين وصمودهم في وجه الفرنسيين العتاة ، وفي مواجهة أمضى الأسلحة الفتاكة ، ولا سلاح لهم إلا الإيمان بحقهم في الحياة الحرة الكريمة في وطنهم .

وفي مطلعها يقول :

قُل للمناضِل عَن حِمى أوطانهِ ... انهضْ وَرُدَّ الخصمَ عن عُدوانِهِ

وَاحْمِل على يدكَ الحياةَ لموطنٍ ... يحيا إذا ضحَّيتَ فـي ميدانِـــه

وَاختم بِبَسْتيل الطُّغاة حياتَهم ... وَاهْدم بهمْ ما اشتَدَّ من أركانِه

لا الموتُ يَسلبُك الهَنا ، ولا يَهدُّ ... السجنُ عمرَك في دُجى جدرانِهِ

كان الشاعر يحس إحساسا عميقا بأماني أمته العربية ، ويأسى أشد الأسى على ما نحدرت إليه ، وتردَّتْ فيه من الضعف والهوان الذي أغرى بها الأعداء ، وأطمع في أوطانها المستعمرين في حياتها الراهنة ، بعد سلسلة من الأمجاد سجلتها بحروف من نور في كتاب التاريخ بإيمان أبنائها العاملين الصامدين الذين حطموا عروش الجبابرة من الكفار .

إن الشاعر يحلم بأن يبعث هؤلاء الأبطال ليعيدوا الحياة إلى أوصال الأمة التي فقدت عزيمتها ، فضلت طريقها في الحياة ، باختلاف كلمتها وتمزيق وحدتها ، إنه يحلم بأبطال من أمثال الذين ذكرهم ، واستعان بهم في هذه الأبيات :

وا عُمَراه ، وا صَلاحَ الدين ، وا مُعتَصِماه ... وا مَغاويرَ رأوا طولَ المدى ذُلا وحَيْفا

وَاستْهانوا بالمنايا ومَشَوا للموت زحفًا ... عَفَّروا الأوجَه بالتُّربِ من الرَّحمن خَوْفا

فَإذا التَّزَّ الخميسانِ مضَوا صفا فصفًّا ... وا عمراه ، وا صلاحَ الدين ؛ وا معتَصماه

أينَ مَنْ عن حُرمات الله باعوا النفسَ ... زُلفى قَرَّبوا من أجله الروَح فَوفَّاهم وَأَوْفى

شَرِبوا من أجله كأسَ الرَّدى والحبَّ صِرْفا ... إنَّه الإيمانُ من ينبوع الصَّخرِ أصفى

(١) ديوان « لهب الحنين » ، وعنوانها « الجزائر في نضالها المجيد » ، ص ٥٢٧ .

ثم مأساة فلسطين التي اغتصبها شذاذ الآفاق من بني إسرائيل الذين روعوا الآمنين ، وسفكوا الدماء ، وأزهقوا الأرواح ، وأغاروا على مقدسات العرب والمسلمين ، وبَغوا وطغَوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وظاهرهم على العدوان أعداء الأمة العربية من الحاقدين على العروبة والإسلام .

ولقد هزت هذه المأساة ضمير كل من له ضمير ، وجرحت قلوب العرب والمسلمين في كل مكان .

وانبرى الأدباء والشعراء لوصف تلك المأساة ، والتعبير عن مشاعرهم نحو ذلك الحدث الخطير ، وما لحق شعب فلسطين من ضروب القهر والامتهان ، والطرد من الأوطان ، ويستحثون العرب على نجدة إخوانهم ، والثأر لكرامتهم ، واسترداد هذه البقعة الغالية من الوطن العربي من براثن الغرباء الضالين .

وقلَّ من الشعراء العرب المعاصرين من لم يعرض في شعره لتلك الكارثة التي حلت بالعرب والمسلمين ، حتى لقد فاض بنتاجهم في هذا الغرض ديوان الشعر العربي الحديث .

ومن الطبيعي أن يثير ذلك الحدث شاعرية الشيخ صقر ، التي تفاعلت مع سائر الأحداث التي ألمت بالوطن العربي في شتى أرجائه ، فصاغ في قضية فلسطين أو في الكارثة التي نزلت بالشعب العربي في فلسطين عدداً من غرّ قصائده التي أشاد فيها بصمود هذا الشعب ، واستلهم أحاسيسه الإنسانية ، ومشاعره العربية ، واسترجع فيها تاريخ الماضي العريق ، وأشاد بأبطال المسلمين ، وبالفتوحات والمعارك التي أبلوا فيها أحسن بلاء ، وكرر في شعره ذكر أولئك السابقين ، وكأن لسان حاله يقول : أين الخلف من السلف ؟

ونكتفي في هذا المجال بالإشارة إلى شيء مما صاغه في فلسطين ، وقد اخترت من ذلك السيل الهادر من شعره في فلسطين قصيدته المحكمة التي طال نفَسُه فيها ، وعنوانها الفدائي في المعركة (ص ٣١٨) وقد أنشأها في مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٦٩م ، ـ وكنت أحد المشاركين في هذا المؤتمر ـ وفي أولها يقول بلسان واحد من الفدائيين :

لا تَسُدَّ الطريقَ دَعْني ألاقي ... فجرَ نصري أو الرَّدى في عِناقي
هي روحي في قُمقُمِ الذُّلِّ عاشتْ ... مُنَّ يا جائري لها بِانْطلاقِ
إن جُرحيَ أعْيا الطبيبَ فَدَعني ... من وعود قد غُلِّفتْ بالنفاقِ

إن ذلك الجريح الذي أعيا جرحه الأطباء ، لا يزال الأمل يداعب خياله ، وهو مؤمن بأن الفجر سيشرق على حياته بعزمه وإصراره على المضي مع رفاقه في طريق الكفاح ، فإن الغراس التي غرسها في أرضه تحتاج إلى السقيا ، وليس ترويها إلا دماء الفدائيين بعد أن غررت بهم الأماني الخادعة ، والوعود الكاذبة:

مِنْ خيامي السَّوداءِ سوف يُطلُّ الـــ ـــفجرُ مِنْ عزمتي وعَزْمِ رفاقي
فالشُّجَيرات في الخليـــل و حيفـــا ظمئتْ وهي لا تزالُ بَواقِ
وأنـــا ! مَنْ أنا ؟ أعيـــشُ شريـــداً بين ماضٍ من العهودِ وباقِ
بيـــنَ عهـــدٍ ممـــزَّقٍ وأمـــانٍ ضِعْنَ بين الوعـــودِ والأوراقِ
في ذُرا النّيل والشّـــآم ونجـــدٍ وعَمان ومكـــةَ والعـــراقِ
ومَغاني الأرز المطلّـــة ترنـــو نحوَ قلبي في لوعةِ الإشفاقِ

لقد فقد العرب وطنهم في فلسطين ، وأصبح أبناؤها مشردين ، بعد أن طردهم من ديارهم اللصوص من أبناء صِهْيَون ، وأخذوا يستنجدون بإخوانهم من العرب ذوي النجدة والبأس ، الذين دكّ أسلافهم الحصون ، وفتحوا البلاد ، وشادوا الأمجاد ، ولكن أخلافهم استسلموا للدعة ، ورضوا بالهوان بعد أن دب فيهم الوهن ، ولا هم لهم إلا البكاء على الأطلال ، والتباهي بالأشلاء والحطام :

ليس لي موطنٌ وأهلٌ ودارٌ فدياري في قبضةِ السُّرّاقِ
أينَ منّي أبناءُ يعربَ قومي مِن بُناةِ الأمجاد في الآفاقِ
أين بأسُ الأبطالِ مَنْ فَتحوا الأر ض بجُردٍ من الخيول عتاقِ
ظَلّلَتهمْ أمجادُهم فاستراحوا ودبيبُ النُّعاس في الأحداقِ
ضَلّلتهم أمجادهم فأضاعوا كلَّ مجد في غَفْلةٍ وشِقاقِ

ثم يتساءل عن القدس وذكريات أمجاد العرب في فتحها ، وعن حديث الإسراء والمعراج ، وعن النبوات التي درجت على أرضها ، وهي تئن تحت وطأة الاحتلال الصهيوني وبطشه ، واستخفافه بالقيم والأعراف والأخلاق إلى أن يقول على لسان الفدائي :

يا رفيقَ النِّضال هل مِنْ سَميعٍ لنداءِ الفدا ويوم التّلاقي ؟
يا رفيقَ النضـــال أيقِـــظْ نيامًـــا ضربَ النومُ فـــوقَهم بِرُواقِ
فالفدائيُّ منبعُ الثورةِ الكبـــرى وهل غيرُه من العارِ واقِ ؟

ويستطرد الشاعر إلى حفز الهمم اليعربية لقهر الطغاة من اليهود ، وتحطيم أحلامهم ، ويرى أن بني العروبة قادرون إذا صدقوا العزم على خوض أعتى المعارك ، والظفر بإكليل الغار فيها ، وهو في الوقت نفسه يحذر من خداع الأعداء والاقتناع بزيف وعود من يقفون وراءهم .

ونكتفي بهذا القدر من تلك القصيدة الحماسية الرائعة ، التي نختتم بها حديثنا عما عبر به الشاعر عن عروبته وقضايا أمته التي احتلت حيزاً كبيراً من ديوانه الكبير ، جديراً بمثله في وطنيته وإيمانه بأمته .

* * *

وإذا نحن عدونا شعر الوطنية والعروبة الذي يزخر به ديوان « لهب الحنين » وجدنا فيه كثيراً من الشعر الوجداني الذي عبر فيه الشاعر عن نفسه ، و وصف فيه خوالجه وعواطفه وسائر انفعالاته ، وإن كان شعر الوطنية والعروبة لا يبعد مجاله كثيراً أو قليلاً عن مجالات الشعر الوجداني ، لأن ولاءه لهما ولاء ينبع من أعماق نفسه ، ومن صميم وجدانه ، ولأن الذين يذكرون الشعر الوجداني يجعلونه قسيما للشعر القصصي أو شعر الملاحم ، وللشعر المسرحي أو التمثيلي ، وليس في ديوان الشاعر شيء منهما .

ثم إن لكثيرين من شعراء العصر باعاً في الإبداع في مجالي العروبة والوطنية .

ولكن الذي نعنيه هنا الشعر الذي تحدث فيه عن نفسه ، وعن خاصة أهله وعشيرته ، وصفوة خِلانه وأحبائه ، ثم شعر الحب الذي تناثر في الديوان ، وشغل جانبا ظاهراً منه .

ونتوقف قليلاً عند قصيدته « تمتع بالجلال » (ص ٢١٩) والخطاب موجه إلى أبيه الشيخ سلطان القاسمي ، وقد بدأها بقوله :

تمتَّعْ بالجَلال فأنتَ أحْرَى ... وسُسْ مُلْكًا بِسعيك عاشَ حُرًّا
سبقتَ إلى المكارم كلَّ بانٍ ... فَاسْمك في سجلِّ المجد طُغْرَا
وحطَّمت المشاكل فاستدانتْ ... وكنت لمن رجاك أبًا أبـــرًّا
تعالَى من كساكَ رداءَ حِلمٍ ... وفضلاً يمــلأُ الأكــوان نَشْرًا

ويستطرد في وصف أبيه بصفات الكمال التي ورثها عن آبائه وأجداده ، حتى يقول له :

أرى طُرقَ العُلا واتتكَ فاصدعْ ... بأمركَ واشْطِرِ الأعداءَ شَطْـرا
ومَنْ طلبَ العلا هانتْ لديــهِ ... صِعابُ الأمر إن خَصْمٌ تَجرَّا

ثم يأخذ في إسداء عدد من النصائح لأبيه ، وكأنه يرسم له سياسة الحكم ، فيحبب إليه العفو عن الجناة عند القدرة عليهم ؛ لأن هذا العفو سبب من أسباب انقيادهم ، وينصحه بالحفاظ على المال ليكون ذخراً عند الشدائد يؤلف به قلوب بعض رعاياه ، ويشهر السيف في وجه الآخرين ، كما ينصحه بأن يسوس الناس بالشورى ، فإن في أهله أصحاب رأي نافع سديد ، وبألا يترك أمره للأيام تصرفه الأقدار بما يسر ويسوء كما تشاء :

وبَذلُ العفو بالجانينَ إمَّا ... ملكتَهمُ فدَتْك النفسُ أحرَى

ومالَكَ دعْه ذخراً إن أناختْ ... سِنوكَ وأنشبتْ ناباً وظُفرا

فمهِّد تارةً بالمال أمراً ... ومهِّدْ تارةً بالسيف أمْرا

وقاسِم شعبكَ الشُورى فكم في ... ذويك مُسدِّد الأنظار حرًّا

ولا تتركِ أمورَك لِلَّيالي ... فتصفو تارةً وتسوءُ أخرى

ولابد أن يقف القارئ حائراً وهو يطالع تلك المعاني التي لم يلتزم فيها الشاعر باتجاه واحد .

فقد بدأ القصيدة كما رأينا بإطراء أبيه ، ونعته بالعظمة والجلال ، وبحسن سياسته التي استطاع بها أن يحرر شعبه ، وبسبقه إلى المآثر التي استطاع بها القضاء على معاناة الشعب وحل مشكلاته ، ومعاملة هذا الشعب معاملة الأب البار ببنيه ، وقد جمله الله بالحلم وبالفضل الذي صار حديثا للقاصي والداني .

وليس على الشاعر بأس في تمجيد أبيه ، وخلع تلك الفضائل وسائر النعوت التي ينبغي أن يتحلى بها كل من ولي أمر الناس .

ثم نراه ينتقل من هذا الإطراء إلى موقف الناصح ، فيوصيه بالرفق بالمحكومين ، والعفو عن الجناة ، ليؤلف القلوب من حوله تارة ، وبالضرب على أيديهم ، والإيغال في تقتيلهم تارة أخرى .

ويحثه على الحرص على أمواله والحفاظ عليها حساباً لغوائل الزمان إذا كشر له عن نابه ، وأنشب فيه مخالبه ؛ فإن الدهر لا أمان له ، ثم لا يلبث أن يوصيه بإنفاق شيء من هذا المال لتقريب العصاة والخارجين ، وبضرب أعناق أعدائه الناقمين !

ثم ينصحه بسياسة الناس بالحكمة والأخذ بنظام الشورى ، مما يشعر بأن أباه كان حريصاً على الاستئثار بالسلطة . ولعل الشاعر كان يعني نفسه بقوله لأبيه بأن في ذويه أصحاب الحكمة والرأي السديد الذين يبذلون له النصح ويصدقونه القول .

ولعل هذا التباين الملحوظ في معاني القصيدة كان تعبيراً عن حالة من حالات القلق ، الذي كان يعانيه الشاعر في تلك الظروف التي أنشأ فيها قصيدته.

ولقد نبهنا الشاعر في أول هذه القصيدة على المناسبة التي أنشدها فيها ، فقد قال إنه أنشدها في حضرة والده الشيخ سلطان القاسمي عام ١٣٦٩ هـ في أثناء انتفاض الأعراب وثورتهم على حكم أبيه ، ومطالبتهم بما ليس لهم.

ويبدو أن انتفاضة أولئك الأعراب كانت كما بدت للشاعر انتفاضة عارمة بحيث أصبح يخشى فيها على زعزعة الأمن ، وانتقاض سلطة الحكم ، ولذلك رأيناه ينصح أباه بأخذهم بكل قسوة وعنف ، وبألا يتراخى في الضرب على أيديهم ؛ فيقول له :

إلامَ تَطاولُ الأعرابِ ، هـــلا كفتْهُم بادراتُ الفعلِ نُذرا ؟
فَدعْ للسيف نصفَهُــم طعامًــا و دَعْ للباقيات النّصفَ أسرَى
فما أوهى كمثلِ السيفِ خَصْمًا وما أطغى كمثلِ الفَتْكِ شرًّا
أتترُكُهم وقـد خُلِقـوا رِعاعًــا وتأمَنُهم وقد غَدروكَ جهرًا

ويبدو كذلك أنه كانت للشاعر عند أبيه الأمير الحاكم منزلة خاصة أتاحت له أن ينشده هذا الشعر الذي لا يخفى ما فيه من النقد ، وقد سوغ ذلك له أن الأمر في انتفاضة أولئك الأعراب كان لا يخص أباه وحده ، بل يعم بيت الإمارة كلّه . ولعل الذين عاصروا ذلك الحدث من أبناء ذلك البلد يعرفون من أخباره وأسراره أكثر مما يستطيع أن يعرفه مثلي من الذين لا مصدر لهم إلا ما يستقرئون من الشعر ، وما يستطيعون استخلاصه من دلالاته .

* * *

وفي مقدمة ما يشغلنا ونعمل له جاهدين في هذه الدراسة وأمثالها من الدراسات ، التي قمنا بها في هذا الكتاب وفي غيره من المؤلفات ، التي عنينا فيها بدراسة بعض الشخصيات الأدبية – أن نصل أجزاء الفكرة بعضها ببعض ، ولو تباعدت مواقعها في الدواوين أو في المؤلفات التي ندرسها ، ثم نصل هذه الأفكار بأصحابها ، لنتبين مدى اتصالها بتفكير الكاتب، أو بمسار العاطفة عند الشاعر ، ومدى خروجها عن ذلك المسار الذي عرفناه له .

وانطلاقًا في هذا الاتجاه نشير إلى قصيدة أخرى في الديوان عنوانها « أبي » (ص ٥٤٥) وقد أنشدها الشاعر في رثاء أبيه يوم وفاته (١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ هـ) أي بعد إنشاد القصيدة السابقة بعام واحد .

وبالنظر في هذه القصيدة بعد النظرة في القصيدة السابقة « تمتّع بالجلال » نرى أن قصيدته في رثاء أبيه تصور فداحة فجيعة الشاعر بفقده ، وعمق إحساسه بهولها ، وتكشف عن آثار حب عميق ، وعاطفة صادقة نحو هذا الوالد ، وتتجسد فيها مشاعر أبر الأبناء بأكرم الآباء.

وقد عبر الشاعر عن تلك المشاعر الصادقة في كلمات صريحة كتبها في مناسبة أخرى ، وضمنها رسالة إلى ولده سلطان عندما اجتاز العاشرة من عمره ، وفيها يقول له : « ... جئتَ ، يا ولدي ، في هذه السنين العصيبة حتى إذا ترعرت ، وخطتْ بك قدماك الصغيرتان ، انتزع الموت أبي ...! أبي الذي أحببته بكل جارحة من جوارح نفسي ، وقدستُ أبوته وحنانه ، فبدلت اسمك من خالد إلى سلطان .. إلى اسم أبي .. أبي الذي علمني الحب ، حب الفضيلة ، وحب الناس على اختلافهم ، وإنكار الذات ، والجهاد في سبيل الوطن المقدس .»[1]

وقد جسد تلك المشاعر شعراً بقوله في أول تلك القصيدة :

لِيَ اللهُ ما أبقيتَ يا زمني منّــي	هدمتَ حياتي مُذْ ثوى في الثّرى رُكني
نَهاري كليلي مظلمُ اللونِ حالكٌ	وكلُّ جميل قـد تجلبَبَ بالحُـزنِ
فيا مُقلتي آن الأوانُ فلا تَنــي	ويا حـزني هـذا مَقامُـك فَاسْعِدْنــي
ويا صبرُ إن تذهب فقد ذهب الرَّجا	وهدَّ الردى ما خلَّف البَيْن من حِصْني
أمِنتُ الليالي يا لَجهلي فأمكنتْ	بقلبي سهماً هدَّ منّي ما أبنــي
فآليتُ لا ذقتُ الحياة هنيئـــةً	ولا أنِستُ يوماً إلى نغمة أذنــي
ولا أنشِدَنَّ الشعــر إلا مَراثيًــا	ولا يستسيغنَّ المُنى أبداً ذهنــي
وحقِّك يا ركنَ المكارم إننــي	فقدتُ بكَ الآمال في ساعة الدّفنِ
نعاكَ لي الناعي فكدُت مـن الأسى	أجَنُّ ولم أعلمْ بما كانَ من شأني

ثم يأخذ في تعداد سجايا أبيه وإحصاء فضائله ، فيصفه بأنه كان أمانا للخائفين ، وملجأ لليتامى والمساكين ، وقاضياً لحوائج الطالبين ، ومؤمنا لا يخامر الشك قلبه ، وحاكماً بالعدل بين الناس ، وشجاعاً باسلاً ، وجواداً كريماً ، برغم ما تعرض له من خطوب ، وما واجهه من أزمات ظل أمامها صامداً ، ولم تلن له قناة في مكافحتها .

ونقرأ في هذه القصيدة أن أباه قد قضى في حكم إمارته ثلاثين عاماً ، عاني فيها ضروباً من الشدائد ، ولم يذق فيها طعم الراحة ، وإن كنا لا نعرف طبيعة هذه الشدائد ، ولكن الشاعر

(١) ديوان « لهب الحنين » : من كلمة عنوانها « ولدي » ص ٢٨٥ .

وصفها بالنكبات والنوائب .

وتقرأ في هذه القصيدة أيضاً أن أباه قضى عاميه الأخيرين يعاني من مرض شديد ، صابراً على ما نزل به من البلاء .

وربما كان ذلك المرض الشديد هو الذي شجع الأعراب على انتفاضتهم ، ومطالبتهم بما ليس لهم ، مما ذكره في القصيدة السابقة .

* * *

ولم تكن عاطفة الشاعر نحو زوجه و ولده دون عاطفته نحو أبيه و ولائه له ، وقد صاغ فيهم عدداً من القصائد تعد من أجود شعره ، وأحفله بالعواطف الصادقة عبر فيها عن تعلقه الشديد بهم ، وحبه العميق لهم .

ومنها قصيدته « إلى زوجتي » (ص ٢٩٥) وقد بعث بها إليها من بغداد حين غاب عنها أياماً شارك فيها في مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد فيها في إبريل سنة ١٩٦٩ ، وفي أولها يقول :

أ حبَّة قلبي كمْ أعيشُ على القَحْط وإن كنتُ في بغدادَ أحيا على الشطّ
أعيشُكِ في أعماقِ قلبي روضـةً وأحياكِ نفحاً في رِضايَ وفي سُخْطي

ويستطرد إلى ذكريات عشرين سنة خلت ، وهي ذكريات عزيزة غالية لا يزال يحيا في أحلامها السعيدة .

ومنها قصيدة في ابنته هند (ص ٢٣٢) وعنوانها « هند في عامها العاشر » ، وتنساب فيها شاعرية مطبوعة مضمخة بعبير أبوة حانية ، وفي مطلعها يناجيها بقوله :

بُنيَّتي في عامهـا العاشـرِ جميلـةٌ كالزَّنبـقِ الناضـرِ
تُضْفي على البيت حنانَ الرضا وتبعثُ الآمالَ فـي خاطـري
تبتسمُ الدنيـا لِعَينـي إذا ما ابتسمَتْ عن ثَغرها الشّاعري
تلعبُ والقلبُ سيـاجٌ لهـا تلهو بـه فـي ملعـبٍ سـاحرِ
يا هندُ يا أحْلى نشيدِ المُنى في الهـول أو قُبلـة الثّائـر

ومنها قصيدته في ابنته ميسون (ص ٤٣٠) وقد دخلت عليه فرحة ، وفي يدها شهادة نجاحها ، وفيها يقول :

ميسونُ يا بوحَ الشذا النشوان يا حلمَ الخميلهْ
يا همسة الشَّط الجميل يميدُ بالنَّجْوَى نخيلهْ
يا دَغْدغات البدر للأمواج يا دُنيا الطفولهْ
يا بنتَ خمس لم تَجُزْها غَير أشهرِها القليلهْ
وبكفِّكِ الصُّغرى الشهادة تُبرئين بهـا غليلهْ
ويفتح النَّوار ثغـرك ضَوْع أنسام ٍعليلـهْ

أما قصيدته « إلى ولدي » (ص ٢٨٧) فقد وجهها إلى ابنه « سلطان » ، وفيها يرسم له طريق الحياة التي يسلكها ، ويلقنه قواعد السلوك التي ينبغي عليه أن يحتذيها ، وكلها تقوم على الفضائل النفسية التي تسمو بصاحبها إلى مدارج العلياء .

ويبدو الشاعر حريصاً على أن يتخلق بنوه وبناته بأخلاقه ، وأن تنعكس طبيعته التي طبع عليها واستولت عليه في سائر حياته ، فلا يزال يبعث فيهم روح الوطنية ، ويغرس في نفوسهم حب الجهاد والفداء والتضحية في سبيل الوطن ، وإعلان الحرب على الغاصبين ، وطرد المحتلين من أرضه ، وأن تسابق الفتيات الفتيان في المبادرة إلى الجهاد . وقد وجدنا ذلك في قصيدتيه اللتين وجههما إلى طفلتيه هند و ميسون .

إنه يعد تنشئتهم على تلك المبادئ والمثل الوطنية ، وعلى حب الوطن والذود عن حياضه أملا من أعز أمانيه في هذه الحياة ، وبعد هذه الحياة ما دامت بلادهم في حاجة إلى ذلك الكفاح .

ونجد مصداق ذلك في قصيدته « أمنية والد » (ص ٢٤٨) التي يقول في أولها مخاطباً بنياته :

بُنَيَّاتي إذ قُدِّر في يـوم مـن العُمـرِ
وقامت ثورةٌ بالدَّم تغسل ناصـعَ التِّبرِ
منَ الوطنَ الذي كافَح لم يصْبر على ضَيْرِ
فَلا تَسألْنني رَأيي ، ولا تَسألْنني أمري
وكنَّ شظيةَ البارودِ في صـدرٍ و في نحرِ
وكنَّ جميلةَ [1] التاريخ في كرٍّ و في صَبْرِ
وحَقّقْنَ و لو في القبرِ لي أمنيةَ العُمـرِ

وللمرأة حظ كبير من شاعرية الشيخ صقر ، وقد شغلت فراغاً كبيراً في ديوانه ، والمطّلع على هذا الشعر تروعه كثرته ، ويرى مدى تعلقه بها . لا غرو فإن الشعراء أرهف الناس حسا ، وأرقهم وجداناً ، وأحدّهم عاطفة .

والشاعر مطبوع على حب الجمال ، ينشده في الطبيعة ، وفي سائر المخلوقات ، وجمال المرأة فتنة الرجل في كل زمان ومكان ، ولا شيء في تعبيره عن مشاعره نحوها ما دام ذلك لا يخدش وجه الحياء ، ولا يزري بمروءة الرجل وفضائله ، وإلا انقلب حيواناً .

وشاعرنا إنسان مرهف ذو عاطفه جياشة ، يسبيه الحسن ، ويأسر قلبه الجمال ، ولقد طوّف في بلدان كثيرة من العالم العربي ، وتنقل بين حواضره في لبنان وسوريا ومصر والعراق ، وعاش فيها مدداً تقصر وتطول ، وفي بلدان من أوربا والهند ، ورأى في هذه الحواضر كثيراً من فاتنات بنات حواء ، ألهبن عاطفته بدلالهن الساحر ، وجمالهن الآسر ، فإذا عاد إلى مستقره عاودته ذكرياتهن ، واضطرمت نيران أشواقه إليهن ، فتفجرت ينابيع شاعريته ، تعبر عن مخزونها من الذكريات في شعر عاطفي جميل .

إننا نقرأ في كثير من شعر الشيخ صقر إشارات إلى معاناة نفسية ، قد نعرفها ونرجعها إلى ظروف قاسية مرّ بها ، وهي الظروف التي اضطرته إلى النزوح عن بلده ، الذي درج على أرضه وأظلته سماؤه ، و وهبه قلبه وحياته ، وضحى في سبيله بمنصبه الرفيع في حكمه وإمارته .

ولكننا نقرأ إلى جانب هذه الإشارات إشارات أخرى إلى معاناة نحار في تفسيرها ، وقد نعجز عن إدراك عللها الصحيحة ، ومنها شعوره بالأسى وشكواه من آلام نفسية في أوقات لا ندري ما كان يعاني فيها ؛ إذ إنه إذ ذاك لم تكن العلاقات بينه وبين المستعمرين قد ساءت إلى الدرجة التي وصلت إليها فيما بعد ، والتي بلغت ذروتها سنة ١٩٦٥م .

ونعرض على سبيل المثال قصيدته « إلى ذات العيون النجل » (ص ٥٥٦) . وقد سجل في نهايتها مكان إنشادها وزمانه (خورفكان ١٩٥٤م) ، أي أنه أنشأها في عنفوان شبابه ، ولا نعرف ما كان يكدر صفوه إذ ذاك ، فنجده ينشد في أولها نشيد الألم ، وينفث نفثة مصدور ، ويعرب عن كمد مكظوم ، حيث يقول :

كيفَ تَرجو أن أجَلّي شجني   وأنا لم ألقَ منْ يفهَمني ؟
أنظرُ الكونَ فلا ألقى أخــا   يشتكي القلبُ إليه حَزني

---

(١) جميلة الجزائرية بطلة الجهاد في حرب تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي .

أحملُ الجرحَ بصبرٍ صامـتٍ لم يقل وا ألمي ! وا حُزني !
وَأرى الغيدَ الغريراتِ الهَوى وفُؤادي عندَ منْ تيَّمني
وطني الغالي ومـا أعذَبَـــهُ وَطني الغالي الَّذي عذَّبني
إنَّـــهُ حَمَّلنـــي أثقالَـــه ليتَه قدَّر مـــا حمَّلنـــي !

إنها – إذاً – هموم الوطن الذي يصرح بأنه قد آده حملها ، وإن كان لم يفصح عن طبيعة هذه الهموم .

ولكنه ينطلق من ذلك الجو الكئيب إلى وصف تجربة من تجارب حبه ، ومداعبة أحلامه الوردية ، ومناجاة ذات العيون النجل التي كتب لها هذه القصيدة ، ليقول لها :

إيهِ يا ذاتَ العيون النجلِ لا تحجُبي الحسنَ الذي يأسِرني
وَ دَعي القلبَ الذي طالَ به ظمأ النور إلى الفجـرِ السَّني
أن يَرى الكونَ جميلاً ناضـراً باسماً رغم عبوس الزَّمنِ

وترى مثل هذه المعاناة في قصيدة عنوانها « ذا وفائي » وهي من وحي كتاب عطري حمل إليه أجمل ذكرى عطرة (٥١١) وقد افتتحها بهذه الأبيات :

بِالله ياطِرْسَها العطريَّ هل علمـتْ مَنْ سطَّرتكَ بما في قلبيَ العاني ؟
وهل دَرتْ عظم شَوقي والحنين لها وأن سِرِّي غدا منها كإعلاني ؟
أحسُّ إن ذُكِرتْ في النفس عاصفةً تثير رغمَ جميلِ الصبر تَحْناني
أبيــتُ بيــن هــوىً طـــاغٍ يزلزلنـــي وسط الضَّمير ، وهمٍّ ظلَّ يرعاني

إلى كثير من أمثال هذا الشعر العاطفي البديع ، يصدر عن جنان متوقد ينبض بحب الجمال ، ويرتاده في كل مكان ينزل به صاحبه ، ليقتطف من كل روض أنضر أزاهيره ، ثم يجمع منها طاقـة يتنفس عبيرها في كل حين ، ويضمِّخ بها أجواء حياته قبل أن تذوي نضرتها ، أو تجف ينابيعها .

وبهذه الطاقات الشعرية التي يزخر بها الديوان يعد الشاعر في مقدمة الغزليين من شعراء العصر ، فلم يقصر هواه على ظبية واحدة من بنات حواء ، بل تعددت الظبيات واختلفت كُنُسها ، فكانت فيهن المها العِراب ، وغيرهن من ربات الفتنة في كل مقام حل فيه .

وأحسب أن الشاعر كان يتسلى بهن ، ويستمتع بالحديث إليهن ، والتغزل بمفاتنهن ،

ليخفف من وقع الأزمات التي عاني منها كثيراً .

ولست أحسب ذلك أثراً من آثار تباريح الصبابة وحرقة الوجد التي يحس بها العشاق المتيّمون ، الذين يقصرون هواهم على واحدة تمسك بزمام قلوبهم ، ولا تدع لهم فرصة الإفلات من حبائلها .

وإذا كنت ملتمساً شبيهاً للشاعر في غزلياته فهو أشبه الشعراء بابن أبي ربيعة الذي كثرت طبيباته ، وتعلقت حباله بهواهن ، وذكر في شعره كثيراً من أسمائهن ونعوتهن ، وهو الذي قال :

إني امرؤ مولعٌ بالحسن أتبعه لا همَّ لي فيه إلا متعةُ النظرِ

ويروى أنه أقسم قبل أن يموت أنه لم يضع يده على امرأة بريبة قط !

وكذلك يقول شاعرنا [1]:

شهدَ الله ما هويتُ لفسقٍ أو تطلبتُ للغرام ابْتِـذالا
أو نصبتُ القريضَ مدخلَ صيدٍ وقوافيـه للجمـال حِبالا
غيرَ أني أرى سعادةَ نفسي أن أناجي بالابْتهالِ الجَمالا

وتمتاز غزليات الشاعر بإجادة الوصف ــ والوصف ظاهرة عامة في سائر الأغراض التي عالجها ــ كما تمتاز الغزليات بأناقة التعبير ، والإبداع في التصوير ، والافتنان في التشبيهات، وتجد نفسك وأنت تقرؤها وكأنك تنظر في لوحات ريشة رسام صناع ، أو مصور بارع ، بالإضافة إلى ما تجد فيها من دلالات القدرة على التخيل .

ونجتزئ في الاستشهاد لما ذكرنا بثلاثة أبيات عنوانها « لألاء في النيل » (ص ١٩) لترى صدق ما قدمناه ، وفيها يقول :

نسجتْ من خدِّها حُلّتَها وارتدتْ مـن شفقِ الفجـر رِداء
تتحدّى الشمسَ في إشراقِها وتذيبُ الكون عِطراً أو سَنَـاء
عكستْ في النيل من لألائها ألقاً أرقصَ في الماء السَّمـاء

* * *

(١) أبيات ثلاثة عنوانها « هوى الشاعر » ص ٣٧٥ من الديوان .

ولا بد من نهاية لهذا الحديث الذي أحسبه قد طال ، وإن كنت لا أجد حدًّا أو نهاية لما يغري بالزيادة فيه .

وأحسب أن في هذا القدر من الدراسة ما يكفي للتوقيف على أهم معالم هذه الشاعرية الخصبة التي يتمثل نتاجها في هذا الديوان الكبير الذي يفيض بآيات التفاني في حب العروبة ، والجهاد في سبيلها ، والعمل على استعادة أمجادها ، والتعبير عن أهدافها ، وشرح أمانيها وآلامها وعواطفها في شعر أصيل ، وبيان مشرق أخاذ لا غموض فيه ولا ابتذال ، وإنما فيه التعبير الجميل عن التجارب الشعورية ، والانفعالات الوجدانية التي لم يحاول الشاعر إخفاء شيء منها لأن صاحبه بريء من دواعي الرجاء ، ومن أسباب الإشفاق .

وقد حرص الشاعر في هذا الشعر على التقاليد الأصيلة للشعر العربي في الموسيقى والأداء ، وقد هاله ما يقرأ لبعض المدعين الذين رنّقوا صفو هذا الفن العربي الأصيل ، فأنشد فيهم :

يا حيرةَ الشعرِ كمْ يلهو برونَقِهِ ... قومٌ همُ الآفةُ الكبرى على الأدبِ !
في كل يوم نرى في الصُّحْفِ أمثلةً ... من الطَّرافة بين اللهوِ واللعبِ
سَدُّوا الفراغَ بأوزان ملفَّقةٍ ... من السَّخافة كادتْ تُخجل العربي !
مقلِّدينَ ، فَمِنْ لاهٍ براقصةٍ ... أو مسرحٍ يهدم الآدابَ أو طربِ
أئمةَ اللغةِ الفصحى وقادَتها ... ألا بِداراً فإن الوقتَ من ذهبِ
رُدّوا إلى لغة القرآن رونقَها ... هيا إلى نصرها في جَحْفلٍ لجِبِ

* * *

وكانت نهاية تلك المسيرة في دروب الحياة والجهاد في القاهرة يوم الخميس ٩ من ديسمبر سنة ١٩٩٣م ، وحمل جثمانه ليوسَّد الثرى يوم الجمعة ١٠ من ديسمبر ١٩٩٣م في رأس الخيمة بدولة الإمارات العربية . رحمه الله .

رائِد أپوللو
أحمَد زكِي أبو شادي

لم يعد مؤرخو الأدب العربي عن الحقيقة في وصفهم محمود سامي البارودي بأنه حامل لواء نهضة الشعر في العصر الحديث ؛ لأن النهضة والنهوض لا يكونان إلا بعد رقدة أو عثرة ، فتكون النهضة بمثابة الصحوة التي يستطيع بعدها الواني أو المتعثر أن يستعيد نشاطه ، ليستأنف مسيرته نحو الغاية التي يصبو إليها .

ولا حاجة بنا إلى تكرار القول بما انحدر إليه الشعر العربي قبل هذه النهضة التي حمل لواءها البارودي ، الذي عكف على قراءة شعر الفحول المقدمين من شعراء العربية في عصور القوة والازدهار ، فأعاد للشعر رونقه ونضارته ، وتأثر شعره بفخامة معانيهم ، وروعة ديباجتهم ، وجزالة ألفاظهم .

وفتح البارودي بذلك باب التجويد والإتقان أمام شعراء النهضة ، فنبغ في فن الشعر عدد كبير من الأعلام الذين يعرفهم عامة أهل الأدب في بيئاته العربية المتعددة ، من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي الجارم ومحمد عبد المطلب ، وكثيرين غيرهم .

وإذا كنا نصف هؤلاء الشعراء بأنهم شعراء النهضة أو شعراء البعث فقد خلفتهم ثلاث جماعات أدبية في فترات متلاحقة من هذا القرن ، قال روادها ، أو قال المنتمون إليها ، إنهم حملة لواء التجديد في الأدب العربي الحديث .

ولم تقتصر كل جماعة من هذه الجماعات الثلاث على اتجاه جديد في الأدب والشعر تنشره وتبشر به وتدعو إليه ، ولكنها أضافت إليه شيئاً من اتجاهاتها الفكرية في جوانب الحياة .

وهذه الجماعات هي ما سمي « جماعة الديوان » التي تزعمها العقاد ، و « جماعة أپوللو » التي تزعمها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، و « جماعة الأمناء » التي قادها أمين الخولي .

ولم أكتب من قبل شيئاً عن أبي شادي ، ولا عن جماعة أپوللو ، ولا عن مجلتها التي صدرت منذ أكثر من ستين عاماً ، وكانت أشبه بالشعلة التي لم تلبث أن انطفأت بعد أقل من

ثلاث سنين ، ولكنها تركت أثراً بارزاً في حياة الشعر العربي ، وفي كثير من الشعراء المعروفين الذين اتصلوا بها وانتموا إليها .

* * *

لم أكن أعرف الدكتور أحمد زكي أبو شادي قبل أن يحمل إليّ البريد نسخة من ديوانه الذي سماه « أشعة وظلال » وأنا إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمري في أخريات مرحلة دراستي الثانوية ، وقد كتب أبو شادي بقلمه في أعلى الصفحة الأولى من الديوان عبارة إهداء رقيقة ، وقعت من نفسي أجمل موقع .

ولم يحل بيني وبين سروري البالغ بهذه الهدية النفيسة ، وهذا الإهداء الجميل ، سوى السؤال الذي كان يلح عليّ عن السر الكامن وراء هذه التحية التي لم يكن يتوقعها مثلي من شاعر كبير في فنه ، وفي اسمه الذي يتردد في البيئات الأدبية ، ويزاحم أسماء المعروفين من كبار الأدباء والشعراء .

لقد عرفني الرجل عن طريق كلمات قليلة وقصائد معدودة كتبتها في مطلع حياتي الأدبيــة ، واتسعت لها صفحات « الأهرام » و « البلاغ » ومجلة « النهضة الفكرية » التي كان يصدرها المرحوم الدكتور محمد غلاب . ولعل أبا شادي رأى في شيء مما قرأه لي ما يقربني إليه ، أو يجعلني أهلاً لتقديره أو تشجيعه . وكان أبو شادي يعشق الأدب ويحب الأدباء ، ويعمل على أن يعرفهم بنفسه ، وأن يصلهم بحبال مودته وأدبه .

وقد عددت ذلك الإهداء بمثابة دعوة لي للاتصال بأبي شادي والتعرّف عليه ، وكان عليّ أن أتقبل هذه الدعوة من مثله ، وأن أستجيب لها . ويممت وجهي شطر المكان الذي عرفت أن أبا شادي يستقبل فيه زواره من الأدباء والشعراء والعلماء .

شقة متواضعة تتكون من غرفتين ، اتخذ أبو شادي الصغيرة منهما مكتبا له ، يجلس إليه ، ويستقبل فيه ضيوفه ، وأثاثها غاية في البساطة : أريكة قديمة ، وعدد من الكراسي الخشبية . أما الغرفة الكبيرة فإن الداخل إليها يهبط درجات ، لتكون ما يسمى « البدروم » وفيه صفت صناديق الحروف ، ووقف أمامها عمال الجمع والتصحيح ، وآلة الطباعة أيضاً .

وكانت هذه المطبعة بحروفها وآلاتها وعمالها تحتل تلك الغرفة وحدها . وقد سماها أبوشادي « مطبعة التعاون » . وكان الداخل إليها والخارج منها لا بد أن يمر بتلك الغرفة التي

يجلس فيها أبو شادي وزواره من أهل العلم والأدب في مصر ، وممّن يفدون عليها من أدباء البلاد العربية وغيرها .

وقد استقرت هذه الشقة المتواضعة بحجرتها في حي « عَمَرْشَة » في شارع الخليج المصري [1]، قرب ميدان السيدة زينب .

و « عَمَرْشَة » بفتحتين فسكون تحريف لكلمة « عُمَر شاه » بضمة ففتحة ، كما هو مكتوب في لافتة اسم الشارع ، فانظر كيف تحرف العامة الأسماء وكيف يبعدونها عن أصلها!

كان أبو شادي يجلس على مكتبه في الغرفة الصغيرة-يراقب مطبعته ، ويصحح بنفسه تجارب طباعة مجلة « أبوللو » وغيرها من المجلات والدواوين التي كانت تصدر عن « مطبعة التعاون » . وذلك في جميع الأوقات التي يخلو فيها من عمله الرسمي بوزارة الزراعة حيث كان يعمل طبيبا « بكتريولوجيا » فقد كان يخرج من عمله ليسرع إلى مكتبه في مطبعة التعاون ، ويظل فيه حتى العشاء ، فيركب الترام إلى محطة القاهرة ومنها يركب القطار إلى بيته في ضاحية المطرية حيث يقيم مع زوجته الإنجليزية وطفلتيه : صفية وهدى اللتين تعيشان الآن في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم أعجب من حياة إنسان كما عجبت من حياة هذا الرجل . لقد كان أحمد زكي أبو شادي يشغل الدرجة الأولى بين كبار موظفي الدولة ، وكان يتقاضى عن عمله الرسمي ثمانين جنيها وظيفة شهرية .

ولا وجه للموازنة بين قيمة هذه الوظيفة في ذلك الوقت وقيمتها الآن . وقد يكفي في مجال الموازنات أن المتخرج في الجامعة أو في المدارس العليا يتقاضى أربعة جنيهات إذا ألحق بعمل غير حكومي ، أما إذا أسعده الحظ وابتسمت له الدنيا فعمل في الحكومة فإن وظيفته ترتفع حتى تبلغ اثني عشر جنيها . وكانت وظيفة الخادم جنيها واحداً في الشهر ، وقد أصبحت أجرته الآن مائة وخمسين جنيها في كل شهر .

هذا المبلغ الكبير كان ينفقه أبو شادي على هوايته الصحفية ، وعلي مجلة « أبوللو » التي وصفها بأنها « مجلة فنية لخدمة الشعر الحي » وقد سبقت زمنها بكثير ، ورأى فيها الناس أول مجلة ناضجة متخصصة في الشعر العربي منذ أول عدد ظهر منها . ولم يظهر بعدها في أي بلد

(١) أصبح الآن « شارع بور سعيد » .

عربي مجلة استطاعت أن تملأ الفراغ الذي أحدثه احتجاب « أبوللو » . وكان يدفع من هذا المبلغ تكاليف الورق ، وأجرة الطباعة ، ويعين منه من يرى أنه في حاجة إلى العون من الشعراء والكتاب ، ولا يبقي معه مما يتقاضاه إلا أقل القليل .

وقد منّ الله على أبي شادي بفضائل نفسية عرفها كل من اتصل به . وفي مقدمتها فضيلة التواضع التي هي في مقدمة سمات العلماء والمفكرين . وأبو شادي عالم وباحث ، وفاحص عن أدق الكائنات الحية ، لم يكتف بدرجة البكالوريوس التي حصل عليها في مهنة الطب من جامعات إنجلترا ، بل إنه واصل دراسته في علم البكتيريا والجراثيم ، حتى أصبح من كبار المختصين بهذا البحث الدقيق ، و واحداً من القلة القليلة المتعمقة فيه في بلادنا .

كما رزقه الله طاقة هائلة على الصبر وقوة الاحتمال ، وإحساساً بمن حوله من أهل صناعة الأدب ، وحبا للبذل والعطاء . رأيته مرات عقب عودته من عمله إلى المطبعة ، يحضر له صبي من صبيان المطبعة غداءه الذي يقتصر فيه على رغيف من الخبز وحبات من الزيتون الأسود لا يتجاوز ثمنها خمسة عشر مليما . وكنت أعرفه دمث للخلق ، رضي النفس ، يفترّ ثغره دائما عن بسمة الرضا والأمل ، ورأيته مرة واجماً حزيناً ، ثم عرفت أن سر كآبته و وجومه أنه لم يجد ما يشتري به لطفلتيه حذاءين يلبسانهما في العيد .

صورة فريدة من صور الإيثار في هذا الرجل الذي بدد رزقه في شراء الورق والحروف وأجور عمال المطبعة ، وفي معونة الأدباء الذين يراهم في حاجة إلى عونه . وأنا أعرف عدداً منهم لمعت أسماؤهم وتصدروا الحياة الأدبية بمعونة أبي شادي المادية وتشجيعه الأدبي .

وأشهد أنهم جميعاً ظلوا على الوفاء له في عسره ويسره ، وفي حياته وبعد مماته .

* * *

كان أبو شادي صورة فريدة من صور الكفاح ، والتضحية في سبيل الإصرار على النجاح . وقد بذل في سبيل ذلك كل ما يملك من عزم وصحة ومال ، حتى اعترضت مسيرته عقبات استحال عليه أن يجتازها ، مع ما أوتي من الصبر والجلد في مواجهة الصعاب ، وتخطي العقبات .

وما كان لإنسان أن ينهض بتلك الأعباء الثقال التي حمّل أبو شادي بها نفسَه ، مهما أوتي من القوة والذكاء وصدق العزيمة ، ما لم يكن له أعوان يشاركونه المسئولية ، ويقاسمونه

حمل هذه الأعباء التي تتطلب أمولاً وأعواناً ، كما تحتاج إلى رءوس مدبرة ، وإلى أيد عاملة ، فإن يداً واحدة لا تصفق .

وكانت هنالك معوقات أخرى لم يستطع أبو شادي أن يتجاهلها ، ولكنه عجز عن التصدي لها ، ومنها اضطراب الحياة السياسية في البلاد ، وتسلط الأحزاب على وجوه النشاط الفكرية والأدبية . فقد كان كل حزب من هذه الأحزاب يحاول أن يجتذب إليه من يرى أنه يستطيع أن يخدم أهدافه بفكره وقلمه من الأدباء والمفكرين الأثيرين عند جماهير القراء ، كما كان يحاول النيل ممن لا يستجيب له منهم ، والضغط عليه بما يملك من الوسائل والأسباب المادية والمعنوية .

وأصحاب الصحف والمجلات كانوا يعانون معاناة أليمة من تسلط متعهدي بيع الصحف والمجلات وتوزيعها ، فقد كان من اليسير إغراؤهم بترويج ما يراد نشره على أوسع نطاق ، وإغلاق المجال أو تضييقه أمام ما يراد الحد من ذيوعه ونشره من الصحف أو المجلات أو الكتب عن طريق الرشوة أو الترهيب من جانب الأحزاب ، أو من جانب السلطات الحاكمة .

ولم يكن أبو شادي ينتمي إلى حزب من الأحزاب ، ولم يكن له سند من الحاكمين .

حقا إن أبا شادي مدح صدقي باشا رئيس الوزراء ، واضطر إلى زيارة حلمي عيسى باشا وزير المعارف في وزارته بصحبة الشاعر خليل مطران ، الذي أسند إليه أبو شادي رياسة جمعية أبوللو عقب وفاة أول رئيس لها ، وهو الشاعر أحمد شوقي ، ومع الشاعر أحمد محرم الذي كان وكيلا لها إذ ذاك ، ونفر من الأدباء والشعراء منهم الدكتور زكي مبارك .

ولكن هذه الزيارة تمت تحت ضغط الحاجة إلى عون الحكومة للجمعية ولمجلتها ، عن طريق اشتراك وزارة المعارف في شراء أعداد منها لمدارسها الحكومية .

وقد أثارت تلك الزيارة حفيظة الأحزاب السياسية التي كانت تعارض حكومة صدقي وحكمه الاستبدادي . واتخذ كتاب الصحف الحزبية من هذه الزيارة سبباً لحملات عنيفة على أبي شادي وجمعيته ومجلته . وتناولت هذه الحملات أدب أبي شادي ، ولم يسلم منها شخصه ، ولا كبار الشعراء الذين اتخذوا من « أبوللو » منبراً لأشعارهم . وفي طليعة هؤلاء المهاجمين الدكتور طه حسين الذي استقطبه « حزب الوفد » فصار أكبر كتابه ، بعد أن عاش زمنا في أحضان حزب « الأحرار الدستوريين » وصحيفتهم « السياسة » . ومنهم العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول ، وسيد قطب صديق العقاد الحميم .

برز أبو شادي في خضم الحياة الأدبية فجأة بروزاً قويا ، يحمل علم التجديد ، ويتزعم مدرسة أدبية ، تضم شمل الشعراء المتفرقين في ديارهم ، المتباينين في اتجاهاتهم الشعرية ، وفي قدراتهم الإبداعية ، وتستقطب الشبان الموهوبين في أطراف العالم العربي ، وفيما وراء البحار ، وتضمهم في وحدة عاملة متفاعلة تتطلع إلى السيادة في دولة الشعر العربي ، وتحاول أن تضع نفسها في موضع الريادة لحركات هذا الشعر .

ثم كان أبو شادي صاحب أول مجلة محترمة دورية تخصصت في الشعر ودراسته ونقده ، يصدرها في أول كل شهر في إطار منتظم ، وفي تنسيق بديع .

ولعل هذا كان السرّ في تلك الحملات التي كانت تهدف إلى تحطيم هذا الصرح الجديد على من فيه ، بدافع المنافسة ، أو دافع الحسد .

كان كبار كتّاب مصر وأدبائها في تلك الفترة ، التي صحبت بزوغ نجم أبي شادي وجماعته ، من أمثال : طه حسين والعقاد والمازني والرافعي وزكي مبارك أشبه بالموظفين في صحف الأحزاب ، يتقاضون مرتباتهم الشهرية أو أجور مقالاتهم من أصحاب تلك الصحف . وقد يختلف أحدهم مع صاحب الصحيفة أو مع رئيس تحريرها حول المكافأة التي يتقاضاها ، أو إذا ما أراد المشرف على سياسته الصحيفة أن يوجهه إلى الكتابة في رأي لا يرضاه .

وقد حدث مثل هذا الخلاف بين النحاس باشا زعيم حزب الوفد والعقاد كاتب الوفد الأول ، وأدى اختلاف رأيهما إلى عنف في الحوار ، انتهى إلى قطيعة نهائية بين الوفد وكاتبه الأول .

ذلك في الوقت الذي كان فيه أبو شادي سيد نفسه ، ومالك قلمه ، يكتب ما شاء ، ويفكر كما يشاء ، وينشر في « أبوللو » ما يرضاه ، ويطرح ما عداه ، ويعطي الأدباء والشعراء ، ولا يأخذ من أحد شيئا .

كانت هذه الأسباب متفرقة ومجتمعة كفيلة بإثارة دخائل النفوس وتحريكها لِصَدِّ هذا الركب الزاحف بقيادة أبي شادي ، وتعويق مسيرته عن بلوغ أهدافها.

ولم يكن أبو شادي ليعبأ بتلك الحملات ، فقد كان يواجهها بقوة وعزم ، ويستطيع أن يكيل بالصاع صاعين ، وأمامه صفحات « أبوللو » وفيها سعة لما يريد أن يقول ، وما يريد أن يدافع به عن نفسه أو عن جماعته أو مجلته ، وأن يفند دعاوى خصومه وحساده .

ولم يعدم أبو شادي الأنصار والمريدين الذين لم يقصروا في درء هجمات خصوم أبي شادي والهجوم عليهم بالنقد المر لأعمالهم ، ولم تسلم من هذا النقد أشخاصهم ، وقد كان في طليعة هؤلاء الأنصار : مصطفى صادق الرافعي ، وإسماعيل مظهر ، وعداوتهما للعقاد معروفة منذ نشر الرافعي مقالاته الهابطة في نقد العقاد في مجلة « العصور » التي كان يملكها إسماعيل مظهر ، ثم جمعها في كتابه المعروف « على السفود » الذي كان وصمة في تاريخ النقد المعاصر ، حتى لقد استحى الرافعي أن يكتب اسمه عليه .

ومن شيعة أبي شادي الذين تصدوا لخصومه الدكتور إبراهيم ناجي ، والدكتور رمزي مفتاح ، والدكتور مختار الوكيل ، وغيرهم من الكتاب والشعراء .

ولكن العقبة الكبرى التي اعترضت مسيرة أبي شادي وجماعته ومجلته ، كانت عقبة الحصول على المال الذي يستطيع به الصمود في وجه تلك التيارات ، والمضي قدماً في سبيل تحقيق رسالته وبلوغ أهدافه .

لقد استطاع أبو شادي أن يبدأ المسيرة ، فينشئ الجماعة ، ويصدر مجلتها « أبوللو » مضحيا بما كان يملكه مما ادّخره ، ومستعينا بما كان يقتطعه من وظيفته الحكومية للوفاء بمسئولياته الباهظة الجديدة . ولكن نفاد الزاد وفقد المعين أسرعا بالجماعة ومجلتها إلى السير في طريق النهاية .

واضطر أبو شادي إلى أن يلقي السلاح بعد كفاح استمر سنتين وبضعة أشهر (من سبتمبر ١٩٣٢ إلى ديسمبر ١٩٣٤) لفظت « أبوللو » بعدها آخر أنفاسها .

وبرغم هذه المدة القصيرة في عمر « أبوللو » ، وبرغم الأعداد القليلة التي صدرت منها ، وهي لا تجاوز خمسة وعشرين عدداً ، استطاعت « أبوللو » أن تحقق كثيرا من أهدافها ، فعرفها عالم الأدب في مختلف أرجاء العالم العربي وفي المهاجر الأمريكية . كما كان لها فضل التعريف بطائفة كبيرة من شعراء العربية المجيدين كانت أصواتهم الندية تتوارى خلف تلك الأسماء الكبيرة كأسماء إسماعيل صبري ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، وعبدالرحمن شكري ، ومعروف الرصافي ، وجميل صدقي الزهاوي ، وغيرها من الأسماء الكبيرة التي كانت تملأ أجواء العالم العربي .

ومن هؤلاء الشعراء الذين كان لـ « أبوللو » فضل التعريف بهم عن طريق موالاة نشر نتاجهم في أعدادها المتتابعة إبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، وحسن كامل الصيرفي ، وإلى

جانبهم جماعة من شعراء الشباب الموهوبين وجدوا طريقهم إلى « أبوللو » ، فعرفهم بها الناس، ومنهم : محمد عبد المعطي الهمشري ، ومحمود حسن إسماعيل ، والعوضي الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وصالح جودت ، ومختار الوكيل ، وأبو القاسم الشابي ، وكثيرون من أمثالهم ، بزغت نجومهم في سماء « أبوللو » ، أو ازدادت تألقا في عالم الشعر ، وبقيت شاعريتهم تتدفق ، ودواوينهم تنشر وتقرأ ، وشعرهم يلحن وينشد ، وأصداؤهم تدوي حتى بعد أفول نجم « أبوللو » ، واحتجابها عن الأنظار . وهم دائما يذكرون فضل « أبوللو » وقائدها الذي شجعهم ، ورعى مواهبهم ، وأخذ بأيديهم .

* * *

ولعلنا بهذا القدر من السطور قد استطعنا أن نقدم للقارئ مايعينه على الوقوف على شيء من معالم الشخصية الإنسانية التي تمثلت في أبي شادي الذي كان أشبه ما يكون بالمتصوف في محراب الفن ، أو بالفدائي في مجال النضال ، فقد عرف أنه صاحب رسالة ، وأوجب على نفسه النهوض بها في خدمة الفن الشعري وأربابه . وقد استطاع أن يؤدي هذه الرسالة بصدق وإخلاص ، بما منحه الله من موهبة ، وبما أتاحت له الأقدار من وعي ومعرفة ، وما منحته من قدرة على العمل الدائب والصبر والجلد على احتمال الشدائد ، والشجاعة في مواجهة الخطوب والنوازل ، إلى جانب ما حصله من العلم المستفيض والخبرة الواسعة في أثناء مقامه بإنجلترا يدرس الطب ، ويتخصص في « البكتريولوجي » ، وما وقف عليه من اتجاهات الأدب والشعر في تلك البلاد ، وبدا تأثره بكل ذلك في إنتاجه الفني ، وما حاول به أن يكون زعيما لمدرسة جديدة في خدمة « الشعر الحي » كما أسلفنا .

ويمكن أن يضاف إلى تلك المواهب والمعارف ما أفاده من أبيه الشاعر الأديب محمد أبي شادي ، الذي كان عَلماً من أعلام الوطنية ، وفارساً من فرسان المحاماة والصحافة في مصر خلال الربع الأول من هذا القرن الذي أصدر فيه صحيفة « الإمام » وكانت منبراً من منابر الوطنية والدعوة إلى الإصلاح الشامل في السياسة المصرية وفي العلوم والآداب .

ثم تخمد جذوة « أبوللو » وتنطفئ شعلتها ، وتفتر همة رائدها بعد كفاح مرير ، وقد أصيب بالإحباط بعد أن تحطمت أحلامه على صخور النكران ، أو صخور الخسران ؛ فتضيق به رحاب القاهرة ، أويضيق هو بالمقام فيها ، فيغادرها إلى الإسكندرية لعله يجد في أجوائها متنفسا لهمومه ، وليطرح في عباب بحرها أحزانه ، ليعمل أستاذاً للتحليلات « الباثولوجية »

في جامعتها .

ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى ترزأه الأحداث بموت شريكة حياته إثر إصابتها بداء عضال ، فتظلم في وجهه الدنيا ، وتعروه سحابة من الاكتئاب والانقباض ، فيزمع الهجرة إلى الدنيا الجديدة ، ينشد فيها حياة جديدة ، فيرحل في سنة ١٩٤٦م إلى أمريكا ، وهو أشبه ما يكون بالبطل الجريح بعد معركة خاسرة .

ويفتح الوطن الجديد ذراعيه مرحبا بالفارس الذي وفد عليه ، وكان صيته قد ذاع وانتشر في مواطن العروبة في كل مكان ، فيبادر إلى تكريمه والحفاوة به الأمريكيون والعرب المهاجرون ، ويقيمون له حفل استقبال في فندق « والدورف استوريا » ويتعاقبون في الحديث عن شاعريته وعن فضل جهاده في مجالات الشعر والأدب والإبداع . وقد افتتح أبو شادي لنفسه مكتبا في نيويورك ، ثم في واشنطن ، يستقبل فيه أصدقاءه وعارفي فضله من العرب الوافدين والمقيمين هناك بعد أن توثقت صلاتهم به ، وصداقته لهم . كما انتدب للمحاضرة في الجامعات الأميريكية ، وخصص « صوت أميريكا » لأبي شادي برامج ثقافية ، وكان هذا وذاك مورد رزقه هناك ، وقد كان ينفق أكثره في اقتناء الكتب .

وظل أبو شادي موضع الإكبار والتكريم طوال إقامته في أمريكا ، حتى وافته منيته في اليوم الثالث عشر من شهر أبريل سنة ١٩٥٥م بعد عمر امتد ثلاثة وستين عاماً ، إذ كان مولده سنة ١٨٩٢م .

* * *

ويجب ألا ننسى أن أدباء العرب في مهاجراتهم الأمريكية كانوا بتلك الحفاوة الفائقة والتكريم المخلص لأبي شادي يؤدون شيئا من الدين الذي طوق به أبو شادي أعناقهم جميعا ، وهو في ذروة مجده الأدبي في مصر ، في الوقت الذي فيه ازدهرت « أبوللو » وذاع صيتها . وماكان لهم أن يتناسوا فضله عليهم ، وتعريف البيئات الأدبية في العالم العربي بهم ، وإشادته بإبداعهم ، ونشر ما يرسلونه إليه من أشعارهم على صفحات « أبوللو » التي كانت وحدها لسان الشعر الحيّ ، ومنبر الشعراء في العالم العربي على الإطلاق .

ولم يشأ أبو شادي بتواضعه المعروف وسماحته المعهودة أن يمنّ عليهم ، أو أن يعدّ ترحيبهم به وتكريمهم إياه ردًا لسالف أفضاله عليهم ، ولكنه يعده من قبيل الأدب الذي عرفوا به ، والنبل الذي طبعوا عليه ، فيخاطبهم في قصيدته العصماء « نشيد لم يتم » بقوله :

لم يُحصر الفنُّ في ذهنٍ وإنسانِ حتّى يمجِّد شعري فوق حُسْباني
لكن هو النبلُ صِنْوٌ الحبِّ مُذْ خُلِقا وكمْ يجسِّمُ إحساناً بإحسانِ
ومَنْ أكونُ لأحظى من محبّتكمْ بما يجدِّد وجداني وإيماني ؟
وما يضاعفُ في عُمري وتُسْعِفُهُ بكلِّ حلم يغذِّي روحَ فنّانِ
دُنيا من الشعر نحيا في قصائدها وما تحجَّب منها غيرُ عنوانِ
جازتْ روائعها الأكوانَ وازدحمتْ في كل شيء ، وجازتْ كلَّ إمكانِ
من شاء مُتعتَها لم يثنه تعبٌ ومَنْ تبرّم عاش الآسفَ العاني
كأنني من نَداكمْ صرتُ مالكها وصرْتُ كانزها في طيِّ وجداني

ثم يأخذ في الثناء على أولئك الأدباء والشعراء الذين خفّوا لتكريمه والحفاوة بمقدمه ، مكبراً صنيعهم ، وممجداً البلد الذي يعيشون فيه ، والحرية التي يتمتعون بها في وطن يرفع علم الحرية ، ويتخذ تحرير الإنسان أسمى شعار له ، ويذكر عيد الربيع الذي كرموه فيه ، وما يضفي الربيع على الحياة من الزينة والبهاء وما يخلع على الطبيعة من معالم الحسن والجمال التي تغمر الدنيا ، فتبعث البشر في النفوس ، وتلهم الشعراء أعذب الشعر وأبدع الألحان:

نوابغَ الأدبِ الوضّاء في وطنٍ أغلى معانيه تحريرٌ لإنسانِ
وافَى (الربيعُ) بكمْ عطراً وأغنيـةً وساحراً ينتشي منه الجديدانِ
يُسْدي الأياديَ ، لا مَنٌّ ولا عددٌ مثلَ المملِّك من جاهٍ وسلطانِ
من أيِّ نبع رحيقُ الشكر أنهلُهُ نخباً لكم حين أسقيه بألحاني ؟
وكيف أجزي شعوراً لاكفاءَ لهُ وأستقلُّ بتعبيري وميزاني ؟
من يبذلُ الحبَّ لا يُجزي عوارفَه إلا صدًى في حنايا قلبه الحاني
أكرمْ بكم مـن أساةٍ في عواطفهمْ ومن حُماةٍ لآدابٍ وعرفانِ
خفُّوا سراعاً لتكريمي كأنَّ بهمْ يوم المروءة ثأراً عند أحْزاني !

وكيف تتسلل الأحزان إلى هذا القلب الكبير في ذلك المجتمع الذي ترفرف في سمائه أعلام البهجة ، وتظله مشاعر المحبة بين جماعة من رفقة الأدب ، وإخوان الصفاء ، وكل ما يرى وما يسمع يعبر عن مشاعر يقدرها ، ويؤمن بصدقها ، وجدير بأن يبدد سحائب الهموم والأحزان من حياته الجديدة ؟

ولكن أبا شادي لا يدع قارئ هذا الشعر تساوره الظنون حول ما يؤرقه ، وما يشغل قلبه الملتاع .

إنها مصر ! التي وهبها حبه ، وبذل في سبيلها أقصى ما يملك من طاقات ، ثم لم يجد في ربوع مصر من يقدر عطاءه ، ومن يرقأ دموعه ، حتى اضطر إلى الرحيل بجسده إلى بلاد العمّ سام ، وفؤاده يتلظى بلوعة الفراق ، فيقول :

تركْتُ مصـرَ وقلبي لوعةٌ ولظًى ... لجنةٍ ضُيِّعتْ في نوم جَنَّـانِ[1]
عاث اليرابيعُ فيها وهو في شُغُلٍ ... عنها بأضغاث أحـلام ٍوبهتـانِ
إذا أفاق تعالت صيحـةٌ كذبْت ... فلم تعقبْ بمجهـودٍ ليقْظـانِ
بذلتُ عمري لأرعاها وأوقظهُ ... فكان سُقْمي وتعذيبي وحرمانِي
فدًى لها ـ لو أباحتْ ـ كلّ ما ملكتْ ... نفسي ، وما وهبتْ في حبّها ألحاني
تركتها وبودّي غير ما حكمتْ ... به المقاديرُ في أشجانِ لهْفانِ
وقلتُ عليَّ على بُعدٍ أشارفها ... وأنفخ الصُّورَ إن فاتتْهُ نيراني
في بيئة تنزلُ الأحياء منزلهم ... ولا تحاول تخليـداً لأكفـانِ
فلم يخيِّبْ رجائي في نوازعها ... ولم تكن هِجْرتي من مصر هِجْرَاني

يقول إنه غادر مصر كنانة الله وجنته في أرضه ، وقد غفل عنها حراسها وحماتها فعاث فيها الفساد ، وكثرت الدعوى ، وقل العمل الجاد ، وقد بذل حياته في تنبيه الغافلين وإيقاظ النيام ، فكان جزاؤه الحرمان والاضطهاد ، وودع هذا الوطن الغالي إلى بلد حر يتابع فيه مسيرته ، ويواصل فيه دعوته إلى الحياة .

* * *

والمطلع على ما أنشأ أبو شادي من شعره وهو في عالمه الجديد سيرى أن جُلَّ هذا الشعر تعروه سحابات من الألم والوجد برغم اختلاف الظروف والمناسبات التي أنشد فيها هذا الشعر ، وفيها مناسبات تسري عن القلب المكلوم ، وتدعو إلى البهجة والنشاط ، وتناسي ما سبقها من الهموم والأحزان ، وبخاصة ما نقرؤه في ديوانه « الإنسان الجديد » وفي ديوانه « النيروز الحر »

---

(١) الجنّان حارس الجنة ، يريد به شعب مصر .

وقد نشرهما الأستاذ وديع فلسطين بعد وفاة أبي شادي[1].

وعلة هذا الكمد وتلك المعاناة لا تخفى على القارئ ، فقد اضطر أبوشادي إلى الرحيل عن مصر ، مسقط رأسه ، ومرتع صباه ، ومقر هواه ، ومسرح ذكرياته ، وبها سطع نجمه ، وذاع صيته حتى ملأ أجواء العالم العربي ، واستقبل في حاضرتها زعماء الفكر والأدب من أبناء العروبة الذين كانوا يتوافدون عليها من كل مكان ، وكان له فيها أشياع وتلاميذ ، اتخذوا منه زعيما لمدرستهم ، وإماماً يحتذونه في إبداعهم .

لم يكن من اليسير على أبي شادي أن ينسى ذلك كله مهما لقي من مظاهر التكريم والترحيب في مقامه الجديد ، من قوم يقدرون جهاده ، ويعرفون ماضيه المشرق ، وعطاءه الجزيل ، ولكنه كان يحس في أعماقه بالغربة الأليمة ، والوحشة القاسية إذا تحركت في ذهنه أسباب الموازنة بين الماضي والحاضر ؛ إلى جانب مشاعر الوطنية التي طبع عليها ، استمع إليه في هذا الحنين الحزين :

وطني الذي رُبِّيت تحت سمائهِ ووهبتُه فنّي نجومَ سمائهِ
ورضعتُ من أزهاره ، وسكرتُ من أسمارهِ ، وشربتُ من أضوائهِ
مَنْ ليس يَعدله سوى حبّي له حبا تشرَّد كاليتيم التائهِ
مَنْ عنده الخبزُ القِفار ولائمٌ و ولائمُ الأرواح ملْءُ رُوائهِ
مَنْ طالما غنّيتُ في أفيائهِ برُؤايَ حين سُجِنْتُ في أفيائِهِ
مَنْ لم يمكنّي لأرفعَ مجدَهُ ولواءَهُ وخُذِلتُ تحت لوائهِ
مَنْ لم يُنْهِنْهُ زجره جهدي له وأنا المكبَّلُ في مديدِ بلائهِ

ولقد كان أبو شادي في طليعة العاملين على بناء هذا الوطن ونهوضه ، ولم يكن جهده ولا جهاده بما يملك من طاقة دون ما بذل الشهداء في سبيله ، ولم يكن جزاؤه إلا التنكر والخذلان في الوقت الذي حظي فيه المنافقون والجاحدون بخيرات هذا الوطن المسكين ، الذي مزقه الإقطاع بفعل العابثين والمفسدين ، الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف ، فعرفوا كيف يصرفون أبناء الشعب عن الأهداف والغايات المثلى ، واستطاعوا أن يباعدوا بين واقعه وماضيه المجيد ، فشوهوا صفحة تاريخه التي أنارت الدنيا في عصور الظلام ، وأصبحوا لا يحسون بما

(١) صدرت الطبعة الأولى من ديوان « الإنسان الجديد » سنة ١٩٨٣م ، وصدرت الطبعة الأولى من ديوان « النيروز الحر » سنة ١٩٨٨م .

يعاني الشعب من ضيق وحرمان :

مَنْ مكّنَ الإقطاعَ من تقطيعهِ وأباحَ عزّتَهُ رضا سفهائهِ
مَنْ لم يصُنْ تاريخَه بفعاله وهوتْ زعامتُه على زعمائهِ
مَنْ عفّرَ الرأسَ المنزّه في الثرَى للفاسقين الصُّمّ من رؤسائهِ
كنّا نُرجّي الأمسِ صدقَ بلائهمْ فغدَوْا رزيئته وسـرّ بلائهِ
مِنْ كلّ أرعنَ لا يصعّر خدّهُ إلا وتلطمُه أحطُّ نسائهِ

لقد رأينا الشاعر في هذه الأبيات يتجاوز الحديث عن نفسه ، وبث آلامه وهمومه الذاتية إلى الحديث عما يعانيه شعب مصر الذي ينتمي إليه ، ووصف مشاعره تجاه ما يعانيه هذا الشعب من بطش حكامه ، وعسف ساسته الذين استبدوا به ، وحطموا كرامته ، وانصرفوا إلى العمل على تحقيق مطامعهم ، والاستجابة لنزواتهم ، والاستسلام لشهواتهم ، فارتكبوا الموبقات وانحدروا إلى هوّة الرذيلة ، بعد أن كانت القلوب تحوطهم ، وتعقد آمالها عليهم .

أنشد الشاعر هذه القصيدة في مايو١٩٥٠ ، أي في أخريات العهد الملكي عهد فاروق . وذلك ما يحملنا على الظن بأنه كان يعني الجالس على عرش مصر الذي أوغل في الفساد ، واستهان بالقيم والمثل الرشيدة التي يقوم عليها الملك الصالح ، يشجعه على المضي في ذلك الطريق ساسة يصفقون له ما دام يكل إليهم حكم البلاد ، وتصريف شئون العباد . اقرأ قوله في وصفه :

يُنْضي الركائبَ في الطّلاب لشهوةٍ ولضمّ أهـواءٍ إلـى أهوائـهِ
و يخال صخْبَ الموبقات حيالـهُ إعجابَ من عانَوْا من استهزائهِ
أسَفِي ! على الملك المذال ، وطالما حامتْ قلوبٌ حـوله لفدائـهِ
كنّا نلوذ به ليوم كريهةٍ فإذا بنا ما شـاء من أشلائـهِ
أسَفِي ! وكم يطغى الحنينُ كأنني عبدٌ ـــ وإن حُرّرتُ ـــ بين إمائهِ
كم عابثٍ يرثِي لحالي ساخراً وهو الأحقُّ بسُخْرِه ورثائـهِ
والشعبُ إن باع الكرامة صاغراً أو فاجـراً فبقـاؤه كفنائـهِ

وهكذا يؤكد الشاعر صدق وطنيته وعمق إحساسه بالانتماء وبمعاناة شعبه الذي لم يغفل

عنه شاهداً أو غائباً ، ومهما يكن مقامه في عالم النور والأضواء أو في أحلك الظلمات بالرغم مما لقي فيه من العنت الذي دفعه لأن يولي وجهه نحو العالم الجديد ، وتراه يفصل أسباب ارتحاله في قصيدة باكية يندب فيها حظه ، ويشكو ما لقي في وطنه من التنكر والجحود ، وعنوان القصيدة « لم ارتحلت ؟» وفي أولها يقول :[1]

سألوني لم ارتحلتَ ؟ كأنّي … لم أجبْهم بسيرتي نصفَ قرنِ
شادياً بالطليق من شعري البا … كي أغنّي لمجدهم ما أغنّي
وحياتي لعزّهمْ في كفاحٍ … ككفاح الشعاع في وسْط دَجْنِ
مُثّلَ لنْ تُحدَّ نوعًا وعدًّا … كنجوم السماء في كلّ فنِّ
وتبلّغتُ بالعذاب وبالبؤ … س مراراً ، وكلّ حظّي التجنّي
وكأنّي وحدي المسيءُ بإحْسَا … نِي لعصري ، أو أنه لم يَسَعْنِي

وتقرأ مثل هذا الحنين أو مثل هذا الأنين ، في أكثر شعره الذي أنشأه في مهاجره ، كما نقرؤه في قصيدته « بكاء وبكاء »[2] التي تفيض بالمرارة والأسى ، وأولها :

بكَى الربيعُ طروباً في مباهجهِ … وقد بكيت أنا حبّي وأوطانِي
أنا الغريبُ و روحي شاركت بَدَنِي … هذا العذابَ بأشواقي وأحزانِي
فيمَ العزاءُ ولا قلبٌ ألوذُ بهِ … ولا حنانٌ يناجيني كتحنانِي
لي في ثرى مصرَ دمعٌ نائحٌ ودمٌ … أذِيبَ من مهجتِي اللّهفَى ونيرانِي
تركته مثل غرس الحبِّ ما ذبلتْ … أزهارُه أو أغاثتْ روح لهفانِ
أشمّها في اغترابي حين تلدغني … ذكرى الشباب وذكرى عمريَ الفانِي

وما أكثر هذا الشعر الوجداني الحزين فيما أنشأ أبو شادي في مهاجره مما لا نجد له مثيلا في شعره القديم ، الذي تضمنته دووابنه الكثار التي أصدرها في مصر قبل ارتحاله ، أو الذي كان ينشره في مجلته « أبوللو » ؛ فإن أكثره كان شعراً يغني للحياة ، وتشيع فيه روح التفاؤل ، وحسبك أن تقرأ في عنوانات دواوينه أمثال هذا العنوانات : الفجر الجديد ، عودة الراعي ، أشعة وظلال ، أطياف الربيع ، الينبوع ، فوق العباب .

---

(١) ديوان « الإنسان الجديد » ، قصيدة « لم ارتحلت ؟» ، ص ٢٨٨ .
(٢) ديوان « النيروز الحر » ، ص ١٠٢ .

وأبو شادي واحد من المكثرين المعدودين من شعراء العربية في تاريخها الطويل ، بل إني لا أعرف من شعراء العصر من هو أكثر منه شعراً أو أغزر منه نتاجاً ، ولا من يدانيه في غزارة ذلك النتاج .

ومرجع هذه القدرة العجيبة إلى روحه الشاعرة أولا ، ثم إلى كثرة تجاربه وتنوعها ، وإلى سعة ثقافته الأدبية العربية والأجنبية ، والإنجليزية منها بخاصة . وقد كان لذلك أثره البعيد في نزوعه إلى التجديد في المضمونات الشعرية ، وفي قوالب الشعر وأشكاله أيضاً .

واستطاع أبو شادي بالعزم والإصرار ، وبالجد الموصول ، برغم المعاناة القاسية والمعوقات الكثيرة – أن يصدر من مجلته التي أنشأها لخدمة « الشعر الحي » خمسة وعشرين عدداً في أربعة وعشرين شهراً ، يمكن أن يعد كل عدد منها كتاباً متكاملاً في الشعر الحديث ، فيه النماذج المختلفة من الشعر الذي يمثل صحوة الشعر في هذا العصر في مختلف مواطنه ومختلف أجناسه ، وإلى جانبها نماذج من روائع الشعر العالمي ترجمها بعض الشعراء إلى اللغة العربية ، وإلى هذه وتلك دراسات أدبية مستفيضة ، وتحليلات وموازنات نقدية ، وتعليقات على بعض ما ينشر في « أبوللو » .

ومن الطبيعي أن يكون شعر أبي شادي في مقدمة ما تنشره « أبوللو » وأن يكون أكثر التعليقات أو التعقيبات بقلم أبي شادي أو شيعته من حاملي اللواء .

وقد خلف أبو شادي تراثاً حافلاً من شعره ، أودعه دواوينه الكثيرة التي نكتفي بذكر أسمائها في هذه العجالة :

١ ـ الفجر الجديد	٩ ـ فوق العباب
٢ ـ عودة الراعي	١٠ـ زينب « حبه الأول »
٣ ـ الشفق الباكي	١١ـ الينبوع
٤ ـ أشعة وظلال	١٢ـ من السماء
٥ ـ أطياف الربيع	١٣ـ الكائن الثاني
٦ ـ أخناتون	١٤ـ أغاني الحب
٧ ـ الشعلة	١٥ـ الإنسان الجديد
٨ ـ أغاني أبي شادي	١٦ـ النيروز الحر

كما ترجم رباعيات عمر الخيام شعراً عن الترجمة الإنجليزية ، التي نشرها الشاعر الإنجليزي « فيتزجرالد » نقلاً عن أصلها الفارسي .

وربما نقم منه بعض خصومه وحاسديه هذا الإكثار ، وكأنهم يرون أن الإقلال عامل من عوامل الإتقان .

وقد عرض أبو شادي لمقالة أولئك الناقمين ، ووصفهم « بقلة الإنتاج وبالتخاذل والجمود ، وبالتملق والرياء ، لا تعرفهم غير المقاهي والمظاهرات التهريجية ، والغرف المهملة في إدارات بعض الصحف حيث يتخذونها مراكز لمحاربة من يشاءون من الأدباء المنجبين لغاياتهم النفعية الخاصة .»

ويقول إن من أغرب الخرافات التي يروجونها أن الشاعرية الممتازة مقصورة على قلة الإنتاج، وعلى هذا الأساس يعمدون على قص جناحي كل شاعر منجب يحاول أن يطير .

فهم هدامون يهمهم القضاء على الروح المعنوية عند كل شاعر منجب ، لأنهم هم مصابون بالعقم والإفلاس .

وفي رأي أبي شادي أن الشاعرية المطبوعة متى سندتها الثقافة اللغوية والثقافة العامة لا يجوز أن تحاسب على إنتاجها ؛ فقد يتفق أو لا يتفق لجودة الشعر أن تصاحب كثرة الإنتاج أو قلته، وليس حتماً أن كل شاعر مقلٍّ مجيد ، ولا كل شاعر مكثر غير مجيد ؛ فإنما الشعراء منابع ، وربما تسرب ماء النبع إلى غير ظاهره ، وفي الواقع لا نعرف شاعراً مطبوعاً إلا وهو مكثر بفطرته في خواطره الشعرية ، فإذا تخلف كثير منها عن نظيمه فإنما يرجع ذلك إلى عوارض لا تتصل بشاعريته مثل تهيبه ، أو عدم ثقته بنفسه ، أو ضغط شواغل الحياة عليه .

وفي رأيه أيضاً أن « الشعر للشعر » وقد يكون الباعث للشاعر على طبع آثاره وحنينه إلى الاندماج في الإنسانية إذا ما استوعبت شعره كأنس الصديق بأصدقائه المدعوين إلى مائدته ، كذلك حب الحياة لنفسه الفنية يدعوه إلى إذاعة هذه الآثار ، لأنه يشعر بوجدانه أنها أغلى شطر من نفسه [1].

ويذهب أبو شادي إلى أنه مهما أكثر فإنه مقل ؛ لأن هذا الكون معين لا ينضب ، بل هو سيل جارف لا يكف عن التدفق بكل ما يهز المشاعر ، ويثير الخواطر ، ويوحي بأروع الشعر .

---

(١) العدد العاشر من المجلد الأول من مجلة « أبوللو » – عدد يونيه سنة ١٩٣٣م ، ص ١٠٩٤ .

وهو يعترف بقصور شاعريته عن الوفاء بما يقتضيه هذا الكون الذي لا يتوقف عن الحركة والتجدد .

ويعبر عن هذه المعاني شعراً فيقول [١] :

كمْ في الحياةِ مجددٌ لا ينتهي ولكمْ حقيرٍ وهو غيرُ حقيرِ
لاموا شبوبَ عواطفي وتخيُّلي وتدفّقي بالشعر ملْءَ شعوري
وأنا الخجولُ أمام ما أنا ناظرٌ من كلِّ مُوحٍ بالغِ التأثيرِ
فيهـزّني هـزًّا ولكنّي الذي مهما أجدْتُ أحسُّ بالتقصيرِ
وأكادُ أوقنُ أنّ مَن هـو لائمي إما ضريرٌ أو شبيهُ ضَريرِ
إنّا بِكَوْنٍ كلّهُ شعرٌ بلا حصْرٍ وكمْ من عاجزٍ مغرُورِ

* * *

وأبو شادي علم من أعلام المجددين في عالم الشعر العربي ، بل هو زعيم لمدرسة من أبرز مدارس التجديد في العصر الحديث ، انتظمت عدداً كبيراً من الشعراء المبرزين الذين أخذ أبو شادي بأيديهم ، وقادهم إلى مجالات الإبداع المتميز ، وكان لهم شأن في بناء النهضة الحاضرة التي انتقل فيها الشعر إلى مجـالات أوسع ، وإلى آفاق أرحب من خطوات التجديد التي دعت إليها مدارس أخرى ، عاصرت « أبوللو » ، بل سبقت « أبوللو » إلى الوجود .

ولم يقتصـر تجديد هذه المدرسة على جانب من جوانب الفن الشعري دون غيره من الجوانب أو العناصر المقومة لفن الشعر ، فقد شمل تجديدها موضوعات الشعر ومعانيه ، وقوالبه وأشكاله ، وقد تأثر أبو شادي في ذلك بانطلاقه ، ونزعته التحررية ، وثقافته الواسعة التي تنوعت مصادرها ، فنظم الشعر في أنساقه العروضية المأثورة ، كما نظم الشعر المرسل الذي تحرر منْ نظام القافية ، والشعر الحر الذي تخلص من الأوزان التقليدية المعروفة ، وقد كانت « أبوللو » أول منبر من منابر ذلك الشعر الجديد .

ومن أخريات ما نظم في ذلك قصيدته « أنا ابن عقيدتي » التي كتب تحت عنوانها « من الشعر المرسل الحر » [٢] ؛ وفيها يقول :

---

(١) ديوان « الينبوع » ، ص ١٩ .

(٢) ديوان « الإنسان الجديد » ، ص ٣٣٣ ، والمعروف أن « الشعر المرسل » هو الشعر الذي يلتزم بوحدة الوزن ، لا بوحدة القافية ، وأن « الشعر الحر » لا يلتزم بوحدة الأوزان ولا بوحدة القوافي ، وقد يسميه بعضهم « شعر التفعيلة » .

أنا ابنُ عقيدتي ، وسليلُ فكري ... ولستُ بنَبْتِ أرضٍ أو سماءِ
أغَـــذّي بالرجـــاءِ ... وأسخـــرُ بالشّقـــاءِ
وأحســـبُ كالهَبـــاءِ ... وجوداً ندّ عن إشعاع ذهني
وخاصمَ فنّ أخيلتي وشعري ... فـلا تحسـبْ شكاتِـي
مضيَّعـــةً لذاتـــي ... ومعلنـــةً مماتِـــي
فمـــا لمَســـتْ يقينـــي ... ولا قتلـــتْ حنينِـــي
إلـــى دنيـــا الجمـــالِ ... علـــى مـــرِّ الليالـــي
فـإن تمَلْمُلِي بعـضُ اقتناعـي ... فليـــس إذنْ وداعِـــي
لدُنيـــا لاتحـــسُّ ولا تراعـــي ... حقوقَ الحرِّ نقصاً في الطباعِ
ولو كان امتعاضي من زماني ... كإنســـانٍ يعانِـــي
خضوعَـــا أو خنوعَـــا ... ولا باليتُ يوماً بالصعـــابِ
وألـــوان العقـــابِ ... إذا لم أحرَم الجهدَ الأبيّا
لإنصاف العقيدة في كفاحـي ... .

ولأبي شادي ولوع بالشعر التمثيلي . وقد خلف في شعره عدداً كبيراً من المسرحيات الشعرية بثها في دواوينه . وفي ديوانه « الإنسان الجديد » ، الذي تضمن طرفاً من شعره في مهاجره الأمريكي[1] ، عدد من تلك القصائد التمثيلية ، منها قصيدته « عذراء بختن » (ص ٣٣٧) ، وقصيدته « الولد التائه » (ص ٣٢٩) ، وقصيدته « ابن زيدون في سجنه » (ص ٣١٩) ، وقصيدته « وداع جميل بثينة » (ص ٢١٩) ، وقصيدته « حلم مجنون ليلى » (ص ١٩٧) . وكلها مسرحيات صغيرة في فصل واحد ، والحوار فيها محدود لا يتجاوز شخصيتين قامت عليهما كل مسرحية .

---

(١) نشرته مؤسسة المعارف للطباعة والنشر في بيروت ، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣م ، بإشراف الأستاذ وديع فلسطين .

صَالح جَوْدَت

« العيون الزرق والشعر الذهب » هما عنوان شاعرية صالح جودت ، أو هما صورة الأمل المشتهى ، وحلم الشباب الجميل لصالح جودت في صباه اليافع ، ورجولته المبكرة ، منذ عرفه الناس شاعراً ، ومنذ أهدى أول ديوان طلع به عليهم إلى « العيون الزرق والشعر الذهب » ، وجعلهما بهذا الإهداء مصدر وحيه ، ومبعث إلهامه .

وأكتب هذا الحديث بعد أكثر من ستين عاماً منذ عرفت صالح جودت في جملة من عرفت من الطلائع الأولى لشعراء الشباب في الربع الثاني من هذا القرن .

ولا أكتم القارئ أنني أحس بكثير من الألم والشعور بالتقصير في تأخير الكتابة عن ذلك الرعيل من أدباء العصر وشعرائه الذين عاصرتهم ، وعرفتهم عن كثب ، وتابعت مولدهم في عالم الشعر ، وشهدت تدرج شاعريتهم في سبيل النضج واستواء الملكات . وفي تقديري أن كتابة الكاتب عمن يعرف أقرب الموازين إلى الحق ، وإلى روح النقد المنصف ، وإلى التقدير الصحيح ، وأن من مصلحة الرأي أن يغبّ ، حتى يكون أقرب إلى الجد ، وأشبه بروح النقد العادل والتقويم الصحيح منه إلى إرضاء النفوس ومشايعة الأهواء ، التي كثيراً ما تجنح بأمثال هذه الدراسات إلى مجاملات للأصدقاء ، أو محاولة النيل ممن يخالف وجهة نظر الكاتب ، أو يقف منه موقف الخصومة والعداء .

ومن المصلحة أيضاً أن تصدر كلمة النقد بعد الخبرة الطويلة والممارسة الفعالة للفن الأدبي ، ووضوح الرؤية لعين الناقد .

وإذا كانت القدرة على الارتجال من سمات الخطباء المجيدين ، والشعراء المطبوعين – فإن الارتجال في الآراء وتعسف الأحكام في النقد الأدبي وكل لون من ألوان التمييز من سمات الشداة المبتدئين ، الذين لا يبالون بالحقيقة ، ولا يجشمون أنفسهم عناء طلبها أو الفحص عنها ، ولكنهم يرسلون الأحكام جزافاً . ومن ثم تفقد تلك الآراء جدواها في تقدير الفنون ، وفي توجيه أصحابها نحو المثل الفنية الرفيعة .

وأنا أعترف مقدما بحب عميق وتقدير متبادل بيني وبين صالح جودت يرحمه الله ، لعل

من أسبابها تلك المعاصرة التي لا أراها كما يراها أكثر الناس حجاباً يحول بين الكاتب والإنصاف المنشود في مثل هذه الكتابات .

وقد يكون من أسبابها أنني لم أكن واحداً من الشعراء الذين يكثر بينهم ما يكثر بين أصحاب الصناعة الواحدة أو الفن الواحد من أسباب التنافس ، الذي يؤدي كثيراً إلى القطيعة التي يدفع إليها التحاسد ، وإلى كيد بعضهم لبعض ، ونفور بعضهم من بعض على الرغم من حبي لهذا الفن الإنساني العريق ، ومزاولتي له قليلا في فترات من عهود الصبا والشباب .

وقد يكون من أسباب ذلك التقدير المتبادل تقارب في الاتجاه ، وتشابه في الرأي في تقدير القيم الفنية ، ونواحي الإبداع في الفن الشعري .

وقد امتدت صداقتنا أربعة وأربعين عاما (١٩٣٢ ــ ١٩٧٦م) لم يشبها في يوم من الأيام ما يكدر صفوها مما تتعرض له صداقات الناس ، والعلاقات بين بني الإنسان ، ولم يصبها شيء من الوهن أو الفتور طوال هذه السنين ، بل إن حبلها كان يزداد كل يوم تأكداً وتوثقاً .

وأذكر أن صالحاً كان ينعتني دائماً فيما يهدي إليّ من آثاره بأنني « رفيق الصبا ، وحبيب العمر » !

وأذكر – أيضاً – أنه وهو رئيس لتحرير مجلة « الهلال » كان يبرق إليّ إذا ما كنت بعيداً عن الوطن بعبارة نصها : « يزمع الهلال إصدار عدد خاص موضوعه كذا ، أرجو ألا يحرم « الهلال » من مشاركتكم !»

وظلنا على عهد الثقة والحب والوفاء حتى توفاه الله في اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٩٧٦ م .

على أنني سأحاول ألا يحول شيء من ذلك بين هذا القلم وكلمة الحق التي أراها ، فأنا لا أكتب لصالح جودت الصديق ، وإنما أكتب للحق والتاريخ ، وللنقد الأدبي متشبعاً بروحه التي تنفر من مظاهر التحامل أو المجاملة نفوراً شديداً .

* * *

كان صالح جودت واحداً من شعراء الشباب الذين احتضنهم المرحوم أحمد زكي أبو شادي ، وكوّن منهم مدرسة « أبوللو » التي لم تطل حياتها ، أو على الأصح لم تطل حياة جمعيتها وحياة مجلتها أكثر من سنتين وأربعة أشهر على وجه التحديد ، صدر فيها خمسة

وعشرون عدداً ثم نامت إلى الأبد .

ولكن « أبوللو » استطاعت في ذلك الزمن القصير أن تحقق كثيراً من غاياتها ، وأن تلعب دورا خطيرا في حياة الشعر العربي الحديث وبعثه عن طريق الجهد المنظم في جمع شمل الشعراء ، سواء منهم من كان لا يزال في دور التجربة والمران ، ومن كان قد شبَّ عن الطوق، وتمرس بفن الشعر .

وقد بذل أبو شادي من نفسه وفنه وذكائه ومن ماله أيضا أقصى ما يَبْذُلُ إمام أو رائد يؤمن بفنه ، ويؤمن برسالته ، وأقصى ماكان يستطيع أن يبذله من دخله المحدود من وظيفته في الحكومة ، ومن المال القليل الذي كان يحصله من ثمن ما يباع من مجلة « أبوللو » ، ومن مطبعة « التعاون » التي أنشأها في دار متواضعة بحارة عمر شاه في حي السيدة زينب بالقاهرة ، وقد جعل منها مركزاً للتحرير ، وملتقى للشعراء والأدباء ، يرحب بهم أبو شادي ، ويوسع لهم في مجلسه ، ويراجع أشعارهم ، ولا بأس أن يجري قلمه بإصلاح ما قد يرى من الأخطاء والعيوب الفنية في الأفكار أو في صور الأداء ، ثم يدفع ما يرضى عنه إلى المطبعة ليظهر في أعداد مجلة « أبوللو » الشهرية . وكان الجميع ينتظرون صدورها بكثير من الشوق وكثير من القلق خشية أن تحرم قصائدهم من النشر ، وما يدل عليه هذا الحرمان من الشك في قيمة الشعر وفي موهبة صاحبه ؛ إذ كان أكثر المتطلعين الى النشر في مجلة « أبوللو » من جماعة الشبان الذين خلع عليهم الشباب طابع الحماسة ، وطابع العجلة في حب الظهور وذيوع الصيت . وكثيراً ماكان الذين يظفرون بالرضا عما يكتبون ونشر ما يؤلفون من الشعر يباهون بهذا الظفر ، ويتيهون على أقرانهم بهذا التقدير .

وأعتقد أن أبا شادي بالإضافة إلى هذا التشجيع الأدبي – كان يمد بعض أولئك الشعراء والكتاب من رواد وأنصار جماعته والناشرين في مجلتها بالعون المادي من القليل الذي كان يستطيع أن يمدهم به سرًّا .. ولعل ذلك كان إحدى الوسائل لتحقيق الغرض الثاني من أغراض جمعية أبوللو الثلاثة التي حددها دستورها . ونص هذا الغرض « ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا ، والدفاع عن صوالحهم وكرامتهم .»

وكان أبو شادي بذلك أحد الشعراء القليلين الذين أخذوا بيد الشعراء ، ولعله كان أيضا من أوائل أصحاب المجلات والصحف الذين كانوا ينقدون من ينشرون شعره أو بحوثه في مجلاتهم وصحفهم أجراً أو مكافأة ، حتى أصبح ذلك تقليداً في زماننا ، وحلت كلمة

« المكافأة » مكان كلمة « العون » أو المساعدة على الحياة !

وليس من غايتي في هذا الحديث أن أتحدث عن جماعة أبوللو ، وما أسدت إلى الشعر والشعراء ، ولكنه الحديث عن شاعر « العيون الزرق والشعر الذهب » هو الذي استدعى هذه الخواطر التي لا أحسبها بمعزل عن صالح جودت الذي لا ينسى يد « أبوللو » في رعايتها لفنه ، و وصله بجمهرة شعراء الشباب ، وتعهدها لفنهم الأصيل حيث يقول في قصيدته « ذكرى الشابي » :

هيهاتَ ننسَى لأبولّو يدا ... يا ما سَقتْ من غيثِها الصيِّبِ

مرّت على مَطلَع أيامنا ... ونحن كالحبّات في الطُحْلبِ

فقرَّبت مِنّا بعيدَ المدَى ... وأطْلعت مِنّا زهُـــورَ الرُبَـــى

وفي تحية وجهها الدكتور مصطفى جواد إلى صالح يذكر فيها « أبوللو » ورسالة أبي شادي في محاولة التجديد ، فيقول :

شوقي إليكَ عظيـمٌ لا أقــدِّرهُ ... إلا كما قدَّر الإبلالَ مِمْراضُ

ذكّرتني عهدَ أحبابٍ ، وأنت لهمْ ... عينُ القلادةِ بالآدابِ نهّاضُ

الذكرياتُ لنا سلوَى ، فقد سلفتْ ... أيامُنا البيضُ ، فالأجسام أنقاضُ

أيامَ يدعو « أبو شـادي » وعُصبتهُ ... إلى جديد قَريضٍ ، وهو مرتاضُ

مضى الشباب حميد العيش يعطفهُ ... فُـؤادُ مرتمِضٍ بالهمّ منهاضُ

وقد كان صالح جودت قطبا من أقطابها ، ودعامة من دعائمها ، حتى انتخبه أعضاؤها في مطلع عامها الثاني عضواً في مجلس إدارتها .

ولا يذكر أصدقاء صالح جودت وعارفوه من معاصريه اسمه إلا تذكروا « أبوللو » بدافع الاقتران الذهني بين الشاعر والجماعة التي انتسب إليها ، والمجلة التي كانت مسرحاً لشعره ، وهو يستقبل مجده الفني في عالم الشعر مع جماعة من الشعراء عرفناهم عن طريق « أبوللو » من أمثال إبراهيم ناجي ، ومحمد عبد المعطي الهمشري ، وعلي محمود طه ، وأبي القاسم الشابي ، وحسن كامل الصيرفـي ، ومختار الوكيل ، وغيرهم من شعراء مصر وغيرها في مواطن العروبة في الشرق والغرب ، الذين كانت لهم منازل مرموقة في عالم الشعر الحديث ، وكان الناس لا يعرفون لهم هذه المواهب من قبل ، بالإضافة إلى شعراء آخرين كانت البيئات

الأدبية لا تعرفهم إلا بمقدار .

وبعد أن أتم صالح دراسته في مدرسة المنصورة الثانوية ، وحصل منها على الشهادة التوجيهية – جاء إلى القاهرة ليلتحق بكلية التجارة التي تعثر فيها أكثر من سنة من سنوات الدراسة ، ولكنه لم يندم على ما ضاع من عمره ، ويقول : « تعثرت لأنني اتصلت بمدرسة جديدة في الأدب والشعر والنقد ، كانت ناشئة يومئذ (سنة ١٩٣٢) ، ولكنها على حداثة سنها كانت أشد ما تكون ازدهاراً وتأثيراً في الأدب المصري الحديث ، هي مدرسة « أبوللو » التي دعا إليها الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي ــ طيب الله ثراه في غربة المهجر ــ وكان على رأس هذه المدرسة أمير الشعراء « شوقي » ، وكان من أعلامها شاعر القطرين خليل مطران ، ومن حول هؤلاء سائر دعاة الأدب الجديد ».

ويستطرد صالح فيقول : « وما بالك بفتى في العشرين أو دون ذلك ، متطلع إلى الأدب ، مفتون بالشعر ، يجد نفسه كل يوم وسط هؤلاء الأعلام الذين كان يقرأ لهم ، ويسمع عنهم ، ويخيل له أنهم عمالقة جبابرة لا يدنو منهم أحد . يجد نفسه صاحباً لهم ، قريباً إلى قلوبهم ، يحدثهم ويحدثونه ، ويقرءون له ويمتدحونه ، بل ويذهبون إلى أكثر من ذلك ، فيفسحون له كرسياً في مجلس إدارة جمعية « أبوللو » ..؟

« ألا يأخذه الزهو ؟

« أو لا يصرفه هذا الزهو عن كلية التجارة ، ودرس المحاسبة ، وإمساك الدفاتر ، وأعمال البورصات[1] ؟»

ولقد أوشك صالح أن يهجر الجامعة لولا تعديل الدراسة في كلية التجارة ، وإنشاء قسم للعلوم السياسية بها ، فاتجه إليه وتخرج فيه ، وكان في طليعة الناجحين سنة ١٩٣٧ ، والتحق بالدراسات العليا ، وحصل على درجة الماجستير سنة ١٩٤٨ ، كما حصل على دبلوم الدراسات العليا من أمريكا سنة ١٩٥٩م .

* * *

أكتب هذا وبين يدي خمسة من الدواوين التي جمع فيها صالح جودت نتاجه الشعري منذ بدأ شاعراً قبل أكثر من نصف قرن . وهذه الدواوين هي بترتيب تاريخ نشرها :

(١) صالح جودت : ليالي الهرم . المقدمة ، ص ٥ .

١ ــ ديوان صالح جودت ، وقد طبع سنة ١٩٣٤ م .

٢ ــ ليالي الهرم ، طبع سنة ١٩٥٧ م

٣ ــ أغنيات على النيل ، وقد طبع سنة ١٩٦٢ م

٤ ــ حكاية قلب ، طبع سنة ١٩٦٥ م

٥ ــ ألحان مصرية ، وهو آخر ما صدر من دواوينه ، وقد طبع في أوائل سنة ١٩٦٩م .

ويبدو من مراجعة هذه التسميات أن أول مجموعة شعرية نشرت باسم الشاعر كانت تحمل هذا العنوان « ديوان صالح جودت » .

وكانت تلك التسمية في حد ذاتها تحمل معنى ثقة صاحبها بنفسه ، واعتداده بشاعريته في زمان كثرت فيه تسميات الدواوين بأسماء رمزية جذابة ، وربما حمل الديوان اسم إحدى القصائد الأثيرة التي تضمنها الديوان ، من أمثال : الشفق الباكي ، أشعة وظلال ، أطياف الربيع ، الزورق الحالم ، شظايا ورماد ، قرارة الموجة ، شجرة القمر ، الأوشال ، الشمالة ، اللهب المقفى ، لا مكان للقمر ، المجد للأطفال والزيتون ، الزاوية الخالية ... إلى آخر هذه التسميات التي لا تكشف عن أصحابها إلا إذا كتبت أسماؤهم إلى جانبها .

وذلك يمثل ظاهرة جديدة في تسمية مجموعة الأشعار التي يؤلفها الشعراء في زماننا ، ولم يكن لعالم الشعر العربي عهد إلا بكلمة (الديوان) مضافة إلى اسم الشاعر الذي تنسب إليه .

حقا ، إن صالح لم يلتزم في دواوينه الأربعة التالية بذلك النهج ، فلم يجعل هذه الدواوين أجزاء من ديوان واحد يحمل اسمه . وكان ذلك يدلنا على الثقة والاعتداد بالنفس أو بالشاعرية في أول عهده بنشر مجموعات من شعره ، ولعل ذلك يرجع أيضا إلى ما رآه صالح في تلك السن المبكرة مـن الحفاوة بشعره ، وفسح الصحف والمجلات صدورها لنشر ما يبعث به إليها ، فأحس بشعور الشاب المتطلع أنه شيء في عالم الشعر والأدب ، وأنه ليس في حاجة إلى الأسماء البراقة المعهودة إذ ذاك في أسماء الدواوين ، ليجذب الناس إلى قراءة شعره ، وإلى اقتناء ديوانه ، لأنه كما رأى معروف بينهم ، ولأن شعره محبب إليهم .

وقد نشر صالح ثمرات محاولاته الأولى في ثلاث من المجلات التي كانت تعنى إذ ذاك بالآداب والفنون ، وهي السياسة الأسبوعية ، والصباح ، والبلاغ الأسبوعي . وكان صالح إذ ذاك في العقد الثاني من عمره ، وهو يحكي أن أول ما نشر من شعره كانت قصيدة أنشدها يوم

وفد على المنصورة « يوسف وهبي » على رأس فرقة « رمسيس » المسرحية ، وأن هذه القصيدة أثارت إعجاب الحاضرين ، ونشرتها ثلاث من المجلات الفنية التي كانت تصدر في مصر إذ ذاك . وكان ذلك النشر عاملا من أهم العوامل في تشجيع المواهب النامية في حسّ صالح وفي قلبه ، حتى احتضنت « أبوللو » هذه المواهب ، فزادتها تألقاً ونماء ، لتخصصها في فن الشعر وحده دون سائر الفنون ، أو دون « التنويع » الذي كانت تصطنعه الصحف والمجلات ، لترضي مختلف الأذواق ، ومتباين المشارب والاتجاهات . وسرعان ما أصبح صالح واحداً من شعرائها ، ثم ركنا من أركانها ، ثم شاعراً يتميز بخصائص شعورية وخصائص فنية غلبت عليه، وظلت مميزة لشاعرية صالح منذ كانت إلى هذا الزمان الذي نعيش فيه . وأغلب الظن أن تلك الخصائص ظَلّتْ طابعا مميزا لشاعرية صالح في كل ما أنشد من الشعر .

* * *

عرف الناس « صالح جودت » شاعراً وهو في طليعة الشباب في المرحلة التي تشتد فيها العاطفة ، وتقوى دوافع النفس أمام الذين يستقبلون الحياة ، فتسد أمام أكثرهم أبواب الفكر ، وتتسلط على عقولهم ، فتصدها عن متابعة التأمل والفحص عن الحقائق ، وسبر أغوارها ، واستكناه أسرارها .

بل كثيرا ما تصرفهم دوافع تلك المرحلة عن العمل لبناء الشخصية ، وبناء المستقبل الذي يعتمد على توازن القوى العقلية والقوى العاطفية .

ولكن باباً واحداً هو الذي يُفتح لذوي العواطف الحادة ، وهو باب الشعر والفنون التي يجد أصحابها أو ذوو المواهب فيها المنطلق الفسيح للإعراب عنها ، فيجرون في رحابه مندفعين لا تتعثر خطاهم فيه ؛ لأنهم يجدون من عواطفهم الدفاقة ينبوعا لا يجف مصدره ، ومن مواهبهم الفنية معينا لا ينضب وِرده في هذا الميدان الرحيب ..

وقد غنى صالح في مطلع حياته « أغنية المرأة » .

ولا يزال صالح حتى آخر حياته ينشد هذه الأغنية على قيثارته التي لا تبلى أوتارها ، ولكنها تشتد وتقوى بمتابعة العزف ، ومواصلة الإنشاد .

وفي استطاعتنا أن نقول إن جميع القصائد والمقطعات التي تملأ الدواوين الخمسة التي نشرها صالح جودت هي المرآة الصادقة التي تنعكس عليها صورة صالح ، وتظهر فيها الخصائص

المميزة لشخصيته ، والطابع العام لروحه الشاعرة التي تمتاز بالعاطفة المتوقدة ، والحس المرهف ، والقلب المشبوب .

وتلك سمات طبع عليها صالح ، وغلبت عليه منذ نعومة أظفاره ، ولزمته طوال حياته حتى لفظ آخر أنفاسه ، وبرزت في شعره بروزاً ظاهراً .

ولست ترى تلك السمات المطبوعة فيما تقرأ أو تسمع من شعره فحسب ، ولكنك تراها رأي العين في منطقه وحركاته ، بل إنك لتراها في نظراته ، وفي حركة أجفانه .

ولو أنك أتيح لك أن تستمع إلى صالح وهو ينشد شعره الحلو المستطاب في محفل من المحافل ، أو في ندوة من الندوات ، أو يتحدث في أي موضوع كان في مجلس من مجالسه الخاصة مع أصفيائه – لرأيته يسحرك بوقع كلماته بلذيذ النغم ، حتى لقد يخيل إليك أن شفتيه تقبلان هذه الكلمات ، وتغريان بتقبيل هاتين الشفتين الحالمتين .

ذلك ما رأيته في صالح ، وهذا واقع حديثه في نفسي ، حتى أستطيع أن أقول بأن شعر صالح مسموعاً من شفتيه الحالمتين خير منه مقروءاً في مجلة ، أو منشوراً في ديوان !

وقد غنّى صالح كما قلت « أنشودة المرأة » وظل يرددها طول حياته . ولم يكن صالح أول إنسان استبدت به المرأة ، أو أول شاعر أخلص عواطفه لها ، وقصر شاعريته على وصفها أو التغزل في مفاتنها ، فإن تاريخ الآداب الإنسانية حافل بالشعراء الذين صرحوا بعواطفهم المستعرة نحو بنات حوّاء ، و وصفوا لواعج أشواقهم ، وما يفعل الهجر والوصال في قلوبهم . حتى لقد ذكرها منهم من لم يتعلق قلبه بهوى منها لعرفانه أن ذلك محبب إلى النفوس ، قريب من القلوب ؛ ذلك بأن الحب من أهم العواطف الإنسانية التي تلعب دوراً كبيراً في حياة البشر .

و صالح نفسه يستمتع بنشيد المرأة الذي يعزفه على قيثارة شاعريته ، كما يستمتع به الذين ينشد فيهم هذه الأناشيد ، ويطرب لها كما يطرب المصغون إليها ، ولا غرو في ذلك فإنها روحه يصبّها في تلك القوالب الشعرية الجميلة .

* * *

أهدى صالح جودت كما قدمنا المجموعة الأولى من شعره التي ضمنها ديوانه الأول « ديوان صالح جودت » الذي نشره سنة ١٩٣٤م إلى « العيون الزرق والشعر الذهب » . وإيثاره هذين الوصفين يدل على شغف بمحبوب ذهبي الشعر ذي عينين زرقاوين ، وإن يكن هذا

الوصف شاملاً لكل من كانت هذه صفته من بنات حواء ، ولا يخص امرأة بعينها بدليل جمعه العين بدل تثنيتها ، وبأنه كرر هذا الوصف لمحبوباته في كثير من قصائده التي ضمنها دواوينه التالية .

وأمثلة ذلك كثيرة ، منها قوله في قصيدته « الله أكبر » [1]

يا مستبيحَ شبابِ من النضارةِ أنضرْ
ويا مُذلَّ فؤادٍ من التكبُّر أكبرْ
عيونُكَ الزُّرقُ نامتْ عمَّنْ مدى الليل يسهرْ
طوتْ جفونُك لونًا للظلم يُطوَى ويُنْشَرْ
وشعركَ المذْهبُ اللَّـ ـطيفُ ماثجًا يتبعثرْ

وقوله في قصيدته « شقراء » (ص ٦٨) :

تعاليْ . . أنت يا شقرا ءُ للشاعرِ إلهامُ
على عودكِ يا شقرا ءُ للفتنة أصنامُ
بهِ من ذهبيِّ الشعـ ـرِ تسبيحٌ وأحلامُ
ومنْ سِحر العيون الزُّرْ قِ ألحانٌ وأنغامُ
إطارٌ من بديع الحسْـ ـنِ لم يرسمْه رسَّامُ

وفي قصيدته « راهبة » (ص ٩٤) يقول :

آه من طلْعتكِ الحلوة والوجهِ الصبّوحِ
والعيون الزُّرق تغذو الرّوحَ بالشعر وتوحي
والنُّهود البِكرُ تهتزُّ على عودٍ مليحِ
أنتِ إنْ أقبلْتِ لاح السحرُ أنّيان تلوحي
وبثثْتِ العطرَ والأنغامَ في أرجاءِ رُوحي

وفي قصيدته « القبلة الأولى » (ص ١١٥) يقول :

---

(١) ديوان « حكاية قلب » ص ٦٥ ، وديوان « ليالي الهرم » ص ٢٠ .

وكنتُ يا فاتِنَتِي أحسبُ أن العيونَ الزرقَ لا تكذبُ
قرأتُ فيها أنني نائلٌ من حبّنا فوق الذي أطلبُ
أضلّني هذا الصفاءُ الذي رفّ عليه شعركِ المذْهَبُ

على أن الشاعر لا يقف على ذوات العيون الزرق والشعر الذهبي اللاتي ذكرهن في هذه الأبيات ، وأهدى إليهن مجموعة أشعاره الأولى « ديوان صالح جودت » ، ولا يقفه كذلك على الشقراوات من بنات حواء ، بل هو مفتون بكل أنثى تتاح له رؤيتها ، أو تطارحه الهوى منهن.

فقد تراه يتغزل في بعض شعره بالسُّمر والسُّود ، وبذوات العيون السود أيضاً ، كما نقرأ له ذلك في قصيدته « أحلام المنصورة » التي يقول فيها :

آه ممّا بي ، وهل تدرين ما بي؟ يومَ ودَّعتُكِ ودَّعتُ شبابي !
أين أحلامي على تلك الروابي ذابت الأحلام في قلبي المُذابِ
لي حبيبٌ فيكِ أفديه بعُمري
سُمْرة النيل على خدَّيه تجري
هو إلهامي وأحلامي وشعري
ونعيمي بين عينيه وسُكري
وله نجوايَ في دنيا اغترابي يا تُرى يذكرني بعد الغيابِ
آه ممّا بي ، وهل تدرين ما بي؟ يومَ ودَّعتُكِ ودَّعتُ شبابـي !

ثم يقول في قطعة أخرى من القصيدة مخاطبا المنصورة أيضا ، ويشير إلى بسالة أبنائها في الحرب ، ويشير إلى انتصارهم في الحروب الصليبية ، وهزيمتهم للفرنسيين ، وأسرهم ملك الفرنجة في دار ابن لقمان ، كما يشير إلى سحر نسائها :

يا مُنى الشرق وباريسَ الجنوبِ
مَن كأبنائكِ في غزْو الشعوبِ
شهداء المجـد أبطال الحروبِ
وكعاداتك في غـزْو القلوبِ
بالعيون السودِ واللحظِ اللعوبِ

المنَى بعـدكِ من وهم السـَّرابِ والمنَى في غيـــر لُقيـاكِ تَصَـابِ

آه ممَّا بي ، وهل تدرين ما بي؟ يومَ ودَّعتُكِ ودَّعتُ شبابـي ! [1]

وقد سجل الشاعر هذه القصيدة « أحلام المنصورة » بصورة واحدة في ثلاثة دواوين من دواوينه ، وهي « ليالي الهرم » و « حكاية قلب » و « أغنيات على النيل » ! وظاهرة الإعادة والتكرار وتبادل القصائد بين دواوين الشاعر ظاهرة ملحوظة ، لا ينبغي لنا أن نغفل الإشارة إليها ، ونحن نحاول أن نقدم صورة مستوعبة للشاعر بقدر الإمكان .

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث الألوان التي كانت تبهر صالح جودت ، لنقرأ فتنته بالسمرة واللون الخمري ، وبالعيون السود بعد هيامه بالبيض والشقر ، وبعد شغفـه القديم بالعيون الزرق والشعر الذهبي ، نقرأ ذلك في قصيدته « فتنة المغرب » [2] التي يقول فيها :

ضحَّيتُ بالعمرِ للبيضِ والشُّقْـــرِ

وكُنت لا أدرى أنّـــي سألقـــاكِ

يا فتنة السُّمْرِ بلونكِ الخمـري

قد حيَّرتْ أمري في الحبّ عيناكِ

إلى أن يقول :

تلك العيونُ السُّودْ وليلُهـــا المعبـــودْ

وسحرُها المشهـودْ في جفنك السَّاهِي

* * *

ولا يعنينا شيء من هذه الأوصاف الكثيرة ، ولا من تلك الألوان المتعددة للوجوه والعيون التي يكثر صالح من ذكرها في شعره ، ولكن الذي يعنينا أن نقرره هو ما نستطيع أن نستخلصه من تلك الصور المختلفة التي صورها الشاعر لمحبوباته ، والتي تدل بوضوح على أن صالحاً لم يكن واحداً من العشاق الذين نعرفهم في تاريخ الأدب ممن وقعوا في شرك الحب ، وبرّحت بهم الصبابة ، واستبد بهم الوجد ، وقاسوا مرارة الصد ، وتجرعوا كئوس الحرمان .

(١) ديوان « ليالي الهرم » ص ٧٢ ، وديوان « حكاية قلب » ص ٧١ .
(٢) ديوان « ليالي الهرم » ص ٢٥ ، وديوان « حكاية قلب » ص ٩٢ .

ومن المركوز في الطباع أن الحب الصادق لا يكون في تعدد المحبوبات ، فإن القلب لا يتسع لأكثر من محبوب ، يأسر قلبه ، ويستولى على مشاعره ، ويستبد بهواه ، فلا يحس إلا به ، ولا يحن إلا إليه ، وذلك بعد مشاهد وشواهد تدل على توافق الطباع ، وتآلف الأرواح حتى يرى المحب في محبوبته ما يشفي غلته ، وما يطفئ ظمأه ، وما يكمل به نقصه ، وما تنتظم به حياته ، ويجد في قلبه الفراغ الذي يسعه ، ليملأه ويسكن إليه ، حتى يتمكن فيه.

فهل كان صالح جودت في هواه كذلك ، وهو الذي أكثر من إنشاد أغنية المرأة في شعره حتى أفرط ، وفاضت دواوينه بالحديث عنها ومعها حتى طغت على سائر أغراضه وفنونه طغياناً ظاهراً ؟

وهل نستطيع أن نُسلكه في طبقة الشعراء العشاق الذين عرفهم التاريخ الأدبي ، ونُـلحقه بأمثال جميل بن معمر ، وابن الدمينة ، وقيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وكثيّر ، وابن زيدون وأضرابهم من شعراء الحب المشبوب ، والنسيب الصادق الذين اقترن اسم كل شاعر منهم باسم حبيبته من بنات حوّاء ، فلا يذكر إلا مضافاً إليها ، ولا تعرف إلا به ، حتى صار اسمها ألصق به من اسم أبيه وجده ، حتى قيل جميل بثينة ، وقيس ليلى ، وقيس لبنى ، وكثير عزة ، أما ولادة فلا تذكر إلا مع ابن زيدون ، وأميمة لا تعرف إلا بابن الدمينة ، ولا تعرف مية إلا بذي الرُّمَّة ؟

فأين صالح من هؤلاء الشعراء العشاق ؟ ومن صفيته التي شغفها حبا ، وقتلته بدلها ، واكتوى بنار هجرها ، وأطفأ نار وجده بوصالها ؟

إن الذي يقرأ شعر صالح جودت ، وينعم النظر في غزلياته التي تزخر بها دواوينه كلها بلا استثناء ، يستطيع أن يصف هذه الغزليات كما يبدو لنا بأنها أوصاف لمواقف ، وليست تعبيراً عن مشاعر وعواطف تجاه حبيب بعينه . والفرق كبير بين أدب المواقف وأدب العواطف .

إننا لا نرى في شعر صالح جودت كله هياماً بواحدة من بنات حواء ، آثرها بحبه ، وبادلته ولهاً بوله ، وهياماً بهيام كما نرى بين العاشقين ، ولكننا نرى أعداداً ونماذج مختلفة منهن ، فيهن الذهبية الشعر ، والسوداء الشعر ، وفيهن الشقراء والسوداء ، وفيهن زرق العيون ، وسود العيون ، وفيهن نساء من مصر ، ومن سوريا ، ومن لبنان ، ومن العراق ، ومن المغرب ، بل وفيهن الإنجليزية ، و « الغجرية » !

ولنقرأ معاً قوله :[١]

وانتهينا إلى الحديث عن الحبِّ	فقالتْ في رقّةٍ وحَياءِ
أ تُرى أنتَ لا تزالُ على عهدكَ	تصبو للأعين الزّرقاءِ ؟
وتشيمُ الجمالَ في ذهب الشّعر	فتهفُو لموجه الوضّاءِ ؟
فتحيّرتُ إذ يغالبني الصِّدقُ	و ترنو إليَّ عينُ الرِّياءِ
قلتُ : لا زلتُ .. غير أنّي تغيَّرْتُ	وبات الفؤادُ رَحْبَ الفضاءِ
إنّ قلب الفنّانِ يَسجُـدُ للحسْنِ	بشتّى الظلال والأضواءِ

فأنت ترى أن محبوبته تعرف ولوعه بذاوت العيون الزرق والشعر الذهبي ، ولعها قرأت شعره فيهن ، وعرفت هيامه بهن ، وهي ليست منهن ، كما رأيت تردده في الجواب بين الصدق ، ومحاولة إرضائها ، فلم يستطع أن ينفي هيامه بذوات الشعر الذهبي والعيون الزرق ، وقد عبر عن هذا الهيام في كثير من شعره ، كما أهدى إليهن أول ما نشر من مجموعات شعره .

ومرة أخرى لا حديث عن الشقر ، ولا عن الشعر الذهبي ، ولا للأعين الزرق ، وإنما حديث عن « القمر الأسمر » الذي أبدى غيرته من « القمر الأحمر ».

يقول إنه كانت مع الشاعر « سمراؤه » يوم انطلاق القمر الروسي الأول ، فراح يرقبه في السماء ، فغارت السمراء من القمر الأحمر[٢] يصور الشاعر غيرة سمرائه ، فيقول :

رأتنـي أطـلّ لأفْـق السّمـاء	وأرنو إلى القمـر الأحْمـر
فقالـت : أ يُنسيك هذا الحديـدُ	جنونَك بالقمـر الأسْمرِ ؟
فقلتُ : معـاذَ الهوى أن تَغاري	معاذَ السّنى المشرق النيِّر
وما قدُّهُ فـي حسـاب الجمـال	بألطفَ من قدِّك السّمهري
ومـا وهْجُـه وشعاعاتُـهُ	بأخْطف من طرفك الأحْور
ومـا نـارُه وصواريخُـهُ	بأحْرَقَ مِن صدركِ المثمرِ !

ويظل الشاعر في هذه الموازنات بين القمر الروسي وقمره الأسمر ، ويعجب من غيرتها

---

(١) من قصيدة « أغنيات المساء » ، ديوان « ليالي الهرم » ، ص ٩ ، وديوان « حكاية قلب » ، ص ٤٧ . وقد ذكرنا أن الشاعر كثيرا ما يكرر قصائده في دواوينه .

(٢) ديوان « حياة قلب » ، ص ٧٤ .

الحمقاء من ذلك القمر المصنوع ، مع ما وُهبت من جمال مطبوع ، وفتنة ساحرة ، أجَّجتْ مشاعره ، وأسرت فؤاده ، وينكر عليها هذه الغيرة المجنونة :

تغارينَ مــن قمــرٍ طائــرٍ ... يبيــع الحيــاةَ ولا يشتــري
وأنتِ التي تَهبيــن الحياةَ ... وتمشينَ كالأملِ المُزهــرِ ؟
وكيف تغارينَ من كــوكَبٍ ... يــراهُ ذوو العلــم بالمِجْهــرِ
وأنتِ التي تَملئين الوجــودَ ... بأضواءِ هذا الجمالِ الثَّري ؟

كان فؤاد الشاعر كما وصفه في قصيدته « أغنيات المساء » في الأبيات التي ذكرناها آنفاً رحب الفضاء ، يتسع لكل ما يراه جميلا ، وقلبه قلب فنان يقدس الجمال ويسجد له « بشتى الظلال والألوان » كما يقول !

ويبدو لنا من شعره أنه كان يشعر دائما بالظمأ والحنين إلى الجنس الآخر ، وربما كان هذا الظمأ نتيجة فراغ عاطفي يحتاج إلى من يشغله ، ولذلك كان يطلب الري والسقيا من أي ورد يطفئ غلته ، ويبلّ صداه ، ثم لا يعنيه أن يكون الورد الذي يرده صافياً خالصاً له ، حتى إنه ليرى كل سراب ماء ، وكلَّ بارقة أملا .

وذلك ما نراه رأي العين في غزليات صالح ، أو في شعره العاطفي الذي وصف فيه تجاربه مع المرأة ، ونستدل به على أنه ترك قلبه مفتوحاً على مصراعيه ، يستطيع أن يلجه كل طارق من غير معاناة .

وفي أبيات عنوانها « ظمآن »[1] يعبر الشاعر عما يعتلج في صدره من حرارة الوجد ، ويصرح باللهفة إلى لقاء يخمد به جذوة الأشواق ، ويذهب آلام الفراق ، فيقول مخاطباً « ليلى » ، ولعل « ليلى » اسم رمزي ، وقد قيل « كلٌّ يغني بليلاه » :

أجلْ .. ظمآنُ يا ليلى ... وماءُ الحبِّ في نهركْ
خُذيني في ذراعيك ... وضُمِّيني إلى صدركْ
دعيني أشربُ النورَ الذي ينسابُ مِنْ شَعْرِكْ
ورَوِّي لهفةَ الظمآن بالقُبلة مِنْ ثغركْ

(١) ديوان « حياة قلب » ، ص ٢٨ ، ديوان « ليالي الهرم » ، ص ٢٢ .

هَبِي لي ليلةً أثملُ يا ليلايَ منْ خمرِكْ
تقولين : جمعتَ السِّحْـر يا ظمآنُ في شِعرِكْ
وأنتِ قصيدتي الكبرى ، وهذا الشِعرُ مِن سحرِكْ
كأني راهبُ الفتنةِ يستشهدُ في دَيْرِكْ

وهذه الأبيات من أروع شعر العاطفة وأعذبه وأصفاه ، وأكثره رونقاً وماءً . وهو شعر يبهر برقته ، ويسحر بموسيقاه ، وحلاوة مبناه ، وجمال معناه . ويبدو أن الشاعر أحسَّ بالإبداع الفني في هذه الأبيات ، فنشرها في ديوانه الأول « ديوان صالح جودت » ثم أعاد نشرها في ديوانه الثاني « ليالي الهرم » صفحة ٢٢ ، ثم في ديوانه الرابع « حكاية قلب » صفحة ٢٨ .

غير أن الشاعر يختم هذه الأبيات الرائعة الرائقة ببيتين يقول فيهما :

وقد يُشْرِكُ هذا القلبُ .. إلا بكِ لا يشْرِكْ
على أني عرفتُ اللهَ .. لكنْ حِرْتُ في أمرِكْ

ولا غبار على الشاعر في البيت الثاني من هذين البيتين الذي نقول لعله استدرك به على ما قد يوهم به البيت الأول من توحيد العبد والإشراك بالمعبود ، وذلك ما نستبعده ، لأننا لا نشك في سلامة معتقده .

وإن كنا نتردد في قبول نفيه الشريك عن ليلاه ، لما سبق أن بيناه ، ولشعر كثير سنشير إلى شيء منه فيما بعد .

* * *

قلنا من قبل إن صالحاً كان شغوفا بالمرأة ليملأ بها فراغ قلبه ، ويجد في صحبتها السلوى، وما ينشد من الرّيّ والسقيا ، ليشفي غلته ، ويبل صداه ، وقلنا إنه كان لا يعنيه في سبيل ذلك أن يكون الورد الذي يرتاده لسقياه عذبا صافيا خالصاً له ، أو كان آسنا مطّرحا .. وأدع للقارئ أن يقول ما لا أريد أن أقول !

وفي قصائد كثيرة ، منها قصيدته « بقية قلب » [1] يصرح صالح بهذا الفراغ الذي يحسه، ويصفه بأنه « فراغ كئيب » ويبحث عن الرفيق الذي يملؤه ، لأنه لايطيق يوماً يمضي من

(١) ديوان « ليالي الهرم » ، ص ١٠ ، وديوان « حكاية حب » ، ص ٣٦ .

حياته ، وفؤاده خال من الحب الذي يجد فيه جنته ، وهو يعلم أن نهايته النار ، وإن كنا لا ندري على وجه التحديد ما يقصد من جنة الحب التي تكون النار نهايتها . ونقرأ هذه المعاني في مطلع تلك القصيدة :

أ تحبِّيني ؟ تعالَيْ .. أجيبي	ردِّدي ألفَ مـرّةٍ : يا حبيبي
املئي بالهوَى فراغَ حياتي	إنني كنتُ في فراغٍ كئيـبِ
كلُّ يوم يمرُّ من غير حبٍّ	فمن العمر ليس بالمحسُوبِ
والهوَى جنّةٌ نهايتها النّا	رُ ، ولكِنْ هيهات منها هروبي
طال عيشي بها ، وخُلّدتُ فيها	غيرَ أنّي ضللْتُ فيها دروبي
أوصدتْ بابَها عليّ وقالتْ	لكَ منّي أزاهري ولهيبِـي
فتجرعْتُ منهما كلَّ صابٍ	وتذوقتُ منهما كلّ طيـبِ

هل يريد بالجنة السعادة بالحب ، ومتعة الوصال ، وبرد اللقاء ، والمناجاة بين الأحباء ، في مأمن من الرقباء ، وبالنار ما يعاني المحبون من الوشاة ، الذين يكدرون الصفو ، وتؤدي وشايتهم إلى القطيعة والانفصام ، ومعاناة الشوق ، وعذاب الصد ، ومرارة الهجران ؟

أو لعله يريد بالنار يقظة الضمير التي تؤدي إلى الحسرة والندم على ما فرط في جنب الله ؟

وبهذه المعشوقة الجديدة يحاول الشاعر أن يملأ ما بقي في قلبه من فراغ ، وأن يودع بها بقايا حبه القديم الذي لم يحمد عهده ، فقد غادره بعد تجارب قاسية ، خلفت في أعماقه عداوة لبنات حواء اللائي نقضن عهود الحب ومواثيق الوفاء ، حتى سخط عليهن ، وحاول أن يدرك ثأره منهن ، حتى كان أن أتيح له ذلك الحب الجديد :

بكِ شيّعْتُ طيفَ حبٍّ قديمٍ	ردّني من لَدُنْه غيرَ مثوبِ
كان بيني وبين حوّاءَ ثـأرٌ	مستبدٌّ بقلبيَ المشبوبِ
وصفا الدهُر ليلةً فالتقيْنـا	بعيونٍ كثيرة الترحيـبِ

ثم يلقى صاحبته الجديدة التي فتنته بجمالها الأخاذ ، و وجهها الشاحب ونظرتها المبشرة بالأمل ، و وداعتها وسكونها ، واختيالها في براءة الطفولة ، وتسأله عن حاله ، فيحدثها عن ماضيه ، وعن الحب الذي مني به منذ عهد الصبا ، وأفنى فيه زهرة شبابه ، وقضى حياته في

ظلمات سجنه الرهيب أسيراً لسحر الجمال ، الذي لا يعرف ما تكنّ صواحبه من الكيد ومن ضروب الغدر ، وهو مدلّه القلب ، فاقد الإرادة ، معصوب العينين ، فقد تركن كبده مقروحة، وقلبه مثخنا بالجراح ، أو بالثقوب كما يقول ، ويتوسل إلى صاحبته الجديدة ألا تضيف إلى هذه الثقوب القديمة ثقباً جديداً ، فلم يعد في قلبه موضع لثقب جديد :

وتساءلْتِ : من أنا ، أنا لحْـنٌ عزفَتْهُ يـدُ الشجَـى والوجيـبِ
أنـا روحٌ شقيـةٌ تعشـقُ النّـا رَ ، وتفنَى في لـذة التعذيـبِ
أنـا قلـبٌ محيَّـرٌ دائمُ الخفْـ ـقِ ، قليلُ الرضا ، كثير الوثوبِ
ابتدأتُ الهوَى صبيّـا ، وأفنيْـ ـتُ شبابي في سجنه المحبوبِ
ليت قلبي علـى يـديّ لتلقـيْ صفحةً من شبابـه المنهـوبِ
كان يهوَى الهوَى ، ويخلص للحسْـ ـنِ ، ويمشي بناظرٍ معصـوبِ
كـلُّ ثقـبٍ بـه ، حكايـة حُـبٍّ بدمُوعي وحُرْقتـي مكتـوبِ
لا تُضيفـي إليـه ثقبًـا جديـداً لم يعـدْ فيـه موضـعٌ للثقوبِ

وأخيراً يحذر هذه الصاحبة الجديدة من ثورته العارمة إذا أراد أن يحطم القيد الذي كبلته به بنات حواء ، فقد أصبح بينه وبينهن تارات تنذر بالانتقام الرهيب لقلبه الشهيد :

إنّ في أضلعي بقيّةَ قلبٍ كان في حبِّه شهيدَ القلوبِ

ولقد عبر الشاعر في هذه القصيدة أوضح تعبير وأصدقه عن تلك المغامرات العاطفية التي خاضها مع بنات حواء ، ووصف فيها خلاصة مشاعره نحوهن بعد أن اكتوى بنيرانهنّ .

وفي قصيدته « الماضي » [١] يكشف لنا الشاعر عن سر أفضت به إليه إحدى صواحبه ، التي اعترفت له أنها خاضت تجربة غرامية ، غامرت فيها مغامرة دامية ، وقعت في صباها قبل أن تتصل به ، وقبل أن يتعرف عليها !

وهو في هذه القصيدة يقول إنه يغفر لها جريرتها ، فلتدع حديث الماضي ، لتنعم معه بلذة الحاضر ، ويسألها أن تغفر له كما غفر لها ، ولسان حاله يقول : « كلنا في الهم والبلاء سواء » !

(١) ديوان « حكاية قلب » ، ص ١١٢ .

لا تذكري الماضي ، فما أنا ذاكرُ ... وأَحَبُّ أحلامي إليَّ الحاضرُ
إني غفرت لكِ الذي حدَّثتِني ... عنه فهل لي من فؤادك غافرُ ؟
يا مَن يعذبك الصَّدى ، لا ترجعي ... لخرائبِ الماضي ، وقلبك عامرُ
عيشي مع اللحن الجديد ومتِّعي ... دنيا هواكِ بما يغنّي الشاعرُ
ماضيك لم يخلُدْ وماضيَّ انتهى ... وكلاهما في الحبّ وهمٌ خاسرُ
ماضيكِ ؟ ما ماضيكِ ؟ طيشُ صَبيّةٍ ... بلهاءَ .. يجذبُها الهوى فتخاطرُ
وتعود مثقلةَ الجِراح شقيّةً ... في صدرها بالحبّ قلبٌ كافرُ

ذلك ماضيها ، وذلك وقع حديثها في نفس الشاعر . أما هو فقد أخذ يحدثها عن ماضيه ، كما حدثته هي عن ماضيها . وماضيه سلسلة موصولة الحلقات من تجاربه الطويلة في الهوى، الذي تنقل بين رياضه من خميلة إلى خميلة ، ومن فنن إلى فنن .

ولم يجد في هذه التجارب الكثيرة ما يشبع جوعته ، وما يطفئ غلته ، ويشبه مغامراته بهجوم الذئاب النهمة على فريستها ، حتى انتهى إلى صاحبته ذات الماضي التي رأى فيها حلمه الكبير ، ويعدها بأن يكون حبهما هو حبه الأخير!

ماضيَّ ؟ ما ماضيَّ غيرُ حكايةٍ ... لولاكِ لم يكُ للحكاية آخرُ
لا تسأليني كم عشقت ؟ فإنني ... كان الهوى رَوْضي ، وقلبي طائرُ
ما زال يتنقلُ الهوى وفروعهُ ... فيؤمُّها .. ويضمُّها .. ويغادرُ
لم يُؤوِه في الروض وكرٌ آمنٌ ... أو يُغْرِه بالحبِّ غصنٌ عاطرُ
ولكم شقيتُ به .. فما أنا بالذي ... هانت عواطفُه ، ولا أنا غادرُ
لكنّ جُوعًا للجمال ألمّ بي ... فمضيْتُ في نهم الذئابِ أغامرُ
حتّى عرفْتُكِ ، فاكتشفت حقيقتي ... ورأيتُ أحلامي إليك تبادِرُ
ويقول لي قلبي : هنالك وقفةٌ ... كتبتْ عليك .. هنا الغرامُ الآخرُ

وفي هذه القصيدة وحدها ما يكفي لتأكيد ما قدمناه من حديث عن حب صالح جودت ، وحقيقة غزلياته ، وحقيقة مشاعره تجاه محبوباته اللاتي خصهن بالقسط الأكبر من شعره .

وخلاصة ما نريد أن نقرره مما استخلصناه بعد استقرائنا لشعر صالح جودت أنه لم يكن من

طبقة الشعراء العشاق الذين يعرفهم تاريخ الأدب .

وقد أوجزنا رأينا في شعر صالح جودت الذي أنشده في المرأة ، وقلنا إنه شعر مواقف وليس شعر عواطف . والمواقف تثير انفعالات عاجلة ، ولكنها مؤقتة سرعان ما تذهب بانتهاء ظروفها ، ولكن العواطف تمتاز بالرسوخ والثبات ، ولا تدع لصاحبها فرصة للإفلات منها .

وشعر المواقف فيما نحن فيه هو الذي يقوم على وصف أحوال اللقاء ، وحكاية ما يجري فيه من حوار أو مداعبة ، وتكلف للشمائل الحلوة ، والعواطف الظريفة ، والحركات اللطيفة ، والكلام المستعذب ، والمزاح المستغرب ، وغير ذلك مما يستجلب الأنس والمسرة ، ويستعطف القلوب النافرة ، ويذهب الكلفة والاحتشام بين الطرفين .

وذلك ما رأيناه في شعر صالح الذي أوردنا قليلا منه ، و وصف فيه مغامراته ومراحه وتنقله من غانية إلى غانية .

ومن النقاد من يسمي هذا الشعر غزلاً . وإذا كان لنا أن نشبه صالحاً بشاعر قديم ، فإننا نلحقه بعمر بن ربيعة الذي يتغزل بثمان من الغواني فيما يقال !

أما شعر الحب الصادق ، والعاطفة الراسخة ، فهو ما يخصونه باسم « النسيب » وهو شعر لا يعنى الشاعر فيه بأوصاف الجسد ، ولا المطالب الجنسية ، ولكنه يعنى بوصف ما يكابد العاشق من التوله والكمد وتبريح الصبابه في عفة وسمو ، وهو النسيب العذري الذي تقرأ فيه آثار العاطفة المشبوبة ، وآثار الكبت والحرمان ، ووصف فرحة اللقاء ، ولذعة الفراق ، وترى على أصحابه دلائل الهم والكمد ، وآثار السهد والأرق ، وهم مع تلك المعاناة القاسية يقون عليه في إصرار وتهالك ، حتى تذوي أغصانهم النضرة ، وتجف أعوادهم الرطبة ، وتغشى وجوههم الصفرة والشحوب ، ويبدو عليهم الهزال والنحول .

والنسيب الجيد – في رأي قدامة بن جعفر – هو الذي تكثر فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتتظاهر فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، ويكون فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليس يجمل وصف المحب نفسه بالعزة والكبرياء ، لأنه دائماً ينسى نفسه ، ويفنى في حبيبه .

ويخالف صالح هذا الأصل الذي تراه في أشعار العشاق المجيدين ، أو العشاق الصادقين ،

ونراه يقول لفاتنته في قصيدته « كبرياء »[1] :

أجلْ .. أنت فاتنةٌ .. إنما	أرى عزّة النفس لي أفْتَنَا
وإن كان عندكِ سحرُ الجمالِ	فسِحْرُ الرجولةِ عندي أنا
وإن كثُرَتْ في هواكِ القلوبُ	فذلك من بعض ما عندنا !
وإن غرّروكِ بحلو الشبابِ	فإن الشبابَ سريعُ الفنا

ثم يقول لها :

يحبُّك قلبي ، ولكنّهُ	يخافُ دلالاكِ إنْ أعْلَنَا
وأنتِ المنَى ، غيرَ أني امرؤٌ	يذلّلُ للكبرياء المنَى
ويكرهُ في الحبّ بذْلَ الدموع	وبسْطَ الخضُوع وفرْطَ الضّنَى
إذا المرْءُ هانَ على نفسهِ	لكان على غيره أهْوَنَا
فلا تجعلي من غُرورِ الأنوثةِ	باباً يسدُّ الهوَى بيننَا

ولا شك أن القارئ يفطن من غير حاجة إلى تنبيه إلى أن البيت الذي قبل الأخير مأخوذ من البيت المشهور :

إذا أنت لم تعرفْ لنفسِكَ حقّها هواناً بها كانتْ على الناسِ أهْوَنَا

وقوله في البيت الثالث « فذلك بعض ما عندنا » تعبير عاميّ مبتذلٍ !

* * *

على أن الشاعر الذي لا يتنازل عن كبريائه ، ولا تهون عليه نفسه حتى لا تكون على غيره أهون ، والذي يكره في الحب بذل الدموع وبسط الخضوع وفرط الضنى كما يقول ، يبدو في بعض الأحيان حائراً مضطرباً ، بل إنا نراه ضعيفاً عاجزاً لا يستطيع أن يملك نفسه ، ولا أن يستجمع رأيه ، ولا أن يحزم أمره ، فقد تجتمع لديه أسباب القطيعة ، وصرم حبال الود ، ولا يبقى أمامه مجال للتغاضي عما يرى وعما يعرف ، أو لإحسان الظن ، بل إنه قد يتهم نفسه بالغفلة والجهل والطيش والتهور .

(١) ديوان « ليالي الهرم » ، ص ٥٤ ، وديوان « حكاية قلب » ، ص ٨٧ .

وقد يلتمس لنفسه العذر في ذلك بأنه « غير خبير بالطباع » مع يقينه بخداع صاحبته ، وبعد أن يتبين له كذبها وتضليلها الذي يدعو إلى التنقل من متاع إلى متاع ، ويشبهها بالأفعى المطبوعة على الغدر والأذى .. إلى غير ذلك من الأوصاف التي تدعو إلى التنفير أو التحقير عند عامة البشر ، فما بالك بالشاعر المبدع الموهوب ؟

اقرأ قصيدته « كيف أنسى »[1] لترى مصداق ما قدمناه :

سوفَ أنساكِ ، ولكنْ كيف أنسَى وأنا فـي صبْوتـي أكـــرمُ نفسَـــا ؟
وأنا أضعـفُ مـن غـدْركِ بأســـا ليتني أنسَى .. ولكنِ كيفَ أنسَى ؟

ثم يقول :

غرَبتْ شمس الهوى والليلُ أمسَى وكأنّي فيهِ ما طالعْـــتُ شمسَا
أنتِ يا مـن تفْرغُ الآلامَ كأسَـــا أنتِ يا من تغمر الأحلامَ يأسَـا
سوف أنساكِ .. ولكن .. كيفَ أنسَى ؟

إلى أن يقول :

أنا إنْ لُمتُك في هذا الخداعِ فأنا غيرُ خبيرٍ بالطبـــاعِ !
أنتِ أنثَـــى ، فيكِ آثامُ الأفاعي فيكِ غدرٌ واقتدارٌ وتَـــداع
فيكِ زحفٌ من متـــاعٍ لمتـــاعِ واشتهاءٌ كالثعابينِ الجياعِ
والتـواءٌ خلْتــهُ شوقـــا وأنْســـا وفحيح خلْتهُ نجْوَى وهمسَا
وسمومٌ حفرتْ للحـبِّ رمســـا قال لي قلبي .. لعليٌ أتأسّى
سوف أنساها .. ولكن كيف أنسَى ؟

* * *

على أننا نظلم صالح جودت ظلماً مبيناً إذا نحن قصرنا نظرتنا إلى شاعريته على ذلك الجانب العاطفي من شعره الذي أفاض فيه في التعبير عن تجاربه مع بنات حواء ، ورصد فيه حركات قلبه الهائم ، الدائم الخفق ، القليل الرضا ، الكثير الوثوب ، كما وصفه هو في

(١) ديوان « ليالي الهرم » ، ص ٥٤ ، وديوان « حكاية قلب » ، ص ٨٧ .

قصيدته « بقية قلب » التي عرضنا لها من قبل .

فقد انطلقت هذه الشاعرية في دنيا أوسع من دنيا الغواني الفاتنات ، وفي آفاق أرحب ، حلقت فيها شاعريته الخصبة ، وأبدعت ما وسعها الإبداع .

وأقرب هذه المجالات وأرحبها مجالا العاطفة الوطنية الذي يطالعك في قصائد كثيرة من شعره الذي وصف فيه عظمة مصر وشموخها ، ووصف فيه نيلها المبارك ، وأرضها الطيبة ، وحواضرها العامرة ، ومشاهدها الرائعة .

وقد أبدع في تلك الأوصاف التي رسم فيها لوحات شعرية فاتنة لما رأى فيها من آيات الجمال التي لا يصفها وصفا مجرداً ، ولكنه وصلها بمشاعره ، وتأثيرها في نفسه .

وقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى قصيدته « أحلام المنصورة » . وماكان صالح لينسى المنصورة وقد قضى فيها فترة من شبابه الغض طالباً في مدرستها الثانوية ، وصاحباً لرفقة من شبابها وأدبائها ، ومأخوذاً بمفاتن ظبائها ، وهي فترة غنية بذكرياتها ، قبل أن يشخص إلى القاهرة ليبدأ دراسته العالية في كلية التجارة .

أما القاهرة فقد ظفرت من صالح بعدد كبير من غرر شعره ، وحسبنا أن نشير إلى قصيدتين صاغهما في « القاهرة الجميلة »[1] وعنوان الأولى « هكذا تكلم رمسيس » ، وفي مطلعها يقول :

لبّيْكِ يا أملَ العروبَهْ أفديكِ لا أرجو مثُوبـَهْ

أهواكِ قاهرتي الحبيبـهْ

لبّيْكِ من أغوارِ عاطفتي ومن أعماقِ قلْبِي

أهواكِ يا بنتَ الأكابرِ من فراعنةٍ وعُرْبِ

يا مُلتقى الوجْهين ، يا وعدَ الحبيبةِ والمحبِّ

لا زلتِ بُوْتقةَ الزمانِ يلينُ عندكِ كلّ صلْبِ

ويذوبُ فيكِ العُنصرانِ الطيّبان أرقّ ذوْبِ

ويُطلُّ رمسيسُ العظيمُ عليكِ في عَجَبٍ وعُجْبِ

---

(١) ديوان « ألحان مصرية » ، ص ١٧ ، ٢٢ .

وهي طويلة يختتمها الشاعر بالأشطر الثلاثة التي بدأها بها .

أما القصيدة الأخرى فقد تحدث فيها عن ثلاثة من معالم القاهرة ، وهي المسلة ، والمئذنة ، وبرج القاهرة . وهي معالم متجاورة على الشاطئ الغربي للنيل ، قبالة فندق « هيلتون » على الضفة الشرقية للنيل .

والمسلة والمئذنة وبرج القاهرة رموز لحضارات مصر الثلاث الفرعونية ، والإسلامية ، والحديثة .

ويقول في أولها بعد أن يقسم بأيام طفولته السعيدة في حي « المنيرة » وببيت أسرته القديم في ذلك الحي الذي نشأ فيه وعاش بين جيرة كرام ، ويقسم أيضا بمقام السيدة (زينب رضي الله عنها) بالقرب من بيت أسرته الذي شب فيه ، ثم يخاطب القاهرة فيقول :

كَمْ جُبْتُ آفاقَ الوجُو دِ ، وذقتُ أنعُمَهُ الوفيرهْ
وسَبَرْتُ غَوْرَ بحارِهِ وعلوْتُ ممتطيًـا أثيـرهْ
ورأيتُ طاقاتِ الحضا رةِ في عواصمه الكبيرهْ
وعرفتُ ألوان الحيا ةِ المستطابـة والوثيـرهْ
ومتى ذكرتُكِ هَلَّلتْ عينـي بأدمُعِهـا الغـزيرهْ
وتمثَّلْتكِ فأبصرتْ من بعدكِ الدنيا حقيرهْ
حسْبي من الزّهو المدلّـ ـلِ أنْ أطِلّ على الجزيرهْ

ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نقرر أن صالح جودت في الطليعة من شعراء العربية الذين يجيدون فن الوصف الذي قلّ فيه المبدعون ، فإن له قدرة فائقة على التأنق في رسم لوحات فنية ناطقة في شعره الوصفي الذي تمتزج فيه الأوصاف الحسية بالخيال الذي يتأنق في تأليف صوره المعجبة .

وهو في هذه القصيدة بالذات ، وبعد هذه الأبيات يقدم لنا وصفاً بديعاً ، وتصويراً رائعاً لفتيات مصر ، أو فتيات القاهرة ، وهن يختلن في نضارة الشباب على ضفتي النيل ، يفتنّ بأزيائهن وحركاتهن الغادين والرائحين :

وأرَى بناتكِ في الضِّفا فِ يسرْنَ كالفِتَنِ المثيرهْ
متدلـلات « بالمـلا ية » و « اللّبانَةِ » والضفيرهْ

من كلّ لاهيةِ القَـــوا	م ِ كظبية الوادي غريـــرهْ
تمشي فتنطلـق الخُطــا	نغماً وتشمـخُ كالأميـــرهْ
وكأنّ ماءَ النيلِ ينْـــــ	ـبِضُ في ملامحها السّميرهْ
وكأنما جيتــارُه الـــــ	ـوَلهانُ يُسْمعها خريـــرهْ
وكأنها في عزّ مشْـــــ	ـيتها « نفرتيتي » الصغيرهْ
لم لا تُدِلُّ وحولها التـّـ	ـاريخ مؤتلـق المسيـــرهْ
وهنا الحضارتُ الثلا	ثُ هواتفٌ بأجـلّ سيـرهْ
فهُنا المسلّةُ تمنحُ الـْـ	ـوادي من الماضي عبيرهْ
وهجُ النقوش على جـــوا	نبها كأضــواءِ الظهيـــرهْ
وهناكَ مئذنةٌ لِعرش اللـ	ـــــهِ ناظـــرةٌ مشيـــرهْ
وهنالكَ البرج الكبيـــــ	ـــرُ يدورُ دوْرته الجهيرهْ
ليقصّ قصّـــةَ جيلنــــا	وحديثَ وثبتنــا الأخيـرهْ
تلك الحضــاراتُ الثــلا	ثُ هنا موحــدةَ الوَتيـــرهْ
في هذه العمد الثـــلا	ثةِ سرٌّ وحدتهــا الأثيـــرهْ
ســـرُّ امتـــداد وُجودِهـــا	عَبْرَ القــرون بــلا نظيـــرهْ

ولا شك أن القاهرة كانت جديرة بهذه المشاعر التي عبر عنها الشاعر في هذا الشعر وغيره ، فقد اكتمل فيها نضجه ، وبنى فيها مجده ، وبزغ فيها فجره ، وحلق في سماء الأدب ، ورددت محافلها أصداء شعره ، ودوّى اسمه حتى عرفته المنابر في أرجاء الوطن العربي ، وأصبح واحداً من أعلام الشعر المعدودين والأدباء المذكورين ، وتبوأ أرفع المنازل في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وفي رياسته لتحرير مجلة « الهلال » التي نهض بها ، وأعاد إليها شبابها .

وكذلك كان للإسكندرية حظها من نتاج هذه الشاعرية الفياضة ، وللإسكندرية بحرها وشاطئها وسحرها وذكرياتها في أعماق كل من يقصدها زائراً أو مصطافاً .

وفي قصيدة طويلة أوحتها إحدى المناسبات القومية التي سنذكرها فيما بعد يبدؤها الشاعر

بهذه الأبيات التي يصف شيئا من ذكريات صباه على شاطئ البحر ، والسعادة التي كان يجدها على ذلك الشاطئ الجميل مع لداته وصحبه ، فيقول :

إسكندريّةُ ، فيكِ الريُّ والظمأ بأيّ قصةَ حبٍّ فيكِ أبتدئُ ؟
أ قصّةُ الحبِّ طفلا في ملاعبه ما همَّ أترابه الدنيا ولا عبئوا ؟
أيامَ كنّا نرى الحرمانَ معصيةً ونأخذُ اللهوَ كلاًّ ليس يُجْتَزأ
ونجعل الرملَ قصرًا ثم نهدمُهُ ونركبُ الموجَ عرشاً ، ثم ننكفئُ
وَلّتْ طفولتُنا كالحلم مسْرعةً ودَبَّ من بعدِها المستقبلُ اللكِئُ
جاء الشبابُ ، وكنّا في ملاءته نلهُو فنغلو ، وتَسْتَشري فنجترئُ
أمّا الشبابُ فقد فضّت موائدهُ وما تخلّف إلا الجوعُ والظـمأ

وقد سقنا هذه النماذج من شعر صالح الذي أشاد فيه بتلك الحواضر المصرية إلى جانب ما أشاد به من أمجاد مصر وحضارتها العريقة ، ومشاهدها الأنيقة ، ونيلها العذب الفياض ، ورياضها الفينانة ؛ لنؤكد تعلقه بهذا الوطن الذي درج على أرضه ، وحقق فيه ماكان يطمح إليه أمثاله من الأماني ، وليؤكد به شعوره بالانتماء إلى هذا الوطن ، وإلى أهله الطيبين الذين عاش بينهم ، بالرغم من أرومته التركية ، وهو القائل في مصر :

مصُر التي تهبُ البنين لكل مكرمةٍ ونصرَهْ
النيلُ يجـري في سمات شبابها نُبْلاً وسُمْرَهْ
وطني ، ونجواه الذكيّةُ في دمي ، في كلّ قَطرَهْ
إني رجعت إلى ثراه أضمُّه وأشمُّ عطرَهْ
وهُرِعتُ للبحر الحبيب و رمله ، ولثمت ثغرَهْ [١]

يذكر صالح جودت[٢] أن جده « إسماعيل جودت » كان تركيا عاش في مصر فأحبها ، وآثرها على كل بلاد الدنيا ، ولما شبت الثورة العرابية كان في طليعة المستجيبين لها والمنضمين إليها ، وسيق إلى المحاكمة ، وقضي عليه بالنفي إلى السودان ، ثم إلى إستانبول ليكون تحت

---

(١) من قصيدة « بلقيس » ديوان « ألحان مصرية » ، ص ٣٤ .

(٢) مقدمة ديوان « ليالي الهرم » .

العيون والأرصاد ، وفي إستنبول ولد أبوه وعاد معه إلى مصر بعد انقضاء مدة الحكم .

ويبدو أن لمصر سحراً عجيباً يشد كل وافد عليها ، وينسيه أهله وبلده ، ولا يبغي بغيرها بديلا . وتلك حقيقة يقررها الأديب الكبير المرحوم « يحيى حقي » في قوله عن نفسه « أنا صحيح من أصل تركي ، ولكن هذا البلد الذي يسمى « مصر » له قدرة غريبة على الامتصاص والاستيعاب لكل أجنبي عنه بحيث لا يستطيع الفكاك منه ، ففيه سر من الله لا نعرفه . ولذلك لو عصروني في معصرة قصب فلن تخرج مني نقطة تركية . فأنا مصري مائة في المائة ، بل أكثر من المصريين مصرية .»

* * *

ولم تكن إشادة صالح بتلك الحواضر المصرية ، و وصف ما راقه من مشاهدها كل ما يدل على تعلقه بهذا الوطن الذي نشأ فيه ، وحقق فيه ما كان يصبو إليه من مطامح وآمال ، وعلى شعوره الصادق بالانتماء إلى هذا الوطن وأهله ، بل إننا نجد في شعره ما يرفعه إلى مستوى من عرفنا من كبار شعراء الوطنية في تاريخنا الأدبي قديمه وحديثه على السواء .

وقد نقرأ في هذا الشعر وصفاً آسيا حزينا لما ترزح تحته طبقات من هذا الشعب المصري من الأعباء الثقال ، وما تعاني في حياتها من علل وآفات ، ونراه يحس إحساساً عميقاً بما يئودهم ، وما يكدر صفو حياتهم من شظف العيش ، ومن استبداد الحاكمين ، ترى ذلك واضحاً في مثل قوله [١] :

أيا شمعةً عند كوخي الحقير.. وراء المجاهل في قَرْيتي
أذوبُ من النار .. نار الشقاء .. كما ذبتِ بالليل يا شمعتي
وعشرون مليونَ نفسٍ كنفسي يذوبونَ مِثلي من الحسْرةِ
همُ أهلُ بيتي .. هُم والدايَ .. همُ ولديَّ .. همُ إخوتي
حَظائرنا تجمع الآدميَّ بجنْب السوائم في الغرفةِ
جلابيبُنا كاحتباس الدماءِ يلوِّنها العُدْمُ بالزُّرقةِ
وأقواتُنا من عـروق « السَّريسِ » ومشربُنا من فم الترعةِ
نعبٌّ من الدّود والطين ماءً يحيل الوجوهَ إلى الصُّفرةِ

(١) مطلع قصيدة « نشيد الثورة » من ديوان « ليالي الهرم » ، ص ٧٤ .

ولقمتنا لقمةُ الأشقياءِ .. وقد لا نمتّعُ باللقمةِ
وفينا الذي ينبش الفَضلاتِ يفتش عن كِسْرةَ الكِسْرَةِ
ولكننا معشرَ المؤمنين نجلّ الإله على النعمةِ
تمرُّ القرونُ وراء القرونِ .. وشعبي أسيرُ العُبودِيَّةِ
يجيءُ الغزاةُ ، ويأتي الولاةُ ، ويمشي الرُّعاةُ على هامتِي

ذلك صالح جودت الذي أنسته مصر أرومته التركية التي لم يعد يذكرها ، ولم تنسه حياته الناعمة المترفة التي كان يحياها في القاهرة ما يعانيه فريق من أبناء مصر من شظف العيش وخشونة الحياة في القرى المصرية البعيدة . فقد تسلل بمشاعره الجياشة ، وبصيرته النفاذة ، وحسه المرهف إلى أعماق تلك النفوس الصابرة ، وعبر عن حظهم المنكود ، وواقعهم الأليم ، وكأنه واحد من أولئك المعذبين في الأرض الذين أضناهم الفقر ونهكهم المرض ، فوصفهم ذلك الوصف الصادق ، ورسم لهم بشاعريته تلك الصورة الواقعية الغائمة التي تأسى لها القلوب ، وتستنزف العبرات .

وما أشبهه في هذا الإحساس بشاعر الكوخ « محمود حسن إسماعيل » ، وليس أدل من هذا على تأصل الروح الوطنية في أعماق الشاعر ، حتى غلبت عليه ، ونقلته من برجه العاجي إلى تلك البقاع النائية ، والأكواخ المتداعية ، وإلى تلك الأرواح المتهالكة ، وإلى تلك الحياة الحالكة السواد .

* * *

ولا يتوقف الشاعر عن الإشادة بأمجاد مصر وعظمة تاريخها ، وبطولة أبنائها والتصدي لأعدائها في قصائد تثيرها مناسبات وطنية ، وتفجر مشاعره نحو هذا الوطن الذي توغل حبه في أعماق نفسه .

اقرأ قصيدته الثائرة التي يدل عنوانها وحده « اخرجوا من بلادنا » على مشاعر السخط على الإنجليز الذين احتلوا مصر ، وكلما هب المصريون لاستخلاص حقوقهم في السيادة على وطنهم ألهوهم بالأماني ، وكالوا لهم الوعود المعسولة الكاذبة بقرب يوم الجلاء الذي ينشدونه، ثم لا يزدادون إلا علوا في الأرض ، واعتداء على الحرمات ، وفتكاً بالأبرياء . يقول في مطلعها :

لا تُدلّوا فإننـــا لا نـــذلُّ مرحباً بالخطوب مهما تجلُّ
قد فَرضتُم عهدَ الصّديق علينا فَرضينا به ، و في النفس غِلُّ
وَ نَمانا لكم بسود اللّيالــي قسمٌ كاذبٌ و حِلفٌ مضلُّ
هل نسيتُم لدِنْشـوايَ حديثاً شهداءُ الحمى عليه سِجِلُّ
وكتاباً مطـــرّزاً بالدنايـــا كلّه خسّة و غدر و ختلُ ؟
لم تزلْ صيحةُ السياط تدوّي لم تزلْ صرخةُ المشانق تعلو
لم تزلْ صفحة المظالم فيها مِلؤُها لوعةٌ و يتمٌ و ثكْلُ

ثم يذكر أولئك الكاذبين الذي ينقضون عهدهم في كل مرة بما أصابهم من البلاء في الحرب العالمية الثانية ، وما قاسَوا من الويلات في الصحراء الغربية ، وما ذاقوا فيها من الهوان في « طبرق » على يد القوات الألمانية ، عند حدود مصر الغربية ، وكيف ساندتهم مصر في تلك المحنة التاريخية ، فيقول :

وَيْحَكمْ ، طالما نحاول أنْ نَنْـ ـسَى فنلقى الآثامَ منكمْ تُطِلُّ
كلّما جفّت الدماءُ اعتراكمْ ظمأٌ للدمـاءِ ليـس يُبَـلُّ
رحم الله « طبرقاً » إنّ فيها ذكريـاتٍ لنـا تمـرُّ و تحلـوُ
كمْ سمعنا عويلكم في رُباها و شهدنا نهارَكمْ وهـو ليــلُ
يومَ هُنْتُمْ ، طعامكم من ترابٍ و الشرابُ المريرُ دمـعٌ و مُهـلُ
وشكوتم لنا ، فقمنا إليكمْ و أمِنّا لكمْ ، و قلنا « لعــلُّ »
ومسحْنا لكم دموعاً ، و قلنا إنهم آمنوا وصاموا وصلّــوا
وقطعْنا من عَيْشنا ، و وصلْنا عيشكم في النّزال حتى تظلُّوا
لو نقضْنا عهودنا يومَها لم يبقَ منكم على البسيطة ظلُّ
غير أنّا شرق ، وللشـرق عهدٌ وبأبنائـــه وفـــاءٌ و نُبْـلُ

ولا يفوت الشاعر أن يضرب الأمثال ببعض ما عانت شعوب منيت بالاستعمار البريطاني من البغي والعدوان ، وتضييع الحريات ، وسفك الدماء ، وإحداث الفتن بين أهليها ، لتفريق صفوفها ، وتمزيق وحدتها في الهند وفي إفريقية وفي فلسطين ، فكيف يأمن المصريون

غدرهم ؟ وكيف يصدق الأحرار وعود الإنجليز ، وهم أهل الخيانة والغدر ، بأنهم سيجلون عن مصر العزيزة بعد ستين وعداً من وعودهم الكاذبة المضللة ؟

أيها الباذلون ستّينَ وعداً كلّها حيلةٌ وخبثٌ ومطْلُ
شعبُ « ماو ماو » يشتكيكم إلى اللـ ـهِ ، وصوتُ الضعيفِ بالحقِ يعلو
وفلسطينُ ، ما لها لقّبْتكُمْ بيهودِ اليهودِ ؟ أنتمْ أذلُّ
وبنو الهند عهدُكم في حماهمْ كلُّه فُرْقَةٌ وجوعٌ وجهلُ
اجترأتُم على الشعوب ، فأنتمْ في صدورِ الشعوب سمٌّ وسُلُّ
وحكمتمْ على الوجود مدى الأجيـ ـال لا يرتقي ولا يستقلُّ

ثم ينتقل إلى تهديدهم بما سيصيبهم من الضُّر إذا أصروا على البقاء ، فلن يطيب لهم مقام في مصر ولا في السودان الذي يدَّعون الوصاية عليه ؛ لأن أهله في نظرهم ليسوا أهلا للاستقلال أو حكم أنفسهم بأنفسهم ، فيقول :

أُخرجوا من قناتنا [1] فهي منّا وإلينا ، وبالجلاء تُحلُّ
إن رضيتم به خرجتم كراماً أو أبيْتُمْ فثمَّ روْعٌ ووَيْلُ
أُخرجوا من بلادنا ، واتركونا واحملوا جندكم عن النيل واجْلوا
ما بمصرَ لكَم مُقامٌ ولا السُّو دانُ فيه للأجنبيِّ مَحَلُّ
ادّعيتُم حقَّ الوصيِّ عليه ضلّ ما قلتُمُ ، فما هوَ طفلُ
وإذا كان ناشئا فلهُ في مصرَ أمٌّ ، وفي الكنانة أهلُ
قد نمانا له كتابٌ ودينٌ ودمٌ واحدٌ ونيلٌ وأصْلُ
نحنُ أدْنَى له ، وأحنَى عليه من غريبٍ لخيرِه يستحلُّ
وخلافاتنا قَضِيَّةُ بيتٍ ولها في موائدِ البيت حَلُّ
نحن شعبٌ موحّدٌ عقدته من يد الله عقدةً لا تُحلُّ

وقد يخيّل إلى القارئ أننا أسرفنا في التمثيل بهذا الشعر الذي يبدو كثيراً من قصيدة واحدة ، ولكننا عمدنا إلى ذلك لتقرير مشاعر صالح نحو أولئك الدخلاء الذين احتلوا مصر ،

(١) قناة السويس ، وكان الإنجليز يقولون إنها طريقهم إلى الهند وإلى مستعمراتهم في آسيا .

ولا يريدون الجلاء عنها ، وكان إذ ذاك يعبر عن مشاعر كل مصري صميم نحو أولئك الدخلاء الطغاة ؛ لأن هذه القصيدة جماع تلك المشاعر الوطنية الصادقة ، وقد أخلصها الشاعر لهذا الغرض من أولها إلى آخر بيت فيها ، ولم يخرج عن الإطار الذي رسمه لها من حيث وحدة الموضوع ، ولم يخرج في بيت واحد منها عن الغرض الذي قصد إليه .

على أن لصالح كثيرا من أمثال هذه القصيدة ، إلى جانب ما نراه في أحيان كثيرة من شعر يخلط فيه هذه المشاعر الوطنية بما يعبر به عن خلجات نفسه ونوازع قلبه بما يفتنُّ في وصفه ، ويبدع في تصويره ، كما نقرأ ذلك في قصيدته « ليالي الهرم » التي يبدؤها بمناجاة حبيبه ، حيث يقول [1] :

يا حبيبي نامت الشمس وراءَ الهرَم ِ … وتهادَى القمر النشوانُ بين الظُّلَم ِ
مَلِكاً يختالُ تيهاً فوق عرض الأنْجُم ِ … وينادي كلَّ لهفانَ إلى الحبِّ ظمي
ها هنا مهدُ أبي الهول هنا … كاتمُ الأسرار من عهد « مِنَا »
هيّأ الأحلامَ والنجوى لنا … عبقريُّ الصمت منذ القِدم ِ

ثم يأخذ في الحديث عن روعة الآثار الرابضة في ربوة الأهرام لم تنل منها يد الزمان ، فقد كانت معجزة الفراعين التي صدت جحافل الغزاة من الفرس والروم والفرنسيين ، وبقيت أعلامها شامخة مرفوعة تتحدى المغيرين والطامعين ، لقد ذهب أولئك الطامعون ، وتقوضت حضاراتهم ، وبقيت هذه الرموز مشيرة إلى أمجاد الذين بنوها من قدماء المصريين :

يا حبيبي هذه الربوةُ لغزُ العالمينْ … رقيةٌ من سحر فرعونَ لصدِّ الفاتحينْ
أين قمبيز وأنطونيو وركْبُ الواهمينْ ؟ … أين نابليون ؟ هل ردّتْه مرفوعَ الجبينْ
هذه القمةُ أمُّ القمم ِ … كم طوتْ ثورتُها من أمَم ِ
وشدا النيلُ بحُلْو النغم ِ … زالت الأعلامُ إلا عَلَمي
يا حبيبي هذه أمجادُ مصرَ الساحرهْ … كلّ روح خطرتْ فوق رُباها شاعرهْ
قِفْ على الرّبوةِ في ضوءِ النجوم الزاهرهْ … وتأملْ فتنة النيل وسحر القاهرهْ
وسَنَى البدر على الوادي يميلْ … والهاً يلعبُ في شَعر النخيلْ
راقصاً في مسرح الموج الجميلْ … بشعاع ٍ عَبقريٍّ مُلهم ِ

فتمتّعْ بليالي الهرم ِ

أوردنا من قبل أبياتاً من قصيدة همزية طويلة حيا فيها الشاعر مدينة الإسكندرية ، وقلنا إنه أنشد هذه القصيدة في إحدى المناسبات القومية ، وهي في الواقع مناسبة أليمة ، روعت جنان كل عربي أصيل من الذين كانوا يحلمون بوحدة العرب ، ويرونها هدفا لا بديل عنه في مكافحة الاستعمار والقضاء على أعوانه من العملاء والخونة المارقين الذين ارتموا في أحضانه ، وباعوا ضمائرهم للشيطان .

وقد تحققت آمال العرب في تلك الوحدة للمرة الأولى في التاريخ المعاصر بين مصر وسوريا ، ولكن هذه الوحدة لم تلبث أن انفصمت عراها ، وأجهضت معها آمال الأمة العربية.

وقد صادف هذا الحدث الخطير انعقاد مؤتمر الأدباء العرب ومهرجان الشعر في مدينة دمشق ، وأرغم المؤتمرون وفيهم البلبل الصداح صالح جودت على الرحيل من سوريا إلى لبنـان ، ثم استُبدلت مدينة الإسكندرية بدمشق ، وتلك هي المناسبة القومية التي أنشد فيها صالح تلك القصيدة التي عد فيها جريرة الانفصال خطيئة كبرى في قوله مخاطباً الإسكندرية المقر البديل لانعقاد المؤتمر ، فيقول :

إسكندريـــةُ ، عفـواً عن خطيئتـنا ويجملُ العفوُ إما يكـبر الخطــأ
كم مهرجانٍ أقمناه على « بَرَدَى » قد كنتِ أولى به لو أنصف الملأ

ويمضي الشاعر في الإشادة بأمجاد الاسكندرية وتاريخها الحافل منذ أنشأها الإسكندر الأكبـــر ، وظلت مشاعل الحضارة تبعث بأضوائها الكاشفة على القارة المظلمة ، حتى يعود إلى الكارثة التي هزت مشاعره ، فيخاطب دمشق قائلا :

ويا دمشقُ عتابًــا ، إنّ وحدتنـــا لما يزلْ جـرحُها يدمي وينتكـــئُ
ذكرتُ يومَكِ ، والأخلاقُ مطرقـــةٌ من الحياءِ ، ونورُ الشمسِ منطفــئُ
جئناكِ أهلاً فلم تنزلْ أواصرُنـــا سهلاً ، فرُحْنا إلى لبنانَ نلتجــئُ
لَفظْتِنا ، هل لَفظتِ المعتدين على حقِّ الحياةِ وما استحيَوا وما ربَئُوا ؟
وهلْ لفظتِ الرُّشا والمرتشين ومَنْ خانوا الرسالةَ إذ أثرَوا وإذ دَفئوا ؟
وهل لفظتِ يهودَ الأرض من وطنٍ أمسَى حلالاً لمن تاهوا ومن طرءوا ؟
يا قطعةً من ضميري ، كيف أنكرُها وإنْ أظلّتْ من ارتدّوا ومن صبَئوا !

ويغالب الشاعر الرقيق الإحساس بهول الصدمة التي قصمت ظهور العرب وبددت أحلامهم ،

فقد كانوا يعلقون على وحدة مصر وسوريا أعظم الآمال ، ويرونها اللبنة الأولى أو المقدمة لوحدة كبرى تجمع شتاتهم ، وتضم شمل الأمة كلها من المحيط إلى الخليج ، فتراه ثائراً يعنف أشد العنف في خطاب أولئك الذين قتلوا الوحدة في مهدها ، وأحيانا يرق ويلطف ، ويكتفي بعتاب يجدد الآمال على أيدي الأحرار من شباب سوريا ، فيقول :

دمشقُ ، يا معقــلَ الأحرار معـذرةً   إنْ لُمْتُ فيك أناساً رأيهمْ هـزُؤُ
الرأيُ حتميـة التاريـخ تفرضُـــهُ   وليس يفرضهُ مَـنْ طالما شَنِئـــوا
عوَوا على الجبل العالي ، فهل جهــ   ـلوا أنّ الكلاب كلابٌ أينما وَطِئوا ؟
إنْ كنتِ أظهرْتِ نكرانا لوحدتنـــا   فأعمقُ الحبِّ ما يخفَـى ويختبـئُ
وفي حماكِ شبابٌ في عروبتهـــمْ   عن سُنّةِ الحقّ ما حادوا ولا نتئـوا
غداً سيشــرق فجـرٌ لا يفرّقنـــا   فيه عن الزحف من ضلّوا ومن خسِئوا
لا يصلح القومَ فوضَى لا سَراةَ لهمْ   إلا الثعابينُ والجُــرذانُ والحِــدأ
قضية الحق لا تخلـــو نهايتهـــا   إلا لمن نــذَروا لله مــا بــدءُوا

وقد أملت هذه المعاني تلك الروح القومية التي أخلصت لوطنها ، وصدقت الولاء لعروبتها.

* * *

تلك جريمة الانفصال التي أثارت شاعرية صالح جودت ، فانطلقت بهذه المعاني العاصفة الغاضبة التي تشبه الشرر الذي يتطاير من النيران المتأججة ، أو الحمم التي تفجرها البراكين ، تحمل عواطفه الوطنية ، والأحاسيس العربية التي فاض بها هذا الشعر الذي عبر فيه عن سخطه وسخط الجماهير العربية في كل مكان .

ونقرأ في آخر ديوانه « ألحان مصرية » قصيدة حزينة ثائرة عنوانها « لا وقت للحب » ، وفي أولها يقول :

تتساءلينَ لِم انثنى قلبي ؟   يا طفلتي ، لا وقت للحبِّ
لا تسألي ما خَطبُ قصّتنا   وتأمّلي ما جدّ من خطبِ
ما عاد بي شوقٌ أكابدُهُ   وأنا أكابدُ محنة الشَعْبِ
أ أحبّ والعدوانُ في وطني   متوغلٌ كالشوْكِ في جنبي
وكرامتي في البيد نازفةٌ   نوّاحةٌ لكرامة العُرْبِ ؟

ما ذلك الخطب الجلل الذي دَهَى الشاعر حتى لم يعد يجد معه وقتاً للحب ، ولا وقتا يصف فيه مشاعره تجاه حواء التي خصها بالحظ الأوفى من شعره ؟

إنه خطب أمته وشعبه ، ومحنة الوطن الذي ابتلي بعد بضع سنوات من كارثة انفصام عرا الوحدة بين مصر وسورية بكارثة أشد هولا ، وهي هزيمة الجيوش العربية أمام جيش العدو الرابض على أرض فلسطين (١٩٦٧ م) . وقد شعرت الأمة العربية في مختلف أقطارها بالخزي والإحباط في الوقت الذي كانت تحلم فيه بطرد اليهود ، وتطهير أرض فلسطين من رجسهم وشرورهم ، وعودة الأرض السليبة إلى أهلها عرب فلسطين .

ومن الطبيعي أن تكون تلك الكارثة أشد وقعاً على نفوس العرب ، وأن تثير مشاعر عامتهم وخاصتهم ، وانطلق الشعراء يبثون أشجانهم في شعر حماسي غاضب ، وأن يكون في طليعتهم شاعرنا الذي يقول بعد تلك الأبيات ، يتأوه من جراحه التي هي جراح مصر ، وجراح أمته العربية التي لم تكن تتوقع مثل هذه الهزيمة المنكرة على أيدي شذاذ الآفاق الذين استهنا بقدراتهم ، وغلونا في الاعتداد بقوتنا :

أواه من جرحِي ومِن خَجَـلِي ⁂ ومِن الشُعور بعقدةِ الذنْبِ
ذنْب الملايين التي جمعتْ ⁂ أحلامها وتلفّتتْ صوبِـي
ذنْب المساكين الألى احتشدوا ⁂ وتأهبــوا لمسيــرة الأوبِ
ذنبي أنا ، إذ ندّ عن حذري ⁂ غدر اليهود وخدعة الغَـرْبِ

ثم يعود إلى فتاته ليقول لها :

يا طفلتي ، لا وقتَ للحبِّ ⁂ لا وقتَ للآهاتِ والعتْـــبِ
أ فما تريْنَ الشجوَ في نغمي ؟ ⁂ أ فما ترَيْنَ الشوكَ في درْبي ؟
فبأيّ وجْه ألتقيكِ ، وقــد ⁂ مَرّغتُ هذا الوجهِ في التُرْبِ ؟

ويمضي الشاعر في ذلك السياق حتى ينهي هذه القصيدة الطويلة في وصف مأساة الهزيمــة ، وتجربتها المريرة ، وقد عبر فيها عن مشاعر حزنه العميق الذي لا يحسه إلا أولو الحمية والغيرة على شرف أمتهم وكرامتها .

* * *

وبعد ، فإن حلاوة هذا الشعر تغري بمواصلة قراءته ، والفحص عن أسباب جودته ، وآيات الإبداع فيه ، والكشف عما فيه من آثار الملكة المطبوعة ، والصدق في العبارة عن المشاعر الصادقة التي أفصح عنها الشاعر في هذه القوالب الممتعة ، الآسرة بموسيقاها العذبة ، وألفاظها الرقيقة ، وعباراتها السليمة التي لا تلحظ فيها شيئا من آثار التكلف أو الافتعال .

وليس يفوتنا التنبيه على أن شاعرية صالح جودت بدأت تؤتي ثمراتها الناضجة في أوليات العقد الرابع من هذا القرن ، في الفترة التي شهدت انبعاث حركة الشعر الجديد التي أخذت تنمو وتنشط ، وكثر المتأثرون بها والموالون لها من شعراء العصر ، ولكل جديد لذة ، حتى كان لها دعاة وأنصار في مصر وفي بعض المواطن العربية ، يدعون إليها في حماسة وإصرار ، ويهاجمون المتمسكين بتقاليد الشعر العربي وأنساقه المأثورة . وكانت بين الفريقين حرب شعـواء .

وكان العقاد على رأس أهل الحفاظ على ماهو مأثور من أوزان الشعر العربي وانتظام قوافيه ، ومثله في تلك الغيرة على المأثور صالح جودت الذي لم تبهره أضواء الجديد ، فلم يركب الموجة التي تشبث بها غيره ، بل إنه هاجمها في شعره وكتاباته هجوماً عنيفاً ، وناصب أصحابها العداء .

وقد لخص صالح رأيه في الشعر في هذه الأبيات :

الشعرُ . . إنَّ الشعرَ إلهامٌ وأنغامٌ وفكرَهْ

الشعرُ . . إنَّ الشعرَ ميزانٌ وبُنْيانٌ وقُدرَهْ

الشعرُ . . إنَّ الشعرَ إيمانٌ وبُرهانٌ وعِبْرَهْ

الشعرُ . . لولا الشعرُ ما شبَّت على الطغيانِ ثورهْ

وهي آخر الأبيات التي أنشدها في قصيدته « بلقيس » وألقاها في مهرجان الشعر الخامس الذي عقده بالإسكندرية سنة ١٩٦٣ م .

وقبل هذه الأبيات أبيات سخر فيها الشاعر من دعاة الشعر الجديد الذين وصفهم بالعبث ، وأنهم حُرموا القدرة على تأليف الشعر السَّويِّ ، وحاول المغمورون منهم أن يكون لهم ذكر في عالم الشعر ، فابتدعوا فيه هذا الجديد الذي خرجوا فيه على التقاليد الأصيلة في الفن الشعري، فيقول :

عُدْنـــا ، وعـاد المهرجانُ يزفُّ موكبَهُ وشعــرَهْ
الشعـر ، لا الشعْر الجديدُ المستبيحُ لكلِّ عورَهْ
لا ما يقول العابثون بكـلّ قافيــةٍ وشطـــرَهْ
من كل مغمور يهبُّ بغير موْهبةٍ وخبـــرَهْ
أو كلّ مأجورٍ يذبّ وفي يَديه خضابُ خمـرَهْ
أو كلّ مغرورٍ يديرُ إلى عمود الشعــر ظهـــرَهْ

وقد عُرِف صالح بلين الجانب ، ورقة الشعور ، ودماثة الطبع . وهي صفات قربته إلى قلوب الناس الذين رأوا صفاءه ، وقدروا وفاءه ، وبادلوه حبا بحب ، و وفاء بوفاء .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن لصالح خصوم وأعداء ، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا خصوماً لشخصه الذي عرف بتلك السجايا ، ولكنهم كانوا خصوماً لرأيه في الشعر الجديد الذي يسمّى « الشعر الحر » ، وهو رأي اعتنقه وأصر عليه طَوال حياته بالرغم من انتسابه إلى « أبوللو » وهي إحدى مدارس التجديد في الشعر العربي ، وظل على هذا الرأي طوال حياته ، ولم يكف عن مناوأة دعاته الذين أعلنوا ثورتهم على موسيقى الشعر التقليدية المتمثلة في أوزانه وقوالبه الموروثة ، وتمردهم على النظام الموحد المعروف . وقد رأى صالح في هذه الثورة تحطيما لعمود الشعر ، وقطعا لصلته بتراث الشعر العربي الأصيل .

مُختار الوَكيل

لم تعش « جماعة أبوللو » في حساب الزمن إلا قليلا ، سنتين وبضعة أشهر ، وهي مدة يسيرة لا يحسب لمثلها في تاريخ الحركات السياسية أو النهضات الفكرية أو الفنية حساب .

ثم تبدد شمل الجماعة ، وتوقفت المجلة الشهرية التي كانت تحمل اسمها ، واتخذتها لسان حالها المعبر عن اتجاهها ، والمبشر بدعوتها إلى نهضة الشعر العربي ، ولخصت هذه الاتجاه بما عرفت به نفسها ، وهي كما كتبت في هذا التعريف « مجلة فنية لخدمة الشعر الحي » .

ولقد عاش كثير من الجمعيات الأدبية أضعاف ما عاشت « جماعة أبوللو » وأصدرت من مجلاتها أضعاف ما أصدرت من أعداد مجلتها ، ومع ذلك لم يكن لها من الأثر في الحياة الأدبية ما يشبه أو يقارب الأثر الذي خلفته جماعة أبوللو ومجلتها الشهرية .

قدمت جماعة أبوللو في تلك المدة القصيرة التي كتب لها أن تعيش إلى عالم الشعر عدداً كبيراً من الشعراء الذي لمعت أسماؤهم وحلقت في سماء الشعر العربي ، ودوت أسماؤهم ولا تزال تدوي في أجواء الحياة الأدبية من أمثال إبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، وأبي القاسم الشابي ، ومحمد عبد المعطي الهمشري ، وحسن كامل الصيرفي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وصالح جودت ، ومختار الوكيل .. وعشرات غيرهم من الشعراء في الوطن العربي الكبير ، وفي المهاجر الأمريكية .

وكان من هؤلاء من لم يجاوز مرحلة الطلب ، وشباب يستقبلون الحياة ، ومكتهلون ، وشيوخ تختلف أعمارهم ، ويتفاوت حظهم من الشاعرية ، إذ كان فيهم من تمرس بفن الشعـر ، واستكمل أداته ، ونضجت مواهبه ، حتى بلغ منزلة رفيعة في عالم الشعر ، قبل أن ينضم إلى هذه الجماعة الفنية وقبل أن ينشر شيئاً من شعره في مجلتها ، كما كان فيهم شداة مبتدئون يحاولون أن يلحقوا بهذا الركب الصاعد . وبين هؤلاء وهؤلاء درجات متفاوتة من الشعراء ، فيها ما يدنو من الأولين ، وما يهبط ليقرب من الآخرين ، ولم يكن لهم من الذكر ما صار لهم بعد اتصالهم بهذه الجماعة ، أو بتلك الخلية المتفاعلة .

ولا يسعنا ونحن نرسم خطوط الحياة الأدبية متجردين من كل عامل سوى إيثار الحق وحب الإنصاف ، إلا أن نشيد بالجهد الجبار الذي بذله المرحوم أحمد زكي أبو شادي ، مؤسس هذه

الجماعة ورائدها ، وقد بذل من صحته وماله ، بل من قوته وقوت عياله ما يعرفه الذين عرفوه أو اتصلوا به عن كثب ، وقد رأوا بأعينهم كيف استطاع ذلك الرجل بوظيفته الحكومية المحدودة التي كان لا يملك من حطام الدنيا شيئا سواها . . كيف استطاع أن ينشئ مطبعة متواضعة في حي قديم من أحياء القاهرة ، وأن يلحق بالسرداب المخصص للمطبعة مكتبا متواضعا يستقبل فيه زواره ، ويصحح فيه بنفسه تجارب الطباعة .

وإذا كان شمل الجماعة قد تبدد وهي في عمر الزهور ، فقد كتبت في تاريخ الشعر العربي الحديث صفحة ممتازة من صفحات الجهاد الأدبي في العصر الحديث ، واستمر أقطابها وشداتها يسيرون في الشوط إلى مداه ، حتى أصبح كثيرون منهم أعلاماً في دولة الشعر المعاصر .

* * *

ومختار الوكيل واحد من أعلام أبوللو الذين اتصل تاريخهم بتاريخها طَوال عمرها القصير ، وظل على الوفاء لها بعد أن انفرط عقدها ، وتبدد شملها ، وتعطلت مجلتها ، وبعد أن رحل رائدها أحمد زكي أبو شادي إلى أمريكا يطلب لنفسه حياة جديدة فيما وراء البحار ، بعد أن لقي من العنت والإهمال ما دفعه إلى اليأس من البقاء فيه .

ويبدو أن شاعرية مختار الوكيل قد ولدت مبكرة ، لأننا نعرف أنه ولد في (أجا) وهي مركز من مراكز محافظة الدقهلية قريب من المنصورة سنة ١٩١٥م ، ويعرف الوقت الذي اتصل فيه بأبي شادي بعد تأسيس جماعة أبوللو وإصدار مجلتها في أواخر عام ١٩٣٢م ، أي أن هذه الصلة بدأت وسنه دون الثامنة عشرة .

وقد أتم مختار دراسته الثانوية والتحق بعدها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد شغله حب الأدب والشعر عن متابعة الدراسة والحصول من هذه الجامعة على مؤهل علمي معترف به .

ولكنه بالرغم من عدم إتمام دراسته في الجامعة الأمريكية أو عدم حصوله على مؤهل جامعي منها – استطاع ان يتقن اللغة الإنجليزية إلى درجة مكنته من الاطلاع على روائع الأدب الذي كتب بهذه اللغة ، ومن ترجمة روائع فيها إلى اللغة العربية في أسلوب مشرق ناصع .

وفي مقدمة ما ترجمه من الشعر الإنجليزي قصيدة الشاعر « برسي بيش شيلي » ١٨٢٢م . التي ألفها في مناجاة قُبّرة " To a skylark " وتعد من أروع قصائد الشعر الغنائي في الأدب الإنجليزي ، وقد ترجمها شعراً .

ومن تراجمه العربية المبكرة قصيدة « أغنية للخريف » ومقطوعة أخرى للشاعر « آدام ليندساي غوردن » وقد ترجمها بأسلوب نثريٍّ جميل . وكذلك قصيدة « الملاك النائم » وقد أخذها من قصة « المخطىء » للشاعر القصصي الإنجليزي البارع « د . هـ . لورانس » ، وقد ترجمها شعراً .

كما كتب دراسة ضافية للشاعر الإنجليزي الكبير « جون كيتس » ، ودراسة موجزة للتعريف بالشاعر الإنجليزي « شيلي » .

وقد نشرت هذه الترجمات والتعريفات وغيرها في أعداد متفرقة من مجلة « أبوللو » في عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٤م ، ولم يكن عمر مختار إذ ذاك يتجاوز التاسعة عشرة سنة .

وفي هذا ما يؤكد ماقدمناه من نضج شاعريته المبكر ، كما يؤكد إتقانه اللغة الإنجليزية التي نقل عنها ، واللغة العربية التي ترجم إليها .

وتلك طاقة أدبية تميز بها مختار الوكيل عن أكثر أقرانه ، و وجدت من أبي شادي ترحيباً ، ولقيت منه تشجيعاً ، فوالى عنايته بمترجماته ، ونشرها فـي « أبوللو » وبذلك نمت قدرته على ترجمة الشعر والأدب ، وظل يحتفظ بهذه الملكة ، ويستجيب لها طوال حياته ، فأصدر مجموعات كبيرة من الروايات والقصص المترجمة .

* * *

وكان في مختار من أدب النفس ، ودماثة الطبع ، وكرم الخلق ، وعفة اللسان ، وفيما حباه الله من حس مرهف ، وشعور فياض ، ما حببه إلى أبي شادي وإلى غيره من الذين عرفوه فعرفوا أدبه ، وقدروا مواهبه . وكان ذلك هو السبب في بزوغ نجمه ، وفي بروزه وتألقه في عالم الشعر حتى أصبح واحداً من أعلامه في هذا القرن . ونشرت له مجلة « أبوللو » مختارات من شعره الغنائي الذي يتحدث فيه عن آلام الشباب وأمانيه ، ومن الشعر الإنجليزي الذي ولع به ، وترجم أخيلته وصوره ومعانيه العاطفية في قوالب من الشعر العربي الجميل .

ومن بواكير شعره قصيدته « تذكار صورة » وقد نشرت في عدد فبراير سنة ١٩٣٣ ، وقد صوّر فيها مجلسه مع صديق له أديب على أصل شجرة بدا كقاعدة التمثال ، فكانت صورتهما كالتمثال فوق قاعدته ، والتقط لهما في هذا الوضع صورة بدا صاحبه فيها متجهما حزينا ، وتجلت أسارير الشاعر فرحة مرحة ، فقال مخلداً هذه الصورة الفريدة :

جمعتْنا ، فأحسنتْ ، بالخيال صورةً ضُمِّنتْ جميع الجمالِ
مجلسٌ مثلُ أيكةٍ مرصودٌ لرجال الفنون كالتمثالِ
قد جلسْنا به ، فأنتَ عبوسٌ وأنا واضحُ البشاشة خالِ
لستُ أدري مَنْ مثّل الحقّ فينا أنا أم أنتَ يا حميدَ الخصالِ ؟
بلْ أنا ، الكاذبُ البشاشةِ والبشـ ـرِ المعنّى من الهموم الثقالِ

ويناجي الشاعر المرح الباسم صديقه الكاسف الحزين ليخلع عن نفسه رداء الزيف ، وتكلف الصرامة والجدّ في موقف يقتضي البهجة والأنس في أحضان الطبيعة الفاتنة التي تشوق النفس، وتسري عن القلب ما يخالطه من هموم :

قد جلسْنا أمامَنا النيلُ يجري في ابتهالٍ ، وخلْفنا الدّوحُ عالِ
ودنتْ من مغيبها الشمسُ في الغر بِ ، فسارتْ مليئةً بالدلالِ
هبطتْ فوق قمّةِ الهَرم ِ الأكْـ ـبرِ ترتاحُ من ضنًى وكلالِ
ومشَتْ بين ضجّةٍ وعويل وتوارتْ في رَوْعةٍ وجلالِ
لم تُصغْ للنُّواح ردّده الطّيْـ ـرُ ، وراحت غريقةً في الظلالِ
طُمِستْ ، والسحابُ فيه كثيرٌ من سَناها وفيه جُلّ الجمالِ
ورجعْنا وفي الفؤاد لهيبٌ زادَ من ناره دُنوُّ الهلالِ

هذه صورة للتجارب المبكرة الأولى لشاعر في الثامنة عشرة من عمره ، وقد بدت فيها أمارات الوعي ، وصحوة الحس والشعور ، وتقرأ الوصف المستوعب لمشهد من مشاهد الطبيعة الآسرة ساعة الغروب في عبارة فيها رقة وبساطة تلائم تلك المرحلة من مراحل الحياة الشعرية لهذا الفتى الموهوب الذي لا يلبث أن يتمرس بالفن الشعري ، فيصلب عوده ، وتقوى صلته بالأساليب الرصينة ، واللغة المختارة .

* * *

استطاع مختار في قليل من الزمن أن يتألق نجمه في عالم الشعر الرومانسي، الذي اصطبغ به شعر مدرسة أبوللو ، وجمع بواكير نتاجه في ديوانه الأول ، الذي سماه « الزورق الحالم » ، وهي تسمية رومانسية ، نرى فيها تجسيد المعاني وتجنيح الخيال مما نراه كثيرا في أشعار الرومانسيين .

وان كانت هذه التسمية « الزورق الحالم » بالذات لم تكن من مبتكرات مختار ، فقد عرفناها من قبل في ديوان الشاعر الهندي المعروف « رابندرانات تاغور » الذي سماه « زوارق الأحلام » ولا بد أن يكون مختار قد قرأ هذا الديوان فيما قرأ من روائع الشعر الإنجليزي الذي عرفنا ولوعه به !

وقد درج كثير من شعراء العصر على أن يبتكروا أسماءً أو ألقاباً يطلقونها على مجموعات أشعارهم ، وتناسوا أو أهملوا كلمة (الديوان) وهي الاسم القديم المأثور الذي كان يطلق على مجموعات هذه الأشعار . وربما حسبوا ذلك لونا من ألوان التجديد !

ولم ينقطع مختار عن صناعة الشعر بعد إصدار هذا الديوان الأول ، حتى اجتمع مما أنشده شعر كثير ضمنه دواوينه التالية ، التي أعرف منها ديوانه الذي سماه « موكب الذكريات » والديوان المسمى « على باب طه » وذلك برغم تبعات العمل الرسمي الذي اضطلع به في مصر وأوربا في خدمة الجامعة العربية التي وكل إليه أخيراً رياسة وفدها الدائم في سويسرا .

ومن مختارات شعره الجديد الذي تبدو فيه بوضوح سمات الرومانسية قصيدته التي أسماها « نشوة الألحان » وفي أولها يقول :

أنا في نشوةٍ من الأنغامِ ... فدعُوني معانقًا أحلامي
أنا في صمتيَ الحبيب قريرٌ ... سابحٌ في عوالمٍ من هُيامي
مستعيدٌ في خاطري ، ماتقَضّى ... من متاعٍ وشقْوةٍ في غرامي
أيُّ وحيٍ منغّمٍ يتهادَى ... ويناجي الفؤادَ دونَ كلامِ
لستُ أسْطيعُ صَوْغه في قريضٍ ... آدميِّ الألفاظ والأنغامِ
لحنُه ثائرٌ يداعبُ رُوحي ... وصدَاهُ معانقٌ أحلامي

وإذا كان مختار قد عاش في هذه العاجلة ثلاثا وسبعين سنة (١٩١٥ ـــ ١٩٨٨) فما برحت معالم الرومانسية طاغية على نتاجه الأخير متصلة برومانسيته القديمة التي رأيناها فيما نظم من شعر منذ كانت سنه ثماني عشرة سنة ، وهي كما قلنا الطابع الغالب على شعراء أبوللو ، من حيث رقة الحس ، والحديث عن النفس ، ومناجاة الطبيعة ، و وصف مفاتنها ، والصدوف عن المجتمعات ، والإسراف في الخيال .

وتبدو أصداء ذلك كله واضحة في هذه الأبيات ، كما يبدو فيها استغراقه في أودية الخيال :

أنا فـي سكـرةٍ مـن الأنغـام ِ ذاهِلٌ عـن مودّتي وخصامـي
سَكَراتٌ مـن بعدهـا سَكَـراتٌ وسِناتٌ مغمـورة بالتّسامـي
يا فتى الشعـر حسبُك هـذه الرِّحْـ ـلةُ تنأى بهـا عـن الآلام ِ
بين زهـرٍ مـن الخيـال بهيـج ٍ وشُعاع ٍ مـن السّنـى المترامي
قد قضيتُ الشبابَ أعبرُ نهر العُمْـ ـر وحْدِي ، في زورق الأحلامِ
لا أبالي الأمـواج تلطمُ وجهـي والأعاصيرَ إذ تـدوِّي أمامـي
قد قبست الأحلام منـه جميعًـا ثم ردّدتُها هتـافَ سـلام ِ

* * *

وفي رحلة من رحلات الخيال يصف الشاعر هلال الفجر الذي لم يكن يتوقع أن يراه ، ولكنه لا يصفه ذلك الوصف المجرد ، بل يصله بنفسه ومشاعره وقد أرّقه الحنين حتى رآه . ويصف الصمت الرهيب الذي يستثير أعْمق الذكريات ، ويهيج لواعج الأشواق ، ثم لا يلبث أن تهدأ ثائرته أمام هذا الكون السّاجي ، وهو يستقبل إشراقة النور الهادي في الصباح الباكر :

متى رآه الناسُ قالـوا هذا محالْ أ ساعةَ الفجـرِ يلوحُ الهلالْ ؟
ومن يراه غير حادي الغرامْ ؟ من يسهرُ الليلَ ويحيِي الظلامْ
يحسُو الأغاني فوقَ هذي الجبالْ

يأيّها الصاعدُ فوقَ القِمَـمْ بلغتَ ما لم تستطعْهُ القدَمْ
فها هنا الصمتُ يلفّ الحدودْ ويُنْبِت الأشواقَ حُمرَ الخدودْ
من دَمِها يُستَافُ ثغرُ الجمالْ

مشَيتُ والفجـرُ إلى جانبي يرفلُ في الأضواء كالرّاهبِ
يُصغِي للَحن الحبِّ ضافي الجلالْ تشدو به الأطيارُ عَبْرَ التّلالْ
فَتَنتشي الروحُ بخمـر المحـالْ

وها هنا الصمتُ كوحْي الحبيبْ كأنه في الكون قلبُ القلوبْ
لمّا بلغنـا بابَـه فـي الصبـاحْ نامتْ بصدري ثائراتُ الجِراحْ
وغرّدَ الحبُّ ، وأعطَـى ، ونـالْ

أما القصيدة التي أنشدها مختار في ذكرى العقاد ، فقد استهلها بالحديث عن صحابته الراحلين ، وكلهم من صفوة أهل الأدب والشعر الذين وصلته بهم وشائج الأدب والإخاء . وهم في حياة الشاعر كثيرون ، منهم أبو شادي ، وإبراهيم ناجي ، والهمشري ، وعلي محمود طه ، وصالح جودت .. وقد تحدث عنهم بعاطفة حارة في لحن باك حزين ، يستثير الأسى والشجون بتولهه وأساه :

بَعُــدُوا ؟ ما أراهـــمُ بَعُــدُوا   بل همُ بالمماتِ قد وُلِدُوا

فتيــةٌ .. الخلـــودُ همُّهـــمُ   سَهروا ، والبُغاثُ قد رَقدُوا

أنجمٌ قد زهـا بهـا بلـــدي   خالدٌ في ضيائها البلـــدُ

يا أصيْحابـــي الذيـن مضَوْا   أينَ ولّى زمانُنـــا الرَّغَـــدُ

حيثُ كنّا نحيا الحياةَ هوًى   ودمـاءُ الشبَـــابِ تتّقِـــدُ

لا تلمْني إذا أنِسْتُ بهـــمْ   فهمُ سَلْوةٌ لمـــن جُحِــدُوا

ثم يأخذ في الحديث عن العقاد ، حديث المعترف بإبداعه ، المأخوذ بعظمته ، وشموخه بين أرباب المعرفة ، وأهل البيان .

وقد يكون في ذلك الحديث الذي تنعكس فيه أصدق المشاعر نحو العقاد وعلمه وفنه ما يلفت النظر ، ويستوقف الباحث الذي عاصر بنفسه تاريخ تلك الفترة ، وشهد مولد « أبوللو » ، فقد وقفت على ذلك الصراع المرير بين أبي شادي وجماعته من ناحيه ، والعقاد ومريديه من ناحية أخرى .

وقد كان مختار الوكيل واحداً من الذين رفعوا مع أبي شادي لواء الحملة على العقاد ، وحاولوا ثَلّ مجده ، بانتقاص فكره وفنه ، فيما ألفوا من كتب وما دبجوا من مقالات ، وما شهروا من أسلحة الكيد للعقاد ، والنيل منه .

ووقف العقاد في وجه أولئك الخصوم الذين تألبوا عليه يدافع ويهاجم ، ومعه أصحابه وتلامذته ومريدوه .

وقد ألف مختار في أوليات حياته الأدبية ، وفي إبان تلك المعركة ، كتابه الذي تناول فيه أربعة من شعراء العصر سماهم « رواد الشعر الحديث » وهم : خليل مطران ، وعبد الرحمن شكري ، وأحمد زكي أبو شادي ، وعباس محمود العقاد . فجعل العقاد آخرهم ، وانتقده بما شاء ، وأثنى على الثلاثة بما أراد . وكان ذلك بتوجيه من أبي شادي الذي لم يدع باباً للكيد

للعقاد إلا طرقه ، ولا سبيلا للنيل من شخصه وفنه إلا سلكه .

ثم مدَّ هؤلاء أيديهم إلى العقاد ، و مد العقاد إليهم يده ، ورحب بمودتهم ، بعد أن انقضت أسباب العداوة و دواعي الخصام . وكان العقاد سريع الرضا كما كان سريع الغضب .

استمع إلى مختار يقول في « ذكرى العقاد » :

لا تقولوا ماتَ مَنْ بقيتْ	تتجلـى آثـارُه الجـددُ
فهوَ حيٌّ في كلِّ رائعةٍ	وهُـوَ شِعـرٌ منغّـم غَـرِدُ
ولنـا مـن حديثـه فِتَنٌ	ولنـا مـن فنونـه مَـدَدُ
أيـن منّا مثقّـفٌ أرِبٌ	هائمٌ ، للعلومِ محتشِـدُ
زاهـدٌ ، لـم يغرّه نشَبٌ	يُقْتَنَى ، أو يشـدّه وَلَـدُ
ساهرٌ ، والسماءُ كوكبُها	مدْبـرٌ ، والأنامُ قد رقدُوا
هام بالعلم ، راح يجمعُهُ	فهـو كنـزٌ لفتيـة زهـدُوا
لا تلُمْهُ فإنـه زمـنٌ	حظُّ أعلامنا بـه نَكِـدُ !
جُمعَ الباحثون في رجلٍ	مُفْرَدٍ ، لا يخيفُـه عـدَدُ
جحفَلٌ في العلوم مطّلعٌ	خيرُ مَنْ دبّجوا ومن نقدُوا

وبمثل هذا الشعر الذي يتدفق في غزارة وصفاء ، يكون الإنصاف والوفاء ، ومن أجدر بهما من العلماء والأدباء ؟

* * *

وأعود إلى « الزورق الحالم » أول دواوين مختار الوكيل ، وقد صدر فيما أذكر سنة ١٩٣٦م فإن التاريخ المدون بعد العبارة الرقيقة التي كتبها في صدر النسخة التي أهداها إلي هو (١٩٣٦/٩/١٩) .

وقد وصفني في عبارة الإهداء بالأخوة ، كما وصفني فيها بالشاعر « النابه » .

أما الأخوة فإنها وصف أعتد به ، وأما أنني « شاعر نابه » فذلك ما أتردد فيه ، وإن كنت أتمنى أن أكونه لو أنني سرت في طريق الشعر إلى مداه !

ويرجح ما ذكرت وهو أن صدور « الزورق الحالم » كان في سنة ١٩٣٦م أن الشاعر يقرر في مقدمته أنه أصيب في الفترة الأخيرة بالقصور عن النظم « حتى إن آخر مقطوعات هذا

الديوان قد نظمت في خريف عام ١٩٣٥م ومن يدري ؟ لعله قصور موقوت ، أو لعله قصور أبدي .. وما نعلم أيهما أجدى على الشعر !»

ويجمع هذا الديوان مختارات من الأشعار التي نظمها مختار الوكيل في شبابه المبكر ، وذلك ما يقرره قوله في تلك المقدمة « هذا الديوان الذي سيطالعه القارئ إنما يمثل طور الشباب الأول لفتى مرهف العواطف ، دقيق الحساسية ، لا ينظم إلا إذا تحرك وجدانه ، وجاشت نفسه، وصدق فكره .»

وقد برزت في أشعار الديوان أحلام الشباب ونوازعه ، كما برزت فيها آثار ماكان يتنازعه من العاطفة المشبوبة والتفكير الواعي ، وقد استطاع الشاعر أن يؤلف بينهما بحيث يصعب تمييز أحدهما من الآخر . وقد عرفنا في أكثر شعر الشباب الذين يستقبلون الحياة حدة العاطفة وقوة الانفعال ، وطغيانها على الجانب العقلي .

وقد رأينا هذه الظاهرة بوضوح في شعر صالح جودت مع تقاربهما في السن ، وفي الظروف والعوامل التي جعلت من كل منهما شاعراً معروفاً مع انتمائهما معاً إلى مدرسة « أبوللو » وتلمذتهما لأبي شادي ، وقربهما من خليل مطران ، ولا يكاد يذكر أحدهما إلا أن يذكر معه الآخر .

ولعل السر في هذا التفاوت بين الشاعرين الرومانسيين يكمن في عكوف مختار على الأدب الإنجليزي ، وقيامه بترجمة كثير من روائع الشعراء الإنجليز ، وكان الذي دفعه إلى ورود هذا المنهل إجادته اللغة الإنجليزية ، وتعرفه على أدبها نتيجة دراسته في الجامعة الأمريكية في القاهـرة ، ولم يتهيأ مثل ذلك لصنوه صالح جودت الذي كان أقرب في اتجاهه الشعري إلى إبراهيم ناجي وعلي محمود طه وأشباههما من الرومانسيين المصريين .

ويلتزم مختار في شعر هذا الديوان بأنساق الشعر الخليلية ، ولكنه لا يلتزم بنظام القافية الموحدة ، وإن كان في الزورق الحالم قصائد التزم في أبياتها جميعا تلك القافية الموحدة التزاماً يدل على قدرته على التصرف في ألفاظ اللغة وتطويعها لموسيقى الشعر .

ومن قصائده المطولة الموحدة القافية قصيدته « نظرة »[1] و أولها :

أ فيَ كلِّ عينٍ تعكسُ النورَ لي شِعْرٌ ... وفي كلِّ ثغـرٍ حالمٍ باسمٍ سحرُ ؟
لقدْ كدتُ أقضي من فراهة خاطري ... ومن رقَّةٍ في القلب يعنُو لها الفكرُ
لكَ اللهُ يا قلبي ، دُهيت ولـم تتـبْ ... كأنكَ لم يعبـث بسَوْدائكَ الجمرُ

قُريتَ وما زالَت دماؤكَ ثـرَّةً   وقُيِّدْتَ لكنْ إنك المطلقُ الحرُّ
تحدَّثْ أيا قلبي ، وقلْ هل عشقتَها ؟   وكيف ولما يأتِ من أمرها خُبْـرُ
تهاويتَ إثْرَ النظرةِ العذْبةِ التي   حوتْ من فنون العِشق ما خلّد الدهرُ

وعدة أبياتها اثنان وثلاثون بيتاً تجري كلها على هذا النسق المحكم من وحدة القافية والالتزام العروضي ؛ مما يدل على استعداده الفطري لصناعة الشعر ، كما يدل على تمكنه اللغوي ، واستواء ملكة الشعر عنده ، والقدرة على تصريف المعاني ، واستلهامها من قرارة نفسه ، ومن عواطفه الجياشة ، ومن مرائيه التي يصلها بمشاعره ، وهو لا يزال في باكورة شبابه .

ومنها قصيدته « المرأة الجديدة » (ص ١٣١) التي حيّا فيها السيدة هدى هانم شعراوي زعيمة النهضة النسوية في مصر بعد عودتها من المؤتمر النسوي الذي انعقد في سنة ١٩٣٥م بالآستانة ، و أولها :

سلامُ الشباب ، سلامُ الخلود   سلامُ القريض ، سلامُ الجمالِ
إلى بطلٍ لم يرعْهُ النِّزالُ   ولم يخش في الحقّ وثْبَ الضلالِ
إلى « مُنقذ المرأة » المستعزّ   بدرع من الحقّ ضافي الجلالِ
إلى الملك المسعِد الأريحيّ   كريم الخيال ، عظيم النّوالِ
إلى « قاسمٍ » قدوةِ المصلحينَ   عدوّ الجمود ، الجريء المقالِ

و « قاسم » هو « قاسم أمين » الذي لقب بمحرر المرأة ، فقد دعا إلى سفور المرأة ، ومشاركتها الرجل في الحقوق والواجبات ، وألف في ذلك كتابه المعروف « تحرير المرأة » في أوليات هذا القرن .

وقد أثارت هذه الدعوة جدلا عنيفاً ، ونقاشاً حادًّا بين دعاة التحرر وجماهير المحافظين . وإلى هذه الثورة التي هزت المجتمع في مصر والشرق يشير الشاعر في قوله عن قاسم أمين :

فتًى ، لو أحبَّ متاعَ الحياة   لما قال للحادثات : نَزالِ
وما ناصب الجامدين العداءَ   وقارعهمْ مخلصًا في النضالِ

ثم يشيد بأثر دعوة قاسم أمين في نهضة المرأة المصرية ، فيقول :

أيا قاسمٌ ، قمْ وحيِّ النساءَ يحاوِلْنَ في مصر سبقَ الرجالِ
تبوّأنَ في الفنِّ أسمى مكانٍ ونِلْنَ من العلم أقصى منالِ
هبطْنَ ملائكةً مِن حنانٍ وطُفنَ علينا بسحر حلالِ

ويستطرد إلى الموازنة بين حال المرأة المصرية اليوم وماكانت عليه بالأمس مشيداً بما بلغته المرأة السافرة المتحررة من المنزلة في المجتمع الذي تعيش فيه ، وساخطاً على المتخلفات في أسر التقاليد من المنقبات الرابضات في الخدور أو المحبوسات وراء الأسوار :

أحيّيكِ ألفًا فتاةَ السُّفورِ وأهجوكِ ألفين ذاتَ الحِجالِ
لمن خلَق الله هذا الجمالَ إذا حبسُوه بجُبِّ الضلالِ ؟
ألا إن في الحبس ميلا إلى الشرِّ ينذرُنا بوبيلِ المآلِ !
وكيف ترَى أمّةً نِصفُها صحيحٌ ونصف حليفُ اعتلالِ؟
إلى النُّور يا باعثاتِ الأماني إلى النور يا خازناتِ الجمالِ !
إلى المجدِ ، فلنمشِ جنبا لجنبٍ فريق النساءِ وجيش الرجالِ !

وأخيرا يختتم الشاعر قصيدته الطويلة التي تجاوزت الأربعين بيتا بأبيات يحيي بها السيدة هدى هانم شعراوي التي تزعمت حركة تحرير المرأة ، وحملت لواء نهضتها ، وقد كان ذلك هو الغرض الأصلي من إنشاء هذه القصيدة ، فيقول لها :

لك الله يا بنت سلطان ، أنثى لها سطوةُ الليث عند النزالِ
قضتْ دهرها في كفاح الضلال وضحّتْ بجاه ، و أودت بمالِ
« هُدَى » أنت مبعوثةٌ بالهُدَى فلا تحرمي الناس خير الفعالِ
أراكِ فأقبسُ منكِ اليقينَ وأنهلُ منكِ فنون الخيالِ
إلى الحقِّ مِيري ، ومن يَتخذْ إلى الحقِّ نهجًا يفُزْ في النضالِ

* * *

وكثيرا ما نجد في « الزورق الحالم » أغنيات باسمة متفائلة تفصح عن سعادة منشدها بما يراه ويتأمله من الرؤى والمشاهد الفاتنة التي يصفها بما يدل على إعجابه بها . كما نجد في هذا الديوان مشاعر الاكتئاب والانقباض ، وهكذا يتقلب شعره بتقلب مشاعره ، ويمكن القول بأن شعر مختار سجل لتجاربه الشعورية ، ولحياته الأولي بسرائها وضرائها .

ولا شك أن في حياة كل إنسان ما يحلو وما يمر ، ما يسوء وما يسر ، والشاعر أقوى الناس إحساساً ، وأقدرهم على التعبير عما يختلج بين جوانحه من أسباب الرضا والانبساط ، وعوامل السخط والانقباض .

اقرأ قصيدته « كنت ثم أصبحت » (ص ١٢٥) التي يقول في أولها :

لم أعُدْ كالناس أَلْقَى العيش مطلولَ الأماني
لا ولا أطـربُ للأشعـــار أو وقْـــع ِ المثانـــي
لا ولا أظمأ لخمرة مــن ريــق الحِسَــانِ
لا ولا أَبْسَمُ للأطيار تشدو فـــي الجنـــانِ

ثم يوازن بين حاله اليوم وحاله بالأمس ، فيقول :

فكأنّي لم أكنْ بالأمسِ فياضَ الحنـــانِ
أنظمُ الأشعارَ من روحي ومن وحي افتِتَانِي
خالصاً من ربقةِ الأسْرِ ومن عبْءِ كيانـــي
طائراً كالبُلْبُلِ المجدودِ سِحــريَّ الأغانِي
في سمواتِ الخيــلاتِ وآفـــاقِ المعانـــي
هاتفاً بالحسْـــنِ ، عِربيداً إذا الحسْنُ دعانـــي

ثم تعاوده ثورة السخط على ما يلقى في يومه ، وتعروه موجة من التشاؤم واليأس بعد أن تبددت أحلامه في استعادة ما كان فيه من مرح ونشاط ، فينطلق بهذا الشعر اليائس الحزين :

قد لوَيتُ اليوْمَ عن مهزلة العيش عِنانـــي
ومحوْتُ البشرَ من عيني وقلبي ولسانـــي
لم تعد تكْرِثني الآلام يزجيها زمانـــي
لا ولا تفتُنني الأحلامُ في وصْلِ الغواني
لا ولا المجْدُ الذي من أجلِهِ كنتُ أعاني
أنتَ لا تنظـرُني يا صاحبي حينَ ترانـــي
إنما تنظرُ في وجهيَ أطلالَ الأمانـــي

ولعلنا بهذا القدر من الحديث عن مختار وشعره استطعنا الكشف عن مواهبه واتجاهه ، وتجلية سمات شعره الذي يعد نموذجاً للشعر العربي الحديث في تعبيره عن دخائل أصحابه ، والتحدث عن مطامحهم وهموم حياتهم ، وشرح عواطفهم ، ووصف أحوالهم النفسية ، وما يعانون من حياة القلق والتردد بين عالم المثل كما تصوره أحلامهم ، والشكوى من واقع الحياة الذي يحول بينهم وبين الانطلاق والتحليق ، مع نفورهم من الاتباع والتقليد .

وشعر مختار زاخر بفيض من المعاني ، وبضروب الخيال التي افتن في تأليفها وتركيبها ، وبخاصة فيما وصف به مشاهد الطبيعة ومباهجها وبدائعها ، وتقوى في قلبه عاطفة الحب وتتسع لتشمل سائر المجالات ، فنقرأ في شعره آثار هذا الحب العميق للجمال الذي يـراه ويحبه ، حب النفس ، وحب الحياة ، وحب الناس جميعاً ، ولا ترى فيه أثراً لضغينة أو حقد أو حسد .

ولم يسمح مختار لشاعريته أن تسبح في تيار لا يؤمن به ، ولا يرضى عنه ، انقياداً لدعوة من الدعوات ، أو إلى بدعة في الأدب روج لها دعاة التجديد ، ولذلك لم يتمرد في شعره على النسق الموسيقي المأثور في أشكال الشعر العربي وقوالبه كما تمرد عليه كثير من أقرانه ومعاصريـه .

ومثله في ذلك أكثر الشعراء الذين صحبوه في « أبوللو » ومنهم إبراهيم ناجي وصالح جودت ، وذلك بالرغم من دعوة « أبوللو » الصريحة إلى الانطلاق والتحرر من سائر القيود .

وقد قوي هذا التيار واشتد ، وأعني به تيار التحرر أو التحلل من القيود الموسيقية للشعر العربي ، وأخذ مجراه يتسع شيئا فشيئا ،حتى غمر أودية الشعر في أكثر أرجاء الوطن العربي ، واستطاع شعراء في بعض البلاد العربية أن يرفعوا لواء الزعامة فيه ، وينتزعوا قصب السبق من دعاة التجديد في مصر ، ويتـفوقوا عليهم في هذا المضمار ، فلمعت في سماء « الشعر الحر » نجوم كثيرة في مقدمتها : نزار قباني ، ونازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي .

واستمر تيار هذا الشعر الجديد في اطراده واندفاعه ، وتعلق به شعراء خافوا أن يسبقهم الركب ويفوتهم القطار ، وأن يوصفوا بالتخلف أو بالجمود . وتشبث به الشداة الناشئون ، لما رأوا فيه من اليسر ، وخفة المئونة .

وظل مختار على عهده في الحفاظ على النمط الموروث في قوالب الشعر وأشكاله ، ولم يجنح إلى التقليد في هذا التجديد .

أما لغة شعره فقد حاكت طبيعته السمحة في رقتها وسلاستها وعذوبتها ، فقرب مأخذها ، وسهل وعيها ، والاستجابة لمضموناتها على أوساط المتأدبين .

* * *

وربما كان من المناسب أن نشير إلى أنه في الوقت الذي تعثرت فيه خطا مختار الوكيل في السنوات التي قضاها في شبابه بالجامعة الأمريكية في القاهرة وبعدها في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) فلم ينجح في دراسته فيهما ، ولم يحصل على درجة جامعية منهما . في ذلك الوقت تفتحت أمامه أبواب الشعر والأدب ، لينفذ منها إلى أكثر مما كانت تصبو نفسه إليه ، وكتب له من التوفيق وذيوع الصيت أكثر مما كان يحلم به . ورُبّ ضارة نافعة كما يقول المثل ، فقد سافر إلى إنجلترا ، وحصل على شهادات تفوق في اللغة الإنجليزية ، ثم سافر إلى فرنسا ، وتقدم إلى إحدى جامعاتها الإقليمية برسالة في « تاريخ الصحافة المصرية » نال بها درجة تعادل درجة الدكتوراه ، وعاد إلى مصر ، ففتحت له جامعة الدول العربية أبوابها ، فألحقته بإدارتها الثقافية التي كان يديرها الأستاذ أحمد أمين ومن بعده الدكتور طه حسين ، وظل بها حتى سافر في سنة ١٩٥٦ م إلى جنيف رئيساً لوفدها الدائم بالأمم المتحدة .

وقضى في سويسرة عشر سنين ، عاد بعدها إلى مصر مديراً للإدارة الاقتصادية في جامعة الدول العربية ، ثم مديراً لمعهد المخطوطات العربية ، وظل يعمل فيه حتى بلغ سن التقاعد .

وقضي مختار بقية حياته يتنقل بين القاهرة وجنيف حيث كانت زوجته ، التي توفيت هناك قبل وفاته بسنتين ، وهي ابنة المجاهد الوطني المعروف الشيخ علي الغاياتي .

وفي صيف سنة ١٩٨٨م سافر إلى جنيف لزيارة ابنته الأستاذة في كلية الهندسة هناك .

وفي اليوم السادس من نوفمبر من تلك السنة قضى نحبه في جنيف ، ونقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها بعد هذه الرحلة الشاقة الطويلة .

وهكذا حصل مختار في دنيا الوظائف على أقصى ما يطمح إليه أمثاله .

أما ما حصله في عالم الشعر والأدب فإنه يفوق ذلك بكثير .

مُحَمّد التّهامي

لقد تجاوز هذا الشاعر الفحل السبعين من عمره المبارك ، ولكني عرفته منذ سنوات بعيدة ، حين رأيته يعتلي منابر الشعر في مهرجانات أدبية في مصر وفي بعض الأقطار العربية ، في مناسبات وطنية أو قومية ، وفي ندوات حافلة بالشعراء وعشاق هذا الفن الجميل ، ليشهدوا سوقًا من أسواقه النافقة التي يتبارى فيها لفيف منهم ، تختلف منازلهم ، وتتباين اتجاهاتهم ، فمنهم المطبوعون المبدعون ، ومنهم المستمسكون بتقاليد الشعر العربي وأنساقه المأثورة ، وفيهم الخارجون على تلك الأنساق من طلاب الجديد ، ومنهم أصحاب الشعر العذب المبين ، وفيهم المغرقون في الإغراب والتعقيد .

وقرأت له قصائد منشورة في الصحف والمجلات يعالج فيها موضوعات مختلفة ، وأغراضاً شتى .

ولم تتغير في نظري ، برغم تعاقب السنين واختلاف الظروف – تلك الصورة التي ارتسمت له في ذهني منذ سمعته لأول مرة إلا بمقدار ما ينمو البرعم وتتفتح أوراقه ، وتصير ورودًا يانعة تسر الناظرين ، أو بمقدار ما تتطور النورة حتى تصير ثمرة ناضجة تشتهيها الأنفس ، وتلذ بها العيون .

هذا الشاعر هو محمد التهامي الذي تقرأ في شعره لحن العروبة الأصيل ، لم تبهره الأضواء التي سلطت على بعض معاصريه ، الذين تنازلوا طواعية عن منازلهم المرموقة في دولة الشعر العربي الرصين جريًا وراء موجة التجديد في قوالب الشعر ومبانيه ، التي تشبث بها بعض المعاصرين الذين حرصوا على ألا يسبقهم الركب ، أو يفوتهم القطار ، وعلى ألا يحسبوا من الجامدين أو المتخلفين .

وقد كان من اليسير على التهامي أن يلحق بالركب ، ويتعلق بالموجة التي تشبث بها نفر من أقرانه ومعاصريه ، ولكنه ظل مؤمنًا بعظمة الشعر العربي ، وبقدرة أعاريضه وأوزانه ونظام قوافيه على استيعاب خواطر الشعراء وتجاربهم كما استطاعت أن تستوعب مشاعر الماضين وتجاربهم ، فوق ما لها من عذوبة الألحان وسحر الموسيقى ، وبقي كالطود الراسخ يتحدى هوج

الأعاصر ، ويمتاح من معينه العذب الصافي، ويعزف لحنه العربي الخالص، ويستلهم روح عقيدته، وأمجاد أمته ، ينفعل بالأحداث الجارية في ربوع مصر ، التي درج على أرضها ، وأظلته سماؤها ، وما وراءها من ديار العروبة والإسلام ، ويصوغ ذلك في بناء عربي سليم .

وإذا كان التهامي من أهل الحفاظ على التقاليد الفنية للشعر العربي في قوالبه وأشكاله ، فإنه لم يكن وحده في الميدان ، بل إنه كان هنالك كثير من الأدباء والشعراء والمفكرين ، الذين تصدُّوا لأولئك الداعين إلى التحلل من الالتزام بنظام الوزن ووحدة القافية ، وكان منهم في الوقت نفسه دعاة إلى التجديد وخصوم للمقلدين ، وقد كان المرحومان عباس العقاد وإبراهيم المازني على رأس الدعاة إلى مذهب جديد في الأدب والنقد ، وكذلك كانا من أشد الناس ضراوة في الهجوم على أمير شعراء العصر أحمد شوقي وانتقاصه ؛ لأنه كان في زمنهما على رأس المحافظين . وكان العقاد رئيساً للجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وكان يحيل ما يرد إليه من « الشعر الحر » إلى لجنة النثر !

ومن ألدِّ أعداء هذا الشعر الحر الشاعر الناقد المعروف صالح جودت الذي شنَّ على أصحابه حملة شعواء في كثير من قصائده المنشورة ، ومن كتاباته المنشورة .

ولم يعدم الشعر الحر دعاة له وأنصاراً يتعصبون له ، ويدافعون عنه ، ويأخذون بأيدي منشئيه، ولا تزال الحرب على أشدها بين الفريقين .

وأخشى أن يظن ظان أنني بهذه الكلمات التي استدعاها حديثي عن محمد التهامي والتزامه بالأصول الموسيقية الموروثة لفن الشعر العربي ، أنني من خصوم الجديد ، أو خصوم المجددين، فإنني أشهد أن في كثير مما قرأت منه جمالاً وإبداعاً في التصوير ، وإن كنت أعتقد أن أصحاب هذا الجميل البديع مدينون لطبعهم ولمواهبهم قبل أن يدينوا لهذه النزعة التجديدية ، وأعرف أن أكثر هؤلاء المجيدين من أصحاب الشعر الحر كان لهم قدم في الإجادة والإبداع قبل أن يردوا هذا المورد الجديد .

ومما ينبغي تقديمه وتأكيده أن الناقد ينبغي أن يكون موضوعياً في تقدير ما ينظر فيه ، وأن يستقرئ ما فيه من معالم الجودة والإبداع ، وما فيه من مظاهر القصور والتهافت ، ثم يكون تقديره للعمل الأدبيّ على أساس ما فيه من هذه وتلك . كما ينبغي أن يكون محايداً بين الاتجاهات المختلفة حتى لا يتحكم هواه في حكمه على اتجاه من تلك الاتجاهات .

وأذكر أنني سئلت منذ زمن بعيد يوم احتدمت المعركة بين المجددين والمحافظين عن رأيي في هذا الشعر الجديد ، وقد قلت يومئذ إن هذا الشعر يمثل ظاهرة جديدة في حياتنا الأدبية ، وأن من حق هذه الظاهرة أن نفسح لها الطريق حتى نعرف موقعها من الذوق الأدبي العام ، فإن رضيها عاشت وحدها بديلاً عن النسق الموروث أو عاشت معه ، وإن رفضها ماتت في مهدها . وقلت إن ظاهرة كهذه الظاهرة لا تحيا بمقال يكتبه ناقد ، ولا تموت بكلمة يقولها ناقد مهما تكن منزلة هذا الناقد .

ولعلي أطلت بعض الشيء في هذا التقديم لعلمي أن الموضوع يتصل بقضية من أهم القضايا التي شغل بها النقد المعاصر ، ولا تزال تشغل الأذهان إلى يومنا هذا .

* * *

وأعود إلى محمد التهامي الشاعر الذي عرفته منابر الشعر في بلادنا واتصل عطاؤه نحو خمسة عقود من هذا القرن الميلادي العشرين بالرغم من ثقافته القانونية التي أهلته للعمل بالمحاماة ، كما عمل بالصحافة وتدرج في أعمالها حتى صار مديراً لتحرير جريدة « الجمهورية » ومستشاراً بجامعة الدول العربية ، ورئيساً لمكتبها بمدريد .

وقد تفضل محمد التهامي فأهداني طائفة من شعره المطبوع في دواوين طبعت في السنوات الأخيرة ، وإن كانت هذه الدواوين لا تمثل نتاجه الشعري الكامل ، فقد قرأت له بعد هذه الدواوين كثيراً من شعره الذي أنشده بعد نشرها ، وهو شعر نشرته الصحف والمجلات العربية في مصر وغيرها في أوقات متقاربة .

وذلك يدل على أن شاعريته لا تزال على عهدها ، أو على عهد الناس بها ، تجود بمكنونها، وتؤتي ثمراتها ، وتنهل من معينها الذي لا ينضب ، فلا يزال تيارها يتدفق في غزارة في غير فتور ولا إبطاء ، برغم تجاوزه السبعين ، وهي سن تفتر فيها العزائم ، وتخفت فيها جذوة النشاط .

على أن القارئ سيرى في الشعر الذي تضمنته الدواوين المنشورة للتهامي ما يكفيه للتعرف على الجوانب المختلفة لشخصيته الفنية أولا ، وشخصيته الفكرية ثانياً . ثم شخصيته الإنسانية بصفة عامة ، فإن شعره يتميز بوضوح هذه الجوانب فيه ، وقد صورها أدق تصوير . بل إن نظرة سريعة إلى العناوين التي تخيرها الشاعر لكل ديوان من هذه الدواوين تكفي للدلالة على

تلك الجوانب التي تتميز بها شخصيته .

ورب كلمة واحدة تجمع معالم شخصية محمد التهامي بجوانبها المتعددة ، وهي كلمة « الانتماء » بأوسع ما تدل عليه من معان .

وإن كانت كلمة « الانتماء » قد ابتذلت كثيراً في أيامنا ، و وصف بها من ليس أهلاً لها .

بل ربما وصف بها من هم أبعد الناس عنها من الشعراء والكتاب ، ولكنها في التهامي صادقة ، جامعة لإنسانيته ، ومجالات تفكيره ، واتجاه مشاعره وخصائص شاعريته .

وذلك ما تقرؤه وما تراه رأي العين في دواوينه الأربعة التي نشـرها أخيراً ، وعنواناتها :

(١) أغنيات لعشاق الوطن .

(٢) أغنيات عربية .

(٣) أنا مسلم .

(٤) دماء العروبة على جدران الكويت .

فهو أولاً مصري تضطرم بين جوانبه مشاعر جياشة بحب هذا الوطن الذي درج على أرضه، وأظلته سماؤه ، وارتوى من نميره العذب الصافي ، واغتذى بما أخرجت الأرض الطيبة من رزق الله ، وعاش بين أهله الطيبين .

لقد وهب التهامي هذا الوطن قلبه وحبه ، وأنشد فيه الفاخر من شعره ، الذي تغنى فيه بأمجاد قومه ، وكفاح أبنائه في سبيل الحرية والكرامة ، وثورتهم على الظلم والطغيان إذا نفد صبرهم على الضيم ، ووهت قدرتهم على الاحتمال .

والديوان الأول « أغنيات لعشاق الوطن » مجتمع لهذه المشاعر الوطنية التي نبض بها قلبه من مشاعر الولاء لمصر ، والتمجيد لتاريخها ، والإشادة بأبطالها .

وأحب أن أنبه في هذا المقام على أنني لا أعني بوصفي هذا الديوان بأنه الديوان الأول أنه يحوي أول نتاج للشاعر ، فإنه في الحقيقة يضم مختارات من شعره الغزير الذي ألّفـه قبل ذلك بكثير ، ولم يقدمه للطباعة إلا منذ سنوات معدودة .[١]

(١) طبع هذا الديوان سنة ١٩٨٧م ، ونشرته بالقاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وأحب أن أنبه أيضاً إلى أن الشاعر لم يرتب شعره في هذه الدواوين الأربعة على حسب تواريخ نظمه أشعارها ، ولكنه جمع ما تيسر له نظمه من هذه الأشعار ، ثم وزعها بين دواوينه الأربعة المذكورة بحسب موضوعاتها ، أو الأغراض التي عبرت عنها ، فكان الديوان الأول « أغنيات لعشاق الوطن » مجتمع شعره الوطني . وضمن الديوان الثاني « أشواق عربية » ما أوحت به عاطفته القومية ، ومشاعره العربية . وضمن ديوانه الثالث « أنا مسلم » ما أوحت به عاطفته الإسلامية . أما الديوان الرابع « دماء العروبة على جدران الكويت » فقد انتظم شعره الذي أنشده في تلك الكارثة التي ألمت بدولة الكويت وبالأمة العربية كلها ، بغزو العراق أرضها ، وما أدي إليه ذلك الغزو من التدمير والتخريب ، وبشعبها الأعزل من القتل والتشريد .

* * *

أنشد التهامي في ديوانه « أغنيات لعشاق الوطن » عدداً من الأناشيد للنيل الذي وهب لأرض مصر الحياة ، وقديماً قال هيرودوت كلمته الصادقة إن مصر هي هبة النيل ، ولولاه لظلت مصر صحراء جرداء كتلك الصحراء التي تحف بها من الشرق ومن الغرب .

وفي قصيدته « مسيرة النيل » يصور بأسلوبه الشعري البديع صنيع النيل وهو يجري بأمر الله ، يشق لمياهه الطريق ، ويحطم بيمينه الشم الرواسي ، ليعبر مجراه ، فيحيل تلك الشوامخ سهولا مبسوطة ، ويبعث الحياة في الأرض الموات . يقول في أولها مناجياً هذا النهر الخالد :

طُفْ بالرمال وأحيها يا نيلُ	ما أنت يا سرَّ الحياة بخيلُ
وانثرْ بها القُبَل العذابَ على الثرى	يَبْعثْ مواتًا فوقها التقبيلُ
أجراك ربُّك بالحياة ، وطالما	نبتتْ حياةُ الناسِ حيث تسيلُ
وحَباك قدرةَ صانعٍ هذا الثَّرى	فمضتْ يمينُك للجبال تهيلُ
فإذا بها وَهي الشوامخُ تنحني	وإذا بها في راحتَيْك سهولُ
وإذا الصحارى القفرُ تفتح صَدرَها	وتصولُ أنت بصدرِها وتجولُ
وتُحيلُها وهي العَبوسُ بشاشةً	خضراءَ يقطُرُ ريقُها المعسولُ
وجرى النماءُ وراءَ خطوكَ ما استوى	يمضي وإن مال المسيرُ يميلُ

وفي قصيدته « وفاء النيل » يعدّد الشاعر ما حبا النيل أرض مصر من خير وفير وعطاء موصول ، وكأنه عاشق ولهان يصل محبوبته ، ويطرفها بما يجد من الهدايا التي يتقرب بها

إليها . وهل هناك ما هو أغلى من الماء الذي خلق الله منه كل شيء حي ، وجعل من القفار جنات من أشجار و زروع وثمار ، فمصر هبة النيل ، وهدية النيل ، وفي كل عام يفيض النيل فتحمر مياهه بما تحمل من الطمي الذي يخصب الأرض ويجدد التربة .

وتلك الحمرة التي تراها العيون يراها الشاعر قطرات من دموع النيل اختلطت بدمائه من لوعة الحب وفرط الهيام :

مُغرمٌ في دَمعه من دَمِهِ ... حُمرةٌ نمَّتْ على حبٍّ لَدَيْهْ
هو يهوَى مصرَنا من زمنٍ ... غارقٌ في الحبِّ حتى أُذُنيْهْ
ضمها بين حنانٍ وهوًى ... واحتوى فردوسها في ساعديْهْ
ورعاها منذ كانتْ طفلةً ... يحتويها مهدُها من رُكبَتَيْهْ
لقيتْ منه لدى ميلادها ... ما يُلاقي ولدٌ من والديْهْ
قد غذَاها وسقاها ماءَهُ ... وكساها الثوبَ من صُنع يديْهْ
أينما سار نمتْ خيراتها ... وانطوتْ صحراؤها في قدميْهْ
وحباها الخصبَ يُرضيها بهِ ... وحَباها الحسْنَ يُرضي ناظريْهْ
وبناها بِضعةً في بِضعةٍ ... صفَّها مزدانة في جانبيْهْ

هكذا صوّر الشاعر التعاطف بين النيل الخالد وأرض مصر الطيبة منذ مولدها قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، وقبل أن تدبّ الحياة على وجه الأرض ، وظل يرعاها ، ويوالي بره بها حتى شبّت وترعرعت وأينعت على مر الحقب ، ولا يزال يجود عليها بفيضه الدافق ، وبره الموصول .

واعترف أبناء مصرَ بما أسدى إليهم ، وبما غمرهم به من النعم ، فقدسوه وأكبروا صنيعه ، حتى لقد كانوا يقدمون له في كل عام قرباناً يتمثل في غادة من عذارى مصر يلقونها في خضمه الزاخر ، فتحتضنها أمواهه بين مظاهر البهجة الشاملة على شاطئيه الممتدّين .

وتنطلق شاعرية التهامي في وصف آلاء النيل ومشاعر المصريين وفرحتهم يوم احتفالهم بوفائه ، فتتدفق كما يتدفق ماء النيل في مجراه العتيد من قديم الأزل ، منذ أجراه الله بنعمته وفضله العميم .

ثم يختتم الشاعر قصيدة الوفاء بأبيات يذكر فيها وحدة وادي النيل التي عاشت زمناً طويلاً

تصل مصر بالسودان ، وتربط أبناء النيل برباط متين من المحبة والتآخي ، حتى أنشب الاستعمار مخالبه ، وعمل الإنجليز على قطع العلائق ، وتمزيق الأواصر بين الأخوين ، وهبت أصوات من الجنوب تنادي بفصم العُرا ، وفصل جنوب الوادي عن شماله .

وكان لهذه الدعوة الخبيثة وقعها الأليم على نفس الشاعر ومشاعره ، فقال مخاطباً النيل :

أيها النيلُ عرفْنا نَهْجنا — وعرَفْنا وجهةَ المسْعَى إليْهْ
كيف وادٍ أنتَ مَنْ وحّدهُ — قطّعوه ثم نرضَى قطعتَيْهْ ؟
كيف يحيا جسدٌ مكتملٌ — رأسُه مرميّةٌ عن كتفيْهْ ؟

وفي الديوان قصيدة وطنية عنوانها « النيل بين الكفاح والنصر » ، ولكن الشاعر لا يتحدث في هذه القصيدة عن نهر النيل ، ولا عما أسدى من النعم على مصر والمصريين كما تحدث في قصيدتيه السابقتين ، بل إنه يتحدث عن شعب مصر الذي ارتوى بماء النيل ، وهو الشعب الذي كان وطنه هدفاً للمتربصين ، ونهباً للغزاة والطامعين ، فقد توالت عليه الإغارات ، ونهكته الغزوات من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب من قديم الزمان ، وانقضت عليه جحافل الغزاة من الحيثيّين والفرس والرومان والتّتر والتُّرك والفرنسيّين والإنجليز . ولكن شعب مصر الطيب يصبر على البلاء ، وقد يغفو قليلاً ، ولكنه سرعان ما يهب ، ليخلص وطنه ، ويثأر لكرامته ، فيكون ناراً لا تبقي ولا تذر ، أو ريحاً عاتية تدمر كل شيء بأمر ربها ، فلا يلبث الطامعون أن يولوا مدبرين ، لتبقى مصر دائماً مقبرة للغزاة .

يقول الشاعر في مطلع هذه القصيدة يخاطب النيل ، وهو يعني كما قلنا شعب مصر:

تمــرَّدْت في القيد لم تسْجُـدِ — ولــم تحْــنِ رأسَك للمعتـدِي
فيا لك يا نـيلُ مـن شـامخٍ — ويا لك يا نيـلُ مـــن سـيِّدِ
بَقِيتَ مَهيـباً عزيـزَ الجـنابِ — تحـلّق في مجدك السّرمدِي
يبـيتُ على شاطئيك الغـُـزاةُ — يظـنّون أنكَ ملكُ الـيـــدِ
وحـتى إذا أصبحوا أصبـحوا — فريسـةَ مِخْلبــكَ الأصيَــدِ

ويعود إلى التاريخ القريب فيشير إلى ما منيت به مصر من الاحتلال الإنجليزي ، الذي جثم على صدرها أكثر من سبعين عاماً بعد أن تخلصت من الحكم التركي ومن الاستعمار

الفرنسي ، ولم تستطع إنجلترا أن تهزم المصريين وتحتل بلادهم إلا بخيانة حكام مصر ، الذين لا يعنيهم إلا أن تظل عروشهم ، ويبقى لهم سلطانهم ، وقد بدأت تلك العروش تتهاوى أمام يقظة أبناء مصر وتمردهم على الحكم الجائر ، والسلطان الغاشم .

يسجل الشاعر في هذه القصيدة ذلك الحدث الخطير ، وما كان من خديوي مصر « محمد توفيق » من ممالأة أولئك الأعداء المعتدين ، ووقوفه إلى جانبهم ضد شعب مصر الذي انبرى للدفاع عن وطنه ، وقد رأى الخديوي صحوة هذا الشعب التي أصبحت تهدد عرشه بالسقوط ، وحكم أسرة محمد علي بالزوال . يقول التهامي في هذا الحدث الكبير الذي كان له أثره في تعويق الشعب المصري عن تحقيق آماله في العزة والكرامة ، وبلوغ المنزلة الجديرة به بين شعوب العالم :

فداسُوا ثراكَ ولولا الخيا ... نةُ قد كنتَ أمنعَ من فَرْقَدِ

وساروا على النيل في موكبٍ ... جبانٍ دَعيٍّ ومستأسدِ

وفي الركب سار « الخديو » الجبانُ ... تظلّله رايةُ المعتدي

علَى رأسه التاجُ تاجُ الهوانِ ... ذليلٌ على المَفْرَقِ الأنكدِ

ويهرُب من شعبه للعِدَا ... هروبَ العبيد إلى السيِّدِ

ويخضعُ للقيد في ذِلّةٍ ... خضوعَ البعير إلى المِقْوَدِ

فلا هو منّا ولم نرضَهُ ... وإن جاء في حظِّنا الأسودِ

ويستطرد الشاعر فيشير إلى شيء من فعال الطغاة من حكام تلك الأسرة التي ابتليت بهم مصر والمصريون ، فنفى عنهم ما كانوا يدعونه من السيادة والمجد ، وجرّدهم من فضائل النفوس ومكارم الأخلاق ، فهم مستكبرون على رعاياهم ، أذلاء أمام الأجانب من الأعداء المستعمرين ، لقد باعوا القناة للأعداء ، وتركوا الشعب يعاني ذل الفقر ومرارة الحرمان من خيرات بلده .

ولكنه شعب مصر الأبي الذي لا يقيم على ضيم ، ولا يصبر على هوان ، فقد هب يقاوم المستعمر ، ويحارب الطغيان ، حتى كتب له النصر على المستعمرين ، والقضاء على حكامه الفاسدين ، فيقول :

بُلينا بهم أسرةً كالذئابِ فمن كل وغدٍ إلى أوْغَدِ
أذلاء ، ثم لا يشبعون حديثًا عن المجد والسؤددِ
وما المجدُ إلا الذي يخطئونَ ولو كان منهمْ على موعدِ
فلا هم بأخلاقهم يشرفونَ ولا هم على كرم المحتدِ
أعانُوا على الشعب أعداءَه وسخّرَهم كلُّ مستعبِدِ
وباعوا القناةَ لأعدائنا وخلوا لنا الشعبَ صِفْرَ اليدِ
وما كنتَ يا نيلُ من تستكينُ ومن يرتضِي عيش مستعبدِ
فقاومْتَ طغيان مستعمرٍ غشومٍ تعوّد أن يعتدِي
وعلّمتَهمْ أنك المستميتُ وإن طال ليلُك لم ترْقُدِ

هؤلاء هم أبناء النيل الذين صبروا وصابروا ، وجاهدوا حتى كتب لهم النصر ، وعاشوا في بلدهم أعزة أحراراً ، وسادة كراماً .

وللتهامي في هذا الديوان قصيدة ثالثة عنوانها « مسيرة النيل » ، وهي أشبه بالمناجاة لهذا النهر الخالد الذي وصفه بأنه سرّ الحياة الذي بعث الحياة في الأرض الموات ، وأحال الرمال والجبال سهولا وأودية تنبت الزروع ، وتفعم الضروع ، وتغذو سكان الوادي بشتى النعم . ويقول في أولها :

طُفْ بالرمال وأحْيِها يا نيلُ ما أنت يا سرَّ الحياةِ بخيلُ
وانثرْ بها القُبَلَ العِذابَ على الثرى يَبْعَثْ مواتًا فوقهـا التَّقبيلُ
أجراكَ ربُّك بالحياةِ وطالما نَبتتْ حياةُ الناسِ حيث تسيلُ
وحباكَ قدرةَ صانع هذا الثَّرى فمضتْ يمينُك للجبال تهيلُ
فإذا بها وهي الشوامخُ تنحني وإذا بها في راحتَيْك سهولُ
وإذا الصحاري القفرُ تفتح صدرَها وتصولُ أنت بصدرها وتجولُ

ويستمر الشاعر في إحصاء تلك النعم التي أفاءها النيل على مصر والمصريين الذين عرفوها وقدروها ، وردوا ما هم فيه من خير ونعيم إلى نهرهم المبارك الذي لا يكف عن العطاء ، ولذلك قدّسوه وألّهوه ، وقدموا له الضحايا والقرابين ، واعتقدوا أنه الخلاق الرزاق .

ولا يفوته أن يلتمس لهم العذر في هذا الكفر وفي هذا الشرك ، فقد كان ذلك في عصور الوثنية التي لم تصل إليهم فيها دعوة من السماء ، فيقول :

وتخيلُهـا وهي العبوسُ بشاشـةً   خضراء يقطر ريقُها المعسولُ
وجرى النماءُ وراءَ خطوك ما استوى   يمضي وإنْ مال المسيرُ يميلُ
أبدعْـتَ حين بنيتـها مزدانـةً   ما فاتـك التّزيينُ والتّجميلُ
والناسُ حولك قد ملكْتَ نفوسَهُمْ   وتحيّرتْ فيما صنعْتَ عقولُ
حسبوك أنتَ خلقْتـهمْ ورزقتَـهمْ   فغدا لك التّقديسُ والتّبجيلُ
عُذراً لهمْ إنْ ألّهوك فإنّـهمْ   بالهَدْي لم يهبط لهمْ تنزيلُ

ولعلك رأيت فيما قرأت من هذا الشعر السلس العذب استغراق الشاعر في تجربته ، وإغراقه في وصف النيل ، وإحصاء أياديه على مصر ، وإغداقه على شعبها من فيضه وبره ، وما أفاء عليها من خيره .

ولقد رأيت أن الشاعر أخلص خطابه له ، ولم يشرك معه غيره في هذا الخطاب ، ولم يتحدث عن نفسه ، وإنما تحدث بمشاعر المصريين نحوه ، وكأنما جرّد من هذا النهر إنساناً عاقلاً يحس ويتدبر ، ويخصه بالخطاب ، ويخلص له الثناء .

ويتابع الشاعر مناجاة النيل وحديثه إليه ، فيعتب عليه عتباً رقيقاً ، كيف يدع مياهه تنساب في البحر ، ويدع الصحراء والرمال تحوطه من الشرق والغرب قاعاً صفصفاً لا حياة فيها ولا نماء؟

ونرى النيل يسرع إلى الجواب فيقول إنه قد يضن بمائه ما دام يرى أن خيراته وثمراته لا ينتفع بها أبناء مصر وحدهم ، وإنما يشاركهم فيها الغرباء والمستعمرون ، حتى إذا جَلوا عن الوطن واسترد المصريون حريتهم وكرامتهم تدفق ماؤه ، وحنَى رأسه للأحرار ليوجهوه حيث يرون فائدة البلاد والعباد ، ولذلك حنى رأسه ليبنوا في مجراه « السد العالي » ليتوافر لهم الماء إذا قلّت موارده منه حين تضن السماء بغيثها ، فيقول :

ولكمْ سألْتُك كيف تـتركُ ظامـئاً   يسعى إليكَ وما إليكَ وصولُ ؟
كيف الصّحاري القفرُ حولك تكتوي   ظمأً إليك وما إليك سبيلُ ؟
والماءُ عندك ضقتَ من جريانه   فتركتَه نحو الخِضَمِّ يسيلُ

فأجبتَ : كيف أجيبُ لهفة ظامئ ... يـروي وينمو زرعُه ويطولُ
والأرضُ ليس لشعبنـــا خيراتُهـــا ... ما دام يمرح في البلاد دخيلُ
إنْ لم يكنْ للشّعب خيري كلُّـــه ... فالبحـر بالخـير الغزير كفيلُ
واليوم حين رأيتَ شعبك قد غدا ... حرًّا وأشرق فجـرُه المأمولُ
لمْ ترضَ أن يحيـــا بأرضك أهلُها ... والخيرُ في يدهم هناك ضئيلُ
وخفضْتَ رأسك في سمـوّ بالـغ ... للسّـدِّ يحفظ ماءنا ويحـولُ
ويَسـيل خيرُك كلُّه فـــي أرضنـــا ... ما ذاك يا سـرَّ الحـياة قليلُ

وتمثل هذه القصيدة واحدة من القصائد الغر التي تجلت فيها شاعرية التهامي ، وبرزت فيها معالم ملكته الشعرية ، وقدراته الذهنية ، ومعارفه التاريخية ، وثقافته اللغوية التي يسرت عليه سبيل التعبير عما يدور بخلده من الخواطر والأفكار وما يختلج في صدره من عواطف وانفعـالات .

ولم تكن عناية الشاعر بالنيل في هذه القصائد الثلاث وغيرها إلا تعبيراً عن إحساسه العميق بالانتماء إلى هذا الوطن الذي سقاه النيل ورعاه ، وأنشأ على ضفتيه شعباً ، وأقام حضارات تتحدى الزمن ، وتصارع الأحداث .

ولقد أهدى الشاعر أغنياته لعشاق الوطن إلى أبويه اللذين ربياه ورعياه ، وإلى ولده الذي هو أمله في الحياة ، وإلى مصر جماع حبه وهواه .

والذي يتتبع شعر هذا الديوان يرى أنه ترجمة صادقة للعنوان الذي تخيره الشاعر له . وما اشتمل عليه الديوان من قصائد يمثل محاكاة واضحة لعواطفه الوطنية ، ومرآة انعكست على صفحتها مشاعره تجاه الوطن الذي وصف أرضه الطيبة ، وطبيعته الفاتنة ، ومناظره الساحرة ، وأجواءه الآسرة ، وحواضره التي خطت اسمها في كتاب التاريخ بأحرف من نور تشهد ببطولة أبنائها ، حتى ليصبح هذا الديوان سجلا حافلاً بأمجاد مصر ، وكفاح شعبها الأبي في سبيل الحرية والكرامة ، وجهاده في مناهضة المستعمرين والطغاة .

وتقرأ معالم هذه الوطنية التي استقرت في سويداء قلبه ، في مثل قوله في مطلع قصيدته « وطني » :

وطني كشفتُ اليومَ سرَّكْ وعرفتُ في الأهوال قدرَكْ
أسْقى هواكَ كأنني ما عشتُ ما أحببْتُ غيرَكْ
قضَيتُ عمري في هوا كَ ، وخلتُني أدركْتُ غورَكْ
حتى رأيتُك في دجى الـ أحداثِ قد أطلقْتَ بدرَكْ
ورأيتُ أنك في لِقا ءِ الحادثاتِ فتحْتَ صدرَكْ
فرأيْتُ جُرحكَ لم يُعوّقْ في زحمة الأشواك سيرَكْ
ورأيتُ فوقَ العاديا تِ وفوق كلِّ الهولِ صبرَكْ
فعرفتُ ما معنى الجلا ل وقد رأيت اليوم كِبرَكْ

وقد أنشد الشاعر هذه القصيدة في الهزيمة النكراء التي منيت بها مصر في عام ١٩٦٧ م يهيب بجيش مصر أن يصمد في القتال ، وأن يتشبث بوطنه ، فلا ينهزم ولا ينسحب ، بل يبقي رابضاً عند الحدود ، ولو كان سلاحه بندقيته المكسورة !

ويقول هذا وهو يذكر بسالة الجندي المصري عندما هاجم جيش الأعداء موقع حراسة « الصابحة » على حدود مصر عام ١٩٥٤م ، ولم يفر أو لم يستسلم للأعداء جندي واحد من الجنود المصريين ، حتى استشهدوا جميعاً ، وأسلحتهم في أيديهم ، فيقول في مقطعة عنوانها « بطولة » :

يا مصرُ قد سهرتْ عليك أسُودُ أرواحُهم حِصْنٌ لَديْكِ عتيدُ
من كلِّ مغوارٍ إذا حَمِيَ الوغَى يلقَى المماتَ المرَّ وهوَ سعيدُ
صانوا مواقعَهمْ وماتوا فوقها والمعتدون المجرمون شهودُ
لم يرجعوا شبراً ، ولم يتهيّبوا وتصيّدوا أضعافهمْ و يزيدُ
حتى إذا حُمَّ القضاءُ استُشهدوا ولمصرَ في أفواههمْ ترديدُ
ماذا يقول الشعرُ عند بطولةٍ الموتُ في فمها القويِّ نشيدُ

ويستوقفنا في أغنيات الشاعر لعشاق مصر رائعة من روائعه الوطنية ، التي تؤكد شعوره العميق بالانتماء الذي أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه ، وتلك هي قصيدته « عودة الغريب » ويبدو منها أنه أنشدها وهو بعيد عن مصر ، وربما كان ذلك في الفترة التي عمل فيها رئيساً لمكتب الجامعة العربية في مدريد .

و يروي لنا الشاعر في أوليات تلك القصيدة بعض ماكان يسمع وهو في ديار الغربة ، ويهم بالعودة إلى مصر ، من ناصحيه الذين كانوا يحذرونه من مغبة العَودة إلى مصر ، التي أخذوا يصفونها بأوصاف منفرة تزهد في المقام بها ، فقد تغيرت أحوالها ، وغصت بطلاب الحياة فيهـا ، حتى سدت السبل إليها ، وضاقت بمن فيها ، وأصبحت لا تتسع لمزيد ، وعم أجواءها الصخب والضجيج ، واحتدم الصراع بين طلاب الحاجات ، وانهارت القيم ، وانحلت الأخلاق ، واستبدت الأثرة بالنفوس ، وفاضـت السبل بالأقزام من أهل الرياء والنفاق ، ومن الوصوليين والمتسلقين ، حتى لم يبق على أرض مصر موطئ قـدم للشرفاء من ذوي الأصالة والموهوبين .

هكذا صوروا للغريب وطنه بعد رحيله عنه ، وهو برغم ذلك كله يصر على العودة إلى الربوع التي أحبها ، وإلى المعاهد التي عرفها ، فقد قاسى بحسه المرهف ألواناً من العذاب ، لم يطب له مقام ، ولم يطمئن له وساد ، يبرح به الشوق ، ويؤرقه الحنين ، ويشبه نفسه بالطائر الجريح الذي يتناسى جراحه وآلامه لاستغراقه في الهيام بالوكر الذي لا ينساه .

واقرأ معي هذه الأبيات :

لا ، لـن يعـودَ لغُربـةٍ	عن مصرَ قلبٌ يخفقُ
فَمِـنِ اسْمِهـا دقَّاتُــهُ	ولـوَ انّـه لا ينـطِـقُ
وجـدَ الحـياةَ بدُونـها	كالـوَهْم لا يتحقّـقُ .
فأقـام طـولَ غيابـهِ	لـرجوعـه يتحـرّقُ
فإذا تيَـقّـظ يكتـوي	وإذ تـوسَّدَ يـأرَقُ
ويهـمُّ كالطيـر الجَـريـ	ـح لعُشـّه يتشـوّقُ
لا الجـرحُ يثنيـهِ ولا	طولُ الطريـق معوِّقُ
ينـسَى الجـراحَ لأنّـه	بغرامِـه يستغـرقُ
طُوبَى.. إذا انضمّتْ ضُلو	عَ بعدمـا تتفـرّقُ
فالقلـبُ مذهـولُ العِـنا	قِ .. مكذِّبٌ ومصدِّقُ
من شوقـهِ يجْـثو يفـتّـ	ـشُ في التراب يدقِّقُ
و يشـمُّ حيـثُ يهـزُّهُ	في الأرض عطرٌ يعبَقُ
و يَهَشُّ في دمه الحنيـ	ـنُ المستفيضُ المغـرقُ

وهو ولهان متيم بحب مصر وأهلها ، لا يعدل بها ولا بهم بلداً آخر ولا قوماً آخرين ، ويذوب في المشاعر الحارة التي تنبعث من قلوبهم ، وهو راض بالحياة بينهم ، يقاسمهم النعمة والرخاء ، ويشاركهم في البأساء والضراء ، لا يبالي في بلده بزمهرير الشتاء ولا هجير الصيف . وقد شارك بما استطاع في الجهاد والكفاح ، ولا يضيره أن يكون بين أولئك الكبار العظماء صغار تافهون ومدّعون مراءون .

وأخيراً يناشد الأحرار منهم أن يلتقوا على الكفاح من أجل مصر الخالدة حتى يكونوا جديرين بالانتماء إلى هذا الوطن العريق ، فيقول عن نفسه :

ويـذوبُ في وهَج الجمو ... ع كقطـرةٍ تـترقـرقُ
فحياتُـه هـذي الحيا ... ةُ عَـبوسُها والمشـرقُ
كـمْ ذاق مُـرّ كفاحها ... حـين الكفاحُ مُعـوّقُ
كان المكافـحُ ساعـداً ... يُلْـوَى ، وساقًا تُوثَـقُ
والآن فالميدانُ حـرٌّ (م) ... يستجـيبُ ويُغـدِقُ
رغم الصغار التافـهيـ ... ـنَ إذا ادّعَـوا وتعملقُوا
لم يـقَ للأحرار فـي ... بلـدي سِـوَى أن يلتـقُوا
حـول الكفاحِ وحسْبهم ... أنّ المكافـح مطلَـقُ
إنْ لمْ .. فلا بَقِيَ انتِما ... ؤهُمُ لمصـرَ ... ولا بقُوا

وهكذا عبّر التهامي عن مشاعره الوطنية وحبّه لمصر في سائر قصائد الديوان ، فأثنى على نيلها المبارك ، ووصفِ أرضها الطيبة ، ومدنها وقراها التي كان لها ذكر في تاريخ الجهاد ، وكثيراً مما عاصره من الأحداث التي ألمّت بها ورثى الشهداء الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل عزتها وكرامتها ، وما أبدع قوله في أول قصيدتـه « وداع الشهيد » التي تتجلى فيها عاطفة الوطنية الصادقة :

إني وإنْ عصَف الأسى بضلوعي ... قسماً بروحِكَ لن تسيلَ دموعِي
إنّا دَفنّا عند قبركَ مـا بنـا ... مـن ذلّـةٍ ومهانـةٍ وخضـوعِ
أ يسير في ركْب البطولة شعبُنا ... ما بين مُضطربٍ وبين جَـزُوعِ ؟

إنْ نكّس الحزنُ الرّءوسَ فحزْننا كالتاجِ فـوق جَبينـنا المرفوعِ

قالوا نخيفُهم بقتلكَ فانبرتْ منّا جموعٌ من وراء جموعِ

ومواكبُ الشهداءِ لا يبكي لها وطنٌ ، ولكنْ ينحني بخشوعِ

وأطرى كذلك الأبطال الذين ضحّوا براحتهم ودَعتهم وجاههم وأموالهم وقضوا زهرة حياتهم في غياهب السجون ، ووحشة النفي والاغتراب ؛ لأنهم عرفوا حق الوطن فذادوا عن حياضه ، وتصدّوا للمغيرين على حرماته من أمثال: أحمد عرابي الذي أنشأ فيه قصيدته العصماء « كفر الدوار » ، والزعيم محمد فريد الذي لقبه « الشهيد الحيّ » ، والبطل أحمد عبد العزيز فارس حرب فلسطين ، ومحمود سامي البارودي « ربّ السيف والقلم » ، وقد رثاه بقصيدة غرّاء في مقدمة جياده ، وأولها :

قد كان بالأمس ربّ السيفِ والقلم وقد مضى السيفُ لم يَصْمُدْ ولم يَدُمِ

وحلّقـتْ في سماء الخـلد قافيةٌ تعلّمَ الدهـرُ منها روعـةَ الكَلِـمِ

شـتان بـين سـيوفٍ كلُّ عالَمِها بعـضُ انتفاضةِ منصورٍ ومنهـزمِ

وبـين صاحب فـنٍّ فوق راحـتهِ مدارجُ الفكر والإلهـام والقِيَـمِ

وقصيدته « يوم المنصّة » آخر قصائد الديوان (١٨٢).

ويوم المنصة هو اليوم السادس من شهر أكتوبر عام ١٩٨١م ، وفيه اغتالت يد الغدر الرئيس أنور السادات في أثناء شهوده عرض الجيش المصري في احتفال مصر بالذكرى السابعة لحرب السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م ، وهي الحرب التي انتصر فيها جيش مصر ، وطهر أرض سينا من رجس اليهود الذين احتلوها في حرب ١٩٦٧م . ويقول في أولها :

فـوقَ المدارك ما يجـري به القدرُ يا مصرُ إنّا أدارتْ رأسَـنا الصّـوَرُ

أ في الضّحا يتهاوَى الليلُ معتكراً وفي الزّفاف ينـوحُ العودُ والوَتَرُ

وفي السّلام وعينُ الأمن ساهرةٌ يُؤْتَى من الجهةِ المأمونةِ الحذِرُ ؟

ماكنتِ يا مصرُ ياخضـراءُ دامـيةً ولا تطايـرَ فوقَ الجـنّةِ الشـرَرُ

ويأخذ في تعداد أمجاد مصر التي يعدها « واحة الإيمان » من أقدم عصور التاريخ ، ويقول إن المصريين سبقوا غيرهم من الأمم والشعوب إلى معرفة الخالق والإقرار بوحدانيته ، وكأن النيل

قد أفاض عليهم هذا الإيمان الذي غرس فيهم حب الوطن ، والصبر على قتال الأعداء ، فلم يغر عليهم مغير إلا ردوه على أعقابه ، وطهروا بلادهم من دنس الأعداء .

وإذا كان هذا البطل قد هوى ، فإن وراءه أبطالاً قادرين على حمل الأمانة ومتابعة المسيرة إلى أقصى غاياتها في الحفاظ على تراب الوطن وسيادة أبنائه على مقدراته .

وقبل قصيدة « يوم المنصة » التي تحدث فيها عن مصرع البطل « أنور السادات » قصيدة أخرى أنشدها في « جمال عبد الناصر » وعنوانها « تخلف الدليل » (ص ١٧٨) وصف فيها هموم الوطن، وما يكابد شعبه في مسيرته من آلام ، وما يعترض طريق نهوضه من عقبات ومعوقات ، حتى إذا بدأ الأمل يشرق في واحد من أبناء مصر يقود مسيرتها إلى شاطئ السلام ، سرعان ما يختفي ، وتظل مصر تفتقد القائد أو الدليل الذي يسلك بها طريق الخلاص ، وفي هذه القصيدة يقول التهامي :

ومـرَّةً ونـحـن في صِـراعـنا نَصُـول
وتقطـعُ الطريـقَ مـن أمامـنا سُيُولْ
وقدْ قسَـا المسـيرُ فـي غـزارةِ الوحُـولْ
وشـدةُ الـضّلال تسـتـبدُّ بالعـقُـولْ
أضـاءَ في الدُّجـى لنا بوجْهـهِ الجـميلْ
وفـوقَ ليـلـنـا أطـلَّ فـارسٌ طـويـلْ
ليجْـدِلِ النجـومَ فـي ضفائـرِ النَّخيلْ
فيشـرِقُ الضـياءُ حـول وجهـها الصَّقيلْ
ليكشـفَ الغبـارَ عـن وجُودنـا الأصيلْ

تصوير رائع لحياة الضلال والضياع التي كان يحياها شعب مصر ، لولا أن تداركته العناية الإلهية ، فأتاحت له الفرصة في تحقيق الأحلام ، وبزوغ فجر جديد ، فكان هذا الأمل المنقذ من الضياع ، والمبشر بالغد المأمول في شخص الثائر جمال عبد الناصر .

والحديث في هذا المقام حديث مجرد لا يذكر فيه اسم الدليل أو اسم جمال عبد الناصر ، كالحديث في قصيدة « يوم المنصة » الذي لم يرد فيه اسم أنور السادات ، مع أن اسم « جمال » تردد في مواضع أخرى من هذا الديوان في بعض القصائد الوطنية التي نظمها الشاعر .

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر لا يفصح في عناوين قصائده ولا في أبياتها عن أسماء أكثر من يعرض لهم بالثناء أو الإطراء ، ولا يصرح بها اعتماداً على معرفة القارئ بهم ، ويكتفي بعرض صورهم ، وليس يخفى على القارئ المعاصر معرفتهم بتلك الصور بما أورد من الصفات المميزة لكل منهم ، أو الأعمال الكبيرة التي تنسب إليهم .

وقد درج الشعراء الأقدمون على أن يسجلوا أو يسجل رواة أشعارهم أغراض قصائدهم ، فيكتبوا في أولها أن هذه القصيدة أنشدت في مدح فلان أو هجاء فلان أو تهنئة فلان أو التعزية في فلان أو وصف ما يعنيهم وصفه من المشاهد أو الأحداث ، أو غير ذلك من الأغراض التي قصدوا إليها .

ولا شك أن لهذا الصنيع دلالته التاريخية التي تعين القارئ أو الدارس على فهم النص الشعري ، وتصله بمناسبته أو ظروفه ، وتفتح في الوقت نفسه الباب لإبداء الرأي فيه ، وإصدار الحكم عليه على هدي وبصيرة .

* * *

ولم يقصر التهامي في إطرائه أو إشادته على دعاة الإصلاح من رجال السياسة أو أبطال الجهاد ، بل إنه عني أيضاً بتمجيد طائفة من أعلام المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء وأرباب الفنون في مصر من الذين عاصرهم ، والذين ذاع صيتهم ، ودوت أسماؤهم في أجواء الحياة الفكرية والثقافية والأدبية والفنية ، وشهد لهم بطول الباع وعمق الأثر في نهضة الوطن وتربية العقول ، وإمتاع النفوس ، ووصف كل واحد منهم وصفاً دقيقاً ، مجد فيه نبوغهم ، وأشاد فيه بمواهبهم .

ومنهم الشاعر الموهوب عزيز أباظة ، وأحمد شوقي أمير شعراء العصر ، والشاعر المجدد صلاح عبد الصبور .

ومنهم من المفكرين والأدباء الدكتور طه حسين الذي لقبه بالطود الشامخ ، وعباس محمود العقاد ، وقد لقبه بالعملاق .

ومن أهل الفن مطربة الشرق « أم كلثوم » التي لقبها « القيثارة الخالدة » ويقول فيها :

مَـنْ عدَّ « أمَّ كلثوم » فرداً ... هـو غِـرٌّ أو حاسِـدٌ يتجـنَّى

إنما فـنُّ « أمِّ كلثوم » خَلْـقٌ ... وحـياةٌ قامـتْ تعمِّـرُ كَوْنَا

إنما فـنُّ « أمِّ كلثوم » سِحْـرٌ ... قد أحال النهارَ واللـيلَ فنَّا

إن أحطتُمْ « بأمِّ كلثوم » لفظاً ... لن تحيطوا « بأمِّ كلثوم » معنَى

ويستطرد إلى تصوير بديع ووصف بارع لفن أم كلثوم ، وصنعتها في الغناء ، وأثر شدوها في النفوس ، فيقول :

أسْمعتْنا الأنْغامَ حتّى انتشيْنا وسقتنا الأنغامَ حتى سَكِرْنَا

وأرتْنا الأنْغامَ حتّى رأيْنا لجمالِ الأنغامِ أنّا سُحِرْنَا

ووجدْنَا لدى الغناءِ وُجوداً هو أشْهَى من الوجودِ وأغْنَى

فيه يَلْقَى الهناءَ كلُّ تعيسٍ وينالُ المحرومُ ما يتمنَّى

أما الدكتور طه حسين أو « الطود الشامخ » كما لقبه الشاعر فقد خصه بقصيدة عصماء مجد فيها هذا الضرير الذي فاق المبصرين ، فقد فقد نور عينيه ، ولم يفقد نور بصيرته ، بل إن رؤاه من وراء هذه العيون عاشت واضحة مشرقة يشع سناها ، فيملأ الكون نوراً ، قضى حياته يطلب العلم في محرابه ، وينفر من التقليد ، ويدعو إلى تحكيم العقل الذي هو زينة الإنسان ، وإذا فقد الإنسان عقله أو عطل فكره كان أشبه بالعجماوات .

لقد أصبح هذا الكفيف العاجز معجزة حار في فهمها الناس ، وازدادوا بنبوغه إعجاباً . سافر إلى باريس ، وعاش فيها محبّباً إلى القلوب ، وعاد إلى وطنه يرفع راية العلم ، ويدعو إلى تحصيله ، وفتح الأبواب أمام طالبيه ، حتى قال إن حاجة الإنسان إلى التعليم لا تقل عن حاجته إلى الماء والهواء .

وقصيدة في طه حسين إحدى قصائده الجياد ، وحسبنا أبيات في أولها يقول فيها عن طه حسين :

فقدَ العينَ ولم يفقدْ ضياها فرأى ما لا تراهُ مُقلتاها

تعجزُ العينُ على إبصارها إن تصدّتْ لحجابٍ فتناها

وهو خلفُ الحُجْبِ تأتيه الرُّؤَى مشرقاتٍ يملأ الدنيا سَناها

كمْ طوَتْ عن عيننا أسرارها وانبرَى ينظرُ فيها فرآها

وحبَا للعلم في محرابهِ فصحا المحرابُ واشتدَّ انتباها

وأصاخَ السمع للصوت الذي زلزلَ الفكرَ أساساً واتّجاها

وأقامَ العقل سلطاناً رمَى كلَّ من يُلقي على العقل اشتباها

إنما الناسُ عقولٌ إنْ غفَتْ أصبح الناس خِرافاً وشياها

وإذا كان طه عند الشاعر طوداً شامخاً ، فإن العالم الأديب الكاتب الشاعر الناقد المعروف عباس محمود العقاد عنده هو « العملاق » .

« والعملاق » في لغة العرب ، من الإنسان والشجر ما يفوق غيره من جنسه في الطول والضخامة ، ووصف المحدثون الفائق المبرز في الأدب والسياسة بالعملاق ، وبه وصف العقاد، الذي كان طوالاً فارع الطول ، كما كان الأديب المتفوق على أقـرانه من أدباء العصر بما أبدع في صناعة النظم والنثر ، وفي النقد والتقويم ، وفيما تناول من سير العظماء والأدباء ، وفي كتاباته السياسية التي كان بها علما من أعلام الوطنية ، لا يُطأطئ رأسه لمتكبر ، ولا يصانع مستعمراً ، ولا يرهب حاكماً متسلطاً ، ولا يخشى في التصريح برأيه لومة لائم مهما أصابه من ضروب العسْف والتضييق ، وما قاسى من البطش وظلمات السجون ، حتى لقد وصفه الناس بالكاتب الجبار .

اقرأ ما قال التهامي في هذا « العملاق » :

حياتُـكَ في فم الدنيا حكايـهْ ... وموتكَ في كتاب الخُلـدِ آيـهْ
مسـيرتُك الطويــلةُ لا تـولّي ... فـلم يكتبْ لها الموتُ النهايـهْ
كتبتَ فصولَها وحكمْتَ فيها ... وصُغْتَ بعبقـريّتكَ الروايـهْ
وأحكمتَ المسـيرةَ منذ كانتْ ... وحـدّدتَ الطريـقَ من البدايـهْ
فقـد أدركْــتَ أنـك عبقريٌّ ... وأنّ الله أولاكَ العنــايــهْ
وأنّ العــلمَ بـين يديكَ حقّ ... وإنْ فاتَتْكَ في الدرس الرعايهْ
وأنــك قــادرٌ حتـماً علـيهِ ... لأنّ كفاحَك المضْني هوايهْ
وأنّ إرادةَ الإنســان ترْمِــي ... على صدقٍ فلا تنبُو الرِّمايهْ
قهـرْتَ العيش لم تخضعْ لديهِ ... ولم تـرفعْ لقسـْوتهِ شِكايهْ
ولكــنْ ذُقْـــتَهُ مـُـرًّا وحُلـواً ... فعندكَ من كرامتكَ الكفايهْ
وهانـتْ عندكَ الدنيـا جميـعاً ... ولمْ تفـلحْ لفتْنتها غِـوايـهْ
فـكلّ متاعـِها والجـاهُ منها ... وكلّ ثرائها الغـالي نفايــهْ

يشير الشاعر إلى إيمان العقاد بالمعرفة ، وهيامه بالقراءة ، وسعة الاطلاع ، وعمق الوعي ، وأنه لم يبلغ ما بلغ عن طريق التعلم الرسمي ، ولكنه كان يعلم نفسه بما ألزمها من الجد في تحصيل العلم ، بالرغم من أنه لم يتجاوز في تعلمه المدرسي المرحلة الأولى ، ولم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية ، وبرغم ذلك فاق الذين واصلوا الدرس حتى حصلوا على أعلى الدرجات العلمية ، والشهادات الجامعية .

* * *

وهكذا رأينا التهامي و وعيه الوطني واستيعابه تاريخ مصر الحديث الذي عاصر كثيراً من أحداثه في هذا القرن وأخريات القرن السابق ، وهي الأحداث التي كان لها أثر فعال في حياة المصريين ، ونهضة بلادهم ، وليست إشادته بأمثال أولئك الأعلام في مجالات الحرب والسياسة ، وفي مجالات العلم والفكر والفن إلا صدى لإحساسه العميق بعمق أثرهم في دعم تلك الحضارة المصرية العريقة ، وإنهاض شعب مصر ، لتظل رايتها مرفوعة تخفق في سماء المجد ، التي رفعها الأسلاف منذ فجر التاريخ ، وتغرس في نفوس الأخلاف روح العمل والفداء ، والتضحية بكل غال من المهج والأرواح .

* * *

وبعد ، فإني لا أحسبني مغالياً إذا قررت أنني لا أعرف بين شعراء العربية المعاصرين شاعراً هام بمصريته ، ومجّد قومه ، وفتح لهم قلبه ، و وهبهم شاعريته كما فعل محمد التهامي في هذا الديوان الذي كان بحق « أغنيات لعشاق الوطن » كما سماه !

إن دواوين التهامي الأربعة التي أخرجها للناس تفيض بالتعبير عن شعوره العميق بالانتماء إلى هذا الوطن ، عشق ترابه ، وأشاد برجاله ، وللأمة العربية والجنس العربي الذي أخلص له ديوانه الذي أسماه « أشواق عربية » وللصلة الوثقى التي تصله بعقيدته الروحية التي جلاها ، وأخلص لها ديوانه « أنا مسلم » .

وأخيراً ... لم يكن ديوان التهامي « دماء العروبة على جدران الكويت » الذي عبر فيه عن عواطفه الملتاعة تجاه الصدع الذي شق بناء العروبة ، وقوّض وحدتها بعدوان بعض أشقاء الكويت وجيرته على حماه إلا صدى لحبه وغيرته على العروبة في كل مكان .

* * *

وبقيت كلمة في الفن الشعري عند التهامي .

ونحن نقرأ في هذا الشعر روعة الأداء ، وسلامة البناء .

وإذا كان الأدب هو الأديب ، والأسلوب هو الرجل ، والشعر صورة لصاحبه ، فإن الشاعر قد عكس على صفحة شعره صورة ما طبع عليه من السماحة التي نراها في أسلوبه الصافي ، وفي ألفاظه العذبة المستملحة ، التي لا نرى فيها شيئاً من غريب اللغة ، أو من التعقيد في المعاني .

وكأني بالشاعر يمتاح من جدول رقراق ، لا يكفّ عن التدفق والانسياب ، وليس ذلك إلا لتمكّنه من اللغة التي أمدته بهذا الحشد من المفردات ، الذي أعانه على الوفاء بما تقتضيه كل فكرة من الفكر ، وكل معنى من المعاني في غزارة ملحوظة ، وذوق سليم ، كما أعانه على تخير اللفظ الرشيق ، الذي يؤنس القارئ ، ولا يوحش على المتلقي . وتلك حقيقة نفتقدها في كثير من شعر المحدثين الذين يهملون هذا الركن من أركان التعبير الشعري الذي-لم يفقد اعتباره في أي عصر من العصور . وقديما عرف « أرسطو » الشعر بأنها ضرب من المحاكاة أداته اللغة .

على أنه قد يستوقفنا قليل من الهنوات ، نظنها من أخطاء الطباعة ، كضبطه جيم « تعجَز » بالفتح في قوله (ص ١٦٢) :

تعجـــزُ العـين على إبصارِهـا ... إنْ تصــدّتْ لحجـابٍ فتنـاها

والصواب « تعجِز » بكسر الجيم ، لأن « عجَز » من باب ضرب .

وقد يبالغ الشاعر في تبسيط العبارة حتى تلين وتصبح أشبه باللغة المبتذلة ، أو بتعبير العامة كما في قوله في وصف النيل إذ احمرّت مياهه بما تحمل من طمي في أثناء فيضانه (ص ٩٣) :

مغـرمٌ في دَمعــهِ مــن دَمِـه ... حُمْـرةٌ نمّــتْ على حبٍّ لَديْـهْ

هــو يهـوَى مصرَنا من زمنٍ ... غــارقٌ فـي الحــبِّ حتّى أذنَيْهْ

واللين ظاهر في الشطر الثاني من البيت الثاني ، وما أقربه من قول العامّة « غرقان لشوشته » !

وقد يَغفر له هذا اللين جمال البيت الأول بلفظه ومعناه .

ويصوغ التهامي تجاربه الشعورية في إطار جميل من قوالب الشعر الرصينة التي تؤلف من كل قصيدة وحدة موسيقية متسقة ، على تخير من لذيذ الأوزان الخليلية المأثورة ، يلتزمها الشاعر في سائر أبياتها ، كما تأتلف فيها وحدة الموضوع أو وحدة الغرض الذي قصد إليه الشاعر ، فتتمثل القصيدة بناء فنيا متماسكاً متكاملاً بمضموناته ومعانيه ، وبوحدة قوالبه وأشكاله وقوافيه ، التي تنتظم بها موسيقي الشعر وتتأكد .

ولم أر في ديوانه « أغنيات لعشاق الوطن » شيئاً من الخلل في موسيقي الأوزان إلا في شطر من بيت واحد في قصيدته « النيل بين الكفاح والنصر » (ص ٩٨) التي يقول في أولها مخاطباً النيل :

تمـرّدْتَ في القـيد لم تسجُـدِ ولم تحْــنِ رأسَكَ للمعــتدِي

وذلك في قوله عن « الخديوي » الجبان الذي حمته حراب الإنجليز :

على رأســه التــاجُ تاجُ الهـوا نِ ذليلٌ علـى المفــرق الأنكــدِ

غريــبٌ تمــلّــك أوطــانــــنا فَلَـمْ يُنصــفِ الشعبَ ولم يُسْعِـدِ

الخلل هنا في الشطر الثاني من البيت الثاني ، والقصيدة من بحر « المتقارب » ووزنه الكامل ثمانية أجزاء على وزن « فَعُولُنْ » .

وكان وزنه يستقيم لو أنه قال :

* فلمْ ينصف الشعْبَ أو يُسْـعدِ *

* * *

وليس يفوتنا ونحنُ نكتب عن التهامي وشاعريته أن ننبه على أنه عاش في زمن كثر فيه المتمردون على أبنية الشعر الموروثة ، والخارجون بدعوى التجديد على تقاليده الموروثة في القوالب والأشكال ، حتى إن بعض المجيدين من شعراء العصر في نظم أشعارهم بالأوزان التقليدية للشعر العربي جرفهم التـيار ، وآثروا أن يركبوا موجة التجديد ، فألفوا ما أصبح يسمى « الشعر الحر » أو ما يسمى « شعر التفعيلة » أو غير ذلك من التسميات المبتدعة .

وتصدى لهذه الدعوة طائفة من أعلام الشعر في هذا العصر ، في طليعتهم العقاد وصالح جودت وغيرهما من الذين رفضوا هذه البدعة الجديدة ، وأنحَوا على دعاتها بالعيب ،

ووصفوهم بالعجز والقصور عن الإجادة في النسق المألوف ، فتنكبوا الطريق ، وانحرفوا عن القصد .

ومن هذه الطائفة من أهل الحفاظ شاعرنا التهامي الذي بقى على العهد ، واثقاً بنفسه معتمداً على تقدير الجماهير لفنه ، الذي حرص على قوالبه ونهجه ، وكان من وراء ذلك ما أسلفنا من حديث عن أصالته ، وشعوره العميق بالانتماء إلى عقيدته ، وإلى وطنه وإلى أمته التي آمن بأمجادها ، وبما خلفت من تراث في العلم والفكر وفي الفن الشعري لم يجد سبباً للنكوص عنه ، أو للشك فيه ، أو محاولة استبدال غيره به .

وقد عبر عن رأيه في هذا النهج الملتزم في قصيدته المحكمة ، التي مجد فيها فارس السيف والقلم ، وباعث نهضة الشعر محمود سامي البارودي ، الذي أعاد الشعر العربي إلى سابق عهده في عصور القوة والازدهار ، حيث يقول في ثنايا تلك القصيدة عن البارودي :

وشقَّ بالشعر قلبَ الكون فانطلقَتْ ... آهاتُـهُ لتغنّـي روعـة الألَـمِ

وأعـلن الشعـرَ أسـراراً مخـبّأةً ... فـي عين باكـيةٍ أو ثغر مبتسِمِ

سِـرُّ الحـياةِ ومعناها وغايتُها ... غنّى بها الشعرُ في تطريب منسَجِمِ

وساقَها في دَلال اللفظ راقصةً ... فتّانـة الخطْـوِ والإيقاعِ والنغمِ

فإنْ تخـلّف عن إيقاعـه وتـرٌ ... فلا حـياةَ للحـنٍ غـير منتظمِ

فإنما الشعـرُ موسيقَى موَقَّعةٌ ... إلْهامـهُ مطْلقٌ في قيـد مُلتـزِمِ

منْ لم تُطعْـهُ قوافيهِ وأبحـرُهُ ... فما الخليلُ على هـذا بمتَّهمِ

هذا رأي التهامي في شعر البارودي ، وهو رأيه في الشعر حيث يكون .

عُمَر أبو ريشَــة

في الطليعة من الشعراء في هذا العصر ، وربما كان شعره أكثر تمثيلا لروح العصر ، من حيث تعبيره عن مشاعره تجاه الأحداث التي عاصرها ، وفي مقدمتها ما ألم بوطنه من عسف المستعمرين الفرنسيين واستبدادهم ، ومن حيث صدقه في التعبير عن تجاربه الذاتية ، ووصفه لأحاسيسه ومشاعره ونوازعه من غير محاولة لإخفاء شيء منها .

وعمر أبو ريشة واحد من أعلام البعث الجديد في عالم الشعر العربي ، ولا أعني بذلك التجديد العروضي ، أو التجديد في القوالب والأشكال المأثورة ، ولكني أقصد التجديد في المضمونات ، وتعبيرها عن مشاعر أصحابها ، وخلجات نفوسهم ونوازعها ، وتصويرها في تساميها وتدنيها ، وفي صعودها وهبوطها ، وهيامهم بمفاتن الطبيعة ، والتأنق في وصفها ، والإبداع في التخييل والتصوير.

وذلك من معالم الرومانسية الجديدة التي كثرت في الشعر العربي في هذا القــرن ، وبرزت معالمها في شعر عدد كبير من شعرائنا في مقدمتهم : خليل مطران ، وإبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، ومحمد عبد المعطي الهمشري ، وصالح جودت ، وأبو القاسم الشابي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وغيرهم من شعراء جماعة « أبوللو » .

* * *

وفي « مَنْبِج » منَ أعمال حلب في بلاد الشام ولد عمر أبو ريشة الذي كان أبوه قائما بإدارتها ، وفي « مَنْبِــج » ولد قبله شاعران كبيران من أعلام الشعر العربي في العصر العباسي، أحدهما أبو عبادة البحتري ، والآخر فارس بني حمدان أبو فراس .

وأتم شاعرنا دراسته الابتدائية في مدينة حلب ، وأتم دراسته الثانوية في الجامعة الأمريكية في بيروت .

وقد نشأ عمر أبو ريشة في بيئة شاعرة ، وولعت أسرته بهذا الفن الجميل تنشئه وتنشده وترويه ، فقد كان جده وأبوه شاعرين مجيدين ، وكان لأمه ولوع بالشعر الصوفي ، تحفظ منه

عشرات القصائد وآلاف الأبيات ، وكذلك كان أخوه شاعراً ، وكانت أخته شاعرة . وكان لذلك أثره الواضح في هيامه بفن الشعر منذ كان صبيا ، كما كان له أثره الواضح في شحذ ملكته ، وموالاته نظم الشعر حتى برع فيه وأبدع ، وأصبح علماً من أعلامه المعروفين في العصر الحديث .

ولقد أراد له أبوه أن يتخصص في صناعة النسيج ، فأوفده في سنة ١٩٣٠م وسنّه إذ ذاك عشرون سنة إلى إنجلترا ليدرس صناعة النسيج في مدينة مانشستر ، ولكنه انصرف عن صناعة النسيج إلى صناعة الشعر ، فأكب على قراءة أشعار شكسبير ، و شيلي ، و كيتس ، و ملتن ، و پو ، و براوننج ، و بودلير .

وكان أحب هؤلاء الشعراء إلى نفسه بودلير و پو ، وكان يقضي الساعات الطوال في قراءة أشعارهما . وقد فتن بهما لأنهما كانا كما يقول « أشبه بلولب صور في حانوت رسام ، كيفما حركته وجدت صوراً جديدة تختلف كل صورة عن أختها ، وفي كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق ، فلا تشعر بملل ، ولا تحسّ بتعب ...»

ولقد كانت شاعرية عمر أبي ريشة نتاج التفاعل بين تلك العوامل والمؤثرات ، وهي عامل الوراثة لعشيرته الأقربين الذين ولعوا بفن الشعر ، وورث عنهم الولوع به ، ولعبت غريزة المحاكاة دورها في شحذ ملكته واستعداده الفطري لصناعة الشعر ، وهو الفن الجميل ، أو الفن الأثير عند أمته العربية ، إذ كانت أصوات الشعر تنطلق من كل مكان في أرض العروبة ، وتتجاوب أصداؤها في سائر الأجواء ، بعد أن تهيأت أسباب النهوض في شتي مناحي الحياة ، ثم قراءاته في الشعر العربي . وهو يقرر أنه أحب في أول نشأته شعر البحتري وأبي تمام وشوقي وأضرابهم ، لأن أساتذته كانوا يغرقون في امتداحهم ، ولا يشحذون لسانه إلا بشعرهم .

ويقول إنه إن كان قد استفاد شيئا من هؤلاء الشعراء فإنما استفاد اللغة والتركيب ! أما الفكرة الشعرية فقد كبا دونها خيالهم الكسيح !

وأهمس في أذن الشاعر الكبير لأقول له :

(١) إن الشعر وحده ليس الطريق إلى معرفة اللغة وتأليف الجمل والتراكيب .

(٢) إن وصفك خيال البحتري وأبي تمام وشوقي وأضرابهم بأنه خيال كسيح فيه تجاوز كبير لا يقرك عليه أديب أو ناقد من المنصفين .

(٣) وحكمك على هؤلاء الشعراء بالخيال الكسيح لا يكفي لإثباته أقل القليل الذي قرأته من شعرهم في المرحلة الثانوية التي لم تتجاوزها في دراستك قبل سفرك إلى مانشستر لتتعلم صناعة النسيج في سن العشرين !

ونقـرأ بعد ذلك قوله « سئمت هذا الشعر وهذه الزمرة من الشعراء ، فعدت بعد ذلك أبحث في كتب الأدب علّني أجد ما أروي به ظمئي ، فعثرت على شعر جيد مبعثر هنا وهناك كأبيات لأبي صخر الهذلي ، وأبيات لعبدة بن الطبيب ، وابن رزيق البغدادي ، والوليد الأموي ، والأسدي صاحب القصيدة الرائعة :

نأتْ دار ليلى وشطَّ المزار   فعينـاكَ ما تطعمان الكـرَى

ونحمد الله أنه استطاع أن يعثر في ذلك الخضم الزاخر من تراث الشعر العربي طوال خمسة عشر قرنا من الزمان على شيء يعجبه في أبيات معدودة ذكر أصحابها ، وفي قصيدة واحدة للأسدي !

ولو أن أبا ريشة أتيحت له قراءة الشعر العربي قراءة وعي واستيعاب لكان له رأي آخر ، ولعرف أن شعراء العربية فيهم شعراء الفكرة ، وشعراء الصورة ، وشعراء الخيال ، وشعراء العاطفة ، بل وشعراء القصة من لدن عصر الجاهلية الأولى إلى العصر الذي نعيش فيه .

وإذا كان هذا رأيه في ثلاثة من كبار شعراء العربية ، فما رأيه في ابن الرومي ، والمتنبي ، والشريف الرضي ، وابن خفاجة ، وابن زيدون ؟ بل ما قوله في خليل مطران ، وعلى محمود طه ، وإبراهيم ناجي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وعشرات من أفذاذ الشعراء القدامى والمحدثين ؟

ولعلها « بدعة العصر » وأعني بها نزعة التنكر لأصالة هذه الأمة في مجالات الفن والفكر ، التي يبعث عليها الغرور ، أو شهوة الإدلال على الأتراب من الذين يؤمنون بهذه الأصالة .

أو لعلها مما أصبح يعرف « بعقدة الخواجة » ، ولم يكن عمر أبو ريشة وحده الذي ثار هذه الثورة على الشعر العربي ، بل لقد سبقه كثيرون من الذين ينتمون إلى هذه الأمة ، ولم يعجبهم في عالم الشعر إلا شكسبير وشيلي وكيتس وبودلير إلى آخر هذه الأسماء التي عددها ومجدها أبو ريشة .

وماكنت أحب أن أقف هذا الموقف من شاعر كبير أعترف بمنزلته العالية في سماء الشعر

الحديث ، لولا أنه أراد أن يبني مجده على أشلاء غيره من الذين يعتد بهم الشعر العربي .

وعمر أبو ريشة مع ذلك قمة من القمم الشامخة في الشعر العربي المعاصر في الشام ، التي عطرت بشذاها أجواء الأدب في أرجاء الوطن العربي .

* * *

ولعل في هذه السطور ما يكفي لإلقاء الضوء على شخصية الشاعر الذي أهلته شاعريته لعضوية المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٨م ، وبعدها بسنتين الحق بالسلك السياسي ، فعين وزيراً مفوضاً لسوريا في البرازيل ، ثم في الأرجنتين ، ثم في الهند ، وكان لذلك أثره في سعة معلوماته ، وكثرة تجاربه التي ظهر أثرها في شعره .

وقد آن أن نلقي بعض الأضواء على فنه الشعري ، ونبدأ بعرض هذه الأبيات التي تكشف عن بعض مشاعره :

رُبَّ ضـاقت ملاعِبِي   في الدّروب المقيّدهْ
أنـا عُمْـرٌ مخضَّـبٌ   وأمـانٍ مـشـرَّدهْ
ونشيـدٌ خنقـْتُ فـي   كبـريائي تنهّـدَهْ
رُبَّ مازلـتُ ضـارباً   من زماني تمرُّدَهْ
صغرُ اليـأسُ لن نرى   بين جفنيّ مقْصِدَهْ
بسَمـاتـي سخيـّةٌ   وجِـراحي مضمَدَهْ

وقد اخترنا هذه الأبيات من ديوانه لنفتتح بها هذه الإشارات السريعة إلى معالم شاعرية خصبة ، ترفدها ينابيع ثرة ، تستقي من معين عذب دفاق في سلاسة وهدوء وصفاء ، ترتوي من سلافها الأنفس الظماء ؛ لأن هذه الأبيات تجتمع فيها خصائص شعره من حيث المباني ، ومن حيث المضمونات والمعاني ، فهي تصور أسلوبه السلس الرقيق ، وتمثل مشاعره الحساسة ، وروحه الهائمة ، وهي تحاول الإفلات من القيود والأغلال ، لتنطلق إلى عالم الحرية الذي تشرق منه شمس الأمل ، وتحيا في عالم جديد لا سدود فيه ولا قيود ؛ لأنها روح متمردة على تلك الحواجز والعقبات التي تحول بينها وبين التحليق في سماء الأحلام .

وينعي عمره الذاهب في صراع الزمان الذي شرد أحلامه ، وقوّض صرح أمانيه ، وكتم أنفاسه ، وحال بينه وبين الشكوى من الحدثان ، والتصريح بما يكابد من معاناة في ذلك

الصراع ، وكأنه هو والزمن في حرب سجال ، فلا يفتر عن مصاولته ، ولا ييئس من مصارعته مهما يطل ليل الخطوب ؛ لأن اليأس لايعرف إلى قلبه طريقاً ، وسيظل سمحاً باسم الوجه ، يضمد بصبره جراح الأحداث ، ويتابع مسيرته في أنفة وكبرياء .

مَعاذَ خلال الكِبْر ما كنتُ حاقداً   ولا غاضباً إنْ عابَ مَسْرايَ عائبُ
فكمْ جَبَـلٍ يغْفـو على النَّجم خدُّهُ   وأذيالـهُ للسّائمـاتِ ملاعـبُ
نظـرْتُ إلى الدنيا فلم آلَفِ عندها   كبيراً أدَاري أو صغيراً أعاتـبُ
وما هانَ لي في موقف العِزِّ موقفٌ   ولا لانَ لي في جانب الحقِّ جانبُ
فيا غُرْبَةَ الأحرار ما أطول السُّرى   وملءُ غياباتِ الدرُوبِ غياهِبُ

تلك روح عمر أبي ريشة الصابرة على الخطوب ، الصامدة في وجه العواصف ، لا يعرف صاحبها الحقد على أحد ، ولا الغضب على أحد وإن انتقصه أو عابه ، والناس في نظره سواء ، لا يرى فيهم كبيراً يضطر إلى مصانعته ، أو مداراته ، ولاصغيراً يحاسبه على ما يبدر منه .

وهو مع ذلك حفيظ على كرامته ، حريص على ترفّعه ، لا تهون عليه نفسه ، ولا تلين له في جانب الحق قناة . وهكذا تمضي حياة الأحرار في ليل طويل ، تكتنفهم الظلمات ، لا يسالمهم الزمان ، ولا يسلمون له العنان .

وتلك صورة الشاعر التي نراها كما صورها في شعره ، بقلم الشاعر ، وأنامل الفنان في تلك المجموعة من شعره التي جمعها في ديوانه الأنيق .

* * *

وإنك لتقرأ ما تقرأ من شعر أبي ريشة في هذا الديوان ، فيروعك ما تقرأ من آيات الإبداع في الفن الشعري التي تجلى في أناقة التعبير ، وفي ثراء المضمونات ، في ذلك الديوان الذي تبدو فيه روعة الشعر الغنائي ، الذي يتحدث فيه الشاعر عن نفسه ، ويصف أحاسيسه ومشاعره ، ويشرح تجاربه الشعورية الذاتية ، تجري عبارته عذبه نقية ، لا تلحظ فيها شيئا من إغراب المتكلفين ، أو إسفاف أشباه العوام من المتشاعرين ، الذين يقحمون أنفسهم على هذا الفن الإنساني الرفيع ، وهم لا يملكون أداة الإبداع في نظمه وتأليفه ، واللغة هي أداة المحاكاة في فن الشعر ، وكلما كانت التجارب قوية احتاجت إلى عديلها من العبارة القوية المحكمة ، ومن البيان الناصع الرصين .

ولقد عبّر عمر أبو ريشة في شعره العذب الرصين عن هموم نفسه ، وعن أمانيه وآلامه وتجاربه في شتي مجالات حياته .

استمع إليه في هذه الهمسات :

لم أصدّقْكِ حين قلتِ : سآتيكَ وألقاكَ في « ڤِينَّا » الجميلهْ
قُلتِها بعدَ ما ترنّحْتِ بالكأسِ و وسّدْتِها الشفاهَ النّحيلهْ
إنها خَطْرةٌ علـى السُّكر مرّتْ لمْ أعِرْها مـن التفاتي قَليلهْ
وتناسيتُها ، فما أنا ممّنْ في زحام الرُّؤى أضلّ سَبِيلَهْ
وافترقْنا ولم يمرّ بجَفْنِي مَنْكِ طيفٌ عَبْرَ اللّيالي الطويلهْ

أفصح الشاعر في هذه الأبياتِ عن صبوته ، و ولعه بالحسن ، وفتنته بالجمال الذي كان يبحث عنه أينما سار في رحلاته الكثيرة ، وفي أسفاره البعيدة في أوربا وأمريكا وفي الهند ، وفي بلاد كثيرة في الشرق وفي الغرب ، ويتتبعه تتبع الظمآن للورد الذي يبل صداه ، ويشفي غليله .

إن آثار تلك التجارب واضحة بارزة في شعر عمر أبي ريشة .

ولا أستطيع أن أقول إن هذا الشعر كان تعبيراً عن عاطفة الحب التي استولت على قلب الشاعر . ولكنني أستطيع أن أقول إن هذا الشعر أجدر أن يوصف بأنه « شعر مغامرات » من أن يوصف بأنه من شعر النسيب ، الذي هو أثر تجربة العاطفة الصادقة التي يحس فيها المحبون بتباريح الصبابة ، وحرارة الوجد ، ومعاناة الأشواق ، ولذة الوصل ، ونشوة اللقاء ، وغير ذلك مما يحسه العاشقون المتيمون .

* * *

وقد تجد في شيء من هذا الشعر بعض الصور التي يبرز فيها أثر صراع داخلي ، يضطرم في أعماق الشاعر الذي يخوض التجارب ، ثم ينساها ، ثم يأسى لضياعها . . وقد يخلع ذلك الأسى على من نسيه ، ليبرّئ نفسه ، كما ترى ذلك في قوله فيما سماه « أوراق ميت » :

إنها حجرتي . . لقد صَدِئ النسيان فيها . . وشاع فيها السكوتُ !
أدخلي بالشموع . . فهي مـن الظّلْمَة ذكرٌ . . في صدرها منحوتُ

وَانْقلي الخطوَ باتّئادٍ . . فقدْ يجْفِل منكِ الغبارُ والعنكبوتُ

عند كأسِيَ المكسُورِ . . حزْمةُ أوراقٍ . . وعُمرٌ في دفّتيها شَتِيتُ

اِحْمليها . . ماضي شبابِكِ فيها . . والفتونُ الذي عليه شَفيتُ

فقد برزت في هذه الأبيات القليلة حرارة انفعال بالألم لما ضيّع أو ضيعت من عمره ، حتى بدت حدّة الانفعال واستجابة التعبير عما أحسّ من الضياع بعد تحطم الذكريات ، فأحالت قلبه الخصب الممرع إلى صحراء موحشة ، أو قصر مهجور رحل عنه آهلوه ، فعلاه الغبار ، وخيّم فيه العنكبوت .

فهذه تجربة حبّ عميق أنست الشاعر الكبير أن الكأس في كلام العرب مؤنثة ، وإن كان ذلك لا يخفى على مثل الشاعر الكبير الذي حلّق في آفاق بعيدة من الإجادة والإتقان ، تدل على امتلاكه ناصية البيان ، ألا تراه في مجموعة تالية من الأبيات يعالج مثل هذه المعاني قد أعاد إلى الكأس صوابها ، وأعاد لها أنوثتها فقال :

عُدْتِ لي .. هل عادَ من غُربتهِ شوقُكِ المضطربُ المضطرمُ ؟

كمْ نطقْتِ الغـوايات بـهِ وجناحاه الظّما والنـَّهَمُ ؟

أيّ كـأسٍ شئْتِ أن تلْـهَيْ بها لم يكنْ يرشحُ منها النّدمُ !

عُدْتِ لي .. يا طولَها من غُرْبَةٍ خَـدرَ الصبرُ بهـا والألـمُ !

كيفَ ألقاكِ ؟ وهل يُرضيكِ أنْ يتعـرّى جُـرحي الملتئمُ ؟

أمنياتي . . ذهـبَ الماضي بهـا وخيالاتي .. طـواها القِدمُ !

* * *

على أن العاطفة الصادقة كثيراً ما تحتجب وراء تلك السحب العارضة التي تتفرق قطعها في آفاق الشاعر . ولكنها لا تلبث أن تمزّق هذه السحب ، لتشتعل نارها المتأججة بين جوانب شاعر الحب والجمال ، الذي يرى وجه الحياة عابساً مظلماً ، إذا حرم الشاعر الولهان نعيم الحب والحنان.. وهو الذي يقول :

للحـبّ هـذا العمـرُ يا دُنيـا لا تحجُبي مـن خيره شيّـا !

لـولاه مـاكنـتِ الجمـال ولا فجّـرتِ لي نَعمـاءَه وَحْـيـا !

كيـف الحيـاةُ إذا رزئـت بـه ... وطـويْتُ سِفْـر عهودِه طـيّا ؟
الكـوْنُ أوْهَـى بعـدَه سَنَـداً ... والموت اشْـهَى بعـدَه لُقيا !
وتمـرُّ بـي الأيـامُ يا دُنْيا ... و تسلُّ خـيرَك من يَدي بَغْيا
وأسيرُ خلْفَ رِكابِ وَحْشتها ... ووَراءَ جَفْـني تغرَقُ الرّؤيا !
ما كان أغربَ كلَّ أخْيلَتي .. ... الحبّ ماتَ و لم أزلْ حيّا !

* * *

وإنك لترى هذا الشاعر المترف يتقلّب في أعطاف النعيم ، ويرتاد رياض الحسن الفينانة الناضرة ، وقد آده الخطب الذي نزل بأمّته ، فتقرأ له القصائد الملتهبة من الشعر الوطني ، الذي يرسله شواظاً من نار على أولئك الذين رضوا بالهوان ، ونسوا واجبهم المقدس في الدفاع عن البلاد والذّود عن حياضها ، فتقاعسوا عن نصرتها ، وشغلوا عن الجهاد في سبيلها بأنفسهم ، حتى استبيحت حرماتهم ، وامتهنت كرامتهم ، واحتل الأعداء ديارهم ، وضيّعوا الطارف والتليد من أمجادهم .

إنك لتقرأ هذه العواطف الوطنية المتأججة في قصيدته « بعد النكسة » التي افتتح بها ديوانه المشحون بالأماني والأحلام :

أمّـتي : كم غَصـّـة دامـية ... خنقتْ نجْـوى عُلاكِ في فَمي !
أيّ جـرحٍ فـي إبائـي راعـفٌ ... فاتــهُ الأسـى فلـمْ يلـتئمِ
أ لإسْـرائيـل تعلـــو رايــةٌ ... فـي حمـى المهـد وظلّ الحَرَمِ ؟
كيف أغْضيْتِ على الذّل ولـمْ ... تنفـضي عنكِ غُبـار التُّهَـمِ ؟
أ وَ ما كنت إذا البـغْيُ اعتـدى ... موجةً مـن لهبٍ أو من دَمِ ؟
فيمَ أقـدمْتِ وأحجمْتِ ، ولـم ... يشتفِي الثأرُ ، ولم تنتقـمي ؟

إلى أن يقول في غيظ وحنق ممتزج بالتهكم والسخرية :

أمّتـي : كمْ صنـَم مجّـدْتِـــهِ ... لـم يكنْ يـحملُ طهـرَ الصـنمِ !
لا يـُـلام الـذئبُ فـي عُـدوانـه ... إن يـكُ الـراعي عـدوَّ الغـَنَمِ !

تمثيل بديع لبعض الحكام الطغاة الذين صاروا ببغيهم أعداء لشعوبهم !

ويستبد الأسى بالشاعر ، ويبلغ السخط في أعماقه مداه على أمته التي بطرت معيشتها ، وأخلدت إلى الدعة أو الضعة ، حتى ضيّعت أمجادها الخالدة التى بنتها في عصور الجدب ، وشظف العيش ، حتى لقد تدفعه حماسته إلى أن يضرع بالدعاء أن تعود أرضها إلى سالف عهدها من الجدب والقحط إذا كان جدبها يبني الأمجاد ، ويصنع الرجال !

رَبِّ : هــذي جنّــة الـدنيا . . عبيراً وظـلالا
كيف نمشي في رُباها الخضرِ . . تيهاً واختيالا
و جِراحُ الــذّلّ نخفيهــا عـن الغـير احتيـالا
رُدَّهــا قَفْــراء إن شئــت و مــوِّجْهـا رمـالا
نحــنُ نهواها عـلى الجـدْبِ إذا أعطتْ رجـالا !

نعم ، إنه يهواها على القفر والجدب ، إذا أنجبت رجالا يعرفون ما لهم وما عليهم ، ويعرفون حقوق وطنهم وشعبهم ، وواجبهم في التضحية والفداء ، لأن عزيمة الرجال كفيلة بإصلاح ما أفسده التواني والخضوع لمشيئة المستعمر الذي لا يعنيه شيء من أمر البلاد والعباد .

والرجولة التي ينشدها الشاعر مضاء وعطاء ، وحزم وعزم ، وعمل وجهاد ، وترفُّع عن الصغائر ، وضبط للنفس ، ومغالبة للأهواء ... وكلها خلائق وفضائل تعيد للحياة رونقها ، وللأرض نضرتها ، وللنفوس طمأنينتها ، وللأمة كرامتها .

ولا غرو أن يحسّ الشاعر الملهم بهذه المعاني بعد أن رأى بعينيه تهاوي القيم في مجتمعه ، وتسلط الغرباء على مقدرات بلده في عهد الاحتلال الفرنسي ، وشهد طغيانه ، وتقاعس الشعب وقعوده عن الثأر من مغتصبي حقه في الحياة الكريمة . ولذلك برزت في شعره آثار الشعور الوطني المتلهب ، ودعوات الإصلاح الذي يبدأ بيقظة الشعوب ، وصحوتها من غفلتها، والعمل على إصلاح ما فسد من أمورها ، والثورة على الاستعمار الجاثم على صدور أبنائها .

والدعوة إلى الخلاص من قبضة المستعمر إحدى الظواهر البارزة في كثير من أشعار المعاصرين ، الذين منيت بلادهم بهول الاستعمار ، وجرائم المستعمرين .

* * *

ولعمر أبي ريشة قصص شعرية وصف فيها صبواته ومغامراته في أدب مكشوف ، لم يتورع

فيه عن الوصف الصريح لبعض تجاربه التي تنفر منها الأعراف والتقاليد ، وتأباها مكارم الأخلاق .

ولم يكن أبو ريشة في ذلك بدعاً من الشعراء ، فقد سبقه إليه كثير من شعراء الخلاعة والمجون في الشرق والغرب ، وفي أدبنا العربي نماذج صارخة من هذا الشعر المبتذل ، ما أظنها غابت عنه أو خفيت عليه ، كما رأينا إعجابه الشديد بالشاعر الرجيم « بودلير » .

ويقع مثل هذا الشعر عند أنصار الواقعية موقع الرضا والإعجاب ، وإن كان بعض النقاد ينكره ، ويسمون واقعيته التي تعرض تلك المخازي « الواقعية السوداء » وفي الواقعيين أنفسهم من لا يرضاها .

وقد أورد صديقنا المرحوم مصطفى عبد اللطيف السحرتي إحدى هذه القصائد الماجنة [١] ، وقال عنها « إنها من التجارب الشعرية التي يمكن أن نسميها بالقصصية من باب التجاوز ، وهي قصيدة (مصباح وسرير) فهو يقص حكاية حبيبة هجرته طويلا ، وفي عودته وجدها في داره ، نائمة على سريره ، فبهت لهذا المشهد الغريب . وقارئ هذه القصة ينتقل إلى جو الشاعر ويعيش معه ، ويتأثر بانفعاله وإشراقه ، ولو لم يتفق معه في مجونه ، ولكنه لا يستطيع إلا أن يمجد فيها الفن ، ويعفو عن مغامراته ، ويتبسم ابتسامة الفن اللهفانة العارمة !»

ويقرر الأستاذ سامي الكيالي أن لعمر أبي ريشة مقاطع لم تنشر ، وهي أكثر واقعية من هذه القصيدة ، في وصف مجونه وشهواته الحسية ، ثم يقول : « وربما كان عمر أبو ريشة في طليعة الشعراء الإبداعيين الذين تناولوا اللذات الجنسية في شعرهم ، وقد فتح الباب للكثيرين من شعراء الشباب نهجوا نهجه ، كان في طليعتهم نزار قباني الذي فاقه في الوصف ، وغيره من الشباب الذين كانوا يتحرجون من وصف هذه التجارب الحسية [٢] .»

وما نحب أن نورد شيئاً ـ ولو قليلا ـ على سبيل الاستشهاد لهذا الأدب المكشوف الذي تنفر منه الفطر السليمة.

ومن شعره العاطفي التصويري الأنيق قوله وقد رأى في الصحراء ماء يتموج من بعيد ، فقيل له إنه السراب ، فتأمله طويلا ، وأحس بالرمل الملتهب ظمأ تحت أشعة الشمس ينام ليحلم بالماء ، وما هذا الذي يسمونه سرابا إلا أطياف حلمه اللذيذ ، وكان الشاعر كما يقول

(١) في كتابه « الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث » ، ص ٣٤ .

(٢) سامي الكيالي « الحركة الأدبية في حلب » ص ٢٢٥ .

على حال عاطفية قلقة ، فوجد في إحساسه هذا منقذاً له :

كم جئتُ أحمل من جِراحات الهَوى نَجوى ، يردِّدها الضمير ترنُّما
سالتْ مع الأمل الشَّهيِّ لترتمي في مسمَعَيْك ، فما غَمَزْتِ لها فَما
فخنقتُها في خاطري فتساقطتْ في أدمعي فشربتُها متلعثِما
ورجعتُ أدراجي أصيدُ من المنى حلماً أنامُ بأفقه متوهِّما
أختاه قد أزِفَ النَّوى فتنعَّمي بعدي فإن الحبَّ لن يتكلَّما
لا تَحْسبيني سالياً أن تلمَحي في ناظري هذا الذهولَ المُبْهما
إن تهتكي سرَّ السَّراب وجدتِه حلمَ الرمال الهاجعاتِ على الظَّما

ولأبي ريشة في عالم الشعر المسرحي آثار متعددة ، منها مسرحية « ذي قار » ومسرحية « الطوفان » ومسرحية « محاكمة الشعراء » ومسرحية « سميراميس » .

* * *

إن شعر عمر أبي ريشة يختلف بين القصائد الطوال والمقطعات القصار ؛ لأن كل وحدة فيه تمثل تجربة الشاعر كما هي من غير حشو أو فضول .

وهو في الوقت نفسه لا يتكئ على شاعر ، ولا يستلهم من ديوان ؛ لأن التجربة في كل موضع تجربته ، والعاطفة عاطفته ، والمعاني معانيه ، والصورة رسمه وصنعته ، والمباني كلها مجتلًى للشعر العربي الرفيع ، في بيانه الآسر الأنيق .

أحْمَد مُحَرَّم

يستطيع الباحث عن حياة الشعر في هذا العصر الحديث أن يلمح عدداً من الاتجاهات ، تتمثل خصائص كل اتجاه منها في عدد من الذين زاولوا صناعة الشعر في هذا العصر .

ونحن نكتب هذا الكلام في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي ، وقد انقضى من هذا العصر قرنان من الزمان ، ينقصان قليلاً ، أو يزيدان قليلاً ، على حسب الاختلاف في تحديد مبدأ عصر النهضة بين مؤرخي الحياة الأدبية عند العرب ، وهم يُجْرونها وراء تاريخ الأحداث السياسية أو العسكرية في عالمنا العربي .

وأيا ما كان موعد البدء فإننا نجد أن مجرى الحياة الأدبية في هذين القرنين قد أصابه شيء من التغيير يختلف به عن مجرى هذه الحياة كما كان قبل عصر النهضة .

ولا مناص من الاعتراف بهذا التغيير ، الذي أصاب الحياة الأدبية ، حتى يمكن التسليم بصحة وصف هذا العصر بعصر النهضة الذي يحمل في مضمونه على الأقل معنى التغيير .

وإنما كان الاحتراس بقولنا « على الأقل » لأن معنى النهضة أكبر بكثير من معنى التغيير الذي لا يستلزم التغيير الصاعد نحو آفاق جديدة من القوة والنماء والازدهار ، يجد الناظر فيها ما لم يكن يجد في الفن الأدبي الموروث .

ونحن نسرف أشد الإسراف إذا وصفنا الصورة الكلية للحياة الأدبية في هذا العصر بأنها تمتاز بالجِدّة المطلقة ، أو تمتاز بالإبداع والأصالة ، فإن في كثير من جوانب تلك الصورة مناظر حائلة أو باهتة ، ومظاهر أخرى للضعف والقصور ، إلى جانب إشعاعات مضيئة نلحظها في بعض جوانب هذه الصورة .

ولعل أبرز النماذج وأجدرها بالاحتفال في الحياة الأدبية بعامة ، و في فن الشعر بخاصة ، هي تلك النماذج التي حاول أصحابها التماس مثلها الأسلوبية من محاكاة أسلافهم في قوة المعاني ، وشدة أسرها ، وفي احتذاء مثلهم في الصياغة وبناء العبارة ، وفي اختيار القوالب المأثورة من الأشكال والأوزان . ونحن نقول إن هذه النماذج أجدر بالحفاوة والاهتمام ، لأن

النماذج (الجديدة) قد غَشِيَتِ العناية بها ، والدعوة إليها ، والجدل حولها على العناية بالاتجاهات الموروثة أو الاتجاهات الأصيلة .

وهذا النهج الموروث في فن الشعر الذي درج المعاصرون على تسميته « الشعر التقليدي » ، وهم يرمون بهذا الوصف الذي اختاروه له إلى التزهيد فيه ، والغضّ مما اجتمع له من القيم ؛ لأن التقليد عندهم ـ وإن اقتصر على القوالب والأشكال ـ يعني التبعية ، وفقد روح الأصالة ، لأن الأصالة في نظر بعضهم لا تعني شيئاً سوى الخروج على القيم الفنية المتعارف عليها ، والتي تكونت منها المفاهيم الشعرية ، وأصبحت خلاصة لفهم الجماعة ، ورضي عنها الذوق الأدبي العام في مسيرته الطويلة عبر العصور ، وفي مختلف البيئات .

* * *

وهذه الصورة هي الصورة العامة لشعر أحمد محرم ، والنموذج الذي اختاره إطاراً له هو هذا النموذج المعهود في القوالب والأشكال ، وهو النموذج الذي احتذاه فحول الشعراء في هذا العصر ، من أمثال البارودي ، وشوقي ، وحافظ إبراهيم ، وإسماعيل صبري ، وعزيز أباظة ، والرصافي ، والزهاوي ، والجواهري ، والشبيبي ، وحافظ جميل ، وغيرهم من الذين امتلأت بهم أجواء الحياة الأدبية ، وأثروا في مشاعر الأمة ، وأذاقوها حلاوة فنهم الجميل ، وبلغوا غايتهم من التعبير عن عواطفهم ، وشرح تجاربهم سواء أكانت تجارب إنسانية وعواطف يشارك فيها العربي غيره ، ويلتقي عندها الموغل في القدم والمحدث المعاصر ، أم كانت تجارب جديدة من آثار العصر وأحداثه ، وما جدّ فيه من ضروب الحضارة ، وفنون المدنية المستحدثة .

ونتناول في هذه السطور جانباً من الجوانب الرحبة التي برّزت فيها شاعرية أحمد محرم ، وهو الجانب الإسلامي الذي اشتهر به بين شعراء هذا القرن .

فقد ألف أحمد محرم ديواناً خاصا سمّاه « ديوان مجد الإسلام » وسماه بعض الكاتبين « الإلياذة الإسلامية » .

وقبل أن نتحدث عن هذا الديوان لا بد من الإشارة إلى أن أحمد محرم كان في طليعة الشعراء المعاصرين الذين انعكست على صفحة شعرهم آثار روح إسلامية عالية ، وأنشئوا غُرّ قصائدهم في تمجيد الإسلام ، وتمجيد المثل الرفيعة التي جاء بها ، وفي الإشادة بالرسول الكريم وصحابته الأبرار الذين كانوا هداة الأنام إلى مناهج الحق والعدل والتوحيد ، فأناروا الدنيا ، وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، وتحدثوا عن أمجادهم وحضارتهم التي سطرها

التاريخ بأحرف من نور ، ومنهم محمد عبدالمطلب ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، ومصطفى صادق الرافعي .

ولا تقف نفحات الروح الإسلامية في شعر أحمد محرم عند ديوانه « ديوان مجد الإسلام »، بل إن هذه النفحات تغمر حياته الشعرية التي استغرقت جل عمره المبارك ، وتبدو آثارها شاخصة في ديوانه القديم ذي الجزأين ، وفي غيره من الشعر الذي نشر له في الصحف والمجلات .

* * *

وقد عاش أحمد محرم في تلك الفترة التي اضطربت فيها حياة المسلمين ، وحاقت بهم فيها صروف فلّت حدّهم ، وفرّقت شملهم ، وأطمعت فيهم أعداءهم ، فضلوا طريق الهداية ، وضيعوا المنار الذي كانوا يهتدون به في حالك الظلمات .

وكان ذلك الضياع هو الذي أثار شاعرية أحمد محرم ، وحفزه إلى التغني بأمجاد الدين ، وعظمة المسلمين ، لعله يجد في ذلك تعزية وسلوى ، ولعله يبعث الآمال في استعادة تلك الأمجاد .

ولذلك أخذ الشاعر الغيور على دينه وعلى أمته و وطنه يتلمس الطريق إلى الهداية ، وإلى تجديد البناء الذي قوضته الأحداث ، و وجد هذا الطريق في اقتفاء آثار السلف الصالح في التمسك بحبل الله ، ورفع راية الجهاد ، والتضحية والفداء التي سادوا بها ، ورفرفت بها أعلامهم في سماء الأوطان المترامية الأطراف التي سطعت فوقها شمس الإسلام .

* * *

والإسلام دين العلم والحياة ، وليس دين الجهل أو التواكل كما يزعم أعداء الإسلام ، الذين ينعون على المسلمين تخلفهم عن اللحاق بركب الحضارة ، ويرجعون إلى الإسلام كل ما يرون من نقص أو قصور أو تخلف في صفوف المسلمين .

استمع إليه في قصيدته « كرومر والإسلام » مدافعاً عن الإسلام الذي لم يتخلق المسلمون بأخلاقه ، ولم يتأدبوا بآدابه ، فهانوا على أنفسهم ، وصغروا في أعين الناس . والخطاب هنا للّورد كرومر عميد الاحتلال الإنجليزي في مصر :

زعمتَ بنا مزاعـمَ كاذبـاتٍ وما يغني مقالُ الزّاعمينـــا

زعمتَ الدينَ والقرآنَ جـاءا بمـا يُشقي حـياةَ المسْلمينا

ثم يعود إلى اللورد كرومر ذلك الجبار العنيد الذي زعم هذه المزاعم الباطلة ، ليبين له أن الإسلام براء من هذه الدعاوى الكاذبة ، فإن الإسلام لا يرضى لمعتنقيه أن يكونوا جهلة أو أذلاء مستضعفين :

رُويدَك أيُّهـا الجبّارُ فينـا فَبِئْسَ الحكمُ حكمُ القاسِطينا
وَ هَبْنا أمةً في الجَهْل غَرْقى وَشَعباً فـي مَهانَتِـهِ دَفينـا
أ دينُ اللهِ يأمُرنـا بجهـلٍ ويوجبُ أن نذلّ ونَسْتكينا ؟
سَل الأحياءَ والموتى جميعاً أ كُنّـا أمـةً مسْتضْعَفينا ؟

ثم يأخذ في تفنيد دعاوى هذا المتغطرس الجبار المتعصب لدينه ولدولته المستعمرة ، فيشير إلى تاريخ المسلمين الحافل بالبطولات التي ثلت عروش الجبابرة ، ودكت حصون القياصرة بشجاعة الأبطال وبسالتهم ، وبالعلم الذي أفادوه من الإسلام الذي جلا الظلمات ، وأنار لهم طريق الحياة ، ورسم لهم السبيل إلى السعادة وإلى السيادة في الوقت الذي كان فيه الشرق والغرب يرزحان تحت نير الجهالة والفوضى :

ليالِيَ يبعثُ الإسلامُ منّـا عـزائم تُخْضِـع المتَغْطرسينـا
نَثلُّ عـروش جبارينَ غُلبـا ونجتـثُّ الممـالكَ فاتِحينـا
وقائعُ ترجُفُ الدُّولاتُ مِنْها ويذكرُها القياصُـر صاغِرينـا
تركنا الدهرَ ينتفِضُ انتفاضاً وغادَرْنا الخلائـق ذاهِلينـا
بِبأسٍ لا كِفاءَ لهُ وعِلـمٍ جَلا الغمَراتِ واكتسَح الدجونا
ليالي ظَلّلَ الأقـوامَ جهـلٌ أضَلّهُمُ فظَلّـوا حائرينـا
سَنَنّا الرشـد للغاوينَ طـرا وَ لَولا الديـنُ لم نَكُ راشِدينا

ولا يخص أحمد محرم بلومه وتقريعه ذلك المتغطرس الإنجليزي اللورد كرومر وحده ، على ما رمى به الإسلام ، وما زعم أنه السر في ضعف المسلمين وتخلفهم ، ولكنه ينحى باللوم والتقريع على نفر من المسلمين الذين جَنَوا بجهلهم على دينهم وأمتهم .

وإن كان الشاعر لم يكشف عن تلك الجناية ، ولم يفصح عن أولئك الجاهلين .

ولعله كان يقصد طائفة من جهلة الصوفية الذين شوّهوا صفحة الإسلام النقية بقعودهم

عن العمل الجاد النافع ، وانشغالهم بطقوس وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، فأساءوا بصنيعهم إلى الإسلام والمسلمين .

وربما كان يعني بهم طائفة من المسلمين جَنَوا على دينهم وأمتهم بممالأة المستعمرين ومصانعة الاستعمار ، لينالوا بتلك المصانعة عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ، وما أكثر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم .

يقول محرّم مخاطباً اللورد كرومر :

وَ لَـولا مَعْشَـرٌ خَـذَلوه مِـنّا لكُنّا السّابِقـين الأوّلينا
أ تزعمُ ما جنَى الجُهلاء ديناً وتأخُذنا بذنْبِ الجاهِلينا ؟
رويـدَكَ أيُّهـا الجبّارُ فيـنا فما أنْصَفْتَنا دُنْيا وَديـنا

وفي قصيدته « الحرب الوحشية في طرابلس » يستنفر أحمد محرم جموع المسلمين للقاء عدوهم ، ويذكر الخلـف بما أبلى السلف من أبطال المسلمين في سبيل دينهم ، والحفاظ على مقدساتهم ، وكيف استطاعوا بفعل العقيدة في نفوسهم أن ينشروا دين الله ، ويثبتوا أقدامهم ، ويقهروا أعداءهم ، ويثلوا العروش ، ويطوحوا بتيجان الأكاسرة والقياصرة :

أينَ ابنُ عـمِّ رسـول اللهِ يُطفِئُها حَرْباً على كَبِدي مِنْ نارِها شَـرَرُ ؟
أينَ اللـواءُ ؟ وخَيْـلُ اللهِ يبعثُها عمرٌو ، ويصرُخ في آثارِها عمرُ ؟
أينَ المقاديمُ مـن فِهرٍ ومن مُضَـرٍ ومن قريشٍ وأيـن السّادة الغُـرَرُ ؟
أينَ الملائكةُ الأبـرارُ يقدُمُهمْ جِبريلُ يستبقُ الهَيجا وَيَبْتَدِرُ ؟
أينَ المعامعُ ترفضُّ النفوسُ بها هَلْكى ويسْتَنُّ فيها النّصرُ والظّفرُ ؟
أينَ الوقائعُ تهتزّ العروشُ لهـا رُعْباً وتنتـفضُ التيجانُ والسُّرُرُ ؟
أينَ القياصرُ مقهـورين لا صَلَفٌ ينـأى بجـانبهم عَـنّا ولا صَعَرُ ؟
أينَ الحُماةُ وقد ضاعتْ محارِمُنا أين الكُفاةُ ؟ وأين الذّادةُ الغُيُرُ؟
أينَ النفـوسُ تـرامَى غـيرَ هائبةٍ ؟ أينَ العزائمُ تمضي ما بها خوَرُ ؟
أين الأكفُّ يفيضُ المالُ منـدفقاً منها كما اندفقتْ وَطفاءُ تَنْهمرُ ؟
مَنْ لي بهم مَعْشراً صيداً غطارفـةً ما ضيّعـوا ذِمّـة يـوْماً ولا غَدروا
إنْ أدعُهُم لجـلاء الغَمرة ابتَدرُوا وإنْ أصِـحْ فيهمُ مستنفِراً نفـرُوا

ولقد شبّت تلك الحرب الوحشية في طرابلس الغرب بين المسلمين الإيطاليين ، ورأى المسلمون في هذا العدوان الوحشي على بلد مسلم صراعاً بين الشرق والغرب ، أو بين المسيحية والإسلام ، وعدُّوهُ امتداداً للحروب الصليبية .

وكانت حرباً غير متكافئة بين عدو غاشم يملك السلاح وأدوات الفتك والدمار والشعب الليبي الأعزل من الأدوات الحديثة للحرب والقتال . . وبرزت في تلك الحرب بطولات إسلامية رائعة تحدث التاريخ عن بسالة أصحابها ، وشدة بأسهم .

وإذا كان شعراء المسلمين قد وصفوا هذه الحرب وأهوالها ، واستنفروا إخوانهم المسلمين للتصدي للمغيرين من أعداء دينهم ، وأشادوا بالبطولات التي كشفت عنها تلك الحرب — فإن شاعرنا أحمد محرم كان في طليعة أولئك الشعراء الذين أحسوا بضراوة تلك الحرب وأهوالها ، واستنفروا المسلمين في كل مكان لنجدة إخوانهم في ليبيا ، وفي ديوانه كثير من تلك القصائد التي تتناول ذلك الصراع بين أوربا والشرق ، أو بين النصارى والمسلمين .

وإن نظرة فاحصة في هذه القصيدة وفي القصيدة التي سبقتها لتوقفنا على الفرق الواضح بين أسلوب كل من القصيدتين ، مع اتفاقهما في الغرض الحماسي الذي دفعت إليه الغيرة على الإسلام والمسلمين ، والإشادة بمآثرهم ، وببطولاتهم وأمجادهم ، فقد غلبت التقريرية على القصيدة الأولى ، واتسمت باللهجة الخطابية ، فلانت عبارتها ، وضعفت صياغتها ، مع أن من أهم ما يمتاز به الشعر الحماسي فخامة المعاني وجزالة المباني . في حين احتفظت القصيدة الأخرى بالروح الشعرية ، وبقوة العبارة ، وجزالة الصياغة ، وبـدا فيها تمكن الشاعر من فنه ، ومن لغته .

وقد أردنا بهذه الإشارة السريعة التنبيه إلى الاختلاف الظاهر في شعر أحمد محرّم الذي يحلق فيه أحياناً ، ويهبط أحياناً أخرى ليدنو من لغة التخاطب ، حتى يحسب قارئه أنه يقرأ نظماً أكثر مما يقرأ شعراً .

والشاعر مع هذا التفاوت الملحوظ معدود في الفحول المتقدمين في صناعة الشعر في العصر الحديث !

* * *

ولم تكف شاعرية أحمد محرم عن التدفق ، والإشادة بالمثل والقيم الإسلامية ، وتمجيد بطولات المسلمين وعلمهم وحضارتهم ، واستخلاص العبر من تاريخهم الحافل المجيد ،

مستلهماً وحي الآية الكريمة ﴿ وذكّرْ فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنينَ ﴾ .

وطالما ردّد الشكوى من بُعد القوم عن الـدين ، وتنكبهم الصراط المستقيم ، وأرجع إلى ذلك ما تعاني البلاد الإسلامية من أزمات ، وما حاق بها من هزائم و ويلات

أرى فساداً وشرًّا ضـاع بينَهمـا ... أمرُ العبادِ فلا ديـنٌ ولا خُلقُ

الدهـر مغتسـلٌ مـنْ ذَنْبه بـدمٍ ... والأرضُ بالنار ذاتِ الهَولِ تَحتَرِقُ

قومٌ إذا ما دَعا داعي الهُدى نَكَصوا ... فإن أهابَ بِهِمْ داعِي العَمَى اسْتَبَقوا

لم يبقَ مـن مُحْكِمِ التَّنـزيل بينهمُ ... إلا المِـدادُ تـراهُ العينُ والوَرقُ

ضاقتْ بهم طُرُق المعروفِ واتّسعتْ ... ما بين أظهُرِهِمْ لِلمُنكرِ الطُّرُقُ

ضـجَّ الصَّباحُ لِما لاقـتْ طـلائِعُهُ ... من سوءِ أعْمالِهِمْ وَاستَعبرَ الغسَقُ

ولم يُعفِ الشاعر المسلم الغيور من المسئولية طائفة من رجال الدين قصّروا في تأدية رسالتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما أمرهم الله في محكم آياته ، بل إن منهم من اتخذ من هذا الدين سبباً إلى بلوغ ما يشتهي من حطام الدنيا ، بمظاهرة الحكام المفسدين ، وإصدار ما يرضيهم من الفتاوى ، وإن بعدت عن روح الدين ، ومنطق اليقين ، إلا قليلا ممن عصم الله من الذين آثروا ما عند الله مما هو خير وأبقى ، فيقول :

أرى علماءَ الدّينِ لا يَحفَظُـونَـه ... ولا يعرفـونَ اليـوَمُ رتْبَتَـهُ العُـلْـيا

هُمُ اتَّخـذوا ما أدركَـوا من عُلومِهِ ... سبِيلاً إلى ما يشْتهـونَ مِنَ الدُّنْـيا

فضاعوا وضاعَ الدينُ ما بين أمَّـةٍ ... هُمْ شرَعـوا فيها الضَّـلالة والغَـيّا

إذا المفسدُ استَفْتى يـريدُ تمـادِياً ... أتَـوه بأعـلام الهُدى تحملُ الفُتْـيَا

أ يُعجِبُ قوماً من أولي العِلِم أنّهـمْ ... يَسيرونَ بينَ الناسِ في نورِهِ عُمْيًا ؟

ألا هَلْ أرى من حيلةِ القَوم شافياً ... لشعبٍ مريض لا يموتُ ولا يَحيَا ؟

مَحتْـهُ عَوادي الـدَّهر إلا بقيـةً ... من الـدّين والدُّنيا لِمنْ يُؤْثِرُ البُقيا

* * *

أما ديوان أحمد محرم المسمى « ديوان مجد الإسلام » فإنه لم ينشر إلا بعد وفاته ، وقد أخلصه للحديث عن مشرق الدعوة الإسلامية ، وحياة رسول الله ﷺ ، وهجرته إلى المدينة المنورة ، وعن غزواته وسراياه ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وعرض في ثنايا ذلك كثيراً من الأخبار والأحداث والوقائع ، وسيرة طائفة من الصحابة والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

وقد كان نظم « ديوان مجد الإسلام » استجابة للدعوة التي وجهها إليه المرحوم محب الدين الخطيب في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة وألف الهجرية . واقترح عليه فيها إرسال النظر بين حين وآخر إلى مفاخر التاريخ الإسلامي الخلقية والعمرانية والسياسية والاجتماعية والحربية . ثم نظم كل مفخرة من تلك المفاخر في قطعة خالدة تنقش في أفئدة الشباب ، فإذا زخر أدبنا بكثرة من هذه القطع على اختلاف أوزانها وقوافيها أمكن بعد ذلك ترتيبها بحسب تاريخ الوقائع ، وتأليف (إلياذة) إسلامية من مجموعها .

وأشار محب الدين الخطيب إلى « الشاهنامة » التي ألفها الفردوسي ، وخلد فيها مفاخر الفرس ، وغطى ببيانه المشرق على عيوبهم ، وسلط على ضئيل الخير منها إشعاعاً قوياً مكبراً بأعظم المكبّرات .

كما أشار إلى إلياذة هوميروس التي تتغنى بها الإنسانية إلى هذا اليوم ، وتعدها من مفاخر الأمة اليونانية زمن وثنيتهم ، وأوهامهم الصبيانية !

أما الإسلام الذي لم تفتح الإنسانية عينيها على شيء أعلى منه رتبة ، ولا على أعظم منه محامد ، فإن مؤرخيه يجتهدون في تشويه صفحاته ، والحط من قدر رجاله ، لأن الذين دوّنوا تاريخ الإسلام كانوا أحد رجلين : رجل جاء بعد سقوط دولة ، فتقرب إلى رجال الدولة الجديدة ، بتسويء محاسن الدولة القديمة ، ورجل اتخذ من الشموس الأربع : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، مثلا أعلى ، وكل قمر من أقمار العرب مذموم عنده ، موصوف بالضآلة والنقص ، لأنه لا يراه إلا على نور تلك الشموس التي هي فوق الإنسانية ، ولا تقاس مواهب البشر بمواهبهم .

* * *

وفي رأي الأستاذ محب الدين الخطيب أن الذي قصر فيه المؤرخون لا يستطيع أن يستدركه إلا الشعراء ، وقد رأى أن أكثر شعرائنا مشغولون بجمال المرأة ، وعقولهم مصروفة عن الخير ،

وهم يسرقون من دواوين الشعراء الإنجليز ، فليس عندهم وقت لمراجعة تاريخ العرب والإسلام ، وقراءة ما بين سطوره ، واستنباط المفاخر من أصعب مواقفه التي قد يخيل إلى قصير النظر من الناس أنها مواقف اندحار . مع أن ما يبذل فيها من جهاد العباقرة قد يكون أعظم وأمجد مما يبذل يوم تكون الريح مواتية والنجم في طالع السعد !

وقد كانت هذه الكلمات المخلصة الحكيمة التي وجهها محب الدين الخطيب الذي عرف بغيرته على العرب والمسلمين ، وعاش مجاهداً فدائيا في سبيل العروبة والإسلام ، أقوى الحوافز التي دفعت الشاعر المسلم الغيور أحمد محرم إلى تأليف هذا الديوان . وكان محب الدين على ثقة من استجابته لما أراد ؛ لأنه يعرف مشاعره الصادقة نحو عقيدته وقومه ، وحرصه على كرامة دينه ، وغيرته على تاريخ قادته وأبطاله .

ويبدو أن محب الدين الخطيب كان قد قصد بتحقيق هذه الأمنية الغالية إلى الشاعر الكبير « أحمد شوقي » قبل أن يتوجه بها إلى أحمد محرم .

ويبدو كذلك أن « شوقي » قد تباطأ في تلبية تلك الدعوة .

ويشير إلى ذلك تلك العبارة التي وردت في كتاب محب الدين الخطيب إلى أحمد محرم ، ويقول فيها «... وقد هممتُ غيرَ مرة أن أكتب إليكم أقترح عليكم مشروعاً كنا نحاول إقناع « شوقي بك » رحمه الله به ، ولكنني خشيت أن يصرفكم ذلك عن معاني الجهاد الأخرى !»

واستجاب أحمد محرم لدعوة الخطيب ، ونشط في نظم ديوانه الذي سماه « ديوان مجد الإسلام » ، وأطلق عليه بعض الكاتبين الإلياذة الإسلامية . ومات محرم قبل أن يرى ديوانه النور في حياته ... رحمه الله .

* * *

افتتح أحمد محرم ديوانه « ديوان مجد الإسلام » الذي نشر بعد وفاته بالنشيد الأول الذي سماه مطلع النور الأول من أفق الدعوة الإسلامية ، وفي أوله يقول :

إمْـلأْ الأرضَ يا محمدُ نورَا ... واغمرِ الناسَ حكمةً والدُّهورَا

حَجَبَتْكَ الغيوب سـرًّا تجلّـى ... يكشفُ الحجْبَ كلَّها والسّتورا

عَبَّ سيلُ الفساد في كلِّ وادٍ ... فتـدفّقْ عليـه حـتّى يَغـورا

جئتَ ترمي عُبابَه بعبابٍ راح يطوي سُيولَه والبُحورا

ينقذُ العالمَ الغريقَ ويحمِي أمَمَ الأرضِ أن تذوقَ الثُّبورا

زاخرٌ يشملُ البَسيطةَ مَدًّا ويعمُّ السبعَ الطِّباقَ هَديرا

أنتَ معنى الوجودِ، بل أنت سرٌّ جَهِلَ الناسُ قبلهُ الإكْسِيَرا

أنت أنشأتَ للنفوسِ حَياةً غيّرتْ كلَّ كائنٍ تَغْييرا

وبعد هذه الأبيات يأخذ الشاعر في وصف الحياة الجاهلية ، وما ران عليها من الكفر والضلال ، حتى أدركتها عناية الله تعالى ببعث الصادق الأمين ، ثم يذكر ما ابُتلي به الرسول من تكذيب قومه ، وصبره على إيذائهم واستهزائهم ، ثم ما عرضوا عليه من أعراض الدنيا من المال والمنصب والجاه ، حتى يثنوه عن دعوته إلى الله وتوحيده وعبادته ، ليبقوا على سيادتهم ، ويظلوا في كفرهم وضلالهم ، وجاء إليه عمه أبو طالب يعرض عليه أحلام قريش بإغرائه بما يظنون أنه يصرفه عن دعوته :

جاءه عمُّهُ يقولُ : أ ترضَى أن يُقيموك سيّداً وأميرا ؟

وَيصُبُّوا عليكَ من صفوة الما ل حيا ماطراً ، وغيثاً غزيرا ؟

ويلم الشاعر في أثناء مسيرته ببعض الوقائع والأحداث التي صحبت نشأة الدعوة الإسلامية ، فيشير إلى حديث المُطعم بن عديّ الذي أجار النبي وحماه ، مع أنه ظل على كفره حتى مات ، ويعجب الشاعر من ذلك التناقض في السلوك ، ومن هذه النفوس المضطربة القلقة الحائرة التي ترى إشراقة النور فتبهرها ، ويشدها العمى إلى حياة الظلام :

عجباً للغويِّ يعطيك منهُ عملا صالحاً ، ورأياً فطيراً !

ما رأينا مَنْ ظنَّ بالزَّرْع شرًّا فَحمَى أرضَه ، وصانَ البُذورا

لو جَزَى الله كافِراً أجرَ ما أحْـ ـسنَ يوماً لَخِلتُه مَأجورا

ويتنقل الشاعر بعد ذلك مع النبي ﷺ متعبداً في غار حراء ، وفي دار الأرقم ، وعَزْم الكفار على قتله ، وهجرته إلى المدينة ، ولجوئه إلى غار ثور ، ويستطرد إلى الحديث عن حية الغار ، وعن سراقة بن مالك وغيره ، حتى وصول النبي إلى قُباء ، ونزوله على كلثوم بن الهرم كبير بني عمرو بن عَوف :

بُورِكَ الحيُّ حيُّكم يا بني عمـــــــرِو بن عوفٍ ، ولا يزلْ مَعْمورا
كنتَ فيه الضيفَ الذي يغمرُ الأنْـــفُسَ والـدورَ نعمـةً وحُبـورا
ما رأتْ مثلكَ الديـارُ ، ولا حيّـــــا لكَ القومُ فـي الضُّيوفِ نَظيرا
كرهوا أن تبين عَنْهُم فقالـوا أمِلالا أزمعْـتَ عـنّا المسيرا ؟
قلـتَ : بَلْ يثربَ انتويتُ ، وما ألْـــفَيْتُ نفسي بِغَـيرها مأمـورا

ثم وصوله ﷺ إلى المدينة ، ومؤاخاته بين صحبته الذين هاجروا معه والأنصار الذين أحلوهم دار الكرامة ، وآثروهم على أنفسهم وإن كان بهم خصاصة ؛ وقد قربتهم أواصر الدين ، ووحدة الغاية ، وشريعة الجهاد ، وروح التضحية والفداء :

هـيَ الأواصرُ أدْناها الدّمُ الجاري فـلا مَحالة مـن حُبٍّ وَإيثـارِ
الأسـرةُ اجتمعتْ في الدّار واحدةً حُيِّيتِ من أسرةٍ ، بوركـتِ من دارِ
مَشى بها من رسولِ الله خيرُ أبٍ يدعو البنَين فلبُّـوا غـير أغْمارِ
تأكّـد العهدُ مما ضَمَّ ألفتهمْ واستحصَد الحـبلُ من شـدٍّ وإمرارِ

ويعرض الشاعر في تفصيل موقف اليهود والمنافقين من النبي والمسلمين وكيف سالمهم المسلمون فلم يسلموا من كيدهم ، وكيف عاهدوهم فخانوا العهود والمواثيق ، فلم ينفعهم كيدهم ، ولم تغن عنهم حصونهم من الله شيئاً :

رويدَ يهودٍ ، هَلْ لها في حُصونها من البأسِ إلا ما تظنُّ السّلاحفُ
يظنّونَ أن لن يَنسِفَ اللهُ ما بنوْا ولن يثْبُتَ البنيـانُ واللهُ ناسفُ
سيَلقَوْن بُؤسًا بعـدَ أمـنٍ ونعمةٍ فلا العيشُ فيّاحٌ ولا الظلُّ وارفُ

وعلى هذا النحو من التتبّع التاريخي لمسيرة الإسلام ، وسيرة النبيّ وصحابته يمضي الشاعر المسلم ، فيعرض الأحداث والوقائع ، ويلم بأخبار الرجال ، ويستخلص العبر ، ويعرب عن مشاعر النفوس ، وكأنه يعيش في قلب كل بطل من أبطال العزم والجهاد الذين رسخت بجهادهم وبسالتهم دعائم الدين ، وقويت شوكة المسلمين ، فقاتلوا في سبيل الله رجالاً واستشهدوا أبطالاً .

ويصحب شاعرنا بروحه ومشاعره جيوش المسلمين في غزواتها وسراياها ، ويصور بريشة الشاعر المؤمن ذودها عن الحق ، وبلاءها في نصرة العقيدة ، حتى يكون آخر ما صور من تلك سرية أسامة بن زيد بن حارثة التي جهزها رسول الله ﷺ قبيل وفاته ، وأنفذها خليفته الصديق أبوبكر رضي الله عنه .

وقد اعتمد الشاعر في شعر هذا الديوان على ماوثق به من السيرة النبوية ، ومغازي رسول الله ﷺ . ومن أخبار صحابته الأبرار ، ثم نظمها ، وشرح أحداثها في هذا الشعر الرصين الذي تحرى فيه صدق الخبر ، والثقة في الرواية ، ثم سرد هذه الأحداث مستنبطاً مشاعر أبطالها ، وغائصاً إلى أعماق عقيدتهم ومشاعرهم .

* * *

ولقد سمّى أحمد محرم هذا الديوان الذي لم ينشر إلا بعد وفاته كما قدمنا « ديوان مجد الإسلام » .. وهي تسمية صادقة لم يجاوز الشاعر فيها حدود الصواب ، فقد رسم فيه صورة مشرقة الجوانب لمطلع شمس الرسالة المحمدية التي أنارت هذا الوجود ، وأبرزت بطولاتٍ وشخصياتٍ لم يكن لها ذكر لولا الإسلام الذي آمنت به ، ودعت إليه ، وجاهدت في سبيل الله بالأموال والأرواح ، وخاصمت الأقرباء ، وقاتلت الأولياء من المشركين والمنافقين الذين استحبوا العمى على الهدى .. وظهرت فيها أمجاد لا تزال الأمة الإسلامية تعدها من مفاخرها التي لا تبلى ، وأمجادها التي اعترفت لها بها البشرية كلها .

وإذا كان أحمد محرم هو الذي آثر هذه التسمية وارتضاها لديوانه ، فليس من حق أحد أن يغير على الشاعر ما أراد ، ولا أن يبدل ماكتبه بيمينه ، وما اختاره عنوانا لديوانه يكشف عن موضوعه ، أو عن مضمونه .

أقول هذا الآن ، وقد قلته من قبل في الدراسة المفصلة التي كتبتُها عن أحمد محرم ، ونشرتها وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٧٣ في مجلد عنوانه « خمسة من شعراء الوطنية » كان أولهم شاعرنا أحمد محرم .

وأؤكد هنا ماقلته ، لأنه حلا لبعض الكاتبين أن يسموا صنيع أحمد محرم في « ديوان مجد الإسلام » بـ (الإلياذة الإسلامية) ، وهي تسمية غريبة حقّا ، دعا إليها ولوع قومنا بالتقليد حتى في الأسماء والمسمّيات ، فقد سمعوا أوقرءوا « إلياذة » هوميروس التي ترجمها في أوليات

هذا القرن سليمان البستاني نظماً إلى اللغة العربية ، أو في بعض التّرجمات الأوربية ، وقد صور فيها هوميروس أحداث الأسابيع الأخيرة من حروب طروادة ، التي استمرت نحو عشرة أعوام ، وبرز فيها أبطال منه « أخيل » و « أجاممنون » .

ولعلهم تأثروا بالكلمة التي وجهها محبّ الدين الخطيب إلى أحمد محرم وأشار فيها إلى « إلياذة » هوميروس ، وإلى « شاهنامة » الفردوسي .

وهو على كل حال تقليد أعمى ؛ لأن الإلياذة تحكي قصص الفواجع ، وملاحم المآسي ، كما صورتها العقلية الوثنية لأمة اليونان ، وهي ملاحم تقوم على الخرافة ، وتعتمد على الأساطير الغريبة ، وقد صنعها خيال وثنيٌّ مجنّح ، وهي تنتسب في أحداثها ووقائعها إلى ما يسمى في زماننا « اللامعقولية » التي يعدونها شيئاً جديداً في عالم التأليف الروائي ، أو التأليف المسرحي .

وأين هذا من ديوان « مجد الإسلام » الذي صور فيه أحمد محرم أحداثاً تاريخية ، وعبر عن حقائق استقاها الشاعر من التاريخ الصحيح لفترة معروفة من فترات التاريخ العربي والإسلامي . وهي حقائق رواها الذين شهدوها ، وشاركوا فيها ، ونقلها خلف عن سلف ، وكانت أول ما دوّن من معالم التاريخ الصحيح المتكامل لمطلع الإسلام .

وموقف الشاعر هنا هو موقف المترجم عن هذه الأحداث والأفعال والأخلاق بأسلوبه الشّعريّ ، فهو قد صوّر الأشياء كما هي ، وكما يعرفها الناس ، أو هو موقف الصائغ الذي يجد أمامه المادة فيشكلها في الصورة التي يختارها ، ويضعها في القوالب التي يصنعها من غير أن يغير في جوهرها أو في حقيقتها .

بالإضافة إلى فروق جوهرية في الخصائص الفنية تباعد بين « الإلياذة » و« ديوان مجد الإسلام » قد نخصّها بشيء من الحديث ، إن شاء الله .

صَالح الوَشْمِي

إن المؤرخ لحياة الشاعر صالح بن سليمان الوشمي في دولة الشعر لا يمكن أن يحسبها حياة قصيرة في أعمار الشعراء . ومع ذلك لم يصدر لهذا الشاعر ديوان يجمع عطاءه الشعري في تلك المدة الطويلة .

ولست أدري ما إذا كان السبب في تأخره أو صدوفه عن جمع شعره وطبعه في ديوان يقرؤه الناس يرجع إلى حياته المتصلة في خدمة التربية والتعليم ، مدرساً فموجهاً . وطالما شكا المعلمون من الجهد الموصول الذي يبذلونه في تربية الناشئة ، ومن قلة الأجر الذي يتقاضَونه لقاء معاناتهم الشاقة ، أو كان ذلك التأخر راجعاً إلى تهيبه نشر شعره إلا إذا اطمأن إلى جودته، وإلى أنه سيقع من نفوس القارئين الموقع الذي يرضاه .

أقول هذا وبين يدي بعض قصائد بعث بها إلى النادي الأدبي في القصيم من شعر صالح ابن سليمان الوشمي ، ألفها في فترات متباعدة من حياته في دولة القريض ، فإن أقدمها يرجع تاريخ نشره إلى عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩م) أيام كان طالبا في المعهد العلمي في مكة المكرمة ، وكانت سنه إذ ذاك دون العشرين .

ومن المرجح أنه بدأ محاولاته الأولى قبل هذه السنة بسنوات ، حتى وثق بجدارة شعره بالنشر فدفعه إلى الصحف والمجلات المحلية ، التي قدمته إلى قرائها في تلك السنة التي أشرت إليها منذ خمس وثلاثين سنة . وكان أحدث ما نشر من نتاجه سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٥م) .

وفي رأيي أن هذه القصائد المعدودة لا يمكن أن تمثل حصاد شاعرية الوشمي طوال ثمان وعشرين سنة قضاها من حياته الشعرية ، بل إني أرجح أنها مختارات اقتُطفت من ذلك الحصاد ، ثم قدمت إليّ ، إشفاقا عليّ .

ولست أحسب صالحاً الوشمي واحداً من الشعراء المقلين ، فإن هؤلاء المقلين الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي يمتاز شعرهم بأنه أعلى طبقات الشعر على الإطلاق ، وفيهم من لم يُعرف إلا بقصيدة واحدة لا يزال الأدبـاء والمتأدبون يتناشدونها ويتراوَونها منذ أنشدها صاحبها إلى أيامنا .

ولا شك أن الوشمي قد قدم من شعره ما رآه يصور نتاجه الفني ، أو بعبارة أخرى قدم إليّ من هذا النتاج ما رضي عنه كل الرضا ، وما أحب أن يعرف به ليكون صورته الباقية في أذهان من يقرأ شعره من الدارسين أو النقاد .

والمتأمل في هذه النماذج المختارة من شعر الوشمي يستطيع أن يدرك في يسر أن التجارب التي عبر عنها في هذه النماذج تجارب إنسانية ، وتجارب قومية ، وأنها كانت من ثمرات التفاعل بين رؤاه في عالم الواقع المحلي ، ثم الواقع العربي والإسلامي ، ومشاعره الذاتية التي تزداد دائرتها اتساعا يوما بعد يوم .

فإن قصيدته التي أنشأها منذ سنوات ، والتي تحمل عنوان « رسالة إلى الفتاة المسلمة » تتجسد فيها غيرته على المرأه المسلمة ، وخشيته عليها أن تنجرف في تيار التقليد الأعمى لنساء من الغرب أو الشرق ، ولمن وقع في إسار هذا التقليد من نساء العرب والمسلمين بدعوى التحضر أو التقدمية . وفي أولها يخاطب فتاته المسلمة بقوله :

صُوني الجمالَ وكرّميه مِن التبـذّلِ والمجـونْ
فالدرُّ محجـوبٌ ، وفي الأصدافِ أغلى ما يكونْ
والحُـسْنُ ! يالِلحـسْنِ أبـرزَه التحضّـرُ من عرينْ
وجـلاهُ مكشـوفًا قريبـاً مِـن فُضُـولِ الناظرينْ
الصـدرُ ينضَـحُ رقّـةً ، والقدُّ يـرقُصُ في فتونْ
والشَّعـرُ ينثـرُ ليلهُ ، والبدرُ يُشْـرِقُ في الجَـبينْ

يريد الشاعر أن يقول لها إن التصون والحجاب أجدى على المرأة المسلمة من التبذل والكشف ، وأن الدر المكنون في الأصداف أغلى مما لو كان مكشوفًا ، وأن جمالها تتطلع إليه العيون ، وتشرئب إليه الأعناق ، قد أبرزته الحضارة ، وجلّته فتنة للناظرين ، وقربته إلى أعين المتطلعين .

وذلك حسن جميل في معرض النصح وفي موقف الوعظ إذا كان الشاعر يريد النصيحة أو الوعظ .

وكأن الشاعر يحاول أن يؤكد الحكمة القائلة بأن كل ممنوع متبوع ، أو أن أحب شيء إلى الإنسان ما منعا !

ولكن الشاعر لا يكاد يبلغ ما أراد حتى تستحيل موعظته غزلاً صريحاً ، لا يستطيع الشاعر أن يحد من غربه ، أو أن يكبح جماحه ، ولا يستطيع أن يخفي مشاعره إزاء هذا الحسن الذي تبدّى له فسحر قلبه مما أبرزته الحضارة ، وكشفت به عن مفاتن المرأة على نحو ما رأيناه في وصف ما راقه من هذه المفاتن .

ويبدو الشاعر وكأنه في صراع حاد مع عقله الباطن ، وإذا هو يهتف منفعلا بحرارة الانفعال بالحسن ! يا للحسن ! ذلك الحسن الذي كان متواريا خلف السحاب ، أو خلف النقاب ، أو في عرين الأسود بين الحفاظ والأحراس الحراص ، حتى أبرزته الحضارة ، وجلته للعيون .

وقد يدل مقام النصح والتوجيه على أن الشاعر ينحي باللائمة على هذا التحضر الذي شجع المرأة على السفور ، وعلى أن تخرج من خدرها ، أو من عرينها ، لتبرز فتنتها للناس .

ولكننا نجد أمامنا أخلاطاً من المشاعر المتباينة ، يجذبه موروثه من تعاليم دينه وتقاليد قومه إلى جهة ، وتشده إلى جهة أخرى مشاهد الجمال الآسر التي أتاحته له سمات الحضارة التي تسربت إلى بلده ، ومنها بروز المرأة وسفورها . ولكل اتجاه من الاتجاهين خطره ، وفعله في النفس الشاعرة الحائرة بين دواعي الهوى وما يرضي الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها !

ولا شك أن الاستجابة لواحد من هذين الداعيين تجيء على حساب الاستجابة للداعي الآخر ، ومن هنا تتعذر الرؤية لأحدهما أو لكليهما بقدر ما ينقص من الاستغراق في تجربته ، ثم بقدر العناية بإبرازها في الصورة التي كان يتوقع بروزها عليها .

والعنوان الذي اختاره الشاعر لقصيدته واضح صريح ، ولكن ما علاقته بهذه الأوصاف الغزلية المتلاحقة ؟ ما علاقته بالصدر الذي ينضح بالرقة ، وإن كنت لم أقرأ في أشعار الغزليين وصف جمال الصدرِ بالرقة التي تقابل الخشونة ، فإنهم استحبوا الرقة في أشياء غير الصدر ، مما لا أذكره مخافة أن يختلط النقد بالغزل ــ وما علاقة هذا الغرض بالقدِّ الممشوق الذي يتمايل طرباً ، أو يتراقص فتونا ؟ وما علاقته بالشَّعر الفاحم الذي يشبه في سواده قطعة من الليل ؟ أو بالوجه الوضيء الذي يشبه في إشراقة البدر ليلة التمام ؟

أ ليس هذا كله من الغزل الصريح ؟ وما علاقته بحديث إلى الفتاة المسلمة ، أو نصيحة يتوجه بها ؟

* * *

ولا أجد فيما بين يديَّ من شعر الوشمي في المرأة أو في الغزل الذي يصور عواطفه نحوها سوى هذه الأبيات التي تسللت عن قصد أو غير قصد إلى رسالته إلى الفتاة المسلمة ، أو في أبيات أخرى نظمها في أول قصيدته « مناجاة وردة » و وصف فيها ما يفعل الهوى بقلوب المحبين، وما يستطيع شذا هذه الوردة أن يفعل في علاج سقامهم ، وفي مداواة جراحهم ، وفي هذه الأبيات يقول :

وردةَ الحقــل الزكيــهْ أرسـلي العطـر شـذيًا
عطِّـري الحقـل و داوي مـدنفاً هـام شـقـيًا
رشــف الحُـبَّ فأروَى قلبَه هجـراً عـصـيًا
وانفحـي المكلـومَ وعـياً يقـبل الخطـبَ رضـيًا

وليس في هذه الأبيات على أي حال ما يدل على أنه يعني بهذه الأوصاف نفسه ، وإن كانت مناجاة الوردة في العنوان توحي بأن الشاعر يستنطقها ، أو أنه سيفضي إليها بأسرار نفســه ، أو معاناتها فيما يقضُّ مضجعه ، ويشغل قلبه من معاناة الحب والجوى . والمعروف أن الذهن لا يستحضر الورود والرياحين إلا في معارض الحب والجمال ، وفي حالات صفاء النفس وراحة البال .

ولكن الشاعر يقول عن هذا العاشق المدنف إنه رشف الحب ، وفي الرشف متعة ولذة ، وكيف يروي هذا الرشف قلبه بالهجر العصي ؟ إنه معنى غريب يصعب إدراكه ، والذي يرشف الحب يستمتع برشفه الذي يبل صدى قلبه الملتاع ، فكيف يقال إنه يروي قلبه هجرا عصيا ؟ وكيف تمنح الوردة المكلوم وعياً يقبل به ما نزل بساحه من الخطوب ؟

إن هذه المعاني كلها معان غائمة ، لعل السبب في غيامها أن التجربة كانت تجربة سطحية عابرة لم تخالط قلب الشاعر ، ولم تنفذ إلى أعماقه ، والعبارة قريبة الفكرة ، تظهر دلالاتها بظهورها ، ويلفها الغموض إذا اختفت معالمها .

ولو أنه قال للوردة امنحيه إيمانا يرضى به بسراء الحياة وضرائها أو ما أشبه ذلك لاتضح المعنى واستبان .

ولو أن الشاعر عمد إلى مراجعة شعره وتنقيحه لكان له الرأي الذي رأيناه ، ولهـذب حواشيه ، وقرب معانيه إلى القارئ الذي يحاول أن يستمتع بحلاوة الشعر ، وأن يشارك الشاعر

في عواطفه وانفعالاته .

وأعتقد أن الشاعر كان يستطيع ذلك بما أوتي من بيان وقدرة على الإفصاح .

وفي أربعة أبيات من هذه القصيدة يتحدث الشاعر عما تفعل الوردة بما تنفحه من عطرها في نفوس الكسالى والخاملين من الحركة والنشاط ، وما تبعث في نفوس اليائسين من الأمل الذي فقدوه بضياع أموالهم التي جمعوها وعددوها بشحّهم وتقتيرهم ، ثم صاروا إلى العدم والإقتار الذي أدى بهم إلى الحيرة واليأس .

وفي الأبيات الخمسة الأخيرة يهمس في أذن الوردة ، لتهدئ من صخب الحياة المضطربة ، وتعيد إليها مشاعر الصفاء والحب بعد أن عبث بها الكيد وحب الانتقام ، وبعد أن اشتعلت نيران الحروب التي أثارتها المطامع والشهوات من غير أن تنصر حقا ، أو تنصف مظلوماً .

ويتضح من هذا أن القصيدة لم تعبر عن تجربة شعورية واحدة ، وإنما تضم أشتاتا من المشاعر المتباعدة التي لا تضمها وحدة ، ولا يصلها بالورود أو بعالم الزهور علاقة واضحة .

* * *

وإذا كانت شاعرية الوشمي لا تتجلى في مثل هاتين القصيدتين على الصورة التي تمثل شاعراً متمكنا من صناعته أو مستغرقا في تجاربه ، فإن هذه الشاعرية تنطلق من عقالها في مجالات أرحب إذا اتصلت بالمشاعر العامة نحو وطنه وأمته ونحو الإنسانية .

وقد نجد ثمرات هذه المشاعر الوطنية في مثل قصيدته « الثائر » التي أهداها كما يقول إلى كل إنسان في الأرض يهزأ من الاستعمار .

ويصور الشاعر في هذه القصيدة مأساة الشعوب التي منيت بالاستعمار ، ووقعت فريسة بين براثن الدخلاء المعتدين ، وما تعاني تلك الشعوب من اغتصابهم لأرضها ، وعبثهم بمقدراتها ، وما يسومونهم من ألوان البغي ، حتى غدت نفوسهم تتميز من الغيظ . استمع إليه يخاطب المستعمر الدخيل :

لصّـا أراكَ تجـوسُ أقطـارَ الديـارِ ولا تبيـدْ

قَـسْراً تَسـومُ الخلـقَ في حقدٍ وفي حَرْدٍ شديـدْ

فالغيظُ يملأُ خاطِري والحِقْـدُ نـارٌ تستزيـدْ

هذي جَــرائمُ صُنعِـكَ الشنعـاءُ في دُنيـا الهنـاهْ
قَــدْ هالنــي ذلُّ اليتـامَى الشاردِيـنَ إلى الفـلاهْ
ويثيــرُني استهتــارُكَ المجنــونُ ، في قِيمِ الحياهْ !

ويصف ما يثير طغيان أولئك المستعمرين في نفوس أبناء لتلك الشعوب المظلومة من مشاعر الحقد والسخط ، وما يبعثهم عليه من الكفاح والجهاد لاستئصال شأفة هذا الشر الوبيل الجاثم على صدورهم ، ولاستخلاص حقهم في الحرية والسيادة على أوطانهم ، والثأر من أولئك الأعداء الذين أهدروا كرامتهم ، ونهبوا ثرواتهم ، حتى استيقظت تلك الشعوب من غفلتها ، وجمعت صفوفها ، حتى يجلو عن معاقلهم ذلك العدو الدخيل ، ويجر أذيال الخيبة .

ويصف مشاعره الجياشة بالألم ، والمتعطشة للثأر ، بقوله :

أوّاهُ كـمْ أنـا غاضِـبٌ والنفـسُ تَقْـذِفُ بالشَّـرَرْ
آذيتَـنِي وجعلتَنـي حَـرْبـاً عليــكَ مِـن البَـشَــرْ
فـوَقَفْـتُ عُمـري فـي كفــاح الظلـمِ لما انتشـرْ
أوّاهُ كَـمْ أرهبْـتَـنـي ، فَـدَفَـعتُ بالسُّخْــطِ إليْـكْ
أبـداً تُـحـبُ شَتـاتَنا ، فتُــزيدُ وحْدَتنـا عليْكْ
عمّــا قـريبٍ نـوثِـقُ الأغـْـلالَ رغماً في يـديْكْ

ويوغل الشاعر في وصف غضبه وسخطه ونقمته وثورته ، وتهديده بالثأر وتفاؤله بالنصر إذا التحمت الصفوف ، واتحدت قوة العرب والمسلمين .

لم يفصح الشاعر في هذه القصيدة عن المستعمر الذي يعنيه ، ولا عن الأرض التي استعمرها ، وأذل أهلها .. ولعله يعني اليهود الذين احتلوا أرض فلسطين ، وشردوا شعبها الأعزل الآمن بالغدر وسفك دماء الأبرياء .

استمع إليه في تهديده وشكواه :

أوّاهُ كـمْ أنـا نـاقِـمٌ قلــبي ببغضِـكَ يستعِــرْ
عَــرفَ البقــاءَ عقيـدةً وكفاحَ مجْدٍ مستمِـرْ

فأصَـــرٌ يثـأرُ دائماً ولســـوفَ حتماً ينتـصـرْ

فـإذا العُـرُوبـة أجمَعتْ وتـكتلتْ في فَـيلقِ

ستبيـدُ جُنـدَكَ كلّـه ، وكأنّـه لَـمْ يُخلَـقِ

وتظَـلّ مكـدودَ القـوَى ولنـا صباحُ المشـرقِ

ولعل هذه القطعة من القصيدة هي أجود ما فيها معنًى ومبنًى وسبكاً ، ففيها العبارة المحكمة عن النقمة الدائمة على العدو الغاصب ، وفيها ذكر العقيدة التي تبعث على الكفاح ، وتأبى على أصحابها الهوان والرضا بالنعيم .

وهم لا شك منتصرون إذا وحدوا الصف ، وصدقوا العزم ، وهم قادرون على تبديد شمل الأعداء ، وردهم على أعقابهم خاسرين .

* * *

وفي قصيدته « حديث النهر » محاورة بينه وبين النهر ، وفيها جملة من النصائح التي تخيل أن النهر يعظه بها .

أما الشاعر فلا يزال يشكو من الزمان والناس الذين غابت ضمائرهم ، وجفت ينابيع العدل فيهم ، فنصبوا شباك أطماعهم ، وسحر المال ألبابهم حتى صاروا له عبيداً .

وهذه القصيدة شبيهة بقصيدته الأولى « حديث إلى الفتاة المسلمة » بما تضمنته من الوعظ أو النصح .

وعدد أبياتها ستة عشر بيتاً منها ثلاثة عشر بيتاً وصف فيها الحياة كما صورها إحساسه بهـا ، وعرض لأطماع البشر التي لا تحدها حدود ، و ولوعهم بجمع المال من طرقه المشروعة وغير المشروعة .

وفي أواخر القصيدة ستة أبيات ، منها ثلاثة أبيات فقط ، هي كل ما يتصل بالنهر أو يختص به ، وهي أبيات ساقها الشاعر على لسان النهر ، وهي :

أما تَرى مركبي سهلا لقاربهمْ ومَشْـربي فيهم عـذبٌ لمن شَربا

ما كدَّر الصفـوَ ما ألقاه من دَرَنٍ كلا ولا عاقني الجسمُ الذي رسَبا

ألا تَرى جَدْولي يَسقي مرابعَهُمْ وشاطئ الخصب للنُّزهات قد رَحُبا

ذلك كل ما يتصل بالنهر من المعاني ، وهي معان سهلة قريبة المأخذ ، أدِّيت بعبارة سهلة قريبة التناول ، كثيرة الدوران .

ولذلك يفقد هذا الشعر ما ينبغي أن يتوافر في مثله من معالم الخصوصية التي تبرز في المعاني المبتكرة ، والتخيل الجميل ، والتصوير البارع ، كما تبرز في العبارة الأنيقة الفنية الممتازة .

وبغير ذلك لا يجد عشاق الفن الشعري ما يشتهون من معالم الفنية في مثل هذا الشعر ، الذي لا يزيد عما يتداوله الناس إلا الوزن والقافية ، وبخاصة إذا رأوا ما يستعصي على الأفهام بعدم انتظام صياغته ، أو تخير لفظه ، أو جودة سبكه ، كما في بيته :

قال الحياةُ وفـاءَ عـزٍّ مطلبُه   وما يـزالُ من الأفـذاذ مُرْتَقَـبا

وفي مثل قوله :

قلتُ الحياةُ لبعض الناس يملؤها   حقداً على النّد ناراً تقذفُ اللهَبا

واختفاء المعنى واختلال الإعراب في مثل هذا لا يحتاج إلى بيان .

وفي مثل قوله :

فَاضْحك ليومكَ راضي ما تُصادفه   إن نلتَ ما تَبْتَغي أو عـزّ ما طُلبا

وأجود من هذه القصيدة قصيدته « خلق الفلاح » . وقد جادت شاعريته فيها بثمرات شهية ، وأوصاف جميلة لحياة هذا الفلاح وجدّه ونشاطه ، وكفاحه وصبره على العمل الشاق في فلاحة الأرض وزراعتها ، وسعادته بما يبذل من الجهد المضني فيما ينفع الناس ، ويحفظ عليهم حياتهم :

فيقول على لسان ذلك الفلاح :

عِشْتُ في حقلي كفاحاً   أبـذل الجهـدَ وأصـبرْ
كلمـا غـرَّد طـيرٌ   بشعاع الصُّبح بشَّـرْ
أحملُ الفـأسَ نشيطاً   أحـرثُ الأرض لتثمـرْ
هِمْـتُ في حقلي سعيداً   أغـرس النخـلَ وأبـذرْ
حبَّـةَ القمـح لتنـمـو   سنبـلاً سبعًـا وأكثـرْ

والصواب هام به أي أحبه وتعلق به ، أما هام فيه فمعناه تاه وضل ، وليس هذا مقصود الشاعر .

وينتقل إلى وصف جميل لمباهج الحقول ، وجمال الزهور ، وخضرة الزروع ، وصفاء الأجواء التي تبعث في قلبه مشاعر الرضا والصفاء :

إنّ في حقلي جمالاً يُسعد الناس ويبهرْ

أرقبُ الطلّ صباحًا يلثم الزهرَ المعطّرْ

وشذا الورد رقيقٌ يشحذ الحسَّ ويغمرْ

والفلاح بما يمتع به الأنظار من نضرة زرعه ، وما يغذو به الناس من ثمرات كفاحه وجهده ، يغرس في قلوبهم الحب ، ويشيع فيهم الود ، وينشر البسمة على كل وجه ، فيبدد بصنيعه ظلام الحياة وأحقاد النفوس .

وذلك من أجود معانيه وأكثرها صلة بالفن الشعري ؛ لأنه لم يعمد إلى الوصف المجرد ، وإنما أضفى عليه من المشاعر ما أحياه ، أو ما وصله بالحياة :

أزرعُ الحُبَّ وفاءً أمنح البسمة تزهرْ

ليت في الناس صفاءً كصفا زهري المنوّرْ

ليت في الناس سلامًا وادعًا في النفس يكبرْ

ومن قصائده التي تبرز فيها العاطفة الوطنية التي يحس بها الشاعر بما يعاني إخوانه في العروبة والإسلام قصيدته « عائد » .

و« عائد » هذا اسم رمز به الشاعر لكل طفل من أطفال فلسطين الذي شردهم اليهود واغتصبوا أرضهم ، وأجلوهم عن ديارهم ، فعاشوا في الملاجئ والخيام ، وذاقوا مرارة الحرمان ، والبعد عن الأوطان .

وقد صور فيها الشاعر كارثة فلسطين تصويراً جيداً عبر فيه عن تلك المأساة الأليمة التي يعيشها شعب فلسطين تصويرا جيداً اصطنع فيه حواراً باكياً بين هذا الصبي عائد وأمه ، وهما يتبادلان الإعراب عن مشاعر الحزن والأسى ، لما يكابد كل فلسطيني من مرارة الغربة والبعد عن الديار ، والحياة البئيسة في الخيام التي لفها الظلام ، وعم أهلها السقام ، فلا غذاء ولا

كساء ولا دواء ، ولا شعاعاً من أشعة المعرفة ينفذ إليها .

يسائل عائد أمه قائلا :

إلامَ المقــامُ بتلــك الخيــام ِ فلستُ أراهـا لنـا كافِيـهْ
فلا العيشُ فيها لذيذٌ ، ولا العِلْـــ ـــمُ رفّت مناهلُـه الصّافيه
وما غـيرُ سُقْـم ٍ أقيمـتْ عليــه وأشباحُ فقـرٍ بهـا باديه
أ أمـــاه رُدّي جـوابًا عــــليّ فما هِيَ أوطانُنا ما هيـــه ؟

وتحدثه أمه بالغد المشرق المأمول الذي تنجاب فيه غياهب الظلام ، ويعود فيه الحق إلى أصحابه ، ويعود شعب فلسطين إلى وطنه السليب يوم تزحف جحافل العرب إلى تلك البقاع لتستنقذها من أيدي المعتدين ، وتطهرها من رجس اليهود الذين عاثوا فيها بالفساد ، وتعيد أمجادها السالفة ، وتسترد أرضها المباركة ، وكرامتها المضيعة . فيقول شاعرنا على لسانها ، مخاطبة وليدها :

إذا مـا رأيـتَ أسـودَ الشّـرى تُلبّي النّـدا من جميع العربْ
فيالقُ قـد دُجِّجَـتْ بالسّلاح تسـيرُ بعـزم ٍلنيـل الأربْ
رأيتَ حشـوداً تدكُّ الجبـال تصبُّ على الغاصبيـن العطبْ
وتـرمي اليهـوَد بنيـرانـها وليس لها غيرُهم من حطـبْ
فللرِّجـس نطـردُ مـن أرضنا وندخلهـا عَنْـوَةً بالحُسـامْ
ونقـضي لأنفسـنا ثـارَها بعـزمةِ صدقٍ تبيـدُ الطَّغـامْ
وتأتـي جموعٌ لنـا وحـدةً يـرفُّ عليهـا لـواءُ السّـلامْ
فنعقـد بالنصـر تاجـاً لنـا هـو العَــوْد نُحـرزه بالوئامْ

وتصف له ما سيلقى في بلده من الحياة الكريمة التي يعيش فيها مرفوع الرأس ، يشعر بالعزة والكرامة ، وما يرى في وطنه من القصور الشامخة ، والمغاني الشائقة التي سيتفيأ ظلالها في وطنه الحبيب ، فيقول على لسانها :

وفيهـــا « أ عائدُ » تَلقى لنـــا مغانـي عاليـــاتِ القُصـــورْ
وتشعـــرُ بالعـزّ فـي أرضِنـــا وفي حقلنـا زاهـياً بالزُّهـــورْ

وتَتلـو صحائفَ مـن مجـدِنا   طواهـا هناك سـتارُ الدُّهورْ
فتعـرفُ أن لنـا موطـناً   كبيـراً جمـيلا إليه نسـيرْ
هُنـاك عـلى رَبـواتٍ لنـا   من الحسـنِ كان عليها وشاحْ
وتعـرف أنّـا رجعنـا إلـى   مواطـنَ كانتْ لنـا تُستبـاحْ
هناكَ مع العَوْد نشدو جميعاً   نـردِّد فيـها نـداءَ الفَـلاحْ

وقد هزّت مأساة فلسطين مشاعر العرب والمسلمين في كل مكان ، واستأثرت هذه المأساة بأوفـر حظ من عناية الشعراء المعاصرين ، فصاغوا فيها أجود الأشعار التي تفيض بالأسى والألم ، كما فاضت بالحماسة والأمل . وكان شاعرنا من أولئك الشعراء الذين أجادوا في وصفها ، وبشـروا بالأمل في استرجاعها في ذلك الحـوار الشعري الذي يحيي الهمم ، ويستنهض العزائم .

ونذكر أن للشاعر إبراهيم الدامغ وهو والشاعر من شعراء القصيم وغيره من شعراء هذه البلاد شعراً غزيراً في كارثة فلسطين وما أصاب أهلها من البؤس والشتات .

من هذه الفلسطينيات التي أنشأها الوشمي فلسطينية أخرى عنوانها « مناجاة فدائي » يصور فيها صراعاً داخليا يضطرم بين جوانح هذا الفدائي الذي استشاط قلبه غضباً ، وآلى على نفسه أن يثأر لبلده المسلوب وشعبه المنكوب .

* * *

على أن شاعرية الوشمي تفصح عن نفسها ، وتجود بمكنونها في قصيدة جيدة ، عبر فيها عن تجربة من تجاربه التي تبرز فيها عاطفته الإنسانية ، وشعوره المرهف نحو المعذبين من بني جنسه ، الذين حطمتهم صروف الزمان ، فذاقوا مرارة الجوع وألم الحرمان ، فلم يجدوا مأوى يلجئون إليه ، ويعتصمون به من لذع الزمهرير ولفح الهجير .

وتلك قصيدته التي سماها « الفقير الأرمل » ، وقد أوحى بها إليه كما يقول سماعه في بعض أحياء المدينة صوتا ينبعث من شبح ارتمى على قارعة الطريق في ليلة ضحك برقها ، وجلجل رعدها ، وزمجرت ريحها ، فوجده شبحا خليقاً بالرحمة والعطف .

وفي أولها يصف هذا الشبح فيقول :

شبحٌ بدا لي من قريبْ واهاً لمنظره الرهيبْ
رُحماكَ ربّي ما بهِ أ هو الفقيرُ أم الغريبْ ؟
صوتٌ تَقَطَّعُ خافتاً بسماعه أقسى القلوبْ
صوتٌ يمازجه أسًى فتظنّ صاحبَه يذوبْ
أنّاتُه ثكلى تهزُّ القلـ ـبَ مضطرب الوجيبْ
وكأنّها وخْزُ الرِّما ح هوتْ على الجسم العطيبْ

ثم يصف مشاعره نحو هذا الشبح الرهيب بعد أن سمع أنينه يطرق سمعه ، وينفذ إلى أعماق قلبه . وتدفعه عاطفته أو واجبه الذي أوحى به ضميره ودينه إلى الدنو من مصدر هذا الأنين ، ليعرف أمر صاحبه ، فيقف على حاله ، ويصف ما يعاني من أسى ، وما أقعده من سقام :

قد حركتْ مني الشُّعو ر فدبَّ في الجسم الدبيبْ
الواجبُ « الدينيّ » يَدْ فعني بعزمٍ أن أجيبْ
فدنوتُ منه مفكّرًا في أمره ماذا أصيبْ
ألقيتُ طَرْفي نحوه وقصدتُه قصْد الأريبْ
وبصوته أبصرتُ هيـ ـكَلَه المحطّمَ بالكروبْ
فوجدتُه شيخاً كليـ ـلَ الطرف أضْناه الشُّحوبْ
كِبَرٌ يقوّسُ ظهرَه لا يدفع الكِبَرَ الطبيبْ
شيخٌ تجعّد وجهُه ويلَ الشباب من المشيبْ

ويشرح أثر قربه منه ، وإحساس ذلك الشبح بالأمل ؛ إذ وجد في الناس من يدنو منه ، ومن يتحدث إليه ، ومن يبثه شكاته ، بعد أن كان قد فقد الأمل في الحياة وفي الأحياء ، فقعد القرفصاء ، وانهمرت من عينيه الدموع :

ما إن توجّسَ مقدَمي وأحسّ بي منه قَريبْ
حتى تَقَرْفَصَ قاعداً في منظرٍ قاسٍ رهيبْ
فالدمعُ سال بعينِه وانهلّ كالسيل الصَّبيبْ

ما كـان دَمْعًـا إنـــه نـارٌ تذكيهـا الخطـوبْ
فتـأوّه المسكـينُ مـن فَـرْطِ التّعاسـة واللغوبْ
أحسستُ في أناتــه مثلَ الشُّـواظ منَ اللهيبْ

ويأخذ الشاعر بيد هذا المسكين ، ويبشره برحمة الله ، ويساعده على النهوض معتمداً على عكازه ، ويسأله عن خطبه ، فيتابع الشيخ شكواه من صروف الزمان ، وتنكر الخلان ، ويقول :

فأجـاب : إني يا بُنَـيَّ حليـفُ مَسْكنـةٍ غـريبْ
لم تتـركِ الأيـامُ لـي مالاً ، فأنكـرني الحبيبْ
والبؤسُ أصبَح صاحبي والجوعُ لي بئس الربيبْ
طِمْري خفيفٌ لا يقي من وَطـأةِ البـردِ الرهيبْ

ويستطرد الشيخ في شكواه مشيراً إلى الرحمة التي ضلت طريقها إلى قلوب البشر ، حتى أنكر الأخ أخاه ، والجار جاره ، وآذنت شمس الخير بالأفول .

وينتقل الشاعر إلى عتاب ذوي النعمة واليسار الذين ضنوا بأموالهم ، وبخلوا على إخوانهم في الإنسانية ، وجيرتهم في الديار بأقـل القـليل مما آتاهم الله من فضله ، ثم يدعوهم إلى البر والبذل في سبيل الله ، حتى يستحقوا ثواب الله الذي وعد به المحسنين .

ولا شك أن القارئ كان يتوقع أن يجد لمشاعر الرحمة والبذل حظاً في نفس الشاعر بعد هذا الحوار الذي صور فيه مأساة هذا الشيخ البائس ، وقد شهدها بنفسه ، ووصلت آثارها إلى أعماق قلبه ، ولكنه لا يجد في القصيدة على طولها ذكراً لمعونة قدمها ، أو لمكرمة أفاء بها على هذا البائس المسكين ، واكتفى بأن يقف موقف الناصح أو الواعظ ، حتى كان أشبه بأولئك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم !

ولو أن الشاعر استكمل هذا الجانب الإنساني في قصيدته لاستكمل القصص الدرامي الذي سلكه ، وسار فيه شوطاً بعيداً .

* * *

وبعد هذه الجولة في الشعر الذي وصل إلينا من شعر الشاعر أستطيع أن أقول إن صالح الوشمي شاعر موهوب ، وإن له قدرة ظاهرة على التعبير عن تجاربه النفسية والوطنية والاجتماعية .

ويشهد على هذه القدرة طول نفسه في أكثر ما قرأت من شعره ، ثم إبرازه المعاني في أسلوب القصص والحوار ، كما رأينا ذلك في قصيدتيه « عائد » و « الفقير الأرمل » .

وإذا كان هنالك ما يتقدم به الناقد إلى مثل هذا الشاعر فهو التنبيه على ضرورة التزود من الثقافة الأدبية ، والاطلاع على أعمال الشعراء المبدعين والمجيدين ؛ فإن للمحاكاة والدربة أثرهما الذي لا يجحد في إرهاف الملكات وشحذ المواهب ، ليس في الفن الشعري وحده ، ولكن في الفنون الإنسانية كلها من غير استثناء .

ولست بمستطيع أن أتصور شاعراً أو فناناً لا يعرف من فن الشعر أو غيره سوى ما نظم من شعر ، أو ما أبدع من فن ، مهما تكن منزلته في عالم الآداب ، أو عالم الفنون ؛ لأنه يتطلع دائما إلى النماذج العالية ، يحاول احتذاءها أو الإفادة منها ، أو الزيادة على ما رآه فيها ، كما ينظر في الأعمال الهابطة ليتحاشى ما رآه العارفون فيها من أسباب التهافت أو القصور .

وذلك إلى أن هذه المعرفة بالأدب ، وبتصرف الأدباء في فنون القول – تمد الأديب والشاعر بطاقة لغوية ، ومعرفة بخصائص الألفاظ وإيحاءاتها المعنوية أو العاطفية التي تحملتها في مسيرتها الطويلة عبر الزمن ، فتعينه على التعبير الممتاز عما يعرض له من التجارب ، ويستطيع بذلك أن يبلغ منزلة رفيعة في فنه الأثير ، كما تجنبه الوقوع في مثل مارأينا من العثرات أو الأخطاء أو الضرورات التي تذهب برونق الشعر وبهائه ، عند شاعر موهوب مثله يتمتع بحسٍّ مرهف ، ويفيض قلبه بمثل ما رأينا من عواطفه الوطنية ، ومشاعره الإنسانية .

زَكي قنصُل

كتب صديقنا المرحوم الأستاذ جورج صيدح في موسوعته « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية » :

« عندما وصل زكي قنصل قادماً من « يبرود » إلى الأرجنتين عام ١٩٤٩ م تبع الطريق التي عبّدها أخوه « إلياس » منذ خمسة أعوام بالكشة ، وحرّر في الصحف ، وتاجر بالخردة . ولم يزل في متجره في « بونس أيرس » إلى اليوم ، بينما إلياس وضع حداً لغربته ، وعاد إلى حقل الأدب الذي خلق له ، يزرعه ويحصده في الوطن . لم يحمل هذا الشاب إلى المهجر علما وثقافة ، ولكنه حمل توقًا إلى المعرفة ، وشغفاً بالتحصيل ، وميلا جارفًا لعرائس الشعر ؛ فدرس العربية والإسبانية على نفسه ، وأخذ يكتب دون أخطاء ، وينظم دون عثار حتى تمكن من البيان ، وتفتحت مواهبه مع الأيام ، فراح يتفنـن ويتفوق ، ويسير سيرة الأديب الحق : لطفٌ جَمّ ، وخلق أشمّ ، ولسان عفّ ، وقدم لا تسعى إلا للخير[1] .

وإذا كان « جورج صيدح » يذكر أن زكي قنصل ولد سنة ١٩١٩م ، فإن الشاعر وهو أعرف بتاريخه يقول إنه ولد سنة ١٩١٦م بديار الغربة ، من غير أيّ تعريف بما يعني بـ « ديار الغربة » في بيت متواضع ، وإنه ثالث إخوته الثمانية ، وإنه انتقل سنة ١٩٢٢م إلى قرية « يبرود » السورية ، مسقط رأس والديه . وفي أواسط سنة ١٩٢٩م نزح مع والده إلى البرازيل، حيث كان قد سبقهما إليها أخوه الأكبر الشاعر « إلياس قنصل » ، ومن هناك انتقل الثلاثة في أواخر السنة نفسها إلى الأرجنتين ، ليعملوا في التجارة عن طريق « الكشة » .

و « الكشة » كما يعرفها أهل الشام صندوق من الخردوات والمستحدثات يشد إلى المنكبين بأحزمة وسيور ، ينطلق بها صاحبها في الشوارع والأسواق ينادي على بضاعته بفنون من التشويق ، تحتاج أكثر ما تحتاج إلى الحنجرة القوية والصوت الهادر .

ولم أسمع لفظ « الكشة » هذا في مصر ، وإن كنت رأيت هذه الصورة ، أو ما يقرب منها ، عند بعض الباعة الجوالين في الأسواق في القرية زمان طفولتي في القرية .

---

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، ص ٦٣٣ من الطبعة الثالثة .

ويقول زكي قنصل إنه أنس في نفسه ميلاً إلى المطالعة ، فكان يدسّ في « كشّته » كتابا ينكبُّ على التهامه في فترات استراحته ، وربما عاد في المساء إلى بيته وليس في جيبه ريال واحد ، ولكنه مشغول الذهن بخاطرة يداورها ، أو هاجس يقض مضجعه .. وهكذا بدأت تتكون ثقافته الأدبية ، وبدأ يتلمس طريقه إلى عالم الشعر .

وفي سنة ١٩٣٥م انضم إلى أسرة « الجريدة السورية اللبنانية » ، وكان شقيقه إلياس قنصل قد سبقه إليها رئيساً للتحرير ، وترك العمل في هذه الصحيفة سنة ١٩٣٩م ليعود إلى العمل التجاري في دكان افتتحه هو وشقيقه في ضاحية نائية من مدينة « بونس أيرس » .

وتزوج زكي قنصل سنة ١٩٥٠م من فتاة عربية سورية ، وكانت باكورة زواجهما طفلة اسمها « سعاد » توفيت في الشهر الثامن من عمرها ، فبكاها الشاعر في عدد من قصائده التي جمعها في ديوان يحمل اسمها « سعاد » ، ثم رزقهما الله بمولود سمياه « عمر » تيمنا باسم الشاعر الكبير « عمر أبو ريشة » الذي كان يومئذ وزيراً لسوريا في الأرجنتين ، وكانت تربطه بزكي قنصل صداقة متينة الوشائج [1] .

وقد دفعني إلى تقديم هذا التعريف بالشاعر عوامل كثيرة أهمها :

١ ــ أن تاريخ حياة أكثر أخواننا المهاجريين – ومنهم شاعرنا زكي قنصل– تخفى على الغالبية العظمى من المتأدبين في عالمنا العربي ، لبعد الشقة بيننا وبينهم ، وقلة ما يصل إلينا من نتاجهم الأدبي والشعري ، وقلة العناية بنشر هذا النتاج ودراسته ، مع حاجتنا القصوى إلى مثل هذه الدراسة التي تصل حلقات الدرس الأدبي ، وترسم صورة متكاملة لمسيرة الأدب العربي ، ورصد سائر اتجاهاته ، في مختلف عصوره وبيئاته .

ولم يقم بهذه الدراسات على أهميتها ، إلا نفر قليل من الكتاب والدارسين ، الذين لا ينكر فضلهم في تقريب هذه الصورة ، وتوضيح بعض جوانبها . وأذكر منهم الأساتذة جورج صيدح ، وعيسى الناعوري ، ونادرة السراج ، ومحمد عبدالغني حسن ، وأنس داود الذي أشرفتُ على رسالة جامعية له موضوعها « التجديد في شعر المهجر » ، وقد حصل بها على درجة الماجستير من جامعة القاهرة ، ثم طبعها ، وقمت بكتابة مقدمتها ، مشاركة في هذا العمل العلمي النافع .

---

(١) انظر مقدمة ديوان « نور و نار » للشاعر زكي قنصل .

٢ ــ وهذه المعرفة ضرورية للوقوف على نشاط أولئك الشعراء الذين نزحوا إلى تلك البيئات الأجنبية ، وحملوا معهم خصائص التفكير العربي ، ومشاعرهم العربية ، وعواطفهم نحو قومهم ووطنهم ، وتشبثهم بلسانهم العربي ، وهيامهم بفن الشعر على وجه الخصوص ، وهو فن العروبة الأصيل .

٣ ــ ثم إن هذه المعرفة تيسر لقارئ هذا الأدب فهمه وتذوقه ، وتعين الدارسين والنقاد لهذا الأدب على تفسير ما فيه من الظواهر التي برزت في أدب أولئك المهاجريين بتأثير تلك الحياة الجديدة في بيئات غريبة عنهم ، ومظاهر الحنين إلى الربوع ، وإلى العشيرة والصحب في الوطن الأم .

٤ ــ الوقوف على صورة فريدة من صور الكفاح الشريف في طلب العيش ، ضرب فيها المهاجريون أروع الأمثلة في الدأب والجد ، وفي الصبر والجلد ، واحتمال آلام الغربة وأهوالها في سبيل الحصول على الحياة الكريمة التي يتطلع إليها الإنسان العربي إذا ضاقت به في بلده مسالك الحياة .

وقد نجحوا إلى حد بعيد في تحقيق أحلامهم ، فالتأمت في ديار الغربة صفوفهم ، وتعاونوا على الحياة ، فهيئوا لأنفسهم حياة اجتماعية ، وكان نشاطهم في مجال الثقافة مما يدعو إلى الإعجاب ، فأنشئوا الأندية ، وألقوا المحاضرات ، وأصدروا الصحف والمجلات الفكرية والأدبية ، وكان في طليعة المشاركين في ذلك النشاط المحمود شاعرنا زكي قنصل ، وقد عرفنا عمله في تحرير « الجريدة السورية اللبنانية » التي كان يرأس تحريرها أخوه الأكبر الشاعر « إلياس قنصل » ثم اشتركا معاً في إنشاء مجلة أدبية عربية سمّياها « المناهل » ظلت تصدر ثلاث سنوات .

* * *

وديوان زكي قنصل الذي نتحدث عنه في هذه السطور هو ديوانه الذي سماه « عطش و جوع » وهي تسمية يبدو فيها شيء من الغرابة التي تزول بعد التأمل فيما قدمنا من سيرة حياته .

و « العطش و الجوع » هو عنوان أول قصيدة في هذه الديوان التي يختتمها الشاعر بهذه الأبيات :

يا عائدين إلى الحِمَى قلبي به عطشٌ و جُوعْ
بِاللهِ هلْ في الرَّكب متَّـ ـسَعٌ لملهوفٍ وَلـوعْ ؟
حـزَّمْتُ أمتـعَـتي فَـيَا قلبُ ارتَقِبْ يـوم الرجوعْ

والحِمَى هنا هو بلاد الشام التي ولد ونشأ بها الشاعر ، والعطش والجوع يمثلان اللهفة والحنين إلى العودة إلى تلك الربوع في الوطن الأم .

وديوان « عطش و جوع » هوالديوان الثاني لزكي قنصل .

أما ديوانه الأول فإن عنوانه « سُعاد » . وقد وقفه على رثاء صغيرته « سعاد » التي اختطفها الموت بعد ولادتها بثمانية أشهر ، وفيها يقول :

رَفَّـتْ رفـيـفَ الأقْحوا نَةِ ، وانْطفتْ في عُمْرِها
ماذا جنـَتْ حتى تصيـ ـدَها الرّدى في فَجْـرِها
يـا ربِّ لا تحبِـسْ فـؤا دي لحظـةً عـن ذكرِها
أنـا قـد عبـدْتُك بسْمـةً وضّـاءةً فـي ثغـرِها
وشمَمْـتُ أنفـاسَ الجنـا نِ شـذيّةً فـي شَعْـرِها
يا مَـنْ يَردُّ إلـى شفَـا هـي بَسْمَةَ الأمـلِ النّدي
ويعيـدُ لي ما أفـنتِ الأيّا مُ مِـن قـلـبي الصّدي
أنا مِـنْ أسـايَ ومـن جرا حِي فـي ظـلام سَرْمَدي
قَدْ كان يضحكُ لي غَدي فاليـومَ أهـربُ من غـدي
مـاتتْ أنـاشـيدي الحِسَـا نُ و بُحَّ صـوتُ المنـشـدِ

وعلى هذا كانت التجربة في الديوان الأول هي تجربة « سُعاد » التي قضت في عمر الزهور ، وخلّف فقدها اللوعة والحسرة في قلب الأب المفجوع .

* * *

أما التجارب في هذا الديوان الثاني « عطش و جوع » فإنها تتعدد ، والتعدد هنا هو تعدّد مثيراتها ، أو تعدّد مناسباتها .

أما التجارب في حد ذاتها فإنها لا تخرج في مجموعها عن تجربة الغربة بما تحمل من أحاسيس الألم لفراق الوطن ، والبعد عن ديار الأهل والعشيرة ، وعن معاهد الصبا ، وذكريات الطفولة ، وما يتصل بذلك من مشاعر الشوق والحنين ، وأماني العودة إلى أحضان الوطن .

ففي قصيدته الأولى « عطش و جوع » التي سمي بها هذا الديوان ينزف شعره بهذه الحسرات :

هـل يملكُ المحـرومُ إلا أن يـكدَّ وأن يـجُـوعْ ؟

ما كان أخسـرَ صَفْقتي لَمَّـا نزحتُ عـن الرُّبـوعْ

أغـرانِيَ الفجـرُ الكــذو بُ وغرَّني البـرقُ الخَدوعْ

قالوا الطموحُ هو الرجُو لـةُ قلـتُ مـا أحلى القُنوعْ

لـولا سـرابُ المجـدِ لمْ تُسْلخْ عن الأصـلِ الفُروعْ

ويعبِّر عن حزنه الكامن في أعماقه ، والألم الذي يتردد بين جوانحه من آثار إحساسه بالوحشة في ديار الغربة ، والسراب الذي لم يجد فيه ماء ، والوطن الذي فارقه مخدوعا ببروق الآمال ، فيقول في قصيدته « لغة القلوب » :

شـرّدتْنـا على السّفـوح شمالٌ و ذَرَتنـا على السُّهول جنُوبُ

لا تغـرّنّـكَ ابتسـامةُ وجـهٍ هي في القلب دَمعةٌ وقطوبُ

يعـلمُ اللـهُ كمْ تناهَشَنـا الهمُّ وكم كشّرتْ علينا خطـوبُ

قد حملنَا من لوعة البين ما لمْ يحتملْ في بلائهِ أيّـوبُ

وفي قصيدته « بيرود » يناجي الشاعر مسقط رأسه ، ويصف ما صار إليه منذ فارقها من البؤس والضياع والتشريد الذي جعله يحس بخيبة المسعى ، فيقول مناجيا قلبه :

أيّها الخافـقُ في جنبيَّ ذُعْـرًا

قرَّ عَينـاً إنّ بعـد العسْـر يسرًا

قد قضينا العمرَ تشريداً وقهرًا

وزرعْنا السَّعي ريحانـاً وزَهْرًا

فنمـا شـوكًا وللمنـاهُ جَمْــرًا

يا صبايا الحيِّ هلْ تذكُرْنَ طِفْلا ؟
لـــزمَ العــشَّ زمــانــاً ثــمَّ أجْـلى
أنا ذاكَ الطفلُ لكنْ صِرْتُ كَهْلا
ضيَّعتْني غُـربتي أصْلاً وفصْلا
لمْ أصِبْ مجداً ولا أسْـعَدْتُ أهْلا

ويطول ذلك الصراع الداخلي للتجربة المرة حتى يطغى على أكثر شعر الديوان ، ويكثر الشاعر من حديثه عن بروق الآمال التي خدعته ، وقذفت به بعيداً عن وطنه وأهله ، ليقاسي آلام البعد ، ولوعة الاغتراب . ويوازن بين ما أفاد من النزوح وما ضيع من عمره بهذه الغربة القاتلة .

استمع إليه وهو يتحدث عن نفسه في قصيدته « يا قلب » وهو يحاول أن يقنع نفسه بالرضا بما هو واقع ؛ والتسليم بما قدّر الله :

حـار الأسـاةُ بجُـرحـه وتناقلتْ	زفـراتِـهِ الحرّى الرياحُ الأربَعُ
ما حِيلتي يا قلـبُ ؟ هـذا حظّنا	هلا رضينـا بالذي لا يُدْفعُ
هاضتْ جناحَيْنا العَشيَّةَ صَرْصَرٌ	وتقاذَفتْنا في السَّباسِبِ زَعزَعُ

* * *

وقد سبق أن قلت في بعض كتاباتي إن الزمن الذي قضاه أولئك المهاجريون في ديار الغربة لم يكن كافيا لنسيان الماضي ، أو تبدل المشاعر ، وانتقالها من حال إلى حال جديدة ، تغاير أحوالهم الأولى ، أو القضاء النهائي على خصائص الجنس الذي ينتمي إليه المهاجريون ، ولم يسمح بتلاشي الأصول الراسخة في العقول ، أو المتمكنة في قرارات النفوس .

ولم يسمح ذلك الزمن المحدود نسبيا بالاندماج الكلي في الجماعات التي عاشوا بينها في الدنيا الجديدة من حيث الفكر ، ومن حيث الشعور ، ومن حيث اللسان ، فإن ذلك لو قدر أن يكون محتاج إلى أزمان وآماد ، حتى تنسى الجذور التي نبتت منها ، والأصول التي تفرعت عنها .

وأعتقد أن ذلك القول إذا كان يصدق على أحد منهم ، فإن زكي قنصل في طليعة أولئك

الذين يصدق عليهم هذا الكلام .

وديوان « عطش و جوع » الذي نتناوله في هذا المقام خير شاهد على صحة ما قلناه ؛ لأنه ليس في قصائده الطوال ما يشير إلى تأثره بشيء رآه في غربته ، أو اجتذب مشاعره ، وحوّلها إلى مشاعر أو أحاسيس لا عهد للعربي بها .

وهو في الوقت نفسه يفيض بذكريات الوطن ، ومشاعر الحنين إليه ، ذلك الحنين الطاغي الذي أغلق أمام عيني زكي قنصل وأمام قلبه صفحة الحياة الجديدة في الدنيا الجديدة .

* * *

ولقد رحل زكي قنصل إلى مهاجره في أمريكا الجنوبية في طلب العيش ، وفي سبيل المال الذي يعيش به هناك ، أو يحمله إلى وطنه إن استطاع ليعينه على الحياة التي يصبو إليها ، وكان ذلك الهدف غاية جُلّ النازحين من أمثاله عن الأوطان .

ولكن هذه الغاية التي صرّح بها وأكّدها في أكثر شعره ، كما رأينا في أبياته التي استشهدنا بها فيما سبق . لم تستطع أن تحجب عن عينيه ولا عن قلبه تلك اللفتات الدائمة إلى عالمه الأول ، عالم الذكريات في وطنه القديم ، فهو في شوق جارف وحنين دائم إلى تلك الربوع ، وإلى مدارج طفولته في نجادها و وهادها .

وهيهات أن تنسيه حياته الجديدة ، أو المال الذي حقق غايته منه أو كاد ، هيهات أن ينسيه ذلك عواطفه الأصيلة الصادقة نحو الوطن ، بل إن هذه الحياة لم تستطع أن تحقق السعادة التي كان يحلم بها ، أو هدوء البال الذي كان يتمناه ، بل بدا ذلك سراباً في عين الشاعر العربي الأصيل ، ولم يعقب إلا الندامة على ما ضاع من سعادته وأحلامه في ربوع وطنه :

خابَ فألُ الغريب يخدعُهُ الوَهْـ ـــمُ ، وتُغْريه بالعُـلا عُرقُوبُ
القصـورُ التـي ابتَنـاهـا قبـورٌ والقروشُ التي اقتناها كروبُ
أ هـو العـزُّ أن تهـونَ عُقُـولٌ وقلـوبٌ لكي تَعـزّ جيـوبُ ؟

ويقول في معرض آخر :

ظنَنّـا السّعـادة فـي مَتْـجَـر يضمُّ الكنـوزَ و في مَعْمل
فلمْ نجـنِ غيـرَ الآسـى مشْـرباً وغـيرَ النـدامةِ من مَـأكل

وتراه يتحدث كثيراً عن السراب الذي أغراه ، وعن الأماني التي تراقصت أمام عينيه ، وعن مصارع الرجال تحت بروق الأطماع ، وعن الدنيا التي تضيق سعتها بالجشعين المتكالبين عليها ، وعن القناعة التي يجد المقلون تحت ظلالها السعة والسعادة :

يا قلبُ أغرانا سرابٌ كاذبٌ	تُغْرى بروعته العيونُ وتُخْدَعُ
أوْمَا إلينا بالبَهارج والحُلى	وتراقصتْ فيه الطيوفُ الرُّتَّعُ
يا ليتنا يا قلبُ لم نطمعْ ، ولمْ	نطمحْ ، ولم يضحك علينا لَعْلَعُ
هَبْنا جَمَعنا المجدَ من أطرافهِ	ماذا يفيد ومن رغيفٍ نشبَعُ ؟
ما أضيقَ الدنيا على متكالبٍ	جَشعٍ ، وأوسَعَها على مَن يَقْنَعُ !

وإنك لترى الشاعر في هذه الأبيات التي عبر فيها عن تجربة الغربة ومرارتها ، وعن سراب الآمال الخداع ، وقد لبس مسوح أهل الزهد والرضا بالقليل ، وهي صورة لليأس ، أو للهروب من الواقع ، وهي سمة من سمات النزعة الرومانتيكية التي تتردد أصداؤها في أكثر أشعار المهاجرين .

* * *

وأما الحنين إلى العودة فإنه يقترن دائما في شعر زكي قنصل بالشكوى من آلام الغربة ، ووصف حالته النفسية . فلكل قصيدة عرض فيها لوصف تلك الآلام ، و وصف تباريح الفراق ، لا يفوت الشاعر أن يعبر فيها عن مشاعر الحنين ، وارتقاب العودة إلى تلك الربوع التي لا ينساها .

تجد ذلك كثيراً في شعره ، وفي مطلع قصيدته « يا قلب » يقول :

أبداً يحنُّ إلى الرُّبوع وينزعُ	قلبٌ أنَهنِهُهُ فلا يتورّعُ
غالبتُهُ ، وأنا القويّ ، فما ارعوَى	ماذا أقولُ لثائرٍ لا يسْمعُ ؟
ضاقتْ به الدنيا ، فكيفَ يضمُّهُ	صَدرٌ ؟ وأنّى تحتويه أضلُعُ ؟
لا الحسنُ يطفِئُ فيه غُلّة شيّقٍ	ظامٍ ، ولا مُتَعُ الصَّبابةِ تنقَعُ
شغلتْه أحلام اللقاءِ عن الهوى	وثناهُ عن وَتَر المغنّي مطمَعُ
ما لاح نورٌ شاحبٌ في ليلهِ	إلا تهافَتَ خلفَهُ يتطلّعُ
أو هَدْهَدَتْهُ نفحةٌ شرقيةٌ	إلا تناهبَه الجَوى والمدمَعُ

ولذلك تختلط آلام الغربة عند شاعرنا بمشاعر الحنين إلى الوطن في قصائد الديوان التي أثارتها لذعة الاغتراب ، أو دفع إليها الحنين . والحقيقة أنهما متلازمان ؛ إذ أنه لا يحس بآلام الغربة إلا من ذاق مرارة النوى ، ومن لم يجد في جديده ما يسليه عن القديم ؛ لأنه يفتح عينيه دائما على ما يرى ، ثم يرتد بذكرياته إلى ما كان ، فتنجلي أمامه الفروق بين الماضي والحاضر .

استمع إليه في خريدته البائية الطويلة التي سماها « أسطورة الذهب » وهو يَعْنِي بذلك الأمل الذي كان يراوده ، والذي دفعه إلى النزوح ، وهي مشاعر المهاجر الغريب :

وَيْـحَ المهاجر يسعَى في مناكِبِها … يقظانَ من وجَلٍ ، سَهْرَانَ من نَصَبِ
إذا انْتمى القومُ ألوَى وَجهَهُ خجلاً … أنـّى يَعـزُّ شـريدٌ ضائعُ النَّسبِ ؟
لا رِجلُه في بلادِ الناسِ راسيةٌ … ولا بموْطِنـه موصُـولةُ النَّسَـبِ
توزّعتْ نفسُـه بـين ذاكَ وذَا … فضاع معناهُ بـين البعْـد والقُرْبِ

وقد يحمل ذلك على الاعتقاد بأن الشاعر لم يحمد المقام في حياته الجديدة في أمريكا ؛ لأنه لم يحقق أحلامه في سعة العيش والثراء واقتناء الأموال . ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فإن في بعض شعره إشارات إلى أنه ظفر بماكان يطمع إليه من المال والثراء ، ولكن ما حصل عليه من المال لم يستطع أن يحقق له ماكان ينشده من سعادة الروح ، وهي عنده أغلى من كل شيء .

ثم إن ما شكا منه الشاعر في هذه الأبيات وفي كثير مما يشبهها ليس الفقر أو الخصاصة ، وإنما كانت المؤلمات التي يعددها دائما لاتعدو دائرة الأحاسيس والمشاعر والعقد النفسية ، ولذلك كان يفضل على هذه الحياة الجديدة حياته الأولى في بلده ، على الرغم مما كان يجد فيها من خشونة الحياة وشظف العيش ، فقد كان يعمر تلك الحياة القديمة الشعورُ بالأمن والدعة ، والرضا ببساطة العيش . استمع إليه يتحدث عن ذكرياته الحلوة في بلده في حياته الأولى :

لا يذكرُ الدارَ إلا غاب فـي حلُمٍ … زاهي الحواشي وإلا اهتزّ من طربِ
أيـامَ يَرْتعُ فـي أمـنٍ وعافـيةٍ … خالي السريرةِ من همٍّ ومن رُعبِ
خَلَقَ اللباس ، عزيزاً في خَصاصتهِ … مَن قال إن العُلا في الملبَسِ القشِبِ
يغفُـو قـريراً علىَ الأشـواكِ تلذعُهُ … كأنهنَّ رُمُوشُ الزّنبَقِ الـرّطِـبِ

ويشـربُ المـاءَ رَنْقـاً لا يغـصّ به كأنه يستـقي من سَلسَـلٍ عـَـذِبِ
لا يشْـرئِبُ إلى ما عزّ من طلبٍ ولا يـزاحـمُ مغـروراً علـى لَقَـبِ

لقد طغت تلك التجارب المريرة على شاعرية زكي قنصل ، وبدت آثارها واضحة في شعر هذا الديوان الذي حمله الشاعر عنوان « العطش و الجوع » ليعكس على صفحاته ما يضطرب بين جوانحه من مشاعر الأسى ، ولهفة الملتاع إلى مسقط رأسه ، ومرتع صباه ، فهو صديان وإن وجد الشراب ، وغرثان وإن توافر له مالذ وطاب .. بالإضافة إلى تجارب أخرى ، أبدع في تصويرها ، وأجاد العبارة عنها .

* * *

حدث جورج صيدح عن نفسه قال : « أتذكر حادثة جرت مع إيليا أبو ماضي ، كنت في نيويورك آخر عام ١٩٤٧ أتأهب للرحيل إلى « بونس أيرس » ، وأتردد إلى منزل شاعر الجداول والخمائل إيليا أبو ماضي ، فسألته مرة إن كان يعرف أدباء مقيمين في الأرجنتين أستأنس بهم ، فسمى لي أربعة : جبران مسوح ، وجورج عساف ، وحسني عبد الملك ، وإلياس قنصل . ثم استدرك وقال : إن هناك أديبا لما يزل طريَّ العود اسمه زكي قنصل ، ينظم الشعر ولا يجيده ، أرسل لي ديوانه مخطوطا ، لأكتب له المقدمة فاعتذرت ، وبقي الديوان عندي ، خذه معك وردّه إليه . فحملت الديوان إلى صاحبه ، وظللت متأثراً برأي أبي ماضي في الشاعـر ، إلى أن قرأت قصيدته « بائعة الزهر » فآمنت بعبقرية هذا الشاعر ، وتمنّيتُ لوكان أبو ماضي أمامي ، لأحجه بالقصيدة ، وأجذبه إلى إيماني [١] ».

وقد يكون من المناسب أن أشرك القارئ في الاستمتاع بهذه القصيدة الوصفية الرائعة ، وأنا موقن بأنه سيؤمن بشاعرية زكي قنصل كما آمن بها جورج صيدح ، وقد يكون له بعد ذلك رأي فيما وصف به إيليا أبو ماضي شاعرنا زكي قنصل :

رأيتُهـــا حيْـرَى في زحمة الأحـلامْ
كأنهـــا تـَقْـرَا أسطـــورةَ الأوهـامْ
تسيـــرُ كالسَكْرَى في موكب الأيـامْ
وتُرْقصُ الزّهـــرا بهـــذه الأنغـامْ

(١) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، ص ٦٣٤ .

وهذه حكاية ندائها كما رسمتها ريشة الشاعر المبدع :

الـزّهـرَ يا عُشّاقْ حيَّ عـلى الـزّهْـرِ
يزهو مـن الأوراقْ فـي ثوبـة العِطْـرِي
هـديّـةُ المشتـاقْ للخـدِّ والنَحْـرِ
وحِليَةُ الأعنـاقْ أزهَـى مـن التِبْـرِ
سبحـانَ مَن زَانَـهْ بوشْيِـهِ الـزاهـي
وصـاغ ألـوْانَـهْ آمنْـتُ باللـهِ

ثم تبدأ بائعة الزهر بالمناداة على أزهارها ، ذاكرة محاسن كل زهرة منها ، وتبدأ بالورد ، فيقول الشاعر على لسانها :

مَن يشتري وردِي أنفـاسُهُ عنبـرْ
وسَّدْتـه زَنـدِي فـازورَّ واسْتكبرْ
يا أحمـرَ الخـدِّ يحـقُّ أنْ تفخَـرْ
نشـأتَ في الخلْدِ بِضفَّـةِ الكـوْثرْ
سبحانَ مَـن زانَه .... البيـتين

ثم المنثور الذي ندته بدمعها ، وطالما رفت حوله العصافير تقبل وريقاته الزاهية التي تشبه ثبات الحور كما أبصرتها في منامها :

مَن يشتري المـنثورْ بالدَّمـع ندّيـتـُهْ
كمْ قبَّل العصفورْ فـاهُ وقبَّـلتُـهْ
هـذا إزار الحـُورْ في الحُلْم ِ أبصرتُهْ
مِن قصرِها المسْحورْ في الليل لَمْلَمتـُهْ
سُبحانَ مَـن زانَـهْ .... البيتيـن

ثم « الزّنبق » الذي يختال بين الزهور كالنشوان ، تياها برونقه الباهر الذي لا يدركه الذبول:

من يشتري الزّنبـقْ نشـوَانَ مِـن زَهْـوِ
دُنـيا مِـن الـرَّونقْ هيهات أن تـذْوي

يا ناعماً أغْرَقْ		في حُلْمِهِ الحلْو
أخافُ أنْ تَغرقْ		في غَمرة اللّهو
سُبحانَ مَن زانَهْ		.... البيتين

ثم « الريحان » هدية الربيع ، وقد ازدهت غصونه ، وحسنت خضرته ، ونسقت حواشيه ، وفاح منه الشذا ، يعم الأرجاء ، ويعطر الأجواء :

مَن يشتري الريحانْ		يموجُ بالعطْرِ
مزركشَ الأردانْ		مُنمنَمَ الثغْرِ
أنشودة الرحمنْ		رَفّتْ على النهْرِ
يزُفُّها نيسانْ		في موكب الزهرِ
سُبحانَ مَن زانَهْ		.... البيتين

ويختتم الشاعر على لسان بائعة الزهر هذه الأنشودة العطرة بتسبيح مبدع الكون ، ومودع هذا الحسن في هذه الزهور ، وملهم القلوب حلاوة الإيمان ، وبحمده جل وعلا الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين :

يا مبدعَ الأكوانْ		يا خالقي من طِينْ
ألهمنيَ الإيمانْ		وقَوِّني بالدينْ
ما أصْعَبَ الحرمانْ		في مَيْعةِ العشرينْ
الزهرَ ياشبّانْ		مَن يشتري النّسْرينْ
سُبحانَ مَن زانَهْ		بوَشْيِهِ الزّاهي
وصاغَ ألوانَهْ		آمنْتُ باللهِ [1]

وكان جورج صيدح موفقا غاية التوفيق في وصفه هذه القصيدة في قوله : « موسيقية ملائكية تنمُّ عن طهارة الفم الذي ينشدها ، وبراءة القلب الذي استوحاها .» مقاطع قصيرة كعمر الزهور ، وألفاظ شفافة كندى الصباح ، ومعان ساذجة كابتسامات العذارى . الفتاة الغضة تعرض باقتها في السوق على المارة ، وتحاول بالنداءات المتوالية تحويل أبصارهم عن

---

(١) ديوان « ألوان وألحان » لزكي قنصل ، ص ١٦١ .

جمال جسدها إلى جمال أزهارها : المنثور تندى بدمعتها ، وتفتح تحت قبلتها بعد أن لملمته في جنح الليل من قصر الحورية المسحور ، والريحان المتماوج بالعطر المرفرف على النهر ما هو إلا أهزوجة الرحمن ، يهدي بها بصائر الشبان ، لعلهم يكفون عن مغازلة الفتاة ، ويشترون منها ما يقيها غائلة الجوع ...

والصلاة في آخر القصيدة ضراعة إلى الله أن يقويها على تلك التجارب بالدين والإيمان ..

ثم يقول : « هذي هي القصيدة التي تمنيت أن يسمعها أبو ماضي ، شاعر الزهر والندى ، حتى إذ تخايلت ألوانها أمام عينيه ، وتراقصت أنغامها في سمعه قال معي إن زكي قنصل شاعر مبدع كبير[1]. »

* * *

وقد صب الشاعر نتاج تلك الشاعرية الثرة في عدد من المجموعات التي أثرى بها ديوان الشعر العربي الحديث . ومن دواوينه التي تفضل بإهدائها إليّ :

(١) « سعاد » ، وهو الديوان الذي أخلصه لبكاء صغيرته سعاد التي قضت في عمر الزهور.

(٢) ديوان « عطش و جوع » الذي كان موضوع دراستنا في هذه الصفحات .

(٣) ديوان « نور و نار » الذي وصفه بأنه الجزء الأول من ديوانه ، وقد صدر سنة ١٩٧٢م في ٢٥٦ صفحة .

(٤) ديوان « ألوان و ألحان » الذي أصدره سنة ١٩٧٨م في ٢٥٦ صفحة .

(٥) ديوان « هواجس » وهو مقطوعات تتألف كل مقطوعة منها من ستة أبيات موحدة الأوزان والقوافي ، وقد طبع سنة ١٩٨١م في ٢٣٨ صفحة.

وإنك لتقرأ في كل ما تقرأ للشاعر آيات الصدق الشعوري الذي تحس فيه بصدق العاطفة وحرارة الانفعال ، ويقظة الوجدان في طراز فن الشعر العربي الأصيل الذي ينبعث عن قريحة مواتية ، وشاعرية مطبوعة ، لا ترى فيه أثراً لتكلف اللفظ ، أو استكراه المعْنى ، ولكنه ينساب في بيان مشرق ، وأسلوب عذب بديع .

ونتوقف قليلا لنقول إن السِنّ التي غادر فيها زكي قنصل موطنه في بلاد الشام إلى

(١) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، ص ٦٣٤ .

الأرجنتين لم تكن تسمح له باستيعاب اللغة العربية ، فضلا عن التمرس بالأساليب الأدبية .

ويبدو لنا أن زكي قنصل لم يبلغ ذلك المستوى الرفيع الذي بلغه في الأداء الشعري الا بموالاته القراءة ، وإكبابه على مطالعة كتب الأدب ودواوين المجيدين من شعراء العربية .. وقد أشرنا إلى هيامه بالقراءة إلى درجة النهم ، حتى في الأوقات التي كان يمارس فيها عمله الشاق الذي يكسب به ما يقيم أوده ، وبذلك نستطيع أن نقول إن زكي قنصل كان معلم نفسه ومؤدبها . أما الشاعرية فقد كانت عنده طبعا وسليقة ، لأن الفنية كامنة في أعماق صاحبها .

وقد دفعه حسه المرهف وطبعه الموهوب إلى ارتياض مناهل الثقافة الأدبية التي لا بد منها لمن يريد أن يكون أديبا أو شاعراً . وفي مقدمتها الثقافة اللغوية التي حصلها من تلك القراءات ، واستطاع بها أن يبرز مواهبه ، ويعبر عن تجاربه في ثقة واطمئنان ؛ إذ كانت اللغة وحدها هي أداة المحاكاة في الفن الشعري .

* * *

نزح زكي قنصل إلى مهاجره في الأرجنتين في وقت مبكر من شبابه ، وثوى في ديار الغربة أو ديار العجمة مدة تزيد على الستين عاماً ، ولكنه بقي مع هذا البعد الطويل عربيا في مشاعره وعواطفه وأمانيه ، يحن إلى الوطن حنين النّيب إلى العطَن ، يهيم بحب أمته ، ويشيد بمفاخرها ، ويمجد بطولاتها ، وتهزه أحداثها ، ويأسى لجراحها ، ويستنهض همم أبنائها ، لم يغرّه السرّاب ، ولم تبهره الأضواء ، ولكنه ظلّ لأمته و وطنه على عهد الولاء والوفاء ، وقليل أمثاله من المهاجريين والشعراء والأدباء .

وتظهر آثار حفاظه على القيم العربية الأصيلة في ذلك النسق البديع من الكلم المنظوم ، الذي لم تجرف صاحبه تلك الموجات الصاخبة في محاولات الخروج على الأنساق المألوفة في الشعر العربي من حيث أوزانه وقوافيه ، كما هو مشهود في زماننا عند عدد من الشعراء العرب في وطننا العربي ، وفي خارج حدوده .

وفي المقدمة التي كتبها الشاعر لديوانه « ألوان و ألحان » يصرح برأيه في فن الشعر ، ويوضح مفهومه كما يراه ، فيقول : « إن الشعر هو ما يعبر عن خلجات النفس ، ويستنطق هواجس الضمير ، ويغوص إلى أعماق الوجدان بلغة صحيحة خالية من الشوائب ، وأداء سليم يحسن اختيار الألفاظ ، وأسلوب أصيل لا تعقيد فيه ولا إبهام إلا ما يقتضيه ترف الفن وشرف

البيان .

« وإذا أردنا أن نختصر قلنا إن الشعر هو المعنى النبيل في اللفظ الجميل ، كالطائر لا ينهض إلا بجناحين . ولن أزعم أن القوالب العروضية رجس من عمل الشيطان ، فلا يمكن للشعر أن يستغني عن الوزن والقافية ، ومن الجناية أن تشعل فيهما النار بحجة أن الموسيقى الداخلية تقوم مقامها ، وتغني عنهما .

« إن الموسيقي الداخلية أسطورة ، لا تثبت للامتحان . في يقيني أنها على طريق الإفلاس ، إن لم تكن قد أفلست ، وانتهى أمرها .

« وقد رأينا أن كثيرين من الذين ثاروا على قواعد الخليل ، ودَعَوا إلى الخروج على سنـن الشعر وقوانينه قد عادوا آخر الأمر إلى ظل هذه المناهج ، وغسلوا أيديهم مما كانوا يصنعون .

« والحفاظ على مقومات الشعر لا يمنع من تنويع القوافي ، والتنقل بين الأوزان ، ولكن على أن تُراعى شروط الذوق السليم ، ويُواءم بين الأنغام ، وتربط الخيوط بلباقة .

« ولشعراء المهجر في هذا المجال اختراعات طريفة تقر بها العيون ، وترتاح إليها النفوس ، جرى على نهجها شعراء الوطن العربي . ولعل إيليا أبو ماضي أذكى الرواد في تصريف القوافي ، والتلاعب بالأوزان .»

وخلاصة رأي الشاعر ، كما نقرؤه في هذه السطور :

١ ـــ أن الشعر الجيد هو الذي ينبع من ذات الشاعر ، ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره .

٢ ـــ أن الشعر الجيد هو الذي يقترن فيه المعني النبيل بالأداء الجميل ، وهما كجناحي الطائر ، لا يحلق إلا بهما مجتمعين .

٣ ـــ ضرورة الالتزام بسنـن الشعر العربي وتقاليده في موسيقى الأوزان والحفاظ على القوافي .

٤ ـــ لا بأس بتنويع القوافي والتنقل بين الأوزان في القصيدة الواحدة ، إذا رأى الشاعر في هذا التنويع ما يعينه على التجويد ، وما يرضي ذوقه الفني .

ويبدو أن حملات دعاة التجديد وثورتهم على أشكال الشعر وقوالبه المأثورة دفع أهل الحفاظ إلى التصدي لهم ، وإلى إعلان التحدّي السافر لتلك الدعوة ، ويبدو ذلك التحدي في قصائد ومقالات سخروا فيها من أولئك الدعاة .

وقد رأينا في ديوان الحسّاني حسن عبد الله « عِفْتُ سكون النار » الذي نتحدث عنه فيما بعد شيئا من هذا التحدي فيما كتبه وأثبته على غلاف الديوان وفي صفحته الأولى ، ليكون أول ما يلقى القارئ ، ونص عبارته التي وصف بها ديوانه « من الكلام الموزون المقفى » وقد قلت إنه ليس لهذه العبارة معنى إلا التصدي أو التحدي لدعاة الشعر الجديد .

وها هو ذا زكي قنصل يكتب تحت عنوان ديوانه « ألوان و ألحان » عبارة تحمل معنى السخرية فوق ما تحمل من معنى التحدي ، ونص هذه العبارة « شعر تقليدي رجعي ، فيه كل عيوب الشعر القديم » !

وتبلغ هذه السخرية مداها في القصيدة التي افتتح بها الشاعر هذا الديوان ، وعنوانها « أنا رجعيّ !» والديوان كله من غرر الشعر العربي ، ولولا أن الحديث خاص بديوانه « عطش وجوع » لأفضت في دراسة هذا الديوان ، والكشف عن خصائص شعره ومزاياه ، وهي خصائص ومزايا تسلك الشاعر في سلك شعراء العربية الكبار المجيدين .

* * *

ويطيب لي أن أختم حديثي عن هذه الشاعرية المتمكنة الفيّاضة ونتاجها الحافل المكين بشيء مما أنشده زكي قنصل في ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي ، وهي ذكرى يحتفي بها المغتربون ، ويتناساها المقيمون :

خَشعتْ في مزاركَ الأرواحُ — وتَشدَّتْ على ثَراكَ الرياحُ
سيِّدَ الدولةِ التي لا تغيبُ الشمـ — ـسُ عنها ، وما حَماها سلاحُ
لكَ دون النُّسور أفْقٌ فريدٌ — هوَ وقْفٌ عليك لا يُستباحُ
كلّما امتدَّت العيون إليهِ — ردَّها عنه نورُك اللمّاحُ
سيدَ الشعر هل أتاك حديثُ النّيـ — ـلِ ماستْ في شطّه الأدواحُ ؟
جَرحتْ كبرياءَه عضَّةُ القيْـ — ـدِ فثارتْ أسنّةٌ وصَفاحُ
بعثتْ في النفوسِ ما خنقَ الجوْ — رُ وأذكتْ ما أخمدَ السفّاحُ
سيّدَ الشعرِ إنّ ذكراكَ عيدٌ — تتلاقى في ظلّه الأرواحُ
المقيمون في السياسات غاصُوا — فتغنّى بذكركَ النزّاحُ

يُوسُف عِزّ الدين

رَبَّةَ الشعر يا جمالَ الوجُودِ ... أنتِ قيثارتي وأنتِ نَشيدِي

أطْرِبيني بلحْنكِ الناعمِ العَذْ ... بِ ، وَجـُودِي عليَّ بالترديـدِ

أنتِ وحْيُ القريض يارَبَّةَ الشّعـ ... ـرِ، وَ وحْيُ القريضِ سرُّ الخلودِ

وعليكِ الجمالُ أضْفَى بُرُوداً ... مـن نسيـجِ البقـاءِ والتخليـدِ

والدكتور يوسف عز الدين واحد من شعراء العصر الذين لا يزالون ينفحون أجواء الحياة الأدبية بنفحات من شذا أشعارهم ، في زمان شغلت فيه متطلبات العيش وهموم الحياة المادية أكثر الموهوبين من الشعراء وأرباب الفنون ، الذين انصرفوا عن هذه الصناعات ، وبخاصة فن الشعر إلى طرق أبواب العمل ، والبحث عن أسباب الرزق التي تهيئ لهم الحياة ، وتصون وجوههم من الابتذال في طلب العطاء ، بعد أن أصبح الشعر صناعة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وندر في هذا الزمان أولو الأريحية من ذوي اليسار الذين كانوا يقدرون هذا الفن ، ويغدقون من فضل ما رزقهم الله على من يتقرب إليهم من الشعراء ، ويكفونهم مئونة العمل والسعي في طلب الرزق ، ممن كانوا يُسمّون « الشعراء المتكسِّبين » .

ولم نعد نرى في الحياة المعاصرة من نستطيع أن نسميهم « الشعراء المتفرغين » الذي يقصرون نشاطهم على هذه الصناعة الفنية إلا قليلا من ذوي السعة الموهوبين ، الذين تصبح صناعة الشعر عندهم ضرباً من ضروب الترف ، يصنعونه استجابة لملكاتهم أو استعدادهم الفطري ، ليعبروا عن مشاعرهم ، ويظهروا قدرتهم على الإبداع في هذا الفن الإنساني الجميل .

والشعراء لا شك محتاجون إلى هذا التفرغ الذي يساعدهم على التأمل فيما يستثير مشاعرهم : في مشاهد الطبيعة وفي الحياة والأحياء ، وعلى الغوص في محاولة التعرف على أسرار الوجود ، وما يحسون به من مشاعر اللذة والألم ، والرضا والسخط ، وبذلك تثرى تجاربهم ، وتتجلى مواهبهم ، ولذلك أثره البعيد فيما يحظَون به من تقدير لفنيّتهم ، وإعجاب المتلقين بإبداعهم .

بالإضافة إلى أن هذا التفرغ من شواغل الحياة وهموم العيش يتيح للشعراء فرصة المراجعة والتقويم ، والتهذيب والتنقيح في معاني الشعر ومضموناته وفي صياغته ، وفي إجادة تصويره ، وتأليف أخيلته وتركيبها ، وتلك هي مجالات الافتنان في الفن الشعري .

ولندرة الشعراء « المتفرغين » في الحياة الأدبية الراهنة برزت في عالم الشعر طبقات من ذوي المواهب من أرباب المهن المختلفة ، أبدعوا في صناعة الشعر ، وحظوا بدرجات عالية من التقدير والإعجاب ، وكان منهم الصحفيون والمعلمون ، كما كان منهم الأطباء والمهندسون ، والقضاة والمحامون .. مما يعيد إلى ذاكرتنا صوراً من فترات التاريخ الأدبي برزت فيها ظاهـرة الشعراء من أرباب الحرف والصناعات ، فرأينا فيهم الحداد ، والخياط ، والرفاء ، والنحاس ، والجزار ، ودلال الكتب ...

* * *

سنحت لي هذه الخواطر وأنا أقلب صفحات ألقيت إلي من شعر الصديق الدكتور يوسف عز الدين ، نظرت فيها ، وأحاول الآن الكتابة عنها .

وقد عرفت الدكتور يوسف عز الدين من زمن بعيد عندما انتدبت للعمل في كلية الآداب بجامعة بغداد ، وكان واحداً من مدرسي الأدب في تلك الكلية ، وكانت له في الوقت نفسه مشاركة في أعمال المجمع العلمي العراقي ، ومشاركة في أعمال جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين بالإضافة إلى كونه واحداً من البارزين من شعراء العراق .

وقد جذبتني إلى يوسف عز الدين سمات يتميز بها ، منها ذكاؤه الوقاد ، وحيويته البادية ، ونشاطه الدائب ، وطموحه الملحوظ الذي دفعه إلى تلك المشاركات العلمية والأدبية ، وهي مشاركات فعالة يعيا بها كثير من لداته وأقرانه .

وكان مع ذلك يجيد صناعة الشعر الذي لم يكن متفرغاً له مع هذه الأعباء الثقال ، يقرضه في خُلس من أويقات الفراغ ، ويفضي إليه بمخزون عواطفه وأحلام شبابه .

وجاء يوسف عز الدين إلى مصر قبل ذلك طالباً في جامعة الإسكندرية ، وجاء إليها بعد ذلك محاضراً في معهد الدراسات العربية ، ثم صار فيما بعد عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية ، وبذلك توثقت علاقته بمصر وعلمائها وأدبائها ، وبرز أثر هذه العلاقة في شعره .

ثم رأيته في المملكة العربية السعودية أستاذاً للأدب في جامعة الملك سعود ، وقد سعدت في

هذه الفترة بصحبته ثم بصداقته .

ويجيء يوسف عز الدين من حيث الزمن الذي ظهرت فيه موهبته الشعرية في الطبقة الثانية من شعراء هذا القرن ، الذي حفل بأعداد هائلة من أعلام الشعر العربي في العراق ، عاشوا في بيئات مختلفة ، وكانت لهم اتجاهات متباينة ، لا يجمعهم إلا وحدة القوالب الشعرية والأداء اللغوي ، أما الأغراض والمعاني فإنها تختلف إلى درجة التباين بحسب المنشأ والبيئة والثقافة والمعتقد .

وإنما نعد يوسف عز الدين في هذه الطبقة الثانية لاعتبار زمني إذا تمثلنا شعراء الطبقة الأولى في أمثال محمد سعيد الحبوبي ، وجميل صدقي الزهاوي ، ومعروف الرصافي ، وعبد المحسن الكاظمي ومحمد رضا الشبيبي ، ومحمد مهدي الجواهري ، وغيرهم من كبار شعراء العراق في هذا القرن في العراق ، ويلحق بهم الشاعر حافظ جميل .

ويعاصر يوسف عز الدين عدداً كبيراً من شعراء هذه الطبقة الثانية التي لا يدركها الحصر ، كما يعاصر عدداً من طلائع الشعر الجديد الذي يسمونه شعر التفعيلة أو الشعر الحر ، وفي مقدمتهم نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي .

وفي هذا الخضم الزاخر بالشعر والشعراء عاش يوسف عز الدين ، واستطاع أن يشق طريقه ، ويخترق بمواهبه الصفوف ، وأن يكتب بشعره صفحة مشرقة في ديوان الشعر العربي الحديث ، تظهر فيها بوضوح ملامح شخصيته الفنية ، ومعالم شاعريته الفتية .

وفي طبيعة يوسف عز الدين ميل إلى الحركة ، وحب للأسفار والرحلات ، وقد سافر إلى كثير من الحواضر العربية ، وإلى بعض البلاد الأوروبية وبخاصة إنجلترا التي حصل منها على درجة الدكتوراه ، وقد أفادته تلك الرحلات فوسعت دائرة معارفه ، وآفاق ثقافته ، وظهر أثر ذلك في شعره كما سنعرض لذلك فيما بعد .

* * *

وأحسب أني تأخرت كثيراً في الكتابة عن الشاعر الذي عرفته وقرأت شعره من زمن غير قريب .

وقد أعتذر عن ذلك بشواغلي الكثيرة في التدريس والتأليف ، وهي شواغل لا تنقضي ، ولا تبقي من وقتي فضلا لاحتواء سائر الواجبات . وقد أعتذر أيضاً بأن عدداً كبيراً من الكتاب

والأدباء قد سبقوني إلى الكتابة عنه ، والثناء عليه ، و وفوه حقه من الإشادة والتقريظ .

ولا شك أن ذلك يضيِّق المجال على كاتب جديد و ناقد جديد ، ويحدُّ من قدرته على الانطلاق في الكتابة على الوجه الذي كان يريد .

ثم إنني شغلت بالشعر العراقي ، وحظي مني بعناية لم يحظ بمثلها شعر سواه ، فقد أصدرت فيه ثلاثة كتب حظيت كلها بتقدير النقاد والأدباء .

ومن هذه الكتب أول كتاب ألف في شاعر العراق الكبير « معروف الرصافي » ، وأول كتاب ألف في شواعر العراق ، وأخيراً كتاب « فرسان الحلبة في الشعر العراقي الحديث » الذي درست فيه خمسة من أعلام الشعر المعاصر في العراق ، وهم الشعراء : حافظ جميل ، وخالد الشواف ، وهلال ناجي ، وحازم سعيد ، ونعمان ماهر الكنعاني .

واستطاعت هذه الآثار الثلاثة أن تجلي صفحة الشعر الحديث في البلد الشقيق ، وأن تعرف بشاعرية الذين عرضت لهم ، واتجاهاتهم ، وخصائص شعرهم .

ولا شك أن فن الشعر هو أظهر فنون الأدب ، وأكثرها رواجاً في العراق . لذلك كان جديراً بمثل هذه العناية من النقاد والدارسين .

ولعل الجهد الذي بذلته في تلك الأعمال يقوم مقام العذر في تأخر كتابتي عن الشاعر الصديق يوسف عز الدين إلى هذا الوقت .

* * *

ولقد ظفرت مكتبة الشعر الحديث بخمسة من أعمال يوسف عز الدين الشعرية ، وهي بترتيب تاريخ صدورها :

(١) ديوان « في ضمير الزمن » ١٩٥٠م

(٢) ديوان « ألحان » ١٩٥٣م

(٣) ديوان « لهاث الحياة » ١٩٦٠م

(٤) ديوان « من رحلة الحياة » ١٩٦٩م

(٥) ديوان « همسات حب مطوية » ١٩٨٧م

وأصدر بعد هذه الدواوين الخمسة ، قصيدة مستقلة عنوانها « شرب الملح » ، وهي مطولة

عدة أبياتها ثلاثة وثمانون بيتاً .

وتمثل هذه الدواوين الخمسة بترتيب صدورها تنامي الملكة الشعرية وتطورها عند يوسف عز الدين ، وذلك من حيث وفرة التجارب وسعتها في كل ديوان منها ، ومن حيث لغة المحاكاة وجودتها .

ومعنى ذلك أن كل ديوان من تلك الدواوين يصور مرحلة من مراحل النضج التي تدرجت فيها شاعرية الشاعر ، حتى إن الخبير بفن الشعر يستطيع أن يدرك بحسه الفني الفرق بين السابق واللاحق من دواوينه ، أو من مجموع شعره الذي أخرجه في دواوين ، ويستطيع أيضاً أن يحكم بأن آخر أعماله الشعرية التي وصلت الينا ، وهي قصيدته الطويلة اليتيمة التي أفردها بالإصدار تمثل أنضج هذه الأعمال ، وأدلها على ما بلغت صنعة الشعر عند يوسف عز الدين من الجودة ، التي تدل على التمكن والحذق واستكمال أدوات الفن الشعري ، وأعني بذلك قصيدته التي سماها « شرب الملح » .

ولعل هذه المطولة المنقطعة أو اليتيمة هي آخر ما جادت به قريحة الشاعر . وأعتقد أنه أفردها لاعتداده بها ، وحرصه عليها ، وخشيته أن تضيع في الزحام ، وأعتقد أنها جديرة بالاعتداد والحرص ، فقد ضمنها أحاسيسه الوطنية ومشاعره نحو بلده وأهله ، بل نحو أمته العربية التي صاغ فيها من قبل كثيراً من شعره الذي عبر فيه عن هذه المشاعر .

وقد استهلها بمناجاة ربة الشعر ، وبثّها أشجانه وهمومه ، و وصف فيها ما يكابد وطنه تحت وطأة العتاة الذين داسوا حماه ، واستنزفوا مقدراته ، و ولغوا من دماء شعبه الذي هو منبت أهله ، ومجمع رفاقه ، فيقول في مطلع هذه القصيدة :

ربـّة الشعـر هل علمتِ بصبّ ... بـين هجـر تشقينه وبقـرْبِ ؟
والعشيّات رخّمت صـوتَ وجْدٍ ... همسات النجوم من كلّ دَرْبِ
أ تُـرى يوقـدُ الحنينُ رُواءً ... من أتـونِ الجراح يَنْزفُ قلبي ؟
ليتَ شعري والرملُ رملُ بلادي ... ومياهي بِها تُســاغُ لشـرْبِ
نزفَتْ من جراحها مـوجَ همٍّ ... تَرتوي من دماء أهلي وصَحْبي
يشربُ الملحَ كـلُّ عضـوٍ جريحٍ ... أ يُداوَى بالملح جرحُ المحبِّ ؟

ثم يأخذ في وصف تلك الشجون التي أدمت فؤاده ، وهي التي مزقت وحدة العرب ،

وبددت شملهم ، وفرقت صفوفهم ، وهيهات أن تقوم لهم قائمة ما داموا سادرين في غيّهم ، مشغولين عن أماني أوطانهم بإشباع نهمهم ، والاستسلام لنزواتهم ، والعبث بعقول أمتهم .

ويأخذ في تعداد مثالب قومه التي أدت بالأوطان إلى الهوان ، وهوت بشعبها إلى الحضيض، فأجدبت الأرض ، وجفّ الزرع ، وغاضت ينابيع الخير والنماء ، ويطول حديثه عن قلبه الجريح ، وعن السهام التي صوبها نحوه نفر من صحبه الذين أحبهم و وفى لهم ، ولم يرعوا له عهداً ، ولم يفوا له كما أحبهم و وفى لهم :

بئـس قــومٌ لا يعرفـون وفـاءً   أسفي ، قلتُ ويحهمْ ، بئس صحبِي

في رُبوعي يعيـشُ وجهٌ حقود   كيف كانت تموجُ من فضل نَدْبِ ؟

وخبيثٌ يلـوكُ لحمي حقودٌ   عـربيٌ ما خفْتُ عضةَ كلـبِ

وحسبنا من مطولة يوسف عز الدين هذه الأبيات الثلاثة التي نرى فيها ثورة عاتية ، ونقرأ مشاعر آسية حزينة يكشف فيها الشاعر عما يعتلج بين جوانحه من الغيظ والكمد ، ومشاعر السخط الذي لم يخص به فرداً أو أفراداً نقموا منه أو أساءوا إليه ، ولكنه عم به وطنه العراق وقومه الذين يدبون على أرضه ، وبخاصة الذين كان يثق بهم ، ويبذل لهم من قلبه وحبه ما لم يكن يتصور أنهم سينسونه حتى بعد أن نزح عن الربوع ، واستطاب الحياة بعيداً عنهم . وهو هنا يلمزهم بخيانة العهد ، وعدم الوفاء ، بل أنه ينعتهم بالحقد والخبث !

والماء العذب الفرات الذي تحتاجه النفوس آض ملحاً أجاجاً يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، والأول هو عهد الوفاء والصفاء ، والآخر هو عهد الكدر والجحود ، وذلك ما رمز إليه به في عنوان القصيدة الذي جعله « شرب الملح » !

ولعلي لا أجاوز الحقيقة إذا ذهبت إلى أن الشاعر لم ينشئ هذه القصيدة الغاضبة إلا بعد ثورة نفسية ألمت به عقب نقد قرأه أو سمعه لبعض الكتاب العراقيين ، ولعله رأى في هذا النقد شيئاً من انتقاصه أو محاولة النيل من شخصه أو من فنه الشعري الذي هو في مقدمة ما يعتد به باعتباره واحداً من أهم مقومات شخصيته ، فعز عليه هذا الصنيع من قومه وصحبه وهو بعيد عنهم ، ودفعته حرارة الانفعال إلى إنشاد هذه المطولة ، والإسراع بنشرها منفردة يتيمة ، ليفنّد دعاواهم ، ويثأر لنفسه مما عابوه منه أو أخذوه عليه .

والشعر هو السلاح الذي يعتّد به الشعراء في جلاد من يناصبهم العداء ، ويشهرونه في

وجوه الذين يتصدّون لهم ، والذين يحاولون النيل من أشخاصهم ، أو انتقاص ثمرات مواهبهم التي أنزلتهم منازلهم بين الناس .

وقد يؤيدني فيما ذهبت إليه من تعليل لثورة الشاعر أن مما درج عليه المؤلفون والدارسون والشعراء أن يشيروا في ختام مؤلفاتهم أو دواوينهم إلى ماسبق لهم نشره من أعمالهم العلمية والفنية .

ولكن يوسف عز الدين يخرج على هذا التقليد ، فيثبت في ختام قصيدته التي نتحدث عنها ثبتاً يحصي فيه عنوانات كتابات ودراسات مجد فيها أصحابها شخصية يوسف عز الدين ، وأثنوا على فنه الشعري .

وكأن لسان حاله يقول لأولئك الذين نقدوه أو هاجموه إن كنتم قد عمدتم إلى تجريحي والإساءة إليّ ، فحسبي هذه الكتابات المنشورة التي قدر أصحابها أدبي ، وأثنوا على شعري ، وفيهم من ترجم هذا الشعر إلى اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ، بل وإلى اللغة البولونية ، ومن درسه من أصحاب تلك اللغات بأقلام عربية ، وأقلام غير عربية ، وفي ذلك ما رفعني إلى التحليق في آفاق عالمية ، تجاوزت فيها آفاقكم المحدودة ، ودوائركم المغلقة !

إن الشاعر فيها يقول قبل هذه الأبيات قد تحمل ما لا يطيق من هموم وطنه الذي وفى له ، و وهبه قلبه وحبه ، وقد عصفت بهذا الوطن رياح الخيانة والغدر ، وأصابه ما أصابه من عبث العابثين ممن ينتمون إليه ، وقد حولوا واديه الخصيب ، وروابيه الخضر ، ورياضه المعشبة إلى صحراء جرداء ، ورمال قاحلة ، وبلاقع مجدبة ، وكان حظ الشاعر أن صوبت إليه سهام الحقد التي تواترت عليه ، وانهالت عليه انتقاصاً وثلباً وتجريحاً ، وهو بعيد الدار نائي المزار ، تتقاذفه الهموم والأحزان ، وينهال عليه العدوان من كل صوب :

من سيشري همومَ قلبٍ جريح ... وشجوناً تفيضُ من كلّ صَوْبِ ؟
تُرضعُ الصخرَ نجمةُ الصبح ظمأى ... ودجاها يَصبّ صدرَ المصبّ
ويْلتا القلب من جراح حزينٍ ... وطعنٍ بكل شتم وسَلبِ
قدّم الحبّ صفوه من ودادٍ ... ورموْه بكلّ مسْموم ثلبِ
عضّه الكلبُ كلبُهم بقبيحٍ ... أرسلوه لعضّ رجل المحبّ
بئس قومٌ لا يعرفون وفاءً ... أسفي قلت ويحهم بئس صحبِي

في ربوعي يعيشُ وجهُ حقــودٍ كيف كانت تموج من فَضْلِ ندبِ
وخبيـث يـلوكُ لحمي حقـودٌ عربـيٌّ ما خفــتُ عضــةَ كلـبِ

ولا تستطيع تلك الجراحات أن تخمد جذوة حبه لبلده ، ولا أن تنال من ولائه و وفائه ، فلا يزال يفديه بالمهج والأرواح ، ولا يزال يتغنى بأمجاده التي أصبحت أنشودته التي لا يفتأ ينشدها على قيثارة شعره :

أنا أفديـك يا بلادي بـروحي وَبسمَعي وخاطـري وبلبـّي
يا رمالَ الصحراء حُبّك شَرْعي قد تغـنّت بها مزامـيرُ عَتْبِي
أضرمِي في اللحون حبا عظيماً ثم عبـّي مـن المكارم عـبّي
إنّ ربْعًا لا يعـرف الحـبَّ ربعٌ ليس والله من قبيلي وشعبِي

ويهيب الشاعر بشعبه ليصحو من غفلته ، ويثأر لكرامته ، فيحطّم الأصنام التي أسلم لها قياده فاستبدّت به ، وسلبته حريته ، وعطلت مسيرته ، وضيعت البقية الباقية من أمجاده ومفاخره ، حتى ضل طريق الحياة ، وفقد معالم أصالته ، وتهاوت صروح حضارته العريقة على أيدي أولئك الجبابرة المفسدين :

ضاع منّا الطريقُ للمجـد حتى ضَلَّ ملاحُـنا طـريقَ المصبِّ
الإبـاءُ الجـريحُ أنَّ حـزيـناً داسَ في ظلمِه كرامـة شعْبِي
هـدأتْ زأرةُ الأسـودِ بأرضٍ وتعالـتْ سِياطهمْ دون ذنبِ
وارتوى البحرُ من مياه السَّواقِي وهـو نبعٌ لـكلِّ خيرٍ وخصْبِ
اِسْرحي يا ضَبَاب من غير خوفٍ واستزيدي من كل جحـرٍ ونقْبِ
فالوجوهُ الحـيرى تغـطُّ بنـومٍ أبـديٍّ كـنوم أحجـارِ دَرْبِ
يا مطايا الصحراء ، يا حفنةَ الرملِ يا حجـارةَ الصَّخْــرِ هـُبّي

وهذه الطويلة اليتيمة تمثل آخر أعمال الشاعر وتتمثل فيها خلاصة تجاربه في صناعة الشعر .

وهي قصيدة ثائرة حزينة كما رأينا ، وقد صوّر الشاعر فيها انفعال الغضب الذي استولى عليه لما أحس به من محاولة انتقاص لشخصه أو غض من فنه ، ورد الشاعر ذلك إلى معاناة الشعب في بلده من تسلط حكامه ، الذين طغوا فيه وأكثروا من الفساد حتى اختلطت الأمور

وتبلبلت الخواطر ، واختلت مقاييس الحكم على الرجال ، أو على الأعمال .

وقد طال نَفَس الشاعر في هذه القصيدة طولا ملحوظًا ، وربما أدى هذا الطول إلى تفاوت في النسج ، واختلاف في الصياغة بين القوة واللين ، وربما أدى كذلك إلى تكرار في المعاني والألفاظ في مواضع من القصيدة لا تخفى على الناقد أو القارئ البصير .

* * *

وكذلك يستطيع الناقد أن يدرك بحسه الفني أن ديوانه الثاني في الترتيب الذي نسّقه الشاعـر ، وهو ديوان « ألحان » لم يكن ثاني الدواوين التي أصدرها يوسف عز الدين ، بل إنه كان أولها ، ويرجح أن الشاعر قد جمع تلك « الألحان » مما نظم في مطلع حياته الفنية ، وفي أوليات محاولاته في صناعة الشعر .

ويحملنا على هذا الترجيح ما نلحظ من الفروق الواضحة بين ما تضمن هذا الديوان وما تضمنت سائر دواوين الشاعر من حيث سعة التجارب التي عبر عنها الشعر ، ومن حيث سلامة البناء ، وقوة الأداء .

* * *

« والعاطفية » هي الوصف الغالب على شاعرية يوسف عز الدين ، والسمة المميزة لشعره . وقد برزت هذه الشاعرية في زمن احتلت فيه « الرومانسية » في الشعر العربي الحديث مكانًا ملحوظًا ، وكثر عدد الشعراء الذين ينتسبون إلى هذا الاتجاه ، متأثرين بما قرءوا في أدب الغرب الذي وفد عليهم ، أو رحلوا إلى بيئاته في أوربا ، وبخاصة في فرنسا وإنجلترا . وللشعراء الرومانسيين سمات ، منها : حدة العاطفة ، والإسراف في الخيال ، والهيام بالطبيعة و وصف مشاهدها ، والميل إلى العزلة ، أو الهروب من الحياة ، والنفور من المجتمعات .

ومن أبرز شعراء الرومانسية في مصر إسماعيل صبري ، وخليل مطران ، وأحمد زكي أبو شادي ، وإبراهيم ناجي ، وصالح جودت ، وأحمد رامي ، ومحمود حسن إسماعيل ، ومختار الوكيل ..

وليس معنى ذلك أن خصائص « الرومانسية » كلها أو سماتها جميعاً تجتمع كلها في نتاج كل شاعر ممن ذكرنا ، فقد تغلب على بعضهم سمة أو سمتان من هذه السمات .

وفي شعر يوسف عز الدين من هذه السمات أو الخصائص العاطفيةُ المشبوبةُ التي تنبعث عن

فؤاد ملهوف ، يهيم بالجمال ، يتبعه في كل مقام ينزل فيه ، وفي كل مكان يرحل إليه ، وما أكثر رحلاته إلى أوربا وإلى بلاد العرب . وهو يقرر هذه الحقيقة من أمره فيما كتب في مقدمة ديوانه الصغير « ألحان » حيث يقول : « إن الينبوع الذي يصدر عنه الشاعر هو الحب ، والحب وحده ، حب الحياة كلها ، والطبيعة بما حباها الخالق من فتنة ، فهي أقوى الحب ، وأعذب ينابيعه ، وإن اختلفت وسائل التعبير ومجالاته ، فالحب هو الخالد بين كل نوازع البشر وغرائز الإنسانية ، فهو الذي يحيل الشقاء سعادة ، ويجعل للدنيا لذة وطعماً وحلاوة ، ويخلق الآمال المشرقة ، والأحلام الفواحة .

« فحب الشاعر لوطنه يدفعه للتغني بمحاسنه ، والافتنان بمواقع الجمال فيه ، فهو في الينابيع العذبة ، والسهول المخضرة ، والأنهار الجارية ، والصحاري المترامية ..

« وحبه لحبيبته يحول الدنيا سعادة دائمة ، وربيعاً مزدهراً مستمراً ، ويسبغ البهجة على النفوس ، لأن الحب هو الوجه المشرق المتجدد لهذه الحياة ، ففي إشراقة شمسها ، وغناء عنادلها ، وهبوب أنسامها ، وعرق فلاحها ، وكفاح عاملها ، وقتال جندها مصادر جميلة تلهم الشاعر ، وتغذي مشاعره .»

فقد عرض في هذه الكلمات الشعرية لكثير مما يشوقه في الحياة مما يراه جمالاً يبعث على حب الحياة في مجالات كثيرة منها . وقد ختمها كما رأيت بحب المرأة التي تحول دنياه إلى سعادة دائمة ، وحياته إلى ربيع موصول .

والمرأة في كل هذا هي بيت القصيد ، ولذلك يعود إليها في آخر المطاف ، فقد تهزه كلمة عابرة ، أو لمحة سريعة ، أو نظرة غير مقصودة ، وقد يتملى من المنظر البهي ، ويشبع من الفتنة الإنسانية التي تلم بكل أنواع الحب .

وقد لا يسببه الحسن المادي بقدر ما يسببه حلو الشمائل « فليس الحب فراشاً وثيراً ، ولا جسداً فاتناً ، ولا جنساً ، إنما هو التسامح والحنان والرقة والعواطف ....»

وينحى على أولئك الذين يأخذون عليه هذا القول في الحب والإغراق في لومه ، فيقول : « و ويل لأولئك الذين يحقدون ، فهم مرضى القلوب والأرواح ، ما عرفوا حلاوة الحب ، وسحر العاطفة ، ونشوة الرضا والحنان .»[1]

---

(١) من المقدمة التي كتبها الشاعر لديوانه « ألحان » ، ص ١٩ .

وتفيض دواوينه كلها بلا استثناء بشعر الهوى والغرام ، و وصف ما يكابد من الحنين والأشواق ، وما يقبع في صدره من آلام الصدر والهجران ، وما يمني به نفسه من حرارة الوصل وفرحة اللقاء .

ونقرأ على سبيل المثال أبياته « حيرة » التي افتتح بها ديوانه « ضمير الزمن » ، وفيها يقول :

يبوحُ أم يكتمُ صَبٌّ بكمْ مغرمُ
إنْ باحَ في وجْدِهِ فكلكمْ لُوَّمُ
في قلبه لاعجٌ وبالهوَى مُفعَمُ
أخفَى جراحًا لَهُ هيِّنُهَا مُؤلِمُ
لا ذقْتُمُ لوْعتِي منْ صابِها مطعمُ
أسْهدتمُ مُدْنَفًا لكنَّكُم نمتمُ
ما بالُ قلبِي الذي لكنَّكُم نمتمُ
قد لجَّ في وجْدِهِ وسُقمه منكمُ

وتلك السهولة التي نراها في صياغة العبارة في هذه الأبيات هي الطابع الملحوظ في سائر شعره ، الذي عبر به عن الأغراض المختلفة التي عالجها .

وإذا كان الأسلوب هو الرجل فإن هذه السلاسة ترجع إلى سماحة نفسه ، ودماثة طبعه ، و رقة شمائله ، وهي صفات يعترف له بها ، ويحبه لها كل من دنا منه ، وعرفه عن كثب ، وإلا فإن يوسف عز الدين من رجال اللغة العربية ، تخصص فيها وعكف عليها دراسة وتدريساً، وكتابة وتأليفاً ، وعرف أدبها القديم وأدبها الحديث ، و وقف على رصانة الأسلوب وجزالة اللفظ عند الفحول من شعراء الجاهلية والإسلام ، وعلى سلاسته وعذوبته عند المحدثين ، ولعله أراد أن تكون لغة شعره لغة العصر السهلة التناول ، القريبة إلى الأذواق أو لعله فن الغزل استدعى ما يلائمه من العبارة السمحة ، واللفظ الرقيق .

* * *

والذي يعرف يوسف عز الدين عن كثب ، ويتتبع مسيرته في الحياة يري فيه إنساناً شديد الطموح ، متوقد الذكاء ، دائم الحركة ، يتمتع بقدرة خارقة على تجاوز ما يعترض طريقه من عقبات بما يملك من وسائل وأسباب : في مقدمتها مقدرته على كبت انفعالاته ، وعلى

اجتذاب الناس إليه ، والعمل الموصول على تأليف القلوب من حوله ، وعلى تكوين الصداقات ، وتنميتها ، والحرص عليها ، وعدم التفريط فيها ، وهو يؤمن بكلمة معاوية « لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها ... » . ولا يزال يوسف عز الدين على هذه الطباع على الرغم من تجاوزه السبعين من سني عمره .

فقد شبّ في العراق في بعقوبة وبغداد ، وأتم دراسته العالية في الإسكندرية التي حصل منها على درجة الماجستير ، ورحل إلى إنجلترا ليحصل منها على درجة الدكتوراه ، وعاد إلى بغداد أستاذاً في جامعتها ، وأميناً للمجمع العلمي العراقي ، وانتدب في جامعات ليبيا والسعودية ودولة الإمارات العربية ، وطاف بكثير من بلدان آسيا وأوربا ، وقد صحبه في هذه قلبه الذي تعلق بالحسان ، وهام بالجمال الذي وقعت عليه عينه في كل مكان ، وحمل في قلبه ذكريات مغامرات لا ينساها ، وبث في دواوين شعره ذكريات مغامرات الهوى والشباب التي علقت بقلبه في غدواته وروحاته ، وفي مقامه وترحاله .

ولقد علق يوسف في كل بلد بهوى ، وكان حريصاً على أن يسجل في شعره كل موقف في حينه ، وكأنه كان يخشى أن تضيع معالم هذا الموقف في زحام المواقف الكثيرة والتجارب المتشابهة أو المتجددة ، وإذا كان لا يعدم في كل مقام من يبادله الهوى ، وهو شاعر يأسره الحسن ، ويفتنه الجمال .

استمع إليه يقول في أبياته « في أرض نجد »[١] :

قالتْ وكـنّا التقيْنا في بيـتِ خِـدْنٍ حبيبِ
في أرضِ نجـدٍ مقـيمٌ أو ضائـعٌ فـي دروبِ
في كلّ يـومٍ مـراحٌ في شرْقـهِ والغُـروبِ
أما تـرى مستقَـرًّا في الماءِ أو في السُّهوبِ ؟
أ لمْ تحنَّ لنجـدٍ واشتقـت أرضَ الحبـيبِ ؟
قد قيل : فيكَ عيوبٌ ، حبُّ الجمال عيُوبِي

فقد صرح بأن الجمال يسبيه في كل واد ، وبأنه لا يضيره أن ينتقل من جميل إلى جميـل . ولم أسمع أن شاعراً من شعراء النسيب ، أو عاشقاً من العشاق عد الهيام بالجمال

---

(١) ديوانه « همسات حبّ مطوية » ، ص ١٨٦ .

أكبر عيب فيه ، بل عده جماع عيوبه ، كما حدث يوسف عز الدين عن نفسه !

ويصف ليلة في الآستانة يعدها « ليلة العمر » [١] ، فقد أنعشت آماله للحبّ والنجوى والذكرى ، فيناجي حبيبته بقوله :

يا حبيبي ، هذه « استانبول » نَشْوى بلقَّانـــا
عادتِ الأرضُ من الغِبْطَةِ لما أن سَقَيْناها هوَانـا
وَتسابَقْنا علـى العشـبِ سُـرُورا ..
وجرينا نسبقُ الفرحةَ كالطفل حُبُورا
فانتشَـى البـدرُ وغنَّـى وبآمالي وأحلاميَ جُنَّا
غـنَّ بالبسفـور غـنَّ
قدْ سَقاني الحبُّ كأسَهْ وأذاب الوجدُ نفسَـهْ
إنهــا ليلــةُ عمـري إنها فرْحـةُ عمـري

وتتنقل مع يوسف عز الدين من ديوان إلى ديوان ، ومن قصيدة إلى قصيدة ، وإذا أنت أمام فيض من العواطف ، ينبعث من قلب برح به الهوى ، ونهكه الغرام ، فلا تقرأ في شعره إلا نشوة توحي بها فرحة اللقيا ، أو لهفة إلى تجدد عهد الوصال بعد لوعة الهجر ، ولذعة الفراق ، وعذاب الصد .

وليس لنا أن نسأل الشاعر عن هذا الذي نحسبه من الإسراف ، أو أن نناقشه فيه ، فتلك طبيعته التي تشبه طبيعة الزهرة الفواحة التي تنفح شذاها ، وتعطر الأجواء بعبيرها ، وتمتع النفوس بجمالها وبهائها ، وهي لا تدري ما تصنع في نفوس البشر ، ولا تعرف السر في ولوع الناس بها ، فقد خلقها الله وسواها على هذه الطبيعة الفاتنة ، ولا يد لها فيما تسدي إلى الإنسان ، أو ما تتيح له من متعة ومسرة بما أودع الله فيها من أسرار .

وقد شغف شاعرنا ببنات حواء اللاتي ملأن حياته ، وفاض بهن شعره ، حتى أصبحن كل شيء عنده .

اقرأ أبياته « من أنت » [٢] لتعرف حيرته في اكتناه سرّ ما صنعن به حيث يقول :

(١) من ديوان « لهات الحياة » ، ص ٨٢ .
(٢) من ديوان « في ضمير الزمن » ، ص ٧٦ .

أنــتِ للقلْب سنــاه ، أنــتِ نورُهْ أنــتِ للقلــب شـــذاه ، وعبيرُهْ

يا لقلبي ، لستُ أدري ما مصيرُهْ

فتنةٌ ، أقلقْــتِ روحي بجمالــكْ روعةٌ ، حطّمتِ قلبي بخصالِكْ

يا لقلــبي ، ولروحي من دلالِكْ

سحـرُكِ الدائــم ، دُنيا للأمــاني صرَعتْــني في هـــواكِ المقلــتانِ

يا لقلــبي من تباريــحِ الحســانِ

أ ربيعٌ أنتِ ؟ لا ، لسْــتِ الربيــعْ حُسنــكِ العاتي كحبِّي لا يضيعْ

وشــذاهُ إن تُــولّــي لا يَضُـــوعْ

هذه الحيرة التي صورها الشاعر في هذه الأبيات القليلة تعبر عن حياة القلق التي كان الشاعر يحياها في عهد الشباب ، وبين الظلمة والضياء ، أو بين الإشفاق والرجاء ، فتغشى على التجربة ، وتحيلها إلى خطرات غائمة ، فلا يدري القارئ أ هي تجربة سعادة أم تجربة شقاء ؟ فقد تجاورت فيها المشاعر المتعارضة ، فاختلطت معالم التجربة الشعرية ، حتى لم يعد يبدو منها إلا أصداء الشعر الموزون .

وربما كانت التجربة أكثر وضوحاً في أبيات سبقتها عنوانها « عهد و عهد » ، وإن كان العنوان لا يفصح عن المضمون ، أو عن تعدد في العهود ، أو اختلاف بينها ، وفيها يقول :

أ رأيْتِ الرعودَ تَزْأَرُ في الجوِّ ، فتربَدُّ منها السّمَاءُ

أمْ رأيــتِ الريــاحَ تجْــأَرُ والكــونُ عاصفٌ نكْباءُ

واصطِخاب الأمواج فــي ثورةِ البحر تثيرُهُ الأنْواءُ

ذاك قلـــــبي

لَمّا تخـلّى السّرابُ عـنه وغــابَ عـنهُ الرجــاءُ

ولا يفتأ الشاعر الغزل يتنقل بقلبه من بلد إلى بلد في الشرق أو في الغرب ، ومن زهرة إلى زهرة ، أو من غانية إلى غانية ، ومن سعادة غامرة بالاستجابة أو بالوصال إلى جراح الصد والهجر والإعراض أو الغدر ، فتراه يسجل في شعره لحظات سعادته ، وفترات جواه .

وفي بعض الأحيان تستقل أويقات نشوته بقصيدة أو قطعة من شعره ، تفيض بمشاعر البشر والرضا في سائر أجزائها ، كما تقرأ في قصيدته « اللقاء الأول » التي يقول فيها :

نشَواتي وقتَ اللـقاءِ ستَمضي بابتسام الرّضا وضحْكِ الأمانـي
شهقةُ الرّوض .. أو ربيعُ شبابٍ أو كحكم الشباب عندَ الغواني
وازدَهى البدرُ في السماءِ طروباً يسكبُ النـورَ فوق صدر الظلام ِ
وتبـدّت أفـلاذه باسمـاتٍ فرحـاتٍ يرقـصْنَ في تَهْيام ِ
وبـدا الليلُ نائماً في سريـرٍ بـين أحضـان فتنـةٍ وجمـالِ
فـذَروهُ لا توقظوهُ بهمسٍ فالجـالُ النشـوانُ سـرُّ الليالِي
ذاك وقـتُ اللقاء والمـوعدِ الأوّ ل ، يا مـا أحَيْـلى لِقاهـا !
وهـدوءُ الـدُّجى يغـنّي هوانا أسكرتْ ليلنا بِحُلـو غِناهـا
وإلى صدْركِ الحـنون خُذيني حطّمتْنـي معـاولُ الأيـام ِ
وامسحي رأسيَ المشـوقَ برفـقٍ سوفَ تشفي يداكِ كلَّ السِّقَام ِ

وكقوله في مقطوعته « ليلة »[1] يصف نشوته وأنسه في ليلة قضاها في « جراغان » من مغاني إستامبول التي كان يتردد عليها كثيراً ، وله فيها قصائد متعددة :

لسْتُ أنسَى ليلةً في « جراغانِ » والمنَى « يضحكُ مسرورَ » الأغاني !
تضحكُ الفرحةُ في كل مكانِ فيضُوعُ الدربُ من عطرِ الأماني
ما هدوءُ الليل إلا نأمـةٌ من أحاسيس هـوَى قلب حوانِي[2]
إذ ركضْنا نسبقُ البشـرَ سروراً وانتشى ليليَ مـن وصْلِ الغواني

ولعلها من أوليات تجاربه الشعرية ، فقد أنشأها سنة ١٩٥٤ م .

وكان عليه أن يتدارك الخطأ في البيت الأول في الطبعة الثانية للديوان[3] .

وفي أحيان أخرى يستبد السخط بالشاعر ، وتتسلط عليه مشاعر الألم ، فلا ترى في قصائده إلا وصف ما يعاني من الحسرة ، ومن خيبة الأمل في هواه الذي عبث به دلال

---

(١) ديوان « في ضمير الزمن » ، ص ٧٨ . (٢) النأمة : الصوت الضعيف الخفي ، والنأمة أيضاً النغمة .

(٣) صدرت الطبعة الثانية من ديوان « لهات الحياة » سنة ١٩٧٧م ، أي بعد إنشادها بثلاث وعشرين سنة .

المحبوب أو غدره ، كالذي تقرؤه في قصيدته « احترقي و التهبي » التي يقول فيها لمحبوبته التي صوحت زهرة أمانيه :

إِحْترقي وَاضْطربي مثلَ الفؤاد المضطـربْ   هذي عُصاراتُ الهوى المذبوحِ فيكِ تَنْتَحِبْ

هذا دَمي المسفوكُ من وجدي الجريح يلتهبْ   تنوحُ ذكرانا على الشّهر الجميل المنتهَبْ

إِحترقي و الْتهبِي ، لم يبـقَ في الدنيا أملْ   ضاعتْ تراجيعُ هـوانا بـين أنيابِ الأزلْ

وضاع مثلَ الدمع ما بينَ الجفونِ والمُقَلْ   في شهرِهِ الأوّل مثل الزّهـرِ وافـاه الأجَـلْ

احـترقـي والتهـبِي يا نفثاتِ الكبدِ   ضاعتْ أمانٍ حلـوةٌ بـين لِقـاً ومَـوْعـدِ

لمْ يبقَ من لذيذها غيرُ جـوى التنَهُّـدِ   وقـد بكتْ بزَفـرةٍ مـثل نشيج المُوْقـدِ

وفي « لهاث الحياة » يطرفنا الشاعر بقصته مع « الإنكليزية السكرى » (ص ٣٥) التي لم يستجب لمجونها ، حتى انصرفت عنه بعد أن وصفته بالبلادة والغباء كما يقول :

تَرِفُّ كالحُلْمِ بعـين الـرُّؤَى   ضاغطةً رغـبتَـها العارمَـهْ

تُعَربِـدُ الخمـرةُ في عيـنها   معلِنَـةً رغبتَـها الكاتمَـهْ

واحتشـدَ الوجـدُ بأحلامها   فأطلـقتْ تنهّـد المعـزفِ

قالتْ: ألا هـيّا إلى المقصفِ   لترتوي مـن دنّـهِ المتْرفِ

كانتْ لحـكم الحـبِّ فـوّارةً   ربيعُهـا يهدرُ وهـجَ الشعورْ

وارتسمتْ في عينـها رغبةً   مُعْولـةُ الإعصار عندَ الهجيرْ

أذهلَني منهـا سُعـارُ الهوَى   ذُهِلْتُ من إعصارها المرْعبِ

فودّعتـني بعد يـأس اللقـا   و عينُها تهتف بي : يا غَبِي !!

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن الهوى والغرام ، أو عن غراميات يوسف عز الدين ومغامراته التي سجلها في شعره ، وفاضت بها دواوينه ، وإن كنا لا نعدها من شعر الحب أو من النسيب الذي تكثر فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتتظاهر فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وتفيض فيه العاطفة المشبوبة ، وآثار الكبت والحرمان ، وفرحة اللقاء ، ولذعة الفراق .

ولا يُعنى هذا النسيب بالجسد وأوصافه ، ولا بالمطالب الجنسية ، ولكنّه يُعنى بوصف تبريح

الصبابة والتوله والكمد في عفّة وسموّ ، ويظهر على أصحابه الهمّ وآثار الأرق .

ومع ذلك يبقي عليه أصحابه في تهالك وإصرار ، حتى تذوي أغصانهم النضرة ، وتجفّ أعوادهم الرطبة ، وتبدو على وجوههم الصفرة والشحوب ، وعلى أبدانهم الهزال والنحول [١] .

وفي الشعر العربي تراث فريد من هذا الشعر الذي نقرأ فيه العاطفة الصادقة لأعلام من الشعراء العشاق من أمثال ابن الدمينة ، وجميل بثينة ، وقيس ليلى ، وقيس لبنى ، والعباس بن الأحنف ، وغيرهم من الذين علق كل واحد بواحدة من بنات قومه هام بها وقصر حبه عليها، ولم يتسع قلبه لغيرها ، ولا شعره إلا لها .

* * *

ونجد شاعرية يوسف عز الدين متنفساً في مجال آخر من المجالات التي تُذكر بالتقدير ، ذلك هو خلق الوفاء لكل من عرفه . وقد تقدمت الإشارة إلى كثرة أصدقاء يوسف ومحبيه ، وإلى حرصه على صداقتهم ، وعمله على استبقاء مودتهم ، وهم يبادلونه الصداقة ، ويشاركونه التمسك بحبال الود .

والوفاء خلق نبيل ، وفضيلة من الفضائل التي يتمتع بها عدد قليل من صفوة الناس وفضلائهم في هذا الزمان الذي شاع فيه الجحود ، وكفران النعم ، والتنكر لذوي المروءات .

وقد عبر في عدد من مقطوعاته الشعرية عن هذا الخلق الأصيل فيه ، وأثنى فيها على نفر من أصحابه الذين وفي لهم وأحبهم وأحبوه .

والشاعر مولع بالجمال يتتبعه ، ويبحث عنه ، ويبالغ في وصفه ، كما أنه يقدس عاطفة الحب ، ويرى أن « الينبوع الذي يصدر عنه الشاعر هو الحب ، والحب وحده ، حب الحياة كلها ، والطبيعة بما حباها الخالق من فتنة ، فهي أقوى الحب ، وأعذب ينابيعه ، وإن اختلفت وسائل التعبير ومجالاته ، فالحب هو الخالد بين كل نوازع البشر وغرائز الإنسانية ، فهو الذي يحيل الشقاء سعادة ، ويجعل للدنيا لذة وطعماً وحلاوة ، ويخلق الآمال المشرقة ، والأحلام الفواحة ، فحب الشاعر لوطنه يدفعه للتغني بمحاسنه ، والافتتان بمواقع الجمال فيه، فهو في الينابيع العذبة والسهول المخضرة ، والأنهار الجارية ، والصحاري المترامية ، وحبه لحبيبته يحول الدنيا سعادة دائمة ، وربيعاً مزدهراً مستمراً ، ويسبغ البهجة على النفوس ؛ لأن الحب هو الوجه المشرق المتجدد لهذه الحياة ، ففي إشراقة شمسها ، وغناء عنادلها ، وهبوب

(١) انظر صفحة ٣٦٥ وما بعدها من الطبعة الثالثة لكتابنا « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » .

أنسامها ، وعرق فلاحها ، وكفاح عاملها ، وقتال جنديها مصادر جميلة تلهم الشاعر وتغذي مشاعره [(١)].

تلك هي فلسفة يوسف عز الدين ، وذلك قوله في الينابيع التي استقى منها شعره . وإذا كان قد عبر في شعره العاطفي عن مشاعر حبه لأصدقائه وإخوانه في مقطعات شعرية أو في أبيات معدودة ، فإن عاطفته نحو وطنه أكثر وضوحاً لغزارة شعره الوطني ، وللطول النسبي الملحوظ في قصائده الوطنية التي عبر فيها عن مشاعره الحارة الصادقة نحو وطنه ؛ فإن حب الوطن من سمات الفطر السليمة التي طبع عليها كل إنسان سَوِي ؛ إذ هو أول أرض مس جلده ترابها ، وتفيأ ظلالها ، ونعم بخيرها ، وأحس بالأمن والاطمئنان بين أهلها ، واستقامت له الحياة ، وتفتحت أمامه سبل الأمل والعمل في ربوعها .

ولقد ارتحل يوسف في شبابه عن العراق ، وطوف في بلدان من الشرق والغرب ، وعاش فيها سنوات تقصر وتطول في مدن آهله بالعمران ، زاخرة بمعالم الحضارة ، ومظاهر التقدم المادي والفكري والفني ، وينعم من فيها من سكانها الأصليين والوافدين عليها من بلاد الدنيا بالحرية وانطلاقة ، ويستمتعون بمباهج الحياة دون حظر أو تقييد ، ولكن شيئاً من ذلك لم يستطع أن ينسيه العراق مع الفرق الشاسع بين حياته هنا وحياته هناك ، وبرغم القيود التي كانت تحد من حريته في وطنه .

وعاش في تلك الحواضر ما عاش ، ولكنها عيشة قلقة ، لم يفارقه فيها الإحساس بمرارة الغربة ، والشعور المستعر بالحنين إلى وطنه .

وها هو ذا يصور تلك الأحاسيس والانفعالات ، وهو في لندن يدرس ويتعلم ليحصل على درجة الدكتوراه التي أوفد من أجلها إلى إنجلترا ، وتطوف بذهنه ذكريات وطنه ومشاهد الطبيعة الجميلة فيه ، فيقول في قصيدة عنوانها « حنين الغريب » [(٢)] :

يا لنـدنُ طال الفـراقُ وليلُـهُ ... يا ويْـحَ ساعاتِ التفـرُّقِ لندنُ

قلبٌ على سَعَفِ النخيل مرفرفٌ ... ويهـزّني نحو النخـيل الموطنُ

أشْهَى الأماني أن أزورَ مواطني ... فهوى المَوَاطن للمتـيَّم دَيْـدَنُ

حيث الشـواطي الساحراتُ عبيرُها ... من ليل دجلـةَ بالصبابة يفتِنُ

لم أنسَ أياماً بدجلـةَ والهـوَى ... طلْقُ المحيَّا في الحشاشة يسكُنُ

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية لديوانه « ألحان » ، ص ١٧ .

(٢) صفحة ٦٨ من ديوانه « لهات الحياة » .

ما مثلُ صفصاف العراق ونخلهِ كلا فما باريسُ منـه ولندنُ
والسامرون على الضِّفافِ يشوقُهُمْ وجْـدٌ على أنغامهمْ متبيّـنُ
رقّـتْ نسائمُه اللطـافُ عشـيةً والسِّحْرُ في سرِّ الشواطئ يكمنُ
حُيِّيتَ يا وطني العزيـز تحـيّةً أنا ذلك الصَّبُّ الغريبُ المؤمـنُ
لم يُلْهِني عـنكَ التمدّنُ لحظـةً كلا ، فأنت العالـمُ المتمـدّنُ
إن لمْ تكـنْ للحـرّ أكرمَ مَوْئـلٍ فعلى ثراكَ الحـرِّ موتٌ يَسكُنُ

وهي إحدى قصائده الجياد ، وقد استمدت جودتها من نبل غرضها ، وشرف معانيها .

ولا يقف الشاعر عند وصف هذه المشاهد الجميلة التي يحن إليها ، بل يتابع ما يسمع وما يقرأ من أنباء عالمه العربي ، ويأسى لفرقة العرب ، واختلافهم على أنفسهم مما أدى إلى تمزق وحدتهم ، واختلاف كلمتهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى وحدة الصف أمام المتربصين بهم والطامعين في أرضهم ومقدراتهم ، وقد رأوا بأعينهم ما حل بفلسطين وغيرها من ديار العروبة .

ويروعه ما يسمع وهو في لندن من أنباء العراق ، واستبداد حكامه إذ ذاك بشعبه الأبي ، فيقول :

ما بالُ يَعْرُبَ قد تشتّتَ شملُهم هذا التفرّقُ بـين قومي مُزْمِـنُ
أ وَ ما تشوقهم المفاخـرُ جمّـةً فيجـيءَ منهم مصلـحٌ متديِّـنُ
قالـوا غَدَتْ بغـدادُ بُؤرةَ جائـرٍ متحكمٍ فيها الخـئُونُ الأرْعَـنُ
يستـاقُ أحـرارَ الرجالِ بسَوطـهِ وبهـا يعـزُّ الـكاذبُ المتلـوِّنُ
إيهٍ بلادي إن شِعْـري بالأسـى والحـزنِ والدمعِ الغزيـرِ مدوَّنُ
هذي فلسطـينٌ وتلكَ مراكشٌ واسكندرونُ أنينُـها لا يعلَـنُ
آلامُكِ الحـرّى تنـوحُ جريحـةً لكنَّ أرضي للبطولةِ مسكَنُ
ثُـوري على هذا الهوان بعزمـةٍ فالموتُ في ساح المفاخرِ أهْوَنُ

وله جيدة أخرى يناجي فيها أحبابه في العراق الذين طال البعد بينه وبينهم ، ويشرح ما فعل به فراقهم ، وما أصابه من الهم والكمد ، ويصف لهفته عليهم ، وأشواقه المضطرمة إلى بغداد ومغانيها التي استمتع بها في صباه وشبابه ، ثم حرمها ، ولم يجد في أوربا بدلاً عنها . ويذكر أن قومه هم الذين أرادوه على الرحيل إلى لندن على غير هـوى منه ، ليحصل على (الشهادة)

من بلاد الإنجليز ، التي ترفع منزلة حاملها ، ولو عاد بالكفر والزندقة والاستعلاء على قومه وذويه كما فعل غيره من الذين سافروا وعادوا من غير أن يحققوا شيئاً من الآمال المعلقة على سفرهم أو ابتعاثهم كما يقول !

ويعجب أشد العجب لمجيئه إلى لندن ليعود إلى العراق مدرساً للبلاغة والشعر العربي ، مع أن بلده هو موئل الشعر والبلاغة العربية !

استمع إليه في هذه الأنات التي يرددها في قصيدته « شوقاً إلى العراق »[1]:

أحبَّايَ طال البعدُ بيني وبينكمْ ... وهاجتْ شجونُ الشوق تضْرَمُ في صدْري
وللبُعد نيرانٌ تحرّق مُهجتي ... وذا شوقيَ المضْنِي يفتّت في صبْري
ألا رَجعةً نحو العراق وأهلهِ ... فأوسعُهمْ لثماً من الخدّ والثّغْرِ
وتبسِمُ أيامي وتفرَجُ لوعتي ... وأترعُ أشواقي وأمشي على « الجِسْرِ »
لياليَّ في بغدادَ والبدرُ ضاحِكٌ ... على دجلةٍ أكرِمْ بدجلةَ من نَهْرِ
ألا فاذكروا صبا معنى معذبّاً ... فلم يبقَ لي منكم سِوى لذّة الذّكرِ
فقد كانت الأيامُ حلواً مذاقُها ... وكانت ليالينا تتيهُ من السحْرِ

ولا يزال الشاعر يردد حنينه إلى وطنه ، وإلى أهله الذين لم يجد للسلو عنهم سبيلا ، ولايجد رسولاً يحمل إليهم عواطفه ومشاعره نحوهم إلا ذلك الأنين الذي يردده في صدره ، ويبثه في شعره المكتئب الحزين ، لبعده عن أهل كرام ، و وطن عزيز عليه ، حبيب إلى قلبه ، وإن حفت به البوادي ، وأحاطت به القفار .

ويقول إنه لم يفارق العراق راضياً أو مختاراً ، لكنه أكره على الرحيل إلى لندن ، لأن أولي الأمر في بلده كانوا يزعمون أن إنجلترا هي بلد النور والمعرفة ، وأن الذين يعودون منها حاملين « الشهادة » هم الأعلام النابهون ، والقادة المرتقبون .

وسيرى القارئ لهذه الأبيات أن الشاعر كان يحس قبل سفره بالغَبْن الذي أصابه ، والظلم الذي وقع عليه في بلده ، لأنه لم يوضع في المكان الذي يلائمه ، أو المنصب الذي كان يحلم به ويطمح إليه ويرى نفسه جديراً به .

أ أحنّ إلى أهلٍ كرامٍ بموطنِي ... فأرسلُ أشواقي أنيناً من الشّعْرِ ؟
بلادي وما أحْلَى هواها وسِحرَها ... ولو أنها عاشت بداجية قفْرِ

(١) صفحة ٦٤ من ديوانه « لهات الحياة » .

أردتُ سلوا عن هواها وحبِّها فثارتْ بيَ الأشواقُ لهَّابةَ الجمْرِ
وما عن هوًى قد جئتُ لندنَ طالباً ولكن قومي يستزيدون في الذِكرِ
يقولون فيها كلّ ما يطلب الفتى من العلمِ والعرفانِ والفضلِ والفخْرِ
ومنْ جاء منها « بالشهادةِ » ظافراً هو العلم الهادي ولو جاء بالكُفْرِ
ولو أنصفوني في بلادي لما رأتْ عيونيَ هاتيك البقاعَ مدى الدّهرِ
ومن مضحكات الدهر أني بلندنِ لأصبحَ أستاذ البلاغة والشعرِ
وإنّ بني قومي الضّعافَ رأيتهمْ يظنون أن الفضل في لندنٍ يسري
عفا الله عن قومي فقد كنتُ ناعماً تغنّي أناشيدي العنادلُ في الفجْرِ
تساجلني إمّا شدوت قصيدةً وتثملُ من لحني الرقيق بلا سُكْرِ
ولَمّا وجدتُ القومَ ضاقتْ صدورُهم بِفَضْلي وآياتي وقد جهلوا قدْري
هتفتُ أضَلّوني أديباً وشاعراً كما ضيّع الأطفال رائعة الدّرّ !

لقد رأيت الشاعر في هذه الأبيات الأخيرة يخونه تواضعه ، فيزهو بشعره ، ويغلو في فخره إلى درجة ما عرفتها عنه ، وما كنت أحبها له . ومع ذلك لم يحدثنا بشيء من « فضله » الذي ضاقت به صدور قومه ، وما كنت أحسب أن الصدور تضيق بالمنعم المتفضل ، وكذلك لم يحدثنا بواحدة من « آياته » التي بهرهم بها ، أو « قدره » الذي جهلوه أو جحدوه ...

ومن حق الشاعر أن يتيه بشعره ، وأن يصور له الخيال أن العنادل تشدو بأناشيده مطلع كل صباح ، وأنها تعمد إلى مساجلته كلما صنع نشيداً ، وأنها تثمل من لحونه الرقيقة من غير سكر ، وإن كان من العسير على القارئ أن يدرك أن هذه العنادل تثمل أي تسكر من غير سكر كما يقول . وقد كان من أيسر اليسر عليه أن يقول « تثمل .. بلا خمر » ليستقيم له المعنى الذي أراد ، ولا تخسر قافية البيت شيئاً .

ويعرف تاريخ الأدب كثيراً من شعراء العربية — وفي طليعتهم أبو الطيب المتنبي — فخروا بشعرهم ، وغالوا به ، لأنه فنهم الأوحد ، أو لأنه رأس مالهم الذي يعيشون من فيضه طوال حياتهم .. وأمثال المتنبي في ذلك كثير .

وكان الرصافي شاعر العراق المرموق في هذا العصر متواضعاً ، وأقرب إلى الحقيقة في فخره بأدبه حيث يقول في شكواه :

أنا ابنُ دجلةَ معروفاً بها أدَبي وإنْ يكُ الماءُ منها ليس يرويني

لأنه ليس في العراق من لا يعرف أدب الرصافي أو شعره .

* * *

ويتسع مجال الوطنية عند الشاعر ، فتتجاوز عواطفه نحو موطنه في وادي الرافدين ، ونحو أهله الذي استعرت أشواقه إليهم وحنينه الدائم وهو في ديار الغربة إلى المعاهد والديار ، ومن يعمرها من الأهل والعشيرة ، فتقرأ في دواوينه المتعددة شعراً رائعاً في وطنه العربي الكبير ، يعبر فيه عن مشاركه أمته العربية ، في مباهجها وفي أحزانها ، ويبارك جهاد أبنائها في سبيل الخلاص من حكم الطغاة والمستعمرين .

ومن ثم كانت له قصائد تحيي الهمم ، وتشدّ العزائم ، وتفيض بعاطفة الحب والوفاء نحو مصر والمصريين الذي عاش بينهم ، وتلقّى العلم في بلادهم ، و وصلته صداقات متينة بأعلام من علمائهم وأدبائهم المذكورين . وكذلك الجزائر بلد الشهداء ، وقد أثنى على نضالها ، وأكبر تضحيات أبنائها ، وبسالتهم في الذود عن حياضها ، وكذلك تونس ومراكش ، وفلسطين التي وصف المأساة التي حاقت بها ، وشتتت شمل العرب من أبنائها .

وإن كان ذلك يدل على شيء ، فإنه يدل على شعوره العميق بالانتماء لهذا الجنس العربـي ، وعلى إيمانه بوحدة العرب ، ودعوته الدائمة إليها في كثير من شعره الوطني .

* * *

وبعد هذه الجولة في شعر يوسف عز الدين ، وأحسبها قد طالت عما كنت أقدره لها في هذا الكتاب الذي يدرس هذا العدد من شعراء العصر ، وإن كنت لا أزعم أن ما قدمت فيها يستوعب معالم هذه الشاعرية ، أو يحصي نتاجه الغزير الذي توزعه عدد من الدواوين .

أجد من حق القارئ أن يتساءل عن موضع يوسف عز الدين بين شعراء العصر .

ولست أشك في أنه واحد من شعراء العاطفة المتقدة ، والمشاعر الملتهبة في هذا العصر ، وقد عبّر عن نفسه في ثقة وصراحة ، و وصف ما يجيش في صدره بصدق وأمانة ، كما وصف تجارب ومواقف وأحلاماً ربما يتحرج بعض الشعراء من التعبير عنها أو التصريح بها مخافة أن تُساء بهم الظنون !

وذلك بالإضافة إلى ما بثه في شعره من لواعج الأسى والكمد التي عاناها في فترات من حياته الأولى . وقد أشار إلى هذه الشجون الشاعر العاطفي المبدع أحمد رامي في أبياته التي حيّا بها يوسف ، ونشرها يوسف في مطلع ديوانه « ألحان » ، وفيها يخاطب يوسف بقوله :

يا رقيقَ الشعور تبعثُ في قلْبِي وَجْدِي و تسْتجيشُ حنينِي

أنتَ جدّدتَ في فؤاديَ شكواهُ ونبّهتَ غافياتِ شجوني

فطواني الذي طواكَ من الوَجْدِ وأرسلْتَ ساكناتِ أنينِي

غَنِّ لي لحنَك الشجيَّ وزدْنِي أنا أهوَى الشعرَ الذي يبكينِي

إنّه راحةُ الحزينِ وأُنسُ الرُّوح في وحْشةِ الدجى والسكونِ

وإذا كنتُ ملتمساً ليوسف شبيهاً من شعراء العصر ، فإني أراه أقرب الشعراء من حيث العاطفة إلى الشاعر المبدع صالح جودت الذي أهدى ديوانه الأول إلى « العيون الزرق والشعر الذهب » !

وقد كانت بينه وبين يوسف علاقة ودٍّ حميم ، دفعت صالحاً إلى أن يكتب مقدمة ضافية للطبعة الثالثة من ديوان يوسف « في ضمير الزمن » ! وقد أطراه فيها ما وسعه الإطراء .

ولا يلتزم يوسف عز الدين في صياغة شعره بنسق واحد من القوالب والأشكال ، ولكنه يعمد إلى التنويع في أعاريضه وقوافيه .

وسيرى المتصفّح لشعره أنه يلتزم أحياناً بما خفَّ من القوالب الخليلية في الوزن الواحد والقافية الموحدة ، وأحياناً يلتزم بالوزن الواحد ويأخذ بنظام التربيع في القوافي ، وقد يخرج على النسق المأثور في أوزان الشعر ليصوغ « الشعر الحر » أو « شعر التفعيلة » أو « الشعر الجديد » كما اختلفت التسميات في الخروج على عروض الخليل .

وقد عاش و راج ذلك الخروج والدعوة إليه في بيئات الشعر العربي في أواسط هذا القرن ، أو في الثلث الثاني منه على الوجه الخصوص ، واشتهر في أعلامه نفر من شعراء العراق في مقدمتهم نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ، وتبعهم كثيرون منهم شاعرنا يوسف عز الدين .

وقد انعكست على لغة شعره آثارُ ما يتصف به من دماثة الطبع ورقة الشعور ، وآثارُ الحياة الحضارية التي قضاها في العراق وخارج العراق ، فجاءت ألفاظه سهلة سمحة ، لا أثر فيها للبداوة أو الحوشية أو الغرابة التي قد يتكلفها بعض المعاصرين ، وذلك بالرغم من تخصصه في اللغة العربية وأدبها ، وإلمامه بالأدب القديم عن طريق دراسته وتدريسه ، ومع ذلك لا تجد في ألفاظ شعره إلا السهل المألوف الذي لا يكد اللسان ، ولا يستعصي على الإدراك .

الحسّاني حَسَن عبد الله
في ديوان
عِفتُ سُكونَ النّار

وَقْـعُ خُطاً .. تمهّلي يا خُطاً	وجـرِّبي أن تَقِفـي عنْدِي
زهدتُ في النـاسِ ، وهذا أنا	تُزْهدني الوحشةُ في زُهدي
كأنني في لهفتــي عاشـقٌ	عِفْتُ سكونَ النارِ في الزَّندِ
عِفْتُ سلاماً هامداً في دَمِي	عِفْتُ سكونَ النارِ في الزَّندِ
سَئِمتُنـي معتــزلا طيِّبـا	أقبحْ بها مـن طيبةٍ تـُردي
فـإنّ خيـراً مطبقاً ثغـرَهُ	شـرٌّ من الشّر الذي يُبْدي

هذه أبيات من مطلع قصيدة « عودة » للشاعر الحساني حسن عبد الله نشرها في ديوانه الذي سماه « عفت سكون النار » .

وهذه الأبيات تكشف عن ملامح شخصية الشاعر ، وعن طبيعة الحياة النفسية القلقة التي يحياها .

وقد تخفى عليك هذه الملامح ، وقد لا تجد شيئا من مظاهر القلق إذا جالست هذا الشاعر، ورأيته رأي العين ، وطارحته الحديث !

صور الشاعر في قصيدة « عودة حياة » الوحدة الموحشة التي يحياها بعيداً عن الناس ، وعن مجتمعاتهم . لقد فر بنفسه من لؤم الناس وكيدهم ، وآثر حياة الاعتزال الموحشة القاتلة . وقد عرف من يعرفه من الناس هذا الصدوف عن مجتمعاتهم ، فنأوا عنه واعتزلوه .

ليس معنى ذلك أن الحساني يكره الحياة ، وأنه حبس نفسه في سجن الوحدة ، أو أنه يعيش زاهداً في دير أو قمقم ، لا يرى الناس ولا يرونه ، فإن ذلك ما لا يفعله ، وما لا يستطيعه إذا أراد ما دام حيا . ولكنه الإحساس بغربة الروح ، وشرود الذهن ، وإن كان يحيا في وطنه بين أهله وصحابته .

ولكنه أحس بالسأم والضيق بهذه الغربة النفسية ، فعاوده الحنين إلى الحياة ، وإلى مجتمعات الناس ، حتى لتزهده الوحشة في الزهد ، كما يقول ، وأصبح يعاف السلام الهامد في دمه ، ويعاف كمون النار في الزند ، حتى ليرى الشر البادي بين الناس أيسر من الخير الذي لا يراه في وحدته .

ويستبد به القلق حتى يناشد من لا يعرف أن يدق بابه ، فقد شاهت في نظره الجدران التي تحول بينه وبين صخب الحياة واضطرابها ، وكره الصمت الذي يشبه صمت القبور ، وحنّ إلى الأفق الفسيح وراء الجدران ، أو وراء القضبان ، فيقول في تمام القصيدة :

فاطـرُقْ عليَّ البـابَ يا عابـراً	بالبـابِ إني ها هنا وَحدِي
قد شاهت الجدران في ناظري	كشَوْهة الإيغال في الصدِّ
الصمْتُ من حولي ، وفي باطني	صَمْتَ دفينَ قَـرَّ في لحْدِ
حننْتُ للأفـق فسيـحَ المـدَى	أيتها الأحجـارُ فارتـدِّي
واطْـرُقْ عليَّ البابَ يا صاحِبِي	إنـي ملاقيكَ أخـا وُدِّ
أوْلا ، فإني هاجـرٌ محبسِي	ولـو إلى النكرانِ والكيـدِ

* * *

لم يكن الحساني يوم أهدى إليَّ هذه المجموعة من شعره بعيداً مني ، ولا غريبا عني ، فإني ما نسيته مذ رأيته من عهد غير قريب ، وهو طالب بالجامعة يجلس مني مجلس التلميذ من الأستاذ بين زملائه في قاعة المحاضرة ، ينظر في صمت بعينيه النفاذتين نظرة استغراق في السماع ، واستغراق في التأمل .

ولم تستطع ملامحه الهادئة أن تحجب عني مخايل ذكائه ، وأنا أصغي إلى مناقشته الهادئة ، ومنطقه في الكلام ، حتى استطاع أن ينتزع مني ذات يوم هذه الكلمة « سيكون لك شأن في يوم من الأيام يا بني » ! وأخذ زملاؤه ينظرون في عجب إلى هذا الفتى الأسمر النحيل الذي قال له الأستاذ ما لم يقل لغيره من تلامذته وأبنائه !

وغاب عني الحساني بعد تخرجه في الجامعة ، حتى لقيته في بيت العقاد مرات ، وإذا هو عند العقاد من أوفى الناس له ، وأقربهم إليه .. ثم إذا هو يكتب وينقد ، ويتردد اسمه في المجلات الأدبية في مصر والبلاد العربية ، يجادل ويصاول كبار النقاد والكتاب ، حتى أحبه

كثيرون ، ونفر عنه كثيرون ، وكان سبب الحب وسبب البغض واحداً ، وهو القلم الذكي الجاد الذي لا يجري إلا بما يريد صاحبه ، ويعتقد أنه الصواب .

وأخيراً كان له هذا الديوان الذي سماه « عفت سكون النار »[1] ، وكتب على ظاهره بخط جليٍّ هذه العبارة « من الكلام الموزون المقفى » !

وهي عبارة غريبة من غير شك ، فإن العادة لم تجر بمثلها في ديوان من دواوين الشعر قديمها وحديثها على السواء .

وهي في الوقت نفسه تحمل معنى التحدي السافر لأشباع الشعر الحر ، أو الشعر الجديد .

ويظهر هذا التحدي أيضا في عبارة الإهداء ؛ إذ أن الشاعر يهدي ديوانه « إلى الحياة التي كادت أن تكون فكراً محضاً ، إلى العقل الذي صنع الأعاجيب زمانا في خص من أخصاص البصرة ، إلى منجب الأساتذة الخالد : الخليل بن أحمد .»

ثم في ذلك البيان المستفيض الذي قدم الحساني به ديوانه فيما يجاوز ثلاثين صفحة ، عرض فيها لقضية الشعر الحر ، وعمد فيها إلى تفنيد الحجج التي يتذرع بها المنتصرون لهذا الشعر الجديد .

* * *

إن الذي يعرف الحساني يحسبه رجل عقل وفكر ، لا قلب له ولا عاطفة .

ولكن القارئ لشعره سيجد نفسه أمام شعور دافق ، وعاطفة ثائرة ملتاعة ، أشبه ما تكون بالمرجل وهو يغلي ، فإذا كشف عنه الغطاء هدأت ثورته ، وسكنت حدته .

ولكن عاطفة الحساني تحاول أن تجد لها منطلقاً أو متنفّساً . ولكنه إذا ظفر بهذا المتنفس أسرع إلى سدّه ، فيتولد ذلك الصراع العنيف بين عقله وقلبه ، ونحسّ به في كثير من شعره العاطفي ، كما في قوله :

يا عذبةً شـرِبَتْ منها مخيّلتي	رُدّي النمير ، فبعضُ الصدِّ محمودُ
بَيْني وبينَكِ رأيٌ يرتضيه دَمِي	وحكمةٌ نَظَـرتْ ، فالغيبُ مشهودُ
بَيْنـي وبينـكِ يا دُنيا تُراودُني	عن جنّـة الخلْدِ بيـدٌ دُونَها بيـدُ

(١) طبع هذا الديوان سنة ١٩٧٢م في مطبعة المدني بالقاهرة .

واقرأ هذا الصراع في قوله في قصيدة عنوانها « اعتذار » :

يا ساقها العريانةَ استتِري عُريُ الطفولةِ مرهقٌ نظري
أ حسبْتِ كلّ العابرين أباً وأخاً ، وطفلاً غير ذي خطرِ ؟
أنا عابرٌ يا ساقُ ما أَلِفتْ عيناه في كِبَرٍ ولا صِغَرِ
أن تقصرَ الأثوابُ لا شررٌ ينقضُّ ، هل أحسَسْتِ بالشّرر ؟
كلا ، فأنت براءةٌ شُغلتْ بمراحها عن أعين البَشَرِ
أحسستُه أنا وهو مُندلعٌ في الياسمين فقلتُ : مَهْ بصري
أ تخونُ من أمنتْ لأعْيننا فتصبّها ناراً على الزهَرِ ؟
خَسِئتْ شرايينٌ وأوردةٌ ودمٌ يذلُّ لسطوة الوَطرِ
يا أختُ ، لومُ النفس يعصفُ بي فتقبّلي استغفارَ مُعتذِرِ

نقرأ في هذه الأبيات حدة الصراع الذي احتدم في أعماق الشاعر بين نداء الجسد وصحوة الضمير ، كما نرى فيها غلبة الرقيب على دواعي الهوى وأحلام الشباب ، بتأثير التربية والنشأة المحافظة .

وكثيراً ما يستبد به الهوى ، وتصرخ في دمائه الأشواق ، فيتشهى ويتمنى ، ولكنه لا يظفر بما يريد ، ويعلو الصراخ ، وتتردد الشكوى من الزمان ، ومن ألم الحرمان ، ولا يشفي التصبر غليله ، فيستعطف ويتضرع :

كنتُ أتوق في لظى حَرِّي وقد مللْتُ الحلمَ بالقَطْرِ
وجفّ في صحرائه ثغْري وصِرْتُ من عُسْرٍ إلى عُسْرِ
وأرْهقَتْني صُحْبَةُ الصبْرِ وغَيْبَةُ الماءِ إلى النزرِ

وكقوله في هذه القصيدة يناشد سرباً من الصبايا :

ويا صبايا ، يا دَمي يسْري عوّضْنني ما ضاعَ من عُمْري
في رهبتي للكرِّ والفَرِّ مجانباً مراتعَ العِطْرِ
ونشوةَ السُكْرِ بلا سُكْرِ أعْطينني تشدُدْن من أزْري
إني فتًى يخذلني عصْري أعْطينني واعرفْن لي قَدْري

فقد أضناه الشوق ، وأرهقه الصبر ، وانتقاله من عسر إلى عسر ، وأرجع الشاعر هذه المعاناة إلى أنه يتهيب الإقدام ، ويرهب الكر والفر ، فظل بذلك بعيداً عن أمانيه ، متهماً عصره بأنه يخذله ، ولا ينزله منزلته ، ولم يبق له من الآمال سوى عطف الحسان الذي ينكأ جراحه ، ويعينه على زمانه !

* * *

تلك بعض صور الصراع النفسي الذي كان يعانيه الشاعر في بعض تجارب الحب العاتية ، التي تعرض لها قلبه ، ووقع فريسة لها في مرحلة من مراحل التوقد والتطلع التي تمر بها عواطف الشباب .

ومن يتتبع قصائد الديوان يجد أن جل ما تضمنته من الشعر يدور حول هذه التجربة ، لا يستثني من ذلك إلا عدد قليل من القصائد ، سنشير إليها فيما بعد ، حتى لقد يكون من الممكن أن يوصف هذا الديوان بحق بأنه ديوان غرام ، برزت فيه عاطفة الشاعر ، وآثار هيامه بالمرأة ، وتعلقه الشديد ببنات حواء في المرحلة التي نظم فيها هذا الشعر .

وربما يكون في إيثار الحساني تسمية ديوانه هذا « عفت سكون النار » محاولة للتعبير عن عاطفته الحادة ، أو ثورته المكبوتة التي استعصت على الكتمان ، وأبت إلا أن تبوح بمكنونها في هذا الشعر الحار ، ثم انفجرت لتعلن ماكان يخفي من الأحاسيس أو المشاعر المستعرة بين جوانحه ، ولم يكن يريد ، أو لم يكن يستطيع أن يعلنها ، أو يجهر بها في شعر منشور يقرؤه الناس ، ويرون فيه ما لم يكن يحب أن يعرفوه ، أملاً في تحقيق ماكان يتوق إليه في هدوء وأمان . حتى إذا استيئس من بلوغ غايته وأحلامه في الظفر بالمحبوب لم يجد إلا التنفيس عن آلامه بهذا الشعر الحار الذي حطم به الأغلال ، وكشف الأستار ، وأشعل النار !

ويعبر الشاعر في بعض قصائده ومقطعاته عن ذلك اليأس القاتل بعد ما كابد من الشقاء ، وما عانى من الصدود والجفاء الذي لا يفصح الشعر عن سببه ، ولا يكشف عن علته ، برغم هذه المناجاة الحارة ، والتهالك في حياة يقرُّ بها ، ويأنس إليها ، ويشفي بها وجده وجواه ، وكأن ليلاه صخرة صماء ، لا تسمع النداء ، ولا تصيخ لدعاء .

حتى لقد يحاول أن يبرأ من هذا الهيام ، ويتوب عن ذلك الغرام ، فيخاطب قلبه :

خلِّ عنْكَ الهمومَ ، واطرَحْ هوًى فيك دفيناً ، ولا تعشقْ ترابَهْ
أنتَ أسقيتَهْ زمانـاً ، فما جاد بغـير ارتيابـةٍ ، وانتحـابَـهْ
أنتَ أسقيتَـهْ ، وعـامٌ ونصفٌ ، وهو يسقيكَ حَسْرةً وكآبَـهْ
ابْتَعِثْهُ من قـبرهْ ، لمْ يَمُتْ بعدُ ، لتقضي أشلاؤه الوثّابَـهْ
ابْتَعِثْهُ لتستحـيلَ رماداً بِضْعـةٌ منْه لـَمْ تـزلْ شبّـابَـهْ

إنه يريد أن يجهز على هذا الحب ، حتى لا تبقى منه بقية قد تلهب جذوته من جديد ، لأنه لا يطمئن إلا أن يحول كله رماداً .

وفي مقطوعة أخرى عنوانها « لن يرجع الماضي » يقول لليلاه :

إنْ كُنْتِ كُنْتِ علمْتِ ما أَلقَى ولم تُعْنَي فجُرمُك أعظمُ الجُرْمِ
أو كنْتِ ــ والأحجارُ قد علمتْ بهِ ــ لم تعْلمي فَتقبلي حُكمي
لن يرجـعَ الماضِـي الذي أهـدَرْتني فيـه ولم تَرْعَي به هَمّي
قـولي أيا مَنْ هانت الكلماتُ عندَكِ ظالـمٌ مُسْتعذِبُ الظلْمِ
إنّي شقيتُ لعبْرةٍ ، فإذا رجعتُ شقيتُ فـي أمسِي وفي يَوْمِي

ويبلغ به اليأس مبلغه ، حتى ليحرّم على عينيه أن ترنو به إلى ليلاه مهما يكن شبابها الناضـر ، وحسنها الباهر ، فقد انسد أمامه باب الرجاء ، ولم يبق له إلا الحزن والبكاء ، فيقول في مقطوعة من ثلاثة أبيات عنوانها « عَلّمتِنِي » :

عَلّمتِنِي أنِ أردّ العينَ إن طمحتْ ... إلى شبابٍ تصبَّاها بـــه الحسْـنُ
أقولُ والطمعُ المـوءودُ يَحـرِقني ... اغرَوْرقي وادمَعِي ما شئتِ يا عينُ
نهايةَ البَصرِ المشغـــوفِ أعرفُها ... يأيها البصرُ المشغـوفُ لا تَـرْنُ

* * *

ولم أقرأ فيما قرأت من شعر الغرام الذي يفيض به ديوان الحساني شيئاً من الأوصاف الحسية التي تكشف عن جمال المرأة ومفاتنها التي تتجلى في استقامة العود ، وتورد الخدود ، وبروز النهود ، ونعاس الجفون ، ودعج العيون ، ونقاء الثغر ، وحسن الشعر ، ودقة الخصر ،

وتناسب الأعضاء ، أو غير ذلك مما يفتتن به الرجال ، ودأب على التغني به الشعراء قديما وحديثا .

لم أجد في ديوان الحساني شيئاً من ذلك ، بل إني لم أجد فيه شيئاً من وصف ما قد يثير من حركات الجسد ، أو حلاوة الحديث ، عدا قصيدة يتيمة عنوانها « ضحكتها » وفي أولها يخاطب تلك الضاحكة بقوله :

كالنّبأ المفْرح بعد سأمٍ توالَى ... كفِطْرةٍ لا تعرفُ الحرامَ والحَلالا

ضِحكَتُكِ الغريرةُ القريبةُ المعطاءُ ... يا كَرَماً ما شابهُ منٌّ ولا استعلاءُ

اقتربي يا خُضْرةً طالعةً في الصخرِ ... فإنني أصْغِي إليكِ يا مياهاً تجْرِي

ويبدو أن هذه الضحكة لم تكن خالصة له ، بل إن صاحبته ضاحكة بفطرتها ، بحيث يرى كل إنسان أنها تضحك له ، وهو يريدها لنفسه ، ليروي بها ظمأه ، ولتنقذه مما يعاني من الضياع الذي يجده ، ويردده كثيراً في شعره ، فيقول :

ضِحكَتُكِ التي منحتِها لكلّ الناسِ ... يريدُها ، فانتبهي لشوقه ، إحساسي

ضِحكَتُكِ الغضّةُ يا تفّاحُ يا رمّانُ ... لمن إذاً لم يَنتفعْ بمائها ظمآنُ

فردّديها عزْفةً بريئةَ الإيقاعِ ... وانتشليني إنني آنفٌ من ضَياعِي

أبحثُ عن نفسي فرُدّي أنتِ بعضَ ... نفسِي يا ساعةً قد أفلتتْ من معْمَعَانِ الرّجسِ

إنه يريد هذه الضحكة ويشتهيها ، ولكنه يخشى أن يكون وراءها ما تخفيه ، فقد أحس أن في نبرة هذه الضحكة ما قد يثير كوامن الشهوات :

أحبُّها ضِحكتك الطفلةَ فابعثيها ... لكنْ حذارِ إنني رأيتُ شيئاً فيها

رأيتُ فيها نَبرةً توقظُ في الرجالِ ... ما تنتفِي به عنهم غرارةُ الأطفالِ

رأيتُ فيها جنّةً ، رأيتُ ناراً ... فليت شِعري أين أعدَدْتِ ليَ القرارَا

وأيّا ما كان الأمر فإنني أرى في هذه القصيدة مع وضوح الدلالة في عبارتها شيئا من الإبهام والغموض الذي لا تستبين به الرؤية ، ولعله غموض الحيرة ، أو غموض الغيرة ، أو غموض الشك في صدق هذه الضحكة .

وإلا فما معنى ضحكتها التي تمنحها لكل الناس ؟ وكيف تستثيره هذه الضحكة التي لا

يعدو أن يكون إزاءها واحداً من الناس ؟

وما معنى الساعة التي « أفلتت من معمعان الرجس » أ ساعته هو أم ساعتها هي ؟

وما الرجس الذي كان يمارسه أحدهما أو كلاهما ؟

لعلها الرمزية المعقدة ، أو هي تعمية يأبى الشاعر الإفصاح عنها ، ولا يستطيع قارئ شعره الاهتداء إليها !

لم يذكر الشاعر شيئا من سمات الجمال الذي أوقعه في شراك هذه التجربة الغرامية التي أورثته الكمد والوجوم بعد إخفاقه في الوصول إلى ماكان يشتهيه .

وقد يقول إنه كان يعشق جواهر لا أعراضاً ، وأرواحاً لا أجساداً .. ولكن الأرواح لا يستدل عليها مجردة عن الأجساد والشخوص .

والإحساس بالجمال إنما ينشأ عن الحسن المتكامل في نظر مستقبله .. ثم إن الحـواس هـي المنافذ الطبيعية إلى القلوب ، وهي الوسيلة المثيرة للانفعال بالإعجاب . ومن المؤكد أنه كانت هنالك أسباب ودواع لهذا الهوى القاتل لم يشأ الشاعر أن يصفها ، أو أن يكشف عنها.

ومهما يكن من أمر فقد مات هواه ، وفقد بفقده أمله في الحياة ، وقد يداعبه حلم كاذب بعودة الحبيب ، ولكنه يراها عودة إلى الألم والمعاناة ، فيقول في أبيات عنوانها « حلم » :

صديقانِ نحنُ ، ولا شيءَ بعدُ ، الهوَى مات مات ، صديقان نحنُ ؟
يكذّبني حلمٌ عائد بهـا فجـأة . . . . . عُـدْتَ يا قَـلبُ تعـنُو
تـدانَى . . وبيـن يدَيّ لو امتدّتـا نابضٌ منـك . . كوخٌ وغصنُ
مـدتْ اليدين ، ولكنّ بحراً تَـضَـرَّم فيـه وتغـرقُ سُفُـنُ
ترامَـى ، ففـي شاطـئ آخـرٍ أنـتِ ، أمّـا أنـا فنواظـرُ تـرنُـو
فيا ليتَ شِعري ! أنحـنُ صـديقانِ في المنتهَى أم حبيبانِ نحـنُ ؟

* * *

ونقرأ في شعر الحساني آثاراً من زفرات الشجن ، ونبضات الألم ، ليس مبعثها إخفاقه في تجربة الحب فحسب ، ولكن تلوح منها ملامح أسى عميق ، ربما كان مبعثه مزاجه العصبي ،

ونظرته التشاؤمية إلى الحياة ، بما رأى فيها مما لا يرضي .

وفي الحياة ما يحلو وما يمر ، وفيها ما يسوء ويسر . ولكن الشاعر لا يرى الجانب المضيء المشرق من الحياة بقدر ما يرى فيها من الجوانب القاتمة المظلمة . حتى لقد ينفذ إليه شعاع من أمل تأنس به نفسه الموحشة ربيعا ناضراً ، وزهراً يانعاً ، ينفح عطراً متضوعاً ، ينعش روحه الكئيبة ، ويسري عنها ما حاق بها من شجون :

ذاتَ ربيعٍ فتحتُ قلبي ... وقلتُ فليدخلِ الربيعُ

وكنتِ أنتِ التي أهلّتْ ... فالتفتَ المطرقُ الوجيعُ

أجالَ طرفًا ، ومَدّ كفًا ... كأنما مُدَّتِ الضلوعُ

وأمرَعَ الجدبُ من رُؤاهِ ... وأزهرَتْ حولهُ الرُّبُوعُ

وفاحَ في الكوْنِ منكِ نشرٌ ... فكلُّهُ كلُّهُ يضوعُ

ولكنه لا يلبث أن يصحو من هذا الحلم الجميل ، فيري هذه الرؤى البديعة ، وقد استحالت ، فولي الربيع ، وذبلت الغصون ، وتصوحت الزهور ، وأجدب الروض المريع ، وعم الخراب ، وعاد الشاعر المرهق إلى همومه وكآبته :

ذات ربيع ، وراح يرنو ... فصدَّه غيهبٌ منيعُ

دعا لعلَّ الظلامَ يحنو ... ولا مجيبٌ ولا سميعُ

لقد تولّى الربيعُ عنه ... وأقبلتْ بعده الدموعُ

الزهرُ من حولنا يَبيسٌ ... تكبُو بأطرافِه الجذوعُ

ما هذه التربُ والصحارَى ؟ ... كأن هنا عالمٌ يروعُ !

من أي فجٍّ سعَى إليه الـ ... ـخرابُ حتى عفا المربعُ ؟

وهكذا تضيق بالشاعر الحياة ، أو يضيق هو بالحياة ، فقد يجري الماء السلس النمير بين يديه ، فيراه يتدفق بالسم الزعاف ، وقد يهم بالإبحار فيه ، ولكن سرعان ما يأمر زورقه بالرجوع ، وإذا لاح له بريق خالَ وراءه ظلاماً مطبقاً ، لأنه لا يرى هذا العالم عالمه ، وإنما هو عالم الخفافيش ، وهو ، فيما يرى نفسه ، رجل طهر ونقاء ، يخاف أن يتمرغ في الوحل الذي يخوض فيه الناس .

يقول في قصيدته « عد بنا يا زورق » :

الماءُ في الشطِّ يجـري	أراهُ سُـما تـدفَّـقْ
وتهربُ العـينُ لـكن	إلى وجـوم ٍ مطبقْ
يضيـقُ عنهـا فضاءٌ	ما كان قبلُ بضيِّقْ
فغـضّ طرفـكَ بادتْ	سماؤنـا ، لا تحدّقْ
أفْـقُ الخفافيش هـذا	لا أفْقنـا المتـشوّقْ

إلى أن يقول :

فخلفَ كـلِّ بـريـقٍ	ذاكَ الظـلامُ المحدّقْ
يا قلبُ أعرضْ وأعرضْ	فما خلقـتَ لتُحْـرَقْ
إنّي كرهتُ كرهتُ الـ	ـسنقـاءَ أن يتمـزّقْ
والوحلُ يهـزَأُ أنْ خـا	نـي الصفـاءُ الأزرقْ
أفْـقُ الخفافيـش هـذا	فعُـدْ بنـا يـا زورقْ

وهذه الأبيات تكشف لنا عن سر ذلك الانقباض والانطواء على النفس الذي يعانيـه الشاعـر ويعانيه كثير من الشعراء الذين هم أرق الناس إحساساً وأحدهم انفعالاً ، وربما حملتهم بعض التجارب على فقد الثقة في الحياة ، وفي الأحياء ، وربما فقدوا الثقة في أنفسهم ، فلا يقدمون كما يقدم الناس ، ولا يضطربون فيما يضطرب فيه غيرهم ، ولا يقوون على مواجهة الحياة بسرائها وضرائها . وكثيراً ما يحرمون أنفسهم ما يسعد به غيرهم ، توجساً من إخفاق يتوقعونه ، أو إشفاقاً من ضر يتوهمونه ، فهم في قلق دائم ، و هم مقيم .

وقد يعترف الشاعر بإسرافه في هذا الإحساس بهذا الهم ، وانقباضه من الحياة ، وإن رأى فساداً فإن هذا الكون لم يخل من الفساد يوماً منذ دب الإنسان على وجه الأرض ، ولن يفيده ذلك الانقباض في عالم مصيره إلى الفناء ، فيقول:

أسرفْتَ في الغمّ يا فؤادِي	فَخَفْ على نفسِكَ التمادِي
وإن رأيتَ الفسـادَ يطغَـى	وسطوةَ الجهلِ في ازديـادِ
فأرسِلِ الطرفَ في سَماءٍ	سمت على نائـحٍ وشـادِ

وآنستْ ألْفَ ألْفَ مرٍّ | من عهد عـادٍ وقبلَ عادِ
فما عناها ، كما تراها | معتـركُ البغْيِ والرشـادِ
يا جمرُ إن الـرّمادَ آتٍ | فلا تسـارعْ إلـى الرّمادِ

نحا الشاعر في هذه الأبيات منحى الحكمة المستفادة من الخبرة بالحياة ومن التأمل في مسراها ومنتهاها ، ومن كلام الحكماء ، وفي مقدمتهم فيلسوف المعرة أبو العلاء ، وقد نظر في داليته المشهورة :

غيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي | نَوْحُ باكٍ ولا تـرنّمُ شـادِ

ويحذّر الشاعر نفسه من التمادي في القعود والتواني في طلب الحياة في عالم متحرك يسعى فيه كل أحد إلى غايته ، وإلا تعثّر في الطريق وداسته أقدام السارين ، ويدعو نفسه إلى الحركة ومجاهدة اليأس والإحجام عن معترك الناس الذين لا يرحمون المتواكلين ، ولا المستضعفين :

حَـذَارِ إن القعـودَ يُرْدِي | فعُـدْ إلـى مَدْرَجِ العبـادِ
داسَتْـكَ إمّا سهوتَ منهم | أقدامُ ساهـين يا فـؤادِي
فجاهدِ اليأسَ لا تدعْهُ | يُقصيكَ عن ساحة الجهادِ
ما أكرمَ الناسُ مستكيناً | سالَمهم قَـطّ في اعتقادِي
وكلّ حيٍّ لهُ مـرادٌ | وليس يُفْضِـي إلى المرادِ
إلا جَسُورٌ ، فكنْ جسوراً | قـد نال ما يشتهي المُعَادِي

وقد نجد في هذا الشعر مع سلاسته وسهولة قافيته شيئاً من الحشو الذي لا ضرورة له ، ولا غناء فيه ، وما يمكن بقليل من المراجعة والتهذيب تخليصه منه . ومن ذلك في هذه الأبيات القريبة عبارة « في اعتقادي » في البيت الرابع ، فإنها لا تضيف شيئاً وإنما استدعتها القافية . والبيت منظور فيه إلى معنى بيت زهير المشهور :

ومن لا يذُدْ عن حوْضِهِ بسلاحِهِ | يُهدّمْ ومن لا يَظلِم الناسَ يُظلمِ

وكذلك الشطر الثاني من البيت الأخير الذي يقول فيه « قد نال ما يشتهي المعادي » فقد ينال الصديق كما قد ينال العدو ما يشتهي .. وقديما أخذوا على أبي الطيب قوله :

لمنْ تَطلبُ الدنيا إذا لم تـردْ بها سـرورَ محـبّ أو إساءةَ مُجْرِمِ

وقالوا : إن ضد المحبّ هو المبغض ، والمجرم قد لا يكون مبغضاً .

وبيت الحساني على أي حال منظور فيه إلى بيت سلم الخاسر :

مَن راقب الناسَ مـاتَ غما وفازَ باللـذّةِ الجسُورُ

الذي أخذه من قول بشار :

مَن راقبَ الناسَ لم يظفرْ بغايتهِ وفـاز بالطّيّبات الفـاتكُ اللهِـجُ

وإفادة بعض الشعراء من بعض واحدة من أهم القضايا التي شغل بها النقد العربي القديم ، واتسع مجال القول فيها ، حتى وضعت حدود لما هو مقبول منها ، وما هو معدود من السرقة المرفوضة .

* * *

ذلك أهم ما يطالعه المتصفح لديوان الحساني من نتاج شاعريته الخصبة ، ومما كان يتنازع قلبه من آلام وآمال ، وعواطف وانفعالات طبعها بطابعه الذاتي الذي أنبأ عن ملامحه ومؤثراته .

ويبقى بعد ذلك من نتاج هذه الشاعرية عدد من القصائد منها قصيدة عنوانها « أبي » ، وهي قصيدة جديرة بالتوقف عندها ، والتأمل فيها .

وفي رأيي أن هذه القصيدة من أعاجيب الشاعر ، وأن من يصغي إليها يستمع إلى لحن غريب ، يعزفه الشاعر على قيثارته الحزينة ، لم يقرأه أو لم يستمع إلى مثله في أناشيد غيره من الشعراء في أي زمان ، فقد عهدنا الذين يذكرون آباءهم بعد رحيلهم إلى الدار الآخرة ، وقرارهم في أجداثهم ، يبكونهم بأحر العبرات ، ويرددون ذكر أياديهم عليهم ، وعلى غيرهم في التنشئة الصالحة ، وتعهدهم بالتربية التي تصلح أجسادهم وعقولهم ، وتفتح لهم أبواب الحياة ، ويشيدون بأمجادهم وفضائلهم . وربما اصطنعوا لهم أمجاداً لم تكن لهم ، ليقولوا إنهم كرام نسلوا من كرام ، وأن استقامة الظل إنما هي من استقامة الأصل .

ولكننا لا نجد في قصيدة الحساني التي أنشدها في أبيه شيئا من ذلك الذي عرفناه عند الشعراء ، بل عند عامّة الناس .

إنه لا يذكر لأبيه في هذه القصيدة التي بلغت عدة أبياتها خمسة وعشرين بيتاً فضيلة من

الفضائل التي نقرؤها عادةً في شعر الأبناء إذا تحدثوا عن آبائهم الراحلين .

لقد عبر به طيف أبيه ، يطل عليه من عالم الموتى ، فيثير شجونه ، ويقف له وقفة الخوف والوجل ، لا وقفة التوقير والإجلال ، ولم يهش للقائه ، ولكنه يراه كالليل في وحشته يعيد إليه ذكريات الألم التي كانت قد عزبت عنه :

أبي ، دمعٌ تحرّك في جُفـوني ... وطيفُـك ماثلٌ فـي ناظريّا
أتـى مـن دارةِ المـوتى عليهِ ... مهابتـهُ وصمتٌ لا يُحَيّا
شجيٌّ خِلتُ ذكـراهُ رميماً ... أنّى يلْقَى لأمـرٍ ما شجيّا
وقفْتُ بحلّةٍ ، لا ، لست أدري ... فخـوفي منكَ أوقفني مليّا
وهـانذا يطالِعُـني وجـومٌ ... يطلّ من العمامة والمحيّا
يحـطُّ كما يحطُّ الليل وهْـنَاً ... فيبعثُ كلّ جُرحٍ بي نَزِيّا

ويعترف الشاعر بأنه لم يذرف على أبيه دمعة ، ولا يدري إن كان جمود عينيه جموداً لما يجب للأب من البكاء عليه والأسى لفقده ، أم كان ضعفاً في إحساسه ومشاعره .

وهو يرجع ذلك إلى قسوة أبيه الذي يصفه بأنه كان جباراً عتيّا ، وذلك أقسى ما يصـف به أباه ، وإن كان يذكر أن أباه لم يرع طفولته ، وأنه لـم يعامله معاملة الآباء لولدانهم ، ولم يظفر منه بكلمة عطف أو حنان . بل يصرخ بأنه سبب شقائه ، إذ لم يكن في يوم الأيام « الودود ولا الحفيّ » كما يقول ؛ ولنقرأ معاً هذه المشاعر الغريبة في هذا الكلام الصريح :

أ كان جمودُ عيْني من جحودٍ ... تُرى أم كان في الإحساسِ عيّا ؟
أبي عفواً ، إذا لم أبْـكِ عفواً ... لأنـك كنت جبارا عـتـيّا
سَهَوْتَ سَهَا جبينُك في أسـاهُ ... فمـا انتبهتْ سِنُـوه إلـى سِنيّا
مضيْتَ ، ولم تَطفْ يوما بسمعي ... على طول احتياجي « يا بُنَيّا » !
زمانٌ سلَّ من عينيك عطفَـا ... مـن شفتيك ، كنتُ بـه حريّا
زمـانٌ نالَ منكَ ونالَ مِنّـي ... فلمْ تكن الـودودَ ولا الحـفيّا !
تولّى ما تولّـى منْـه هـمٌّ ... صبيّا كان ثـم غـدا فتـيّا
تلفّـع بالظـلامِ فمـا يـراهُ ... سِواي إذا مَضَـى يغتالُ فـيّا

ويتمادى في وصف ما لقي في حياته من الهم والشقاء بقسوة والده عليه في صغره ، ومن صروف الحياة ، وتنكر الناس الذين لم يجد فيهم رحيماً يأخذ بيده ، أو رفيقاً يخفف عنه عَنت الأيام ، أي أن حياته كان سلسلة موصولة الحلقات من الهموم والأحزان التي أثرت على حياتـه ، وجعلته ينظر إلى الدنيا من خلال منظار أسود ، وانعكست على سائر شعره حتى صبغته بذلك اللون القاتم الحزين .

ويبلغ السخط بالشاعر مداه ، حتى يجعل آخر بيت في القصيدة قوله مخاطباً أباه :

فإنْ يكُ في طوايا الغيـبِ لُقيا فكُنْ غـيرَ الذي قد كنتَ حيًا !

فهو لا يريد أن يرى أباه في الدار الآخرة ، إذا قدر لهما لقاء فيها ، على تلك الصورة البغيضة التي عرفه بها في حياته الدنيا ، والتي تركت في أعماقه ذلك السخط المكين .

ولعلّي كنت على صواب فيما وصفت به هذه القصيدة بأنها لحن غريب ، بما تضمنت من هذه المشاعر الحانقة على أبيه .

وفي رأيي الذي لا أستطيع أن أخفيه مجاملة للشاعر أن هذه القصيدة أشبه بأن تكون قصيدة هجاء ، منها قصيدة عتاب أو رثاء !

ولا شك في صدق الشاعر في تعبيره عن حقيقة شعوره . وذلك الصدق في ترجمة العواطف والمشاعر نطالب به الشعراء ، ونحاسبهم عليه ، ولكن ليس كل ما يعلم يقال ، ولا كل ما قيل ينشر ، وبخاصة إذا عبر عما تنكره الأعراف ، وما تأباه القيم الرشيدة من مثل هذه الشماتة أو التشفّي ، أو بعبارة أخرى بمثل هذا العقوق الذي لم نره ولم نسمع به .

* * *

وندع هذه الصورة الحائلة أو القاتمة إلى صورة أخرى مشرقة ناصعة ، نرى فيها الوفاء الصادق ، والتقدير الخالص اللذين خص بهما علمين كبيرين من أعلام الفكر والأدب في عالمنا العربي المعاصر ، وهما المرحوم عباس محمود العقاد والأستاذ محمود محمد شاكر ، وقد طالت صحبته لهما ، وتلمذته عليهما ، وعظمت إفادته منهما ، واتخذ من كل منهما أستاذاً أو رائداً في طريق المعرفة .

وقد كان لكل منهما أبلغ الأثر في دفعه إلى القراءة الجادة المفيدة ، وإلى التأمل والتفكير فيما يقرأ وفيما يرى ويسمع ، والشجاعة في الجهر بما يعتقد أنه الصواب .

وقد كان الحساني قريبا إلى العقاد الذي كان لا يدنو منه إلا من كان أن بينه وبين المعرفة سبب ، وقد كان الحساني كما قدمنا من أقرب تلاميذه إليه ، وأوفاهم له . وله في العقاد ، وفي فاجعته في وفاته قصائد حافلة بالعاطفة الصادقة .

وفي الديوان من شعر الحسّاني في العقاد ثلاث قصائد من أجود شعره ، منها قصيدته « العيد الأخير » وقد أنشدها في حضرة العقاد في آخر عيد ميلاد له ، ثم حملها هذا العنوان بعد وفاة العقاد ، وفي أولها يقول :

لهبَ الشموعِ أراك منطفئاً ... في حضرةٍ إيماضُها حيٌّ
لهبَ الشموعِ ستنقضي سنةٌ ... ويحلُّ مقدورٌ ومقضيٌّ
ونراكَ بعدُ وبعدُ مؤتلقاً ... يذكو على ومضاتكَ الهَدْيُّ

ثم يقول معدداً مواهب العقاد ، ودوره في إنهاض أمته ، ودفاعه عن حقوقها ، مخاطباً العقاد بكلمة « أبي » تقريرا للصلة الروحية التي تربطه به :

مِن أينَ هذِي المعجزاتُ أبِي ... إرادةٌ أم أنـّه الوَحْيُ ؟
يا سيـّدَ الشعراءِ ما كلِمٌ ... تُلقيه إلا وهو شعريٌّ
هذا قريضٌ لا يهوِّنه ... إلا هوى قد صُمَّ أو عيٌّ
يا سيـّدَ الكتّابِ يا قلماً ... ما راعَهُ الجبروتُ والبَغْيُ
يُصغِي له حُرٌّ ومكتبلٌ ... يسمُو به راعٍ ومَرْعِيٌّ
إنـّكَ باقٍ ، صادقٌ أبداً ... بيتٌ على الأزمان مرْويٌّ
قد رُحْتَ تُنهضُ أمّةً سكنتْ ... للقيدِ واستحْلى بها الغَيُّ
يا أمّةً في واحدٍ نهضَتْ ... تسعَى وليس يئودها السَعْيُ

والقصيدة الثانية عنوانها « الجمعة الآفلة » وفي صباح كل جمعة كانت تنعقد ندوة العقاد الأسبوعية في بيته بمصر الجديدة ، ويؤمها أصدقاء العقاد وتلامذته ومريدوه ، وفي طليعتهم الحساني . ولم يمض أسبوع على آخر ندوة في بيت العقاد حتى لفظ رب البيت آخر أنفاسه فجر يوم الخميس ، وحرم مريدوه وتلاميذه متعة الجلوس إليه كما كانوا يفعلون في صبيحة كل جمعة . وفجرت اللوعة ينابيع الأسى في قلب الحساني ، ففاضت شاعريته بهذه

القصيدة الباكية :

موعدُنا غـداً . . . أقـولُ للرِّفاقْ

موعدُنا غـداً . . . وكلّـنا اشتيـاقْ

إلى انهلالٍ ليـس يثنيـه اعتيــاقْ

أجلْ ! غداً . . . لكنّـه ليـس هنـاكْ

الجبـلُ الحــيّ ، هَـوَى بلا حــراكْ

وبعد هذه الافتتاحية تتتابع مقطوعات على غرارها تفيض بالأسى وتثير الشجون ، ويختمها بهذه المقطوعة الوالهة :

مـوعدُنا مــع الصَّبــا مـع النّــدى

مع المدَى يضـربُ في ألفِ مَدَى

ليس غدًا . . فما أشقّـهُ . . غــدًا !

الـرجلُ الحبيـب ضمّــــه التـرابْ

فهل نراه بعدُ ؟ من يدري الجوابْ ؟

والقصيدة الثالثة عنوانها « الحنين » ، وقد أنشدها في ذكرى العقاد ، وبدأها ببيتين من شعر العقاد ، وهما من شعره الفلسفي :

أنا شيءٌ ، فكيف أصبح لا شيءَ إذا تمَّ للحياةِ مداها ؟

أغلبُ الظنِّ أنني سوف أرقَى غايةً بعدها تفوقُ ذراهـا !

ويبدأ الحساني قصيدته ، فيقول :

سيّـداً كـان ، كـم شاقنـا صوتُـهُ نافـذاً فـي جـوانبنــا سيـّــدَا

كان ؟ كلا ! فما زالَ ، ها هو ذا صوتُــه فـي مسامعنـا أمـــردَا

ويمضي الشاعر في مأساته مستهلما السؤال الذي سأله العقاد في بيتيه اللذين أوردهما الشاعر في مقدمة قصيدته ، فيسبح مع العقاد في بحار الفكر ، وفي فلسفة الحياة والموت ، وينطلق إلى آفاق من الحيرة والتردد بين الشك واليقين ، حتى لنرى الحساني في هذه القصيدة

فيلسوفاً أو مفكراً أكثر مما نراه شاعراً :

أما الأستاذ محمود محمد شاكر ، وللشاعر من الصلة الوثقى به ما ذكرنا ، فله في هذا الديوان « تحية » في عيد مولده التالي لخلاصه من محنة من المحن التي ابتُلي بها .

و « تحية » عنوان هذه القصيدة التي أعدها من غرر شعره ، ولست أغالي إذا قلت إنها من غرر الشعر العربي في العصر الحديث ، ومطلعها :

أغالبُ الموهناتِ والمحَنَا	وأنظمُ الشعرَ يدفعُ الحَزَنَا
وأستزيرُ الحروفَ تؤنسُني	إمّا جَفاني الأنيسُ أو طَعنَا
فليس تُصْمِي الهمومُ أفئدةً	ينسابُ منها الكلامُ متزِنَا
ولن تموتَ الحياةُ في أمـمٍ	تُصْغِي ، تميِّزُ القبيحَ والحَسَنَا
لكنَّ هذا الذي ألمَّ بِنا	أيبس شدْوَ الطيورِ والفَنَنَا
قالوا : أصابَ النجوعَ والمدُنا	قلتُ أصابَ القلوبَ لا الوطنَا

بهذه المقطوعة افتتح الشاعر تحيته ، وفيها يصارع المحن التي ألمت به وأوهنت عزمه ، ولا يجد ما يسلبه عن همومه إذا فقد الأنيس إلا الشعر ، والأمم الحية هي التي تميز الحسن من القبيح ، يعني أن شعره فائق الجودة ، إذا أحسن النظر فيه . وإن كان الحدث ، ويعني به ما أصاب الأستاذ محمود شاكر من ظلم الظالمين ، وعنت الحاكمين ، الذين اعتقلوه ، وقيدوا حريته ، قد أذبل الغصون ، وصوح الطيور . وهو يعني الحدث الذي ألم بممدوحه ، وأحس بوخزه البدو والحضر ، وأحس الشاعر بوخزه القلوب لا الأوطان !

على أن المعنيَّ بالنجوع والمدن والوطن هم أبناؤه . ولذلك لم يحسن الشاعر في نفيه الأثر الذي ألم عنها ، وكان من الأجود في رأيي أن يقول الشاعر أصاب القلوب والوطن ، ليعم المعنى ، ولا يختل الوزن .

ثم يستطرد إلى القول بأن حبه لممدوحه هو الذي دفعه إلى الجهر بإطرائه ، ويشهد له بجهارة الصوت في إبداء الرأي ، والثورة على الظلم والفساد وامتهان الكرامات ، ووأد الحريات، ولا يبالي بما يعقب هذه الثورة من ضرر يصيبه أو أذى يلحقه ، في الوقت الذي يسكت غيره على الباطل ، وهو يراه رأي العين ، مصانعة أو جبناً :

وإنمَا ينطـق الـودادُ إذ قـلـْـ ـــتُ وخـيرُ الـوداد ما اعتَلنَـا

شهدتُ فيكَ الحياةَ عاصفةً وكلٌ شـيءٍ مـن حَـولنَا سَكنَا

شعبٌ يـرى الحادثـاتِ تلْهيةً ينهـشُ فيـه الأذى وما فطـنَـا

متّحـدٌ في الضلالِ ، مفترقٌ في الحقِّ أمسَى يستمرئُ الإحَنَا

صاحَ به راغـبُ الحيـاةِ لهُ أفـِقْ ، فكان الجـزاءُ أن سُجِنَـا

ساقتْكَ للقيد روح مفتـحمٍ قد أتعبت في مُـرادها البـدَنَا

نظر في هذا البيت إلى قول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ في مُـرادها الأجسـامُ

ويتابع الشاعر وصفه لهذه الروح العالية :

وثّابــــةً للعَـــلاء ، طـامحـةً يَقْظَــى تعـافُ الركودَ والوسَـنَا

ما خُلقتْ للإسارِ بـل خُلِقَـتْ لتـرتـقي بعدَ قُنَّــةٍ قُـنَـنَــــا

ثم يذكر ما ابتلي به ممدوحه ، وإنما يبتلى الأحرار دائما بأعداء الحرية ، وهم دائما صابرون عند البلاء ، صامدون في مواجهة الخطوب . فلينس الأمس الأليم ، وليتطلع إلى غد باسم مشرق يقتطف فيه ثمرة جهاده .

ولا ينسى الشاعر أن يشير إلى أصالة ممدوحه ، وكرم عنصره ، وشرف نجاره ، إلى أن يقول له :

مِثـلكَ يُسْتَـدفَع البلاءُ بـهِ يا غرْسَ بيـتٍ تعهَّد السُّنَنَـا

وأخيرا ، أؤكد ما أسلفت في قولي إن قصيدة الحساني هذه في تحية الأستاذ محمود محمد شاكر من غرر شعره ، بل إنني أعدها من غرر الشعر العربي الحديث كله ، بما اجتمع لها من خصائص الجودة المعروفة في تاريخ الشعر العربي في عصور تألقه وازدهاره ، من حيث قوة المعاني وفخامتها ، ومن حيث صفاء الديابجة ، وإحكام العبارة ، وجزالة اللفظ ، ومن حيث سلامة القافية و وحدتها واستقامتها ، بالإضافة إلى ما عبرت عنه من عاطفة صادقة .

قضيّة الشعر الحرّ
في ديوان الحسّاني

لعل قضية من القضايا الأدبية لم تستطع أن تشغل الرأي الأدبي العام كما شغلته قضية الشعر الحر التي استأثرت بالحظ الأوفر من جهد النقاد ، واحتدمت حولها معارك أدبية حامية ، ملأت أعمدة الصحف والمجلات ، وتجاوزتها إلى كتب كاملـة ألفها أصحابها ، دفاعاً عن هذه القضية ، وترسيخاً لهذه الدعوة الجديدة ، أو محاولة لوأدها ، والقضاء عليها في مهدها .

وقد كان من الرأي أن يظل الصراع محصوراً بين هاتين الطائفتين من الشعراء ، صناع الشعر العمودي وصناع الشعر الجديد ، وأن يتخذ ذلك الصراع صورة التنافس على الإجادة والإبداع بين الفريقين ، وأن تتاح فرصة مناسبة أمام هذه الظاهرة الجديدة في تجديد قوالب الشعر وأشكاله ، حتى يستطيع الذوق الأدبي تمثل هذه الظاهرة ، والحكم عليها بالقبول أو الرفض .

ولكن المعركة نشبت بسرعة غريبة ، وأذكى النقاد أوارها ، فقد أقحموا أنفسهم في ذلك الصراع ، وجعلوا أنفسهم في حماسة غريبة أطرافا فيه ، فاتسعت الهوة بين الفريقين قبل أن تستقر الدعوة الجديدة ، وترسخ أقدامها في حياة الشعر العربي .

وكان ذلك من جملة الأسباب في أن الذوق الأدبي لم يستطع حتى الآن أن يحدد اتجاهه، وفي أن المعركة لا تزال قائمة على الرغم من تعاقب السنين ، وتقادم هذه الظاهرة التي جاوز عمرها أكثر من نصف القرن .

* * *

ونجيء بعد ذلك إلى ديوان الحساني الذي سماه « عفت سكون النار » وكتب على ظاهره هذه العبارة « من الكلام الموزون المقفى » . ولم يسبق ــ كما قلنا ــ أن كتب شاعر في القديم أو في الحديث مثل هذا التنبيه الذي يحمل معنى التحدي لدعاة الشعر الحر .

ولا شك أن القدامى لم يكونوا مقصودين بهذه العبارة ، لأن كافة أشعارهم كانت من هذا الكلام الموزون المقفى ، ويبقى بعد ذلك دعاة التجديد العروضي من المحدثين ، وهم المقصودون بهذا التحدي الذي أشرنا إليه .

وقد جاوزت المقدمة التي كتبها الحساني لديوانه ثلاثين صفحة ، وسماها « بياناً » .

وفي أول هذا البيان يعترف الحساني أن الشعر الحر قد انتصر ، فإن منه تسعة أعشار ما ينشر منذ ربع قرن تقريباً ، ولو اطرد النصر لأمسى الكلام الموزون المقفى أثراً من آثار الماضي .

وفي رأيه أن في ذلك خسارة محققة ، وأن مزيداً من إفلات الزمام مُفضٍ إلى تهلكة ، أولها شيوع الركاكة والتخليط والتشابه والتوسط ، في حين أن الفن كله على النقيض : إحكام ، وقصد ، وتميز ، وعلو ؛ وآخرها في نظره موت العربية ، وموتها موت لأصحابها ، لا قدَّر الله !

ويعود الحساني فيقرر أن امتلاء الأوراق غير امتلاء النفوس ، وليس من امتلاء النفوس انتصار الشعر الحر ! فهو لا يزال غريبا على الأذواق الخاصة ، لأنه متخلف عنها ، وغريبا على الأذواق العامة ، لأنها متخلفة عنه وعن غيره !

* * *

ولقد تحدث الحساني في ذلك البيان عن الموسيقى في الشعر العمودي ، وفي الشعر الحر حديثاً مستفيضاً ، فقرر أن الشعر الحرّ خرج على أبرز خاصية في موسيقى القصيدة العربية منذ الجاهلية حتى اليوم ، وهي جريانها على نسق ثابت على البيت أو المقطوعة . وهذا الخروج في الشعر الحرّ لا يعني أنه صار نثراً ، لأنه يتقيد في معظمه بتفعيله واحدة ، تتكرر في كل سطر من سطور القصيدة . وهذا قيد لا يعرفه النثر .

واختلفت بهذا الخروج عن موسيقى الشعر اختلافا كبيراً ، فبعد أن كانت الأذن في الشعر الموزون المقفى تتوقع الشطر أو البيت أو المقطوعة ، انصرف التوقع في الشعر الحر إلى التفعيلة المفردة ؛ إذ هي الشيء الوحيد الذي يثبت في القصيدة ، والمعلوم أن التوقع منوط بالثابت !

وإذا كان للإيقاع في الشعر العربي أصل بني عليه ، وهو صدور النغم من اجتماع طائفة من الأصوات على نحو مخصوص ، تتكرر على نحو مقدور ، فإن للتفعيلة المفردة وقعاً موسيقيا ، يظل لها بطبيعة الحال إذا تكررت على أي نحو .

فإذا كانت للتفعيلة المفردة موسيقى فلا بد أن تكون مجتمعة بمثيلاتها في أي مدى موسيقي . ومن هناك استطاعوا أن يبنوا الكلام على « مستفعلن » ، و « متفاعلن » و « فاعلاتن » و « مفاعيلن » و « فعولن » و « فاعِلن » مع التزام التفعيلة المختارة من أول القصيدة إلى آخرها ، وترك الالتزام بعدد مقدور في السطر ، ونبذوا من بحور الشعر الطويل ، والمديد ، والبسيط ، ومخلع البسيط ، والوافر ، والسريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمقتضب ، والمجتث ، وما يتفرع منها ، وما يزيد عليها بالاختراع .

وليست نتيجة هذه التضحية خسران طائفة من الأنغام فحسب ، فالحقيقة أنها خسران للمقدرة على البيان ، لأن الأنغام في عالم الأصوات المجردة ، أو في عالم الأصوات اللغوية بعض وسائل العبارة عما في النفس ، وهي لا تترك إلا لعلة مقنعة ، لا اعتباطا وتحكما !

* * *

وإذا كان دعاة الشعر الحر يرون العلة في ذلك نفي الرتوب في موسيقى الشعر الموزون المقفى – فإن الحساني يقول إن القصيدة العربية لم تعرف الرتوب كما عرفته في الشعر الحر ؛ ذلك أن انصراف التوقع فيه إلى التفعيلة ضيق من المدى الذي تتردد فيه الأصوات ، أو من الفراغ المقدور الذي يحدث ملؤه ضربا من المفاجأة الممتعة ، إذ يتسع وهو مقدور في الشكل القديم ، القائم على الشطر أو البيت أو المقطوعة الذي تحس فيه الأذن إحساساً بين الإبهام والوضوح أن البدء إلى غاية ، فتتابع الأصوات المتشكلة راضية عن تنوعها من حيْث هي أصوات ، وعن ظهـور المعنى أو النحـو فيها ، وعن القرار أخيراً جملة لا تفصيلا ، إذ أن للقـرار ، وإن جاء آخراً ، نوعاً من الوجود مستشعرا منذ البداية .

ثم انظر ما يكون في الشعر الحر : تفطن الأذن إلى نغمة السطر الأول ، أو التفعيلة الملتزمة ، ثم لا تدري على أي نحو يكون السطر التالي ، لأنه ليس هناك مدى مقدور ، فيتجه انتباهها قليلا إلى التماس التفعيلة ، وهي الشيء الوحيد الثابت ، ثم لا تدري على أي نحو يأتي الثالث والرابع والخامس ، فيزداد الانتباه إلى التفعيلة شيئا فشيئا ، حتى ينصرف التوقع كله إليها ، فينشأ الرتوب والملل .

إنه شيء مشابه لما يحدث عند سماع دقات المطر أو القطار ، انتباه في البداية راجع إلى توالي الوقع ، ثم غفلة راجعة إلى دوام التوالي .

وكان لا بد أن يظهر العيب ، فظهر واشتد ظهوره ، حتى اشتكى أنصار الحركة أنفسهم .

قالت نازك الملائكة : إن أغلب الشعر الحر رتيب ممل الوقع !

ويعقب الدكتور إحسان عباس على قول البيّاتي :

وضريح ميرابو ، و روبسبير ، والفكر المهان

والثلج ، والعتمات ، والمتسوّلون

وسُعال طفلتنا المريضة ، والبواخر ، والزّمان

وصليب ثورتنا القديم

فيرى فيه حركة منيمة ، وطنينا يصرف المتلقي عن التأثر والتعمق بما يحدث من استرخاء . لكنه يحسب أن هذا الرتوب المنيم في شعر البياتي دون زملائه ، وأن مرجعه إلى تكرار واو العطف . وليس الأمر في نظر الحساني كما ذهب ، إنما هو تلك الخاصة التي قلما تنجو منها قصيدة من الشعر الحر ، لأنها الأساس الذي يقوم عليه انصراف التوقع إلى التفعيلة . ويورد قول صلاح عبد الصبور :

هناك شيءٌ في نُفوسِنا حزين

قد يَختفي ، ولا يَبين

لكنّه مكنون

شيءٌ غريب غامضٌ حنون

ثم يعقب عليه بقوله : يستطيع من لا يقع تحت تأثير الحركة المنيمة أن يلحظ الخطأ في الاستدراك ، فإن الناظم يريد أن يقول إن الحزن قد يحتجب لكنه موجود ، فقال : إنه قد يحتجب ، لكنه محجوب ! فأصبح الاستدراك غير ذي معنى ، ولا سبيل لدفع الخطأ بادعاء الترادف بين الوجود والكنون ، فالفرق واضح بين المعنيين ، ويحسب الكاتب أن رتوب الإيقـاع ، مع القافية ، وهي غير لازمة في الشعر الحر ، كان لهما فعل في هذا الخطأ .

وينهي الكاتب حديثه عن دعوى الرتوب في الشعر الموزون المقفى بهذا السؤال : أ فهذا هو الشكل الذي يراد له أن يخلص الوزن القديم من الرتوب المزعوم ؟

* * *

ويزعم دعاة الشعر الحر أن الثبات في الشكل القديم يلجئ الناظم إلى الحشو من أجل بلوغ القافية ، وملء الفراغ المقدور !

فنازك الملائكة تورد في مقدمة ديوانها « شظايا و رماد » هذه الأبيات :

يَداكَ لِلَمس النُّجوم

ونَسْج الغيوم

يداكَ لِجَمْع الظلال

وتَشْييد يوتوبيا في الرمال

ثم تقول : « أ تراني لو كنت استعملت أسلوب الخليل كنت أستطيع التعبير عن هذا

المعنى بهذا الإيجاز ، وهذه السهولة ؟ ألف لا ، فأنا إذ ذاك مضطرة إلى أن أتم بيتا له شطران ، فأتكلف معاني أخرى غير هذه أملأ بها المكان ، وربما جاء البيت الأول كما يلي :

يداكَ للَمس النجـوم الوضاءْ   ونَسْجِ الغمائم ملءَ السّماءْ

« وهي صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة . أ لم نلصق لفظ الوضاء بالنجوم دونما حاجة إليها إتماما للشطر بتفعيلاته الأربع ؟ أ لم تنقلب اللقطة الحساسة « الغيوم » إلى مرادفتها الثقيلة « الغمائم » ؟ ، ثم هنالك هذه العبارة الطائشة ملء السماء التي رقعنا بها المعنى !»

يصف الحساني هذا المنطق بالسذاجة ، لأن صياغتها المقترحة معيبة ، ولأنها قفزت إلى نتيجة غير لازمة ، فماذا لو جاءت الصياغة بريئة من العيوب ، وهو ممكن عقلا وواقعا ، واقترح أن يصاغ المعنى على هذا النحو من غير أن تضطر إلى الركاكة التي صنعتها بنفسها :

يداكَ للَمس النجوم ، ونَسْجِ الغيوم ، يداك لِجَمْع الظلال

وتشييد يوتوبيا في الرمال . يـداكَ تعلّقتا بالمحُال !

وهي محاجّة طريفة لا يتسع المجال لإيرادها كاملة . ويصفها الحساني بأنها محاجة فاسدة يجب الانصراف عنها إلى لب الدعوى ، لأنها قائمة على أساس خاطئ ، ولأن مجاراة التحدي بمثله ، أي معاياة أصحاب الشعر الحر بأمثلة من الشعر الموزون المقفي ، أمر مفض إلى دور لا أول له ولا آخر !

والقول بأن الثبات في الشكل القديم يلجئ الناظم إلى الحشو من أجل بلوغ القافية وملء الفراغ المقدور ، إنما هو دعوى تغض من الأنظمة التي قامت عليها أشعار الدنيا كلها منذ كان الشعر إلى يومنا هذا .

وأين الحشو في مثل قول أبي العلاء ، وهو من الموزون المقفى :

صاح ، هَذي قبورُنا تملأ الرَّحـــ   ـــبَ ، فأين القبورُ من عهد عادِ ؟

خَفِّفِ الوطْءَ ، ما أظنّ أديـمَ الأر   ض إلا مـنْ هَـــذه الأجســـادِ !

لا حشو هنا . وأكثر الشعر الموزون المقفى يجري على هذا المنوال ، تخرج الفكرة فيه لايعترضها الشكل بتاتا .

وهناك قسم يجري على منوال آخر ، كقول طرفة :

فَسَقى دِيارك غـير مفْسِدها صـوبُ الرَّبيع وديمةٌ تَهْمي

أراد أن يقول : سقي ديارك صوب الربيع ، فلما لم يستقم الوزن قال غير مفسدها . وهذا حشو فطن إلى أمثاله علماء البديع قديما ، فسموه الزيادة التي يحسن بها المعنى .

ويقول امرؤ القيس :

حملتُ رُدَيْنِيًا كأن سِنانَـه سَنَـا لهبٍ لم يتَّصل بِدُخان

وقف المعنى عند قوله سنا لهب فزاد عليه ، لكي يصل إلى القافية ، بقية البيت . وهذا حشو يسميه البديعيون « الإيغال » ، يعنون به أن يوغل الناظم في الوصف ، تماما للبيت ، وطلبا للقافية ، فيزيد على المعنى ما يزيد في تجويده ، ويمكن أن يضاف إلى هذين المثالين ما لا يحصى من الأبيات التي تدل على أن مجاهدة الناظم للشكل تأتي بالحسن .

ولكن لن نجد ما يدل على النقيض إلا أمثلة قليلة ، ووزرها بطبيعة الحال على الناظم ، لا على الوزن والقافية .

فمرحبا بنظام يستنهض الفكر لإحسان . وليس ذكر المجاهدة هنا يقتضي انتفاءها مـن ذاك ، وهي لا بد منها في الحالين ، إلا أنها هنا ذات أمارات ، وهناك لا شيء يدل عليها . ومع هذا لم يكن ظهورها من النوع الذي يشعرك بالجهد المبذول ، فهي في الحالين مجاهدة فنية ، لا تريك العرق ، وإن كان هناك .

ثم إن ترك النظام في الشعر الحر لم ينف عنه الحشو . هاك مثلا قول صلاح عبد الصبور :

وشربْتُ شاياً في الطريق

ورتقْتُ نعلي

ولعبْتُ بالنَّردِ الموزّع بين كفّي والصَديق

أراد أن يقول : ولعبت بالنرد مع صديق ، فلما أبى الوزن أتى بهذه الركاكة . وصف النرد بما لا حاجة إليه ، وعرف الصديق والتنكير أفضل . وأراد أن يقول : الموزع بيني وبين الصديق، أو بين كفي وكف الصديق ، فلم تطاوعه تفعيلة الكامل .

ومن حجج دعاة الشعر الحر في الخروج على المأثور من نظام الأوزان والقوافي قولهم : إن العبارة الشعرية حرة في الأصل ، فيجب ألا تُحد بوزن مفروض حتى تتخذ الشكل الذي يلائمها ، ومعني هذا القول أن الثبات في النمط غير مطلوب ، ثم على أن اطراح كل نمط ،

سواء أ كان ثابتا أم غير ثابت ، أمر يجيزه جوهر الشعر .

والنمط الثابت في الوزن وفي غير الوزن ، أي القاعدة على وجه العموم ، مُستقبِل منظِّم لحركة الفكر ، فليس نقيضه الحرية ، بل نقيضه التوزع والتسيب والتوقف ؛ لأننا نفكر عن طريق القواعد . وليس من العبث دقتها وسعتها وتركبها ، ومقدرة الذهن على العمل بها ، بل هي دليل على ارتقاء الفكر وصلاحه لبلوغ ما لايبلغه فكر أضعف في الأداة ، لا فرق في هذا بين الشعر والنثر ؛ إذ أن القواعد مطلوبة في كليهما ، لا بد من لغة صحيحة ونحو صحيح في النثر ، ثم هذين ووزن صحيح في الشعر .. والشعر كله موسيقى ، لفظه ومعناه ، لا عبرة فيه بالوزن المجرد ، ولا بالمعنى المجرد ، بل بكليهما معاً ، والفكرة فيه فكرة في وزن ، لا فكرة ووزن ، وإنها حَوْم أو تجسس أو استكشاف يعين عليه نشاط عاطفي خيالي ذهني ، لا يبقيه ذاكياً إلا الوزن !

* * *

ويقول دعاة الشعر الحر إن التزام الشكل القديم يفرض على الشاعر أن يتأثر بما قاله الأقدمون ، فيعجز عن التجديد وتلبية المطالب الطارئة !

ويجيب الحساني بأن هذا لو صح ما عاشت أوزان الشعر العربي حتى اليوم ، ويضرب المثل ببحر « الإيامب » في الشعر الإنجليزي ، فهو قائم عند الكلاسيكيين والرومانتيكيين والواقعيين وغيرهم من أتباع المدارس الجديدة . كيف ثبت الوزن على اختلاف العصور والمذاهب ؟ ثبت لأن تغير الأجيال ، وهو لا يعني تغيير الإنسان من حيث هو إنسان لا يقتضي تغيير الأشكال ، لأن الشاعر محتاج إلى تراثه حتى لو كان غريباً عن واقعه ، وثبت لأن الموسيقي الفطرية لا تتغير إلا إن تغيرت الفطرة ، وهيهات !

إن الشاعر لايبدع في فراغ ، ولكنه يبدع بلغة لها تراثها وأصولها ، وهو إذا كان ذاتا أصيلة متفردة فلن تقيده القواعد ، ولن يمنع انطلاقه امتلاء فكره بما قال الأسلاف ، لأن عنده ما يقوله ، عنده القواعد ، وعنده الثقافة ، وعنده القدرة على التصرف في كل هذا .. فلا بد أن يكون الناتج شيئا جديداً ، لا يضيره أن يتبين فيه أحيانا أثر القراءة في أدب لغته قديما أو حديثا أو أدب غيرها من اللغات .

* * *

وبعد ، فقد دفعني إلى كتابة هذا الفصل وعرض هذه الآراء في قضية الشعر الحر أمور ، منها :

١ ــ أن هذه القضية كانت إحدى القضايا الأدبية الكبرى ، بل ربما كانت أخطر القضايا التي شغلت الرأي العام الأدبي في عالمنا العربي مدة طويلة جاوزت في حساب الزمن نصف قرن ، ودارت حولها معارك حامية بين الشعراء والنقاد لا تزال أصداؤها تتردد في أجواء الحياة الأدبية في عالمنا العربي القريب والبعيد . ولما تنجل هذه المعارك إلى رأي حاسم ، أو حكم قاطع ، وما زال أهل الحفاظ على الموروث على رأيهم في التشبث بالتقاليد المأثورة في أنساق الشعر وقوالبه ، وما زال دعاة الشعر الحر يرون أن تجديد هذه الأشكال ضرورة فنية ، تخلص الشعر العربي من قيوده ، وتجعله أقدر على مجاراة ركب النهضة العالمية في الشعر ، وإن كان من زعماء تلك الحركة من هدأت حماسته ، ثم رأى ضرورة العودة إلى النسق المألوف ، وقالوا إن ثورتهم لم تحقق أهدافها المنشودة ، وصرحوا بأن دعوتهم إلى التجديد شجعت كثيراً من الدخلاء على الشعر على اقتحام ميدانه ، لما رأوا فيه من السهولة وخفة المئونة ، حتى كثر الغُثاء وعمت الفوضى .

ومن هؤلاء من عمد الشعر الحر بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة [١]، ولا تخفى منزلتهما في عالم هذا الشعر الحر على أحد من العارفين .

٢ ـ أن ما كتب الحساني في بيانه الذي صدر به ديوانه يعد وثيقة أدبية خطيرة بما ساق من دعاوى دعاة الشعر الحر ، وما عمد إليه من تفنيدها واحدة واحدة ، بالحوار الهادئ والمنطق السليم ، وبالأسلوب العلمي الموضوعي الملتزم ، الذي بَعُد فيه عن آثار العصبية التي عرفناها في كتابات أكثر المخالفين في الرأي في زماننا ، وعرفنا ما أدت اليه من جدل عقيم ، ومهاترات بعدت بأصحابها عن أدب الحوار .

وقد قرأت لكثيرين من المعارضين لحركة الشعر الحر لم أجد فيما قرأت ما وجدت في كتابة الحساني من آثار الفهم العميق ، والثقافة الواعية .

٣ ــ أننا نعرف الحساني واحداً من شعراء العصر المجيدين ، كشفنا عن مواهبه الشعرية وملامح شاعريته واتجاهاتها وأهم ما يميزها فيما سبق .

وقد رأيناه في هذا البيان الذي كتبه عن الشعر الحر يسلك منهجًا قويماً ، يشهد له بالقدرة الفائقة على التحليق في مجال النقد الأدبي بالذوق السليم الذي أعانه على التقدير والتقويم ، والثقافة الأدبية الواسعة التي سمت به إلى أن يكون واحداً من علماء الأدب في هذا الزمان .

---

(١) شرحنا الرأي الجديد لبدر شاكر السياب في الشعر الحر في كتابنا « التيارات المعاصرة في النقد الأدبي » انظر صفحة ٣٣٢ وما بعدها من الطبعة الرابعة .

نهاية المطاف

اقتصرت في هذا السّفر على هذه الكَوكبة من شعراء العصر ، وعدد فرسانها اثنا عشر شاعراً ، كلهم ممن عاصرت ، و جلّهم ممن صحبت ، و وصلتني بهم أواصر صداقة و ودّ ، وقد سبق أكثرهم إلى دار البقاء ، ولذلك كانت الكتابة عنهم ، وإبراز معالم شاعريتهم التي هي أعز ماكانوا يملكون في حياتهم ، وخير ما خلفوا بعد رحيلهم – ضربا من ضروب الوفاء لهم ، رحمهم الله جميعاً .

ولم أرد أن أحمل هذا الكتاب فوق طاقته ، فأضيف إلى ما كتبت عنهم سائر ماكتبت عن غيرهم من شعراء العصر ، وإنه لكثير ، أسأل الله العون على تهذيبه ونشره .

ولعلّي وفّقت فيما قصدت إليه من خدمة الشعر المعاصر بالكشف عن الشخصية الفنية ، والعوامل الفعالة في توجيه شاعرية كل منهم ، وتقويم أعمالهم الشعرية التي وقفت عليها ، والإبانة عما فيها من مظاهر الإبداع ، ونواحي القصور .

وأرجو أن يجد دارسو الأدب ومؤرخوه في هذا الكتاب شيئا مما ينشدون لاستكمال النقص ، وسدّ الثغرات في حلقات التاريخ الأدبي لأمتنا العربية التي بذلنا لها كل ما نستطيع من جهد ، وكل ما نملك من طاقة .

وكذلك أرجو أن يجد فيه أهل صناعة الأدب والشعر زاداً يتزودون به في مسيرتهم الأدبية ، ويذكون به قرائحهم ، ويشحذون به ملكاتهم ، وما يشجعهم على المضي قدماً في استكمال أسباب الكمال ، ليكون لهم ما يطمحون إليه من المنزلة ، وما يرجون من عناية النقاد بأعمالهم ، وإحلالهم المحل الذي يتطلعون إليه في دنيا الفن الأدبي بما يبلغون من درجات الإبداع والإتقان .

والله ولي التوفيق ،

بدوي أحمد طبانة

الشعر والشعراء

١ – د. بدوي طبانة : كوكبة من شعراء العصر .
٢ – د. مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي .
٣ – د. يوسف نوفل : أصوات النص الشعري .
٤ – د. إبراهيم عبد الرحمن : شعر بن قيس الرقيات ؛ تحقيق ودراسة .
٥ – د. مصطفى الشورى : الشعر الجاهلي : تفسير أسطوري .
٦ – د. مصطفى الشورى : شعر الرثاء في صدر الإسلام .
٧ – د. محمد عبد المطلب : قراءة ثانية في شعر امرئ القيس .

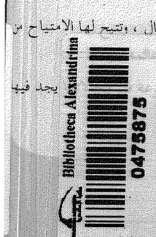
هذا الكتاب

يجوب بيئات الوطن العربي بمؤثراتها الطبيعية والفكرية والثقافية ؛ ليدرس مجموعة من شعرائها : تتفاوت حظوظهم من الإبداع الشعري ، وتختلف اتجاهاتهم الشعرية ؛ لتمثل أهم الاتجاهات التي سادت في القرن العشرين .. كاشفا عما تتميز به ألحانهم ، وتنفرد به سماتهم ، مشيرا إلى مظاهر القوة وأسباب نمائها ، منبها على مواطن الضعف والقصور ، في موضوعية جادة ، وحيدة تامة .

هذه السلسلة تتناول الشعر العربي تعريفا بشعرائه ، وتحقيقا ونشرا لدواوينه ، ومناقشةً لقضاياه انطلاقا من أن الشعر جزء من الكيان اللغوي للأمة ؛ والكيان اللغوي للأمة هو كيانها الفكري وميراثها الجليل .

وهي تعنى بالتراث تقرؤه بعيون حية ، وتفكر فيه بعقول ذكية ، فتحييه في صدور الأجيال ، وتتيح لها الامتياح من ينابيعه واستلهام كنوزه . كما تعنى بالجديد تستكشف آفاقه وتجلو غوامضه وتؤثل بنيانه وتقيم [illegible]

في لغة مجنحة بأجنحة الصدق العلمي والولاء ، لا بأجنحة الميول والأهواء لتشكل مو[illegible] يجد فيها القارئ العام من الثقافة ما يلذه ويمتعه ، ويجد فيها المتخصص العمل المرجعي الذي ينشده .



يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ؛ ٣٩٢٤٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) – الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٨٣٩[illegible]